رواية

حسن أوريد

المُوتشو

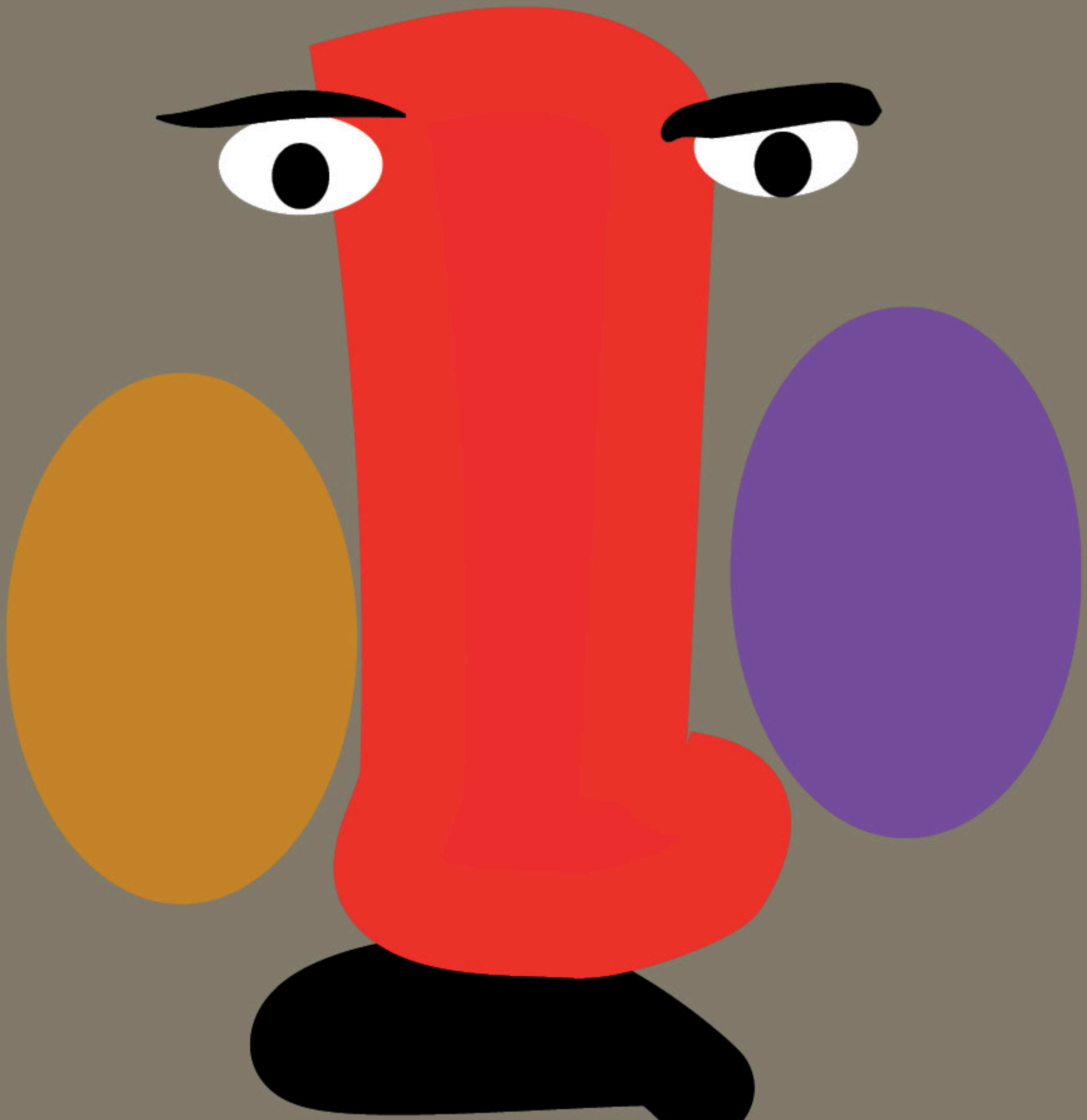

المتوسط

In your dream
You went to heaven
And then plucked
A strange and beautiful flower
And what if
When you awoke
You had that
Flower in your hand
Ah, what then ?
Samuel Taylor Coleridge

تُرى لو غَشيتَ في حُلْمكَ الجنَّة،
ثمَّ قطفتَ بها زهرة
فريدة وبهية،
وماذا إذ صحوتَ
وجدتَ الزهرة،
بين يَدَيْكَ؟

كولريدج

1

الدار البيضاء سبتمبر 2018. طقس ومِد. حرارة خانقة، مشفوعة بالرطوبة. اختناق الجولان على مستوى شارع الكورنيش في غمرة أشغال حفر نفق الموحّدين. سيول السيَّارات والحافلات والدرَّاجات بلا انقطاع، وزحمة، وتعثر السير ساعة الذروة .. غُمَّة. جوّ ثقيل يرين على الأنفاس والنفوس.

انفتل فتى، في بداية الثلاثين من عُمُره، يحمل محفظة، من محطَّة القطار ميناء، متسلِّلاً وسط السيَّارات نحو قارعة الطريق، ومنها إلى حيث مقرّ الجريدة التي يشتغل فيها بشارع الجيش الملكي. أغذَّ السير حتَّى مبنى عمارة الحُبُس. غشي البناية. ضغط على زرِّ المصعد. ستَّة مصاعد، خمسةٌ منها معطّلة. يطول انتظار المصعد الوحيد المُشغَّل حتَّى لَيصابَ المرء بالسَّأم. أكثر من خمس دقائق من الانتظار، ثمَّ يمتلئ المصعد عن آخره، ويتوقَّف في كلِّ طابق ... مرَّة، صَعدَ الفتى الطوابق الثمانية عشرة من الدرج، حيث مقرُّ الجريدة، وما إن وصل المكتب حتَّى خارت قواه. كان يتفصَّد عَرَقاً، وقلبه يخفق دِراكاً، ولم يستطع الاشتغال. يحسن أن ينتظر المصعد ..

أخيراً انفتح باب المصعد، وانغمر الفتى فيه ضمن جَمهرة الصاعدين. بالعمارة مكاتب محاماة، وخطوط جوِّية، وقنصلية بلد، فيكثر مرتادو العمارة واستعمال المصعد، فضلاً عن مكاتب مواقع إلكترونية ومجلَّات وراديو .. تجاوز المصعد عدد الأشخاص المسموح بهم .. صرخت امرأة مندِّدة.

لا أحد قبل أن ينسحب. انغلق باب المصعد. اعتلت القهقهة. عقّب شخص لم يتبيَّن الفتى ملامحه وسط الازدحام: «على مولانا». ردّ آخر: «اللي ما قتلت تحيّي». هل تهون الحياة إلى هذا الحد؟ تُرى لو يتعطل المصعد؟ هل يمكن لمَنْ هم في المصعد أن يثبتوا للاختناق إن توقّف؟ لا يقيم العالم العربي وزناً للحياة. استحضر الفتى حدث مراقب قطار مصري ألقى بغلامَيْن متسلِّلَيْن والقطار يجري، فلقيا حتفهما. يحسن به ألا يفكِّر في الأمر. اعتراه الندم أنه لم ينسحب. كان، وهو بالمصعد، يختنق من الأنفاس والحرارة والازدحام والفَرَق ... أغمض عينَيْه كَمَنْ تُجرى عليه عملية جراحية مصطبراً للوجع، والمصعد يتوقَّف في كلِّ طابق يُلقي بأعداد ويستقبل آخرين. هذه المرَّة سيتعطَّل، يردِّد الفتى بعد كلِّ توقُّف. أخيراً توقَّف المصعد في الطابق الثامن عشر ..

دخل الفتى قاعة التحرير. وجد به محند أمزيان المكلَّف بالصفحة الثقافية. على طاولته كومة كتب. محسن المرغيني، الأنفورغرافست، السوداني، أمام شاشة كبيرة للتصفيف والتوضيب. رفعت دلال المكلَّفة بصفحة أخبار الناس بصرها إذ دخل الفتى، ثمَّ ألقت بنظرة على ساعتها. فوزي صاحب الصفحة الرياضية منهمك أمام الشاشة. لوَّح الفتى بذراعه اليمنى محيِّياً الزملاء، ثمَّ وضع محفظته على الطاولة المستطيلة. توجَّه بعدها نحو الأنفوغرافيست سائلاً إيَّاه:

- خويا محسن، درتي la mise en page للمقالات اللي صفطت (بعثت) لك هاد الصباح؟

- اخنا كنلعبو؟ خاص تشوف معي العنوانين اللي ندير بالغرا (gras) (الحروف الغليظة). والفورما Format (الشكل) بّا أمين.

- ورّني la mise en page؟

- هاهي. درت المقال التأطيري على فشل الربيع العربي. واعر.

- يتوب عليك. تدير المقال على الثورة المضادَّة قدَّامُه.

- جاتك.

- دير حداه المقال «العالم العربي موضع رهان قوى إقليمية».

- مرحبا. أش من صور ندير معه؟

- شوف لك واحدة كترمز لتركيا، آيا صوفيا مثلاً، وأخرى لإيران.

- صورة الخميني؟

- فين هو الخميني؟ شوف لك صورة راية حزب الله.

- وإسرائيل أش ندير فيها؟

- حتَّى تم (ثمَّ) تسالاو لي. وقف الشيخ في العقبة.

- ندير الراية د إسرائيل؟

توقَّف أمين يتفكَّر، ثمَّ ردَّ بعد لأي:

- ديرها.

حينها ندَّ صوت دلال:

- ذاك الشي اللي بقى. بغيتوا تطبّعو بالزز (قسرا).

لم يُعر أمين اهتماماً لملاحظة دلال.

- كمّلْ أبّا محسن.

ردَّ محسن على دلال دفعاً لأيِّ شبهة:

- أنا أختي دلال بعيدة عليَّ السياسة.

ثمَّ استدار نحو أمين:

- درت صورة ديال ميدان التحرير.

- فين هو ميدان التحرير؟ عاقل على جد النمل (عهود سحيقة).

- أوكي. نحيّدها. خاصك تورّي لي les accroches (العنوانين الفرعية).

- هاذوك اللي ب Gras (الحروف الغليظة) ف le texte (النص).

- ندير كوبي كولي Copier/ coller (إنقل/ ألصق)، ياك؟ ورّني البلايص (الأماكن) فين نديرهم.

تمغرب محسن، السوداني، ويتكلّم الدارجة المغربية بلا لُكْنَة، ويُطعِّم حديثة بكلمات فرنسية، صارت جزءاً من التداول في الخطاب، وفي قاموس الصحافة، ولو أنه لا يحسن الفرنسية. كان أمين يحبُّه لدماثة خُلُقه ومهنيته. حلَّ بالمغرب وهو طفل في الرابعة من عمره صحبة أخ له أكبر، كان شيوعياً، فرَّ من انعطافة نظام جعفر النميري نحو المدِّ الإسلامي، وتضييقه إثرها على الشيوعيِّيْن. أتى أخ محسن طالباً، واستقرَّ بالمغرب، ونسي شيوعيَّته، وغار في مغامرات نسوية، وزيجات لا تنتهي، حتَّى أضحى الزواج والطلاق لديه شغلاً .. نشأ محسن في تنافر مع أخيه الذي يعاقر الخمر، ومَنْ كان زير النساء، فأضحى محسن ذا توجُّه إسلامي، نقيض أخيه. كانت الجريدة قريبة من التوجُّهات الإسلامية، وتعكس رُؤى الإسلاميِّيْن الجدد، أولئك الذين اختاروا الخيار الديمقراطي مع نزعة برغماتية حيال السلطة وتِلْقاء أصحاب المال. وكانت إلى هذا تفتح أعمدتها لبقايا اليسار الراديكالي الممتزج بخطاب القومية العربية. كانوا هم مَنْ يمنحونها القوَّة النقدية والمقدرة السجالية. وكان العنصر النشاز في الجريدة محند، الذي كما يدلُّ عليه اسمه أمازيغي. ما يشفع له في الاشتغال في صحيفة ذات توجُّه إسلامي، لغته الرشيقة، وثقافته الواسعة، ومعرفته العميقة بالأطياف الثقافية، فضلاً عن إتقانه للفرنسية والإنجليزية، وترجمته للمقالات اللافتة من الفرنسية والإنجليزية إلى العربية. أمين حالة خاصَّة كذلك. لم يكن

إسلامياً، بيد أن ما سمح له للاشتغال في الجريدة، انضواؤه في حركة 20 فبراير في خضمِّ «الربيع العربي». كان قد أثار اهتمام الناشطين بقوَّة تحليله وثاقب نظرته وسَعة ثقافته. وحين خَبَتْ جذوة الحَرَاك، توزَّع الناشطون يبحثون عن مصادر الرزق، وانتهى الأمير بأمين صحافياً بجريدة ***، وبرز في عمود الرأي كأحد الأقلام المتميِّزة. حينما كان يُسأل عن هويَّته السياسية، كان يردُّ: «حرِّيَّة - عدالة - كرامة»، شعار حركة 20 فبراير .. ما يميِّزه أنه كان مزدوج الثقافة والتكوين، يتقن اللغتَيْن، العربية والفرنسية. أكمل تعليمه بعد الليسانس في شعبة التاريخ بإيكس أون بروفانس Aix En Provence بفرنسا، وهيَّأ رسالته بها عن اليهود الذين هُجِّروا من الأندلس بعد سقوط غرناطة سنة 1492. سعى أن ينخرط في التدريس بالجامعة ولم يُوفَّق. كان الحدث الذي شحذ وعيه هو حرب الولايات المتَّحدة على العراق سنة 2003. كان يرى فيها اعتداء مجَّانياً أتى بعد تجويع شعب. كيف لوعد بالدمقرطة أن ينجح بعد التجويع، والأحقاد التي تولَّدت عن الحصار، ومنظومة طائفية حملتها الولايات المتَّحدة في ركابها وفرضتْها فرضاً؟ وكيف تستقيم الديمقراطية مع الخطاطة الطائفية ومنظومة المحاصصة، حيث تنتفي قِيَم المساواة، ويقوم الولاء بديلاً عن الكفاءة؟ عاش أمين فصول الحرب على العراق بأحشائه، وتلظَّى بفرقعاتها، وكان ذاك الشّرخُ ما هيَّأه لأن ينغمر في أتون «الربيع العربي» حينما تحرَّكت الجماهير تجأر ضدَّ الاستبداد والفساد، وتندِّد بالاستفراد بالسلطة والثروة.

كان ممَّا يتردَّد بشأن أمين أنه جرِيء كما بدا في الحَرَاك .. والحقيقة أنه كان يُخفي خجلاً ضامراً .. كانت جرأته في التحليل. تعلَّم منذ أن درس في إيكس أون بروفانس، أن يزيح كلَّ سِحْر عن العالم، حسب المقولة المأثورة لماكس فيبير.

كان أمين يُبِين عن نَهَم معرفي، وشَغَف بالقراءة، شأنه شأن محند. هل لأنهما هامشيان؟ أم أن شغفهما بالقراءة ما جعلهما هامشيَّيْن؟ لم

تكن القراءة بالمغرب، ولا في العالم العربي طقساً، أو جِبلَّة، في كلمةَ متوارية. وكان أمين يعزو ذلك لضعف قوَّة التجريد في العالم العربي، والمَيْل للمظاهر لمَنْ غلبتهم شقوة الحياة، وسيادة المعتقدات على الفكر.

سحب محسن بروفة صفحة الرأي، وقدَّمها لأمين. أمعن هذا الأخير النظر فيها. دقَّق فيها مُبدياً استحسانه، ثمَّ انبرى معبِّراً:

- يتوب عليك أللوين.

وهي عبارة ثناء تحيل بنوع من الاستحباب للون محسن الأسمر.

نطقت دلال:

- ما عرفنا مع من احنا.

كانت دلال عينَ مدير الجريدة في هيئة التحرير، تمكث بقاعة التحرير ولا تبرحها بعد الإغلاق، وتظلُّ مع المدير إلى ساعة متأخِّرة. كانت دوماً في شجار مع صحافية محتجبة، اسمها ابتسام، مكلفة بالتحقيقات، وكانت مهنية، وأثارت الاهتمام في تغطيتها لحَرَاك الريف، من عين المكان، بالحسيمة، وربطها لعلاقات مع ناشطي الحراك، وظفرها بثقتهم. تحرَّكت منطقة الريف لتندِّد بضعف التجهيزات الاجتماعية، وللنكران التاريخي الذي تشكو منه، باجتزاء ذاكرتها والتنميط الذي أجرته السلطة على منطقة لها خصوصية ثقافية وتاريخية. كان الحدث الذي ألهب الغضب طحن فتى في حاوية حتَّى تفرّم.

كانت دلال تشتكي من ابتسام لكونها تُكلِّف الجريدة نفقات باهظة في التنقُّل والسفر، وتَنقم من أمين لأن رُؤاه لم تكن واضحة فيما يخصُّ خطَّ تحرير الجريدة، لإحالاته الغربية، والمقارنة الدائمة مع إسرائيل. دلال هي مَنْ أفشى، نكاية، بعلاقة سرِّيَّة ما بين ابتسام الإسلامية ومحسن السوداني ..

لم يردَّ أمين على ملاحظة دلال .. عاودت في استفزاز ظاهر:

- شفتك أمين وليت (أصبحت) رئيس تحرير ...

لم ير أمين بُدّاً من أن يُعقب:

- الأخت دلال ديري خدمتك، ما كندّخلش لك في الصفحة ديالك.

- هذي ما بقاتش جريدة .. كلها يدير ما بغا ... ما غادي يبقى عندها خطّ تحريري ..

ردَّ أمين بحدَّة:

- ادخلي سوق راسك ...

عقّبت دلال:

- بغيتي تدخل ف الجريدة السم ديالك.

ولم يشعر إلَّا أن انتهرها في بذاءة:

- ادّيها في الجهة اللي ضارّك (تضرك).

انتفضت دلال:

- احشم على اعراضك، ألصهيوني ..

ردَّ أمين في حدَّة:

- الصهيونية هي أختك.

كانت تحيل إلى اسمه العبراني، كوهن. انتفض أمين، ثمَّ توجَّه صوب طاولة دلال. أمسكه محسن من ذراعه بقوَّة .. ألقى أمين نظرة شزراء على دلال. ثمَّ عاد للاشتغال مع محسن كاظماً غيظه. تدخَّل فوزي عن قصد ليُهدِّئ من التوتُّر:

- رولاندو ما غاديش يبقى مع الريال. غادي تشريه جيفونتوس ..

تداخلت التعليقات حول أخبار فِرَق كرة القدم، وأمين مسترسل مع محسن في توضيب المقالات يداري غضبه.

لمَّا أن فرغ أمين من النظر في المقالات تحوَّل نحو محند. كان محند هو الشخص الذي يرتاح له أمين من ضمن الزملاء في الجريدة. كان أمين قبلها قريباً من زميل من اليسار القاعدي، ممَّنْ كانوا يردِّدون الخطاب الساري قبل سقوط حائط برلين، ويبرِّرون ما يسمُّونه بالعنف الثوري، وينشطون في الجامعة بخاصَّة .. وتواترت أحداث العنف في الجامعة بين الفصيلَيْن، القاعدي والإسلامي، وكان أحد فصولها مقتل طالب إسلامي بفاس من قِبل عناصر قاعدية، ثمَّ تحوَّل العنف ما بين الفصيل القاعدي والحركة الأمازيغية، وعرفت الجامعة فصولاً مُروِّعة من العنف بمكناس وأكادير ووجدة ... واسترعى الموضوع اهتمام أمين، وانتقل إلى وجدة، ليُجري تحقيقاً عن العنف في الجامعة، وتبيّن حينها أن العنف عرَض لأسباب أعمق، كي يُردَّ إلى مجرَّد اعتبارات هوياتية، وأنه يخفي أسباباً اجتماعية موضوعية، ومنها ظروف السَّكَن، والأوضاع المزرية التي يعيشها الطَّلَبَة، وانسداد الآفاق. كتب تحقيقاً بعنوان «خريف الجامعة» عن ضعف التأطير، وضحالة المعرفة التي تزجيها الكلِّيَّة، واستقالة الجامعيِّيْن، وغَور الإدارة في البيروقراطية. جرَّ عليه المقال انتقادات واسعة، واستدعاه مدير الجريدة ليخبره باستنكار عمداء كلِّيَّات عدَّة لِمَا ورد في المقال، اعتبروه تحاملاً وكَيداً .. ساءت العلاقة بين أمين وعمر الوجداني، القاعدي، لقصَّة لا يودُّ أمين تذكُّرها.

وضع أمين يده على ذراع محند. كانت كومة من الكتب موضوعة على منضدته. أشار أمين برأسه لمحند كي يغادرا قبل أن يسوء الجو بينه وبين دلال ... أغلق محند حاسوبه، ثمَّ نهض. غادر الزميلان قاعة التحرير، وكانا دأبا أن يتناولا سانودويش في واحد من السناكات المنبثَّة قرب العمارة زنقة كولبير. توقَّفا بالردهة حيث المصعد. ضغط أمين على الزر قائلاً:

- لسوف نبقى دهراً هنا ننتظر المصعد ..

- المصعد صورة لأعطابنا. تحديث غير مكتمل .. عقَّب محند.

- يمكن إذن أن أشعل سيجارة، ما دام المصعد سيتأخَّر ..

أشعل أمين سيجارة. استنشقها في لذَّة. نطق بعدها قائلاً:

- لا أفهم هذه الفتاة التي تحشر أنفها في شؤون الجريدة.

- هي لا تزيد عن أن تنقل رؤى المدير، وترى أننا كلانا لا نتلاءم وتوجُّهات الجريدة ..

- مدير الجريدة مَنْ طلب منِّي الاشتغال في الجريدة وألحَّ في الطلب.

- الاتِّجاهات القومية والإسلامية لا تقبل بالآخر. تداري فقط.

أضاف محند كَمَنْ يتحاشى الخوض فيما هو ذاتي:

- أخبار عن السي بنيس؟

- مازال في غيبوبة .. كان من قبل ينطق بكلام مضطرب. الآن لم يعد ينطق بشيء.

- خسارة كبيرة.

- أخشى ألَّا يستعيد النطق ..

- إلى هذا الحدِّ؟ عقَّب محند متسائلاً.

نفض أمين رماد دخانه في مطفأة بمحاذاة المصعد.

- أين تريد أن نتناول الغداء .... في مطاعم السوق المركزية؟ سأل محند.

- ليس عندي وقت، ردَّ أمين. نتناول ساندويش في واحد من السناكات القريبة ... ينبغي أن أذهب لمستشفى ابن رشد.

انفتح باب المصعد. انفتل منه الصحافي القاعدي. تجاهل كلاً من أمين، لأنه كان في خصومة معه، وكان يتحاشى أمزيان لأنه أمازيغي، وكان معادياً لخطاب الحركة الأمازيغية ولأصحابها.

2

أخذ أمين الترام من محطَّة السوق المركزي (كذا) (ة)، حتَّى محطَّة كلِّيَّة الطب. نزل بالمحطَّة، ثمَّ سار إلى مستشفى ابن رشد، من الباب الخلفي من زنقة المستشفيات، الجنرال برو سابقاً. غشي ساحة المستشفى، ولفَّ يميناً صوب مصلحة جراحة الأعصاب. دخل باب بناية قديمة، وانغمر في ممرِّها يميناً. توجَّه إلى الممرِّضة الكبيرة أو الماجور (ة):

- مساء الخير.

- مساء الخير السي الكوهن.

- هل الدكتورة نعيمة بلحاج موجودة؟

- نعم. يمكن أن تنتظر. هي مع الأطبَّاء الداخليِّيْن تتفقَّد المرضى.

بقي أمين واقفاً في الردهة المفضية للمصلحة ... لم يزر بنيس خلال عطلة الأسبوع. كان يتردَّد عليه يومياً منذ أن أدخِل المستشفى جرَّاء حادثة سير، بدت هيِّنة، خرج منها بنيس بجرح خفيف على مستوى الرأس. انفجرت عجلة السيَّارة في الطريق السيّار وبنيس قادم من مراكش إلى الدار البيضاء، وأخذت السيَّارة تميل ذات اليمين وذات الشِّمَال. كان السائق حاذقاً وضبط السيَّارة ولم يضغط على الحَصَّار، إلى أن خفَّت سرعة السيَّارة. ولمَّا أوقفها، توجَّه نحو بنيس للاطمئنان عليه مردِّداً، «الحمد لله على سلامتك ألحاج».. كان رأس بنيس ينزف من جرح غير غائر. كان رأسه قد ارتطم بهيكل السيَّارة وهي تتمايل. لم يكن بنيس يضع حزام السلامة.

مسح الدم بكلينيكس، ثمَّ نزل من السيَّارة، ووقف بشكل عادي، وانتظر إلى أن وضع السائق عجلة الإنقاذ، وأتمَّا السير إلى الدار البيضاء.. حسب بنيس الجرح بسيطاً. وما أن بلغ بيته بالدار البيضاء حتَّى انتابه صداع في الرأس، وتحوَّل الصداع إلى ألم حادٍّ لم يبرحه. نُقل إلى المستعجلات إثرها. أخبِر أمين بالأمر عند الغد، وانتقل إلى مستشفى ابن رشد، وألفاه ممدَّاً على الفراش، بخرطوم السيروم ووجهه شاحب. كان في التسعينيات من عُمُره. أمسك أمين يد بنيس وضغط عليها ... ثمَّ نطق:

- حس خفيف السي بنيس. إن شاء الله تخرج منها ونكملُ ..

أرسل بنيس نظراً غائماً، كَمَنْ يريد أن ينطق بشيء. كانت الطبيبة الدكتورة نعيمة بلحاج واقفة بقرب أمين، تنظر في أسى.

لم يبدر من بنيس سوى شخير، لشخص يجاهد لينطق بشيء ولا يستطيع النطق.

- أنا الموتشو، ردَّد أمين.

كان بنيس يُلقِّب أميناً بالموتشو، أي الفتى، في نوع من الدلال، وهي كلمة إسبانية ترخيماً لكلمة Mutchatchou.

أدار بنيس نظره نحو الطبيبة، ثمَّ نطق متهجِّياً في جهد:

- سو. سولي لي كا.

أدرك أمين حينها أن بنيس فقد الوعي، وغلبته دموعه. أمسكته الطبيبة من ذراعه وأخرجته من قاعة الإنعاش. ما إن خرج من القاعة حتَّى أجهش بالبكاء.

ومنذ ذلك الحين وبنيس يهذي. كلَّما حلَّ أمين ألفاه يخلط بين الأشخاص، وتتداخل في هذيانه الأزمنة.

كان أمين يذرع الردهة جيئة وذهاباً، وهو يتفكَّر فيما آل إليه حال بنيس .. فاجأته الممرِّضة:

- السي الكوهن تفضل.

غشي أمين مكتب الطبيبة بلحاج على شمال الردهة. كان الباب منفتحاً. طرقه بظهر يده تأدُّباً. كانت الطبيبة واقفة تنظر إلى صور من السكانير، وحول عنقها ستتوسكوب ... رفعت رأسها عند نقر الباب، والتقى نظر أمين بوجهها الجميل، يلُفُّه حجاب. أشارت إلى أمين محدُثة إيَّاه بالفرنسية:

- مساء الخير السيِّد الكوهن. تفضل، وأشارت إليه بيدها كي يجلس.

لم يمدّ لها أمين يده لأنه يعرف أنها لا تصَافح الرجال.

كانت حسبما يبدو من سنِّها في الأربعينيَّات، ذات عينَيْن زرقاوَيْن، وأنف دقيق، ونمَش على الوجه. عرف عنها أمين من خلال تردُّده على المستشفى جدِّيَّتها، ووقف على صرامتها، وكان مستخدمو مصلحة جراحة الأعصاب بالمستشفى يخصُّونها باحترام بَيِّن ..

- شكراً دكتورة. نطق أمين.

- من الجريدة أتيت (م)؟

كانت الطبيبة تحدِّث أميناً بنداء الجمع، تأدُّباً، كما تفرض قواعد الإتيكيت الفرنسية.

- نعم .. هل من جديد؟ سأل أمين.

- حالته مستقرَّة ..

- ألن يسترجع وعيه؟

- لا أدري .. أتخوَّف حتَّى لما أن يستعيد وعيه، أن تبقى مخلَّفات تؤثِّر على نطقه. لسنا في هذه الوضعية الآن.

- هل يمكن أن أراه؟

- منعتُ الزيارة .. إلَّا على أسرته، أعني زوجته. وأنتم.

- إن لم يكن هناك إزعاج.

- أبداً، ينبغي فقط أن ترتدي (وا) سترة مُحقنة. هو في الإنعاش ... يمكن أن نذهب إن أردتَ (م).

تقدَّمت الدكتورة بلحاج بخطى ثابتة يساراً نحو جناح الإنعاش. وسار أمين على إثرها. نادت على ممرِّضة الحراسة:

- بذلتان واقيتان من فضلكِ ..

سارا في ممرٍّ نحو غرفة الإنعاش، ووقفا ببابها ينتظران أن تأتي الممرِّضة بسترتَيْن. ابتدرت الطبيبة أميناً:

- أتوقَّع أن يكون عمل الصحافي جذَّاباً.

- فعلاً. حين يكون نصيراً للحقِّ، وهو الأسوأ حين يكون ظهيراً للباطل ...

- أقدِّر أن الصحافي هو كالمسبار يرصد جسم المجتمع ..

- هو كذلك، حين يكون حاملاً لرؤية، ومسلَّحاً بزاد معرفي، ومنظومة قيمية ...

- هو حالكَ (م)، قالت مبتسمة ..

- لا أدري ..

- أدرستَ (م) الفلسفة؟

- كَلَّا. درستُ التاريخ، ولكنْ كان لي دوماً اهتمام بالفلسفة.

أتت الممرِّضة إثرها تحمل كيت من سترتَيْن ملفوفتَيْن في بلاستيك.

- تأخَّرتِ. قالت الطبيبة في عتاب لطيف للممرِّضة.

- ذهبتُ إلى المستودع لأن السترات نفدت بالمصلحة. أبقى أم أذهب، مادموزيل (آنسة)؟

- يمكن أن تنصرفي ...

ارتدى أمين السترة، ووضع غطاء على الرأس، ثمَّ لفَّ حذاءه بسترة أخرى .. فتحت الطبيبة باب قاعة الإنعاش. ثمَّ تقدَّمت بخُطى وئيدة إلى سرير طبِّي وأمين على إثرها.

كان بنيس مشدوداً بأنابيب إلى آلات التنفُّس الاصطناعي، وآلات سبر دقات قلبه، وحقن السيروم. كان شاحباً، وتبدَّت عظام وجهه. اقترب أمين من السرير وأرسل في صوت خفيت:

- السي بنيس، أنا أمين. أمين الكوهن.

ولم يَرِد ردّ. عاود أمين:

- الموتشو ..

أطلق الشيخ شخيراً كما لو هو يسعى أن يتخلَّص من حالة السُّبات. أردفت الطبيبة بلحاج:

- دخل في غيبوبة عميقة ...

- محزن، ردَّد أمين.

- هل تريد (ون) أن نذهب إلى المكتب؟ اقترحت الطبيبة.

- إن أردتِ (ن) ..

خرجت الدكتورة بلحاج وأمين من غرفة الإنعاش. نزع أمين سترته، وفعلت الطبيبة الشيء ذاته. ثمَّ قصدا مكتبها ...

- قهوة، السي الكوهن؟

- لا أشرب قهوة الكابسولة.

- ليس عندي إلَّا قهوة الكابسولة السي الكوهن ..

- يمكنكِ أن تنادي عليَّ باسمي الشخصي، دكتورة.

- لم أجرؤ.

- يمكن أن نتخاطب بكاف المخاطبة. Se tutoyer، تجرَّأ أمين بالقول.

ردَّت الطبيبة:

- سيكون الأمر سهلاً، بالفعل. ça sera plus simple en effet.

أردفت، مستعملة كاف المخاطبة:

- شكراً أنْ أتيتَ.

- واجب، دكتورة.

كان أمين يحدِّق في الطبيبة المحتجبة. رفعت عينَيْها، وألفتْهُ يرمقها. شعر بالحرج. غيَّر الموضوع:

- بدأنا أنا وإيَّاه عملاً ولم نُنه. كان اتَّصل بي لكي يكتب مذكِّراته، وهكذا بدأت علاقتي به .... لم يكن منضبطاً، وأعتقد أنه لم يكن يريد أن يملي شيئاً. كان يريد أن يكتشف وجه الحياة الجديد ...كنتُ أعرفه بصيته، وحينما عرفتهُ تبيَّن كيف أن الصورة التي انتسجت حوله لا تطابق الحقيقة ..

- الحقيقة دوماً معقَّدة. لا نمسك إلَّا بأجزاء منها، وليس كلها.

فاجأ الردُّ أميناً. تملَّى لبرهة ثمَّ قال:

- هل يمكن أن نخرج للساحة؟ أريد أن أُدخِّن سيجارة ..

- إن أردتَ ..

خرجا إلى الساحة حيث توجد حديقة، ثمَّ جلسا بمقعد بها. أشعل أمين سيجارة ثمَّ أردف:

- استضافني إلى مراكش حيث يمكن أن نشتغل هناك في بيت له

بمنطقة النخيل، واعتذرتُ. كانت لديَّ انشغالات بالجريدة.. وفي أثناء العودة انقلبت السيَّارة. كان من المفترض أن أكون معه.

- هو نوع الأسئلة التي لا ينبغي طرحها.

- صحيح. ولكنْ ينتابني شعور مزيج من الأسى وتبكيت الضمير..

- لا ينبغي.

استنشق أمين دخان السيجارة في عمق. ثمَّ أرسل بأسى مستفهماً:

- لن يتكلَّم إذن؟

- لا أدري السي كوهن. عفواً أمين ...

- محزن أن يذهب من دون أن يبوح بسريرته.

- ما يبقى من حياة الإنسان ضئيل. وما نعتبره باق هو اختلاق ...

نظر أمين إلى الطبيبة، مذهولاً لردِّها. سفَّ من السيجارة. فاجأته بالسؤال:

- حدِّثني عنه.

تنفَّس أمين بعمق، ثمَّ كَمَنْ يلخِّص حياة في جملة قال:

- كان متزوِّجاً من يهودية ووقعتْ تحت تأثير الصهيونية ورحلت إلى فلسطين .. هو الجرح الذي يفيد في فهم حياة محمَّد بنيس.

- سوليكا؟

- نعم، هو اسمها.

بدت من ملامح الطبيبة علامات الاهتمام. شجَّع ذلك أميناً، فاسترسل في الحديث:

- مرَّة تناولنا الغداء بمطعم لابافرواز La Bavaroise حين قرَّر أن يُجري

بوحه، ثمَّ قال لي: أمين تعال، سأريكَ شيئاً ... وقفنا أمام كابريه. كانت الساعة نهاراً .. سنترا، اسم الكابريه. تملىَّ المكان للحظة، ثمَّ أضاف، «كان اسم الزنقة السّاعة الحائطية إبَّان الحماية» ... توقَّف طويلاً أمام المكان وهو ممسك بيدي، ثمَّ أضاف: «يوماً ما سأحدِّثكِ عن سنترا». ثمَّ غادرنا المكان، ولم يُحدِّثني بشيء ..

تنهَّد أمين ثمَّ أردف:

- تُرى هل يستعيد وعيه يوماً؟

- لستُ على يقين أن يحافظ على قدراته الذهنية كلّها حتَّى لو استفاق. لا أدري إن هو سيستطيع النطق.

نظر أمين إلى سيجارته. لم يبقَ منها إلَّا عقبها. أطفأها ثمَّ قال:

- شكراً دكتورة على كلّ شي ء. عليّ أن أذهب. ينبغي أن آخذ تاكسي، ولستُ متأكِّداً أن أجدها بسهولة في هذه الساعة إلى محطَّة القطار.

- آخذكَ بسيَّارتي إلى محطَّة القطار.

- لديكِ شغلكِ ومرضاكِ.

- أنهيتُ ما عليَّ. الممرِّضة تتكفَّل بالسيِّد بنيس، مع الطبيب المتدرِّب. أريد أن أعرف المزيد عن السيد بنيس..

3

نزل أمين بمحطَّة قطار أكدال الرباط قادماً من محطَّة الدار البيضاء ميناء. كان الجوُّ قد تلطَّف مساء .. تمشَّى من المحطَّة حتَّى مكان سكناه بأكدال زهاء خمس دقائق على القدمَيْن. انسرب من دُرج مفضٍ لمكان سكناه إلى العمارة التي يقطن بها بزنقة ضاية الرومي. ألفى الحارس، وهو رجل في الستينيات، جالسا قُبَالَة العمارة على كرسي، يعتمر طاقية، وينظر إلى السابلة. ألقى عليه أمين بالتحية:

- مسا لخير با بوشعيب.

- مسا لخير، بّا أمين. تعطّلت (تأخَّرت) اليوم.

- الساعة لله.

- خير إن شا الله؟

تذكَّر أمين بأن ليس لديه خبز في الشقَّة.

- بّا بوشعيب جيب ليّ الخبز والتون (تونا) من هيبير.

مدَّ أمين لبا بو شعيب ورقة من خمسين درهماً.

- والبينو[1]؟

---

1) البينو من كلمة Vino الإسبانية التي تعني الخمر، وهي الشائعة لدى الفئات الشعبية في شَمَال المغرب، أمَّا في الوسط، فكان ما يستعمل في الأوساط الشعبية كلمة الديفان، وهي تحوير لكلمة Du vin.

- باقي عندي.

- واش نقول لك، والله يعفو عليك. ابن خويا. الشراب ما فيه خير.

لم يُعقِّب أمين. ثمَّ غشي مدخل العمارة نحو باب شقَّته بالمستوى الأرضي. تتكوَّن الشقَّة من مدخل يقوم مقام صالون، به كنبة، وتلفزة، ومكتب، وخزانة كُتُب غصَّت بالمؤلَّفات والمجلاَّت. تُطلُّ نافذة الصالون على الزنقة. على اليمين من الشقَّة يوجد الحمَّام، وبمحاذاته المطبخ، ويفضي الصالون إلى غرفة صغيرة للنوم، بها نافذة تُطلُّ على حوش العمارة. الشقَّة في الحقيقة استوديو، ممَّا تتيحه إمكانات أمين الماديِّة الهزيلة، وهي لِصْق غرفة الحارس بّا بوشعيب التي توجد بمدخل العمارة. فتح أمين باب الشقَّة، ثمَّ استلقى على الكنبة بالصالون.

كان مهدوداً .. كان يفكِّر في بنيس ... كان أمين يظنُّ أنه وقف على أمرَيْن ظلاَّ مطمرَيْن من حياة بنيس، حتَّى على أخلص خُلاصه، زوجته سوليكا التي هاجرت إلى فلسطين، ومقامُه بمصر في نهاية الأربعينيات إلى غاية منتصف الخمسينيات، غداة استقلال المغرب. كان بنيس شيوعياً، وكانت الشيوعية بالنسبة إلى الشعوب المستعمَرة دعوة للتحرُّر بالأساس، وليست فقط صراع الطبقات. كان بنيس في مقامه بالقاهرة في نهاية الأربعينيَّات، مديناً لشخص امتزجت عنده الشيوعية والتحرُّر وهو علي حمامي. كان الأقرب إليه من الوطنيِّيْن المغاربيِّيْن كلِّهم، ممَّنْ عرف بالقاهرة. كان بنيس يردِّد دوماً على أمين:

- ينبغي أن تكتب عن علي حمامي.

- شريطة أن تساعدني ألسي بنيس.

كان علي حمامي مَنْ منح لبنيس غاية في الوجود لمَّا أن حلَّ بالقاهرة.

انتهى حمامي نهاية تراجيدية حين سقطت الطائرة التي كانت تُقلُّ وفداً من جامعة الدول العربية من كراتشي، ولقي مصرعه مع كلٍّ من الوطني امحمَّد ابن عبُّود من المغرب والمناضل لحبيب التامر من تونس. قال بنيس يوماً لأمين متحسِّراً:

- منذا يعرف اليوم علي حمامي؟ ذكاء خارق، والتزام صوفي بالقضايا التي آمن بها ..... هذه شخصية ينبغي أن تكتب عنها ألموتشو ..

- اتَّفقنا أن نكتب عنكَ يا السي بنيس ..

كانت أمتع اللحظات لدى بنيس أن يُحدِّث عن مقامه في القاهرة.

- كان ذاك الزمن الجميل. يشفع بنيس. أين نحن من ذاك الزمن؟

ثمَّ يردف:

- إلى الآن لم أفهم اللعنة التي حلَّت بهذا العالم الذي كان واعداً.

لم يكن بنيس يُسفر عن رؤاه بشكل منتظم وإنما عبر لُمع متناثرة .. إلى أن وقعت الواقعة، وانقلبت السيَّارة، وفقد الوعي، وأخذ يهذي .... وضاعت شهادته.

سمع أمين صوت جرس الباب. نهض من الكنبة. ألفى با بوشعيب، وهو يحمل كيساً بلاستكياً.

- جبت لكَ موس لحسانة (الحلاقة).

- ما قلت لكش جي بُه لي.

- شفتك ما محَسَّن ش.

- بغيت نرَبِّي اللحية.

- والدنيا مخلطة ... بعّد (ابتعد) من اللحية واصحاب اللحي؟

وضع أمين البلاستيك في المطبخ، ثمَّ أشعل موسيقى روحية لخان ... بعدها فتح حاسوبه المحمول، على خزانته المحملة، وفتح من رواية ب د ف لعلي حمامي ... بالفرنسية. كان مناضل ريفي قد بعثها بها له من هولندا.

لم يكن أمين يحبُّ القراءة عبر الشاشة، ولكنه لم يكن هناك بديل .. أشعل سيجارة، ثمَّ استرسل في قراءة الرواية ... لكنه لم يستطع أن يركِّز.

نهض من مكتبه. أشعل التلفاز على قناة الجزيرة، ثمَّ قصد المطبخ ... كان الجوع قد ألمَّ به. أخرج جبنة من الثلاَّجة، ومصبر تونا. قطع أجزاء من الخبز حين باغته رنين جرس الباب ... استغرب. مَنْ يكون الطارق؟ خطأ حتماً. عاد الجرس برنَّة واحدة ... قصد أمين الباب. فتحه. وجد قُبَالَته امرأة مُسنَّة. كلَّمته بالفرنسية:

- معذرة سيدي ... أنا جارتكم.

- Pas de souci. (لا بأس..)

- ألا أستطيع أن أستعير منكم فاتح الزجاجة Tire bouchon ...؟

نظر أمين إليها باستغراب، ثمَّ نطق بنبرة مُطَمْئنة كي يبدِّد حرجها:

- طبعاً.

فرنسية لربَّما، تحتاج فاتح زجاجة الخمر، واستشعرت الحرج وهي تتوجَّه إلى مسلم ... غشي أمين المطبخ، وبحث عن فاتح الزجاج، ثمَّ أسلمها إيَّاه ..

- تفضَّلي سيدتي.

- شكراً لكَ. سأعيده لكَ حالاً ...

- خذي وقتكِ. لا استعجال ... لا أحتاجه ...

كان أمين يحبُّ مساء لمَّا أن يعود من العمل أن يأخذ كأس خمر... ولكنه منذ حادثة بنيس لم يعد ضابطاً لبرامجه. كان منشغلاً بحالة بنيس فضلاً عن الجريدة.

عاد أمين إلى المطبخ وصوت قناة الجزيرة ينتهي إليه .. سيشاهد حصاد اليوم كما دأب أن يفعل. أخذ في فتح مصبر التونا. لم يحكم كبسولة الفتح فانكسرت ... بدر من وجهه علامة استياء. ينبغي الآن أن يفتح الحُقّ بسكِّين ... العملية غير مأمونة ودقيقة، ويمكن أن يصاب بجرح ... كان شارداً، ولذلك انكسرت الكابسولة. عليه الآن أن يركِّز لفتح التونة بالسكِّين. غرز سِنان السكِّين في الحُقِّ، ثمَّ ضرب على النَّصل بقوَّة، وما لبث الزيت أن انبجس من الحُقِّ وأصاب قميصه. افترَّ ثغره عن ابتسامة .. في تلك اللحظة، سمع جرس الباب ... توقَّف للتأكُّد ... عاد الجرس ... وضع حُقَّ التونة على منضدة المطبخ. مسح الزيت بمنشفة، ثمَّ فتح أنبوب الماء من صنبور المطبخ، وأساح الماء على قميصه .. قصد الباب. فتحه. كانت المرأة ذاتها واقفة وأمارات الحرج بادية عليها، وهي تحمل فاتح الزجاجة الذي كان يُطلق عليه، على سبيل السخرية، فاتح مُحرّم:

- يمكن أن تحتفظي به. لستُ مستعجلاً، قال أمين.

- سيدي، آسفة. غلاقة الفلين انثلمت .. آسفة ... لا أدري ... ثمَّ أضافت وهي تغالب حرجها:

- لا أدري إن كان يمكن أن تساعدني على فتح الزجاجة.

- طبعاً، سيدتي .. لحظة ... تفضَّلي، ادخلي .. دقيقة ... أغسل يدَي.

- لا بأس. أنتظركَ هنا ...

بقيت السيِّدة أمام الباب ريثما غسل يدَيْه، ثمَّ رافقها إلى شقَّتها بالطابق الأوَّل .. لم تكن أغلقت الباب. دعته لدخول الشقَّة. صالون مؤثَّث بذوق. مائدة طعام، وعن الشِّمال أرائك من طراز لويس السادس عشر. أشارت بيدها إلى حيث المائدة. مدَّت له زجاجة النبيذ. أدخل اللولب وأداره بتؤدة .. ثمَّ أخذ يسحبه في رفق، إلى أن انفتح. وضع الزجاجة على المائدة. بدا الارتياح منها ... تأهَّب أمين للمغادرة، إذاك استدارت السيِّدة الستِّينيَّة نحوه:

- ألا تريد أن تشرب كأساً؟ آسفة، لا أدري إن كنتَ تشرب ...

ابتسم أمين، ثمَّ عقَّب:

- لم يكن ليكون لي اللولب لو لم أكن أشرب ..

- لا أدري ... On ne sait jamais

- اطمئنِّي سيدتي .. أشرب.

- إذن أقعد كي تذوق من هذا الخمر. خمر كاشير.

لم يتمالك أمين وهو يجلس أن سأل:

- كاشير؟

- أنا يهودية ..

- فرنسية؟

- كلَّا، مغربية.

- خِلتُكِ فرنسية.

- مغربية أبَّاً عن جَدّ.

- تقطنين هنا منذ مدّة؟

- كلّا. أنا حديثة العهد هنا، في الرباط، وبالعمارة. وغالباً ما أكون غائبة. أسافر كثيراً.

أفرغتْ من القِنّيْنَة كأساً دون أن تملأها، ومدّتها لأمين كي يتذوّقها.

- جيِّد، قال أمين مبدياً استحسانه، بعد أن تذوّقه.

- الملك داود. خمر إسرائيلي ... أضافت.

لم يُحر أمين ردّاً ..ثمّ تجرّأ بالقول كَمَنْ يتأكّد:

- مغربية إذن؟

- نعم، نعم، يهودية مغربية ...

- أعني مغربية يهودية؟

- أليس الأمر سيّان؟

- أظنُّ أن هناك فرقاً ... على أيٍّ، الخمر جيِّد ... أتتكلّمين الدارجة؟

- نعم، ولكني لا أتجرّأ الحديث بها. غادرتُ المغرب صغيرة إلى إسرائيل، ولم أكن أتخاطب بها هناك، وحين عدتُ إلى المغرب قبل أربع سنوات لم أجرؤ على التحدّث بها. لم تعد الدارجة نفسها .. تطوّرت ... مَنْ أعاشر يتكلّمون الفرنسية. لم أقدِّم لكَ نفسي، اسمي إستير، إستير كوهن ...

فُوجئ أمين ... لم يَدرِ ما يقول. لو قال للسيِّدة إن اسمه كوهن كذلك لحسبتْهُ يهزأ منها. اكتفى بالقول:

- أنا اسمي أمين ...

- تبسطْ ... كما في بيتك. لم تتعشّ بعدُ؟ سأهيِّئ مقبِّلات ....

غادرت نحو المطبخ. لفت انتباهه كتب عدَّة مطروحة على منضدة، وجذاذات لشخص يتناول نقاطاً، وأقلام رصاص وواضعي علامات بالألوان. كان التلفاز شغَّالاً من قناة بالفرنسية ... وقف على حروفها الأولى ... i 24. كانت قناة إسرائيلية.

عادت السيِّدة مبتهجة وقد وضعت المقبِّلات ...

- شكراً أن قبلتَ ضيافتي .. لا أحبُّ أن أشرب وحيدة .. الشراب لا يحلو إلَّا مع سمير .. هو مُناغة لا تكتمل إلَّا بنديم. أمهِلْني كي أغلق التلفاز .. هذا الشرق الأوسط الذي لا ينتهي بمشاكله وجنونه ويجرُّ العالم إليه. لا يُدرى أهو لوحة قيادة العالم، أو بؤرة صراعه، أم مستودع فضَلاته الإيديولوجية.

رفع أمين من الكأس الذي صبّت فيه إستير. احتسى منه. ثمَّ قال:

- خمر جيِّد بالفعل.

4

في القطار ما بين الرباط والدار البيضاء حاول أمين أن يغفو، سُدى. كان مخموراً ومنهكاً. لم يغادر شقَّة إستير إلَّا حوالي الرابعة صباحاً، واستيقظ مع الساعة الثامنة ليأخذ قطار التاسعة، كي يكون في المكتب قبل الحادية عشرة. تناول فنجانين من القهوة تباعاً، وارتدى لباسه بسرعة، ومشى حتَّى المحطَّة. اشترى نسخة من الجريدة التي يشتغل بها. تفحَّصها، ثمَّ قلَّبها، صفحة صفحة. لم يجد مقاله! كيف؟ وضَّبه محسن، وكان رئيس التحرير قد اطَّلع على المادَّة. انقبض صدر أمين. لم يسبق قطُّ أن سُحِب مقال له بعد الإخراج والتوضيب. أحياناً يراجع رئيس التحرير مقالاته فيما قد يراه مزعجاً، من شأنه أن يثير حفيظة السلطات أو يخدش ذوق القرَّاء ... هل أُرجِئ نشر المقال؟ لكن لا معنى له إن لم يخرج مع الملفّ الذي سهر على تهيئه حول تعثُّر الربيع العربي. الموادّ كلّها التي أشرف على استكتابها منشورة إلَّا مقاله التأطيري.

خطأ لربَّما، ردَّد أمين. ثمَّ طوى الجريدة وأغمض عينَيْه. كان متعباً بسبب السهر الطويل، والشراب. عادت إليه نُتَف من حديث إستير. وُلدت بمكناس، من أسرة يهودية. انتظمت في كلِّيَّة الآداب، في شعبة التاريخ، وعلى أرائك الجامعة عرفت حبَّها الأوَّل. ولم يكن إلَّا عبد اللطيف، مَنْ سيصبح شاعراً كبيراً، ومنافحاً عن القضية الفلسطينية، ومترجماً لأشعار محمود درويش إلى الفرنسية .. تغيَّر المغرب حسب قولها بعد 67، وارتحلت خُلْسة إلى إسرائيل من دون أن تُخبر عشيقها.

لم تُسفر إستير إلّا عن الظاهر: حياتها بالجامعة، انتظامها في الخدمة العسكرية، مشاركتها في حرب 73 مجنَّدةً في سيناء، انضمامها إلى تنظيم الفهود السود، ثمّ رحيلها إلى فرنسا لتُهيِّئ رسالة دكتوراه. رَغْم هدهدات القطار لم يستطع أمين أن ينام. كان حديث إستير يعود إليه متناثراً من غير اتِّساق.

بلغ أمين المحطّة وذهب توّاً للجريدة، وتعرَّض مرَّة أخرى لعذاب المصعد. لم يكن في الحالة التي كان يخشى فيها توقُّفه. الخُمار وامتعاضه من عدم نشر مقاله جعلاه في حالة نفسية لامبالية حيال وضع المصعد النزق. ذهب توّاً إلى مكتب رئيس التحرير. بادره لأوَّل وهلة:

- السي مصطفى ما شفتش المقال ديالي في الملفّ. هاذي ماشي خدمة.

وارى رئيس التحرير حرجه بالقول:

- شي قهوة بّا أمين؟

- كنكلمك على المقال ديالي ألسي مصطفى.

- بالصح ما خرجش. ما عليهش.

- كيف اش ما عليهش؟ وجّدت (حضّرت) الملفّ، وما يخرج المقال التأطيري ديالي؟

- بصراحة ما عجبش المدير.

- من بعد La mise en page (التصفيف)؟ يقول لي قبل، أو تتّصل بي. تخبّرني.

- هذاك الشي اللي كتبت «من الحكم نبدأ» قاسح. قاسح بزاف.

- هاذ الشي اللي كنقولو في الجريدة.

- وايّـــه. ولكن راك فاهم. ما باغيين صداع. إلّا مشينا ديريكت (مباشرة) لراس العين، يسدّو لنا الجريدة.

- المدير بنفسه سبق لُه كتبْ افتتاحية ف الموضوع.

- شحال هادي. كل وقت ووقتها.

- أش تغيّر؟

- إلّا بقينا نحكّو على الدبرة يقطعو علينا الإعلانات.

- كيف أش؟ الجريدة مقاولة ولا منبر؟

- بزوج. خاصنا نديرو الماء فين يدوز. شوف نقول لك أبا أمين، أنا متّفق معك، ولكنْ ما كل الكلام يقال.

- اش انُه دور الصحافة إلّا ما قالت ذاك الشي اللي خاصو يتقال؟

- احنا في العالم العربي أخويا. اللي يحل (يفتح) فمُه يسيل دمُه.

- إحنا غير ك نكتبو. أش يقولو اللي ك يخرجو في المظاهرات ويعرّضو حياتهم للخطر؟ ما نهدروش على الريف، ما نهدورش على الحُكم، ما نهدروش على الاستفراد بالثروات، وتضارب المصالح، وعلاش نهدرو؟

- الواحد يضرب ويقيّيس، أبا أمين. أنا المقال عجبني، والملف مخيّر (ممتاز)، ولكن المدير عندو معطيات اللي ما عنديش. خاصك تفهمو.. أصحاب الحال ماشي ساهلين. إلّا بغوا فيك الخدمة يلقاو لها الموتيف (الذريعة) بحال البرد.

- إيوا؟ نسدو افامنا (أفواهنا)؟

- بغيت الجريدة تمشي ويطيح كل شي؟ خاص الواحد يفكّر في الناس اللي خدّامين فيها، وك يسترزقوا باب الله.

- هاذي جريدة زعمَ اللي ك تعبّر على روح الحراك الشعبي.

- ما زالة. ولكن الظروف تغيّرت أبا أمين. شوف إلّا بغيتي نمشيو نتغذاو ف بوديكا، ونشربو كأس نقي ونتكلمو على خاطرنا. ما شي كلام البيرو (المكتب).

- ما نقدرش نتغدًّا، عندي التزام..

- تبقى بنتنا (بيننا)، المدير اتّصالو به شي ناس. فهمتني.

- السرابس؟ (الأجهزة/المخابرات).

- لا.

- من اين؟

- من برًّا. خاصنا نغيّرو الخط التحريري، واحنا بدينا. الربيع العربي، بيني وبينك فضّى (انتهى). خصانا نتأقلمو. اليد اللي ما تقدر تقطعها بوسها. فهمتني.

- والقرّاء؟ والالتزام المعنوي اللي عندنا معهم؟

- غادي نبقوا نديرو التدريحة. مرَّة مرَّة. حليب وقهوة. وصافي أبا أمين، دوّزها بجغمة ديال الما (جرعة ماء). قل لي كيف دوّزت العطلة؟

- ما دورتهاش. كيقولو ناس زمان، الولد إلّا ما رغى، أمُه ما ترضعُه.

- كاينة. دابا بدّل الساعة بأخرى. شوف لك ملف على العطلة الصفية، فين الناس دوزوا العطلة ديالهم، وكيفاش. خاصنا نغيرو. الناس عيات من ملفّات الربيع العربي، والثورة المضادَّة، وداعش، واليمن، وليبيا. ملفّ على العطلة مزيان.

- مخيّر (جيّد). قال أمين، ثمَّ أضاف مستهزئاً بنطق أهل فاس مختلساً حرف الراء:

- برّعني. العطلة؟ أش خاصك ألعريان؟ خاتم أسيدي.

وخرج من عند رئيس التحرير من دون أن يودِّعه إلى قاعة التحرير. التقى نظره بدلال وهي تُحدّق فيه كأنما تستشفُّ نفسيَّته .. سلَّم على الصحافيِّيْن بهزٍّ ذراعه والتلويح بها من دون مصافحة. كان البعض منهم ينظرون إليه من طرْف خفي وهم على علم بعدم نشر مقاله. محند كان منغمراً في عمله، وهو يضع سمَّاعة على أذنه يُفرِغ نصّاً. قصد أمين محسنا - الأنفوغراف وابتدره للتوِّ:

- أش هاذ الشي أبا محسن؟ أنت زعم كتخاف الله.

ردَّ محسن بقول كأنه الهمس:

- ما فهمت والو أخويا أمين. المقال زوين بزاف. عيط لي السي مصطفى لما أنت مشيت، وقال لي حيدو ..

- وحيَّدته.

- ما باغيش نرجع للسودان أبا أمين. حريرتنا هناك حريرة، ما عالم بها إلَّا الله. احنا جمعنا الجيش والإسلاميِّيْن .. في العالم العربي كلُّه، مفارقين إلَّا ف السودان.

- كنكلمك على المقال ديالي وأنت تهدر لي على السودان؟

- مسقية بمغرف واحد أبَّا أمين.

- كلّمني أمحسن. خبرني.

- أنت عارف كيسمعوا كل شي. ما قاد على صداع أخويا.

- ما بقت عشْرة. نجمع قلوعي.

- لا بّا أمين ما تقولهاش ... أنت هو الدّيس (رَقْم 10) د الجريدة.

- ما بغاوناش هاد البيّاعة والشّراية .

ردَّ محسن همساً:

- اسكت غادي يسمعوك ...

كانت دلال تتظاهر بالاشتغال وهي ترخي أُذُنَيْها.

لم يرتدع أمين وردَّد بقوَّة كما لو يريد أن يُبلِّغ مكنونه لدلال كي تنقل ذلك للمدير:

- عقلية قلبي مع علي وسيفي مع معاوية.

قمع محسن ابتسامة. تضاءل وهمس في أُذُن أمين:

- أسكت أصاحبي.

رفع أمين عقيرته بنبرة أقوى:

- بكري طفروها العرب (يظفروا/ ينجحوا). إلَّا طفروها أجي عكّر لي. بنظرية قهوة حليب بغاوا يغيروا حالهم.

ثمَّ نطق بتعبير مسف:

- البعابع. (هيهات).

ندَّ عن فوزي المسؤول عن الصفحة الرياضية:

- البطولة ما بقى لها والو وتبدا. شوف شكون اللي يجيب البطولة هاد العام؟

- ما يديها احد، ردَّ أمين.

- الرجاء عندهم فريق زوين، عقّب فوزي. الحظوظ ديالهم كبيرة. المدرّب الجديد واعر. جاب شحال من كاس.

انبرى أمين بالقول متوجِّهاً إلى الجميع في قاعة التحرير:

- تلهوا بالكرة. والدربي ما بين الوداد والرجاء. ومع من غادي يلعب ميسي، ورولاندو ونيمار وبن زيما وبابي. ياك؟ ما عندكمش جامعة مقادة، ولا سبيطار مقاد. العكر على الخنونة. ما بغيتوش تفيقو خلاص.

ثمَّ توجَّه أمين نحو محند أمزيان. ربَّت على كتفه. فهم أمزيان الإشارة. سحب من رأسه السماعتَيْن، وأغلق برنامج حاسوبه. انفتل الزميلان سويًا إلى سناك.

اقتعدا بمكان. طلب أمين قهوة أوَّل الأمر. لم يبدر من أمزيان أيّ ردّ. ارتشف أمين من قهوته، ثمَّ توجّه إلى أمزيان:

- شفتي أش دارو لي وجوه النحس. شحال خوك يوجَّد في الملفّ، وفي الأخير ما نشروش المقال ديالي.

- عادي. عالم ما يقدرش يثبت على مبدأ. شراوهم.

- شكون؟

- اللي كتسميهم أنت الثورة المضادَّة.

- زعم الخطّ التحريري ديال الجريدة مع الدينامية الشعبية.

- المبادئ ما كتوكلش الخبز. المدير ذاق النعمة. اللعقة وما تدير. 4/4، الأسفار الدرجة برتس. الدراري في البعثة الفرنسية. المرأة فتحت بوتيك ديال التجميل.

- إيوا، والافتتاحيات النارية على la bonne gouvernance (الحوكمة) والشفافية والمحاسبة؟

- كان زمان.

- بهاد السهولة بدل الفيستة (المعطف).

- أصحاب الحال (الأجهزة) شادين عليه ضواسا (الملفّات).

- بحال أش؟

- ما شي قليل ما يشدو عليه. إلَّا بغاو فيك الخدمة، يلقاوها لك. علاقات جنسية، مراجعة ضريبية، تحويلات مالية، التشهير، أعطى الله. وحتَّى اللي ما كايناش يكوْنوها.

- أش كتقول؟

- هذا هو العالم العربي ديالك اللي كتحلم به. الخراب من جهة، والبطش من جهة اخرى. مدرّح بالنفاق. واجهات للديمقراطية وحُرِّيَّة التعبير وإسلام الطقوس. صلاة القياد، الجمعة والأعياد.

- هاذ الشي عارفينو.

- حتَّى شي حاجة ما غادي تخرج من هذا العالم. البلوكاج بنيوي. Doomed كيما ك يقولو بالإنجليزية. ماشي الشعارات «أمَّة واحدة ذات رسالة خالدة» «من الخليج الثائر إلى المحيط الهادر»، ولَّا أحلام بعض المثقَّفين، مخيمين معنا في المغرب، ما مسوقينش (لامبالين)، ما تسمع عندهم غير فلسطين، والعراق، واليمن ولبنان. تسولو فين جات تاكلفت، يبدا يخزر فيك.أش كيقول هذا؟ يردُّ عليك بضحكة صفرا، آه، هذوك الناس اللي في الجبل؟ تحيّد من حداه، يدير عليك اجتماع وبلاغ وعرائض تنديد، واتّهام بالطابور الخامس، حفدة ليوطي. المتصهينون. المتأمزغون الجدد. إكرام الميت التعجيل بدفنه. العالم العربي انتهى. انتهى ما شي بسبب المؤامرة الصهيونية الصليبية، والإمبريالية الأمريكية، ولكن لأنو مزكرم. مشدود بالقفل. ما تطورش لأنه غير قابل للتطوُّر. ما تصدعش راسك. لقد أسمعت لو ناديت حياً، وبالعربية وتعرابت كتخور (تنقب) ف زك (إست) الميت.

لم يعقِّب أمين. نادى على النادل. طلب صلاطة. لم تكن لديه شهية. صدمه تعليق أمزيان. تناولا طعامهما في صمت. وبعده انتقل أمين إلى محطَّة الترام في اتِّجاه مستشفى ابن رشد. وقف على بنيس في قاعة الإنعاش. كان ممدَّاً في السرير غائباً عن الوجود. كلَّمه أمين، مرَّة ومرَّة، من دون ردّ .. ألقى أمين عليه نظرة ملؤها الحسرة، ثمَّ غادر قسم العناية الفائقة. تردَّد هل يقف عند الطبيبة بلحاج. ثمَّ ما لبث أن قصد مكتبها.

نقر على بابها. أذنت له في الدخول. مدَّ إليها يده. بقيت يده معلَّقة. نسي أن الطبيبة لا تصافح. أشارت عليه بالجلوس درءاً للحرج. ابتدرتْهُ:

- تبدو متعباً؟

ارتاع. ثمَّ برغم:

- لم أنم بما فيه الكفاية.

- شغل؟

- سهر.

- تسهر؟ لا يبدو ذلك منكَ.

- جارة لي استضافتني، وبقيت معها متأخِّراً.

- لا أودُّ أن أعرف.

- لا، ليس ما تظنِّين .. سيِّدة مسنَّة، كانت في حاجة للحديث، مغربية يهودية، عاشت في إسرائيل، ثمَّ عادت إلى المغرب ...

- احكِ لي.

- شخصية ذهنية Une personne cérébrale. قال أمين.

- حجَّة بالغة. (Raison de plus). احكِ لي إذن.

تحدَّث أمين عن إستير بلا رابط. أبدت الطبيبة الاهتمام. كانت قواه الذهنية منهكة، ومنظومة دفاعه منهارة. لم يتبيَّن لماذا حدَّث الطبيبة عن إستير. عقَّبت الطبيبة:

- أرى أنكَ متعب. أوصلكَ للمحطَّة.

لم يُبدِ اعتراضاً. صحبها إلى مربض السيَّارات. امتطى السيَّارة في المقعد الأمامي قربها. لم ينبس بكلمة. فقد توهُّجه، وغارت منه حَميته

تلك التي أبداها في الجريدة متهجِّماً على عقلية «قهوة حليب». فكرة واحدة كانت تملأ ذهنه، وهي ألّا يصافح الطبيبة المحتجبة، إذ يبلغ المحطّة حتّى لا يتعرَّض للحرج. بلغا المحطّة. شعر باضطراب. عبَّر عن شكره من دون أن يصافحها. ردَّت الطبيبة:

- لا شيء. C'est rien

امتطى أمين القطار. كان مكتظّاً، ولم يجد مقعداً. ساعة الذروة. بقي واقفاً. بعد أن أفرغ القطار أسراباً عدَّة في المحمَّدية وجد أمين مقعداً. أغمض عينَيْه، وغلبتْهُ سِنَة من النوم. وصل محطّة أكدال ومشى حتّى شقَّته. كان الحارس با بوشعيب قد وضع كرسيَّه وقد زحف الأصيل يرقُب جموع الغادين والرائحين. ألقى أمين عليه بالتحية. ردَّ الحارس:

- شفتك رجعت بكرتي اليوم.

عقَّب أمين:

- الساعة لله.

وردَّ الحارس:

- سبحانه.

فتح أمين باب شقَّته. غشي الشقَّة. استلقى على الكنبة. حضرته أمُّه. تعيش بفاس وحيدة منذ وفاة والده منذ زهاء عقدَيْن من الزمن.

ضغط على اسمها «والدة» Walida مكتوب بحروف لاتينية. أرخى السمع لذبذبات الهاتف. ماذا يمكن أن يقول لها؟ إن الجريدة لم تنشر مقاله. إنه يأسى لغيبوبة صديق، في سنِّ التسعين. لن تفهم. انتهى إليه صوت متعب:

- شكـــون؟

- أمين. أمين أيما. كيف انتين؟

عاد إلى لُكنَة فاس في حديثه إليها. كان موضع استهزاء لمَّا أن كان صبياً، في المدرسة، من قِبَل أترابه، للُكْنَته الفاسية، وكان محطَّ تعريض بصفته «فِّيسي»، وأقرع أو أأرع باختلاس حرف القاف، وخوت (إخوة) اليهود، وأولاد الألِبا (العلية)، وأخذ على نفسه أن يتكلَّم لغة «حرشة» (جلفة) مع لُكنَة عروبية، كيما يزيح تهمة تفاسيت (الانتساب لفاس)، وكي يبدو مخشوشناً، وأكبَّ على التراث الشعبي لمَّا كان بالكلِّيَّة، وحفظ أغانيه، بيد أنه في حديثه مع أمِّه يسترجع لهجة تخاطب أهل فاس.

- كيف عاملة أيما؟

- أطعتك (قطعتك) من لحمي (غلبني الشوق إليك). أش ماش نِؤول (نقول) لك أوليدي، الموت د الصهد ف فاس. جهنَّم. الله يرحم ضعفنا ضعفنا، ويسئينا (يسقينا) يوم العرض. هذا اسهمنا ف فاس. الحمّان. خيتك (أختك) جات باش تعبيني لعين الشأف (الشقف) نفوج شويش، ما أدرتس (ما قدرت). طلع لي السكر والتاسيون. وعين الشأف ما بأتش (بقاتش) اللي انتين عارف. حاف عليها الغاشي، والعين ما بأش فيها الماء. بالي معك أوليدي.

- حتَّى أنا أيما بالي معك.

- خليك لي لي (إلي). إمتى تحوف لفاس؟

- عاد كنت في العيد الكبير.

- ما تأطعش (تقطع) الرجل. إماك موحشة فيك بزاف.

- حتَّى أنا إيما.

- إوا ما تغييب ش. خليت لك الراحة. مرَّة مرَّة (براء مختلسة) استأصي (استقص/ إسأل) في.

- خيار أ يما.

- الله يحفظك بجاه مولاي ادريس وبركة الأولياء والصالحين ورجال البلاد.

حينما تستغلق الأمور على أمين وتستعصي، يستشعر الحاجة للحديث إلى والدته. شعر بنفسه أحسن حالاً بعد إذ كلَّم والدته. أخذ دوش، ثمَّ تناول زبادي. بعدها أجال النظر في مكتبته. أخرج سرد «إذا كان هذا إنساناً» لبريمو ليفي. استرسل في القراءة. اقشعرَّ وهو يقرأ كيف كان البشر يُساقون كالقطيع إلى المعتقلات ويُمتهنون. يُتركون عُراة، عرضة للجوع، والبرد، والعطش ... ثمَّ يتضاءلون، يوماً عن يوم. ولكن اللغة كانت قاصرة، وتَحْسر دوماً عن التعبير عن حالات تهزأ من الإنسان، أو ما يسمِّيه بريمو ليفي، بهدم الإنسان. حالة لا حرمة فيها لا للأطفال ولا للنساء ولا الشيوخ والعجزة. هدم الإنسان؟ يا للهوان.

نهض أمين من فراشه ... جفاه النوم. ما الذي يجيز لإنسان أن يهدم إنساناً، ردَّد مع نفسه؟ ليس الهدم مقتصراً على النازية. تطوَّرت سُبُل الهدم وأضحت أكثر احترافية، وأحياناً باسم مبادئ نبيلة .. والسبيل الوحيد لكشف الزيف، هو السؤال ? Warum (لماذا)، سأل المعتقل بريمو ليفي الجندي الحارس منSS وقد مُنع رشفة ماء. وكان الجواب، ككلّ أجوبة منظومات هدم الإنسان: Hier ist kein warum (هنا ليس هناك لماذا). هنا يُمنع من طرح الأسئلة.

غشي أمين المطبخ، وفتح الصنبور وملأ كأس ماء ... نهل منه. ثمَّ وضعه على حرف مائدة المطبخ.

- إذا كنَّا لا نستطيع طرح سؤال لماذا، فعلى الأقلّ أن نَشهد.

ردَّد أمين مع نفسه. ثمَّ انغمر في الفراش، رجاء أن يشمله النوم.

4

كان أمين مستغرقاً في نوم عميق حينما نزعه منه صوت جرس الباب. تقلَّب على جنبه كما لو أنه يستطيع بحركته تلك أن يقطع الرنين أو يزيحه. عاد الجرس متَّصلاً. لم ير بُدَّاً من أن يُشعِل الإنارة قرب طاولة النوم. نظر إلى الساعة. الواحدة والنصف صباحاً .. عاد الجرس .. مَن يكون الطارق؟ خطر تسرّب الغاز؟ حارس العمارة؟ جارٌ يريد إخراج سيَّارته تعرقلها سيَّارة أخرى؟ ليس لأمين سيَّارة ... لا بدَّ أن يكون هناك طارئ مُلح، أو خطأ ... انتعل خُفَّه، وخرج من غرفته، وأنار ردهة الشقَّة، ثمَّ تقدَّم نحو بابها ... فتحها. وجد إستير ... لم تكن بلباس النوم. نظرت إليه في اضطراب، ثمَّ ألقت في حرج:

- أتيك باللولب ...

لم يُخفِ أمين تأفُّفه فردَّ:

- قلتُ لكِ، سيّدتي، يمكن أن تحتفظي به ..

- نعم. ولكني قدَّرتُ أنكَ قد تحتاجه ... آسفة. لم أقصد إزعاجكَ ...

أسلمتْهُ اللولب، ثمَّ تولَّت. أغلق الباب. وضع اللولب على منضدة في مدخل الشقَّة، ثمَّ ذهب توَّاً للفراش ... كان يخشى أن يذود عنه استيقاظه الطارئ النوم ... انغمر في الفراش، وأطفأ الإنارة. ما إن أخذ النوم يغشاه، حتَّى سمع صوت الجرس ثانية ... لن ينهض .. ولكن رنين الجرس تواصل. لا يمكن أن يكون سوى من السيِّدة .... ليس لها أن تُزعجه ... فتح الباب بقوَّة كي يعبِّر عن تذمُّره. وكانت إستير كما توقَّع. ابتدرتْهُ:

- آسفة سيدي على الإزعاج ... أنا خائفة ... خائفة .. نعم خائفة ..

- ممَّ تخافين؟

- الهولوكست ...

- الهولوكوست؟

- لم أستطع النوم ... أحاطت بي الأشباح ... هل يمكن أن أبقى معكَ لبعض الوقت؟ ... آسفة ... ريثما تنجلي الأشباح وأعود إلى شقَّتي ... يمكن أن تذهب لغرفتكَ، وأبقى في الصالون، إلى أن تنزاح الأشباح ...

اكتفى أمين بأن أفسح لها في الدخول ... جلست على الكنبة. ثمَّ استأذنت:

- هل يمكن أن أُدخِّن؟

- يمكنكِ ... ردَّ أمين ..

أرسل تنهيدة، ثمَّ توجَّه إليها بالقول:

- سيجارة من فضلكِ ...

مدَّت له السيجارة، مع الولاعة ..

- اعذرني .. المرأة لا ينبغي أن تشعل السيجارة للرجل ...

أشعل أمين لها السيجارة ..

- لم أبرأ من الأشباح. صعب أن ينسلخ المرء عن لا وعيه ... قالت.

- ربمَّا. ردَّ أمين ... ثمَّ أردف:

- تريدين قهوة.

- لا أريد شيئاً .. فقط أن أبقى معكَ حتَّى تتبدَّد الأشباح.

- حتّى أنا كوهن، يا إستير ... قال أمين في هدوء.

- ماذا تحكي؟ تهزأ منّي.

- وددتُ. لكنْ هي الحقيقة. أو الحقيقة أن اسمي الكوهن.

- ليس هناك اسم من غير مدلول.

- مبدئياً.

- ولمَ لمْ تقل لي بأنكَ كوهن.

- اسمي الكوهن .. فرقٌ ...

- أحقّاً اسمكَ الكوهن؟

- يمكن أن أريَكِ أوراق تعريفي.

- صدَّقتُكَ.

- كوهن إذن؟ أضافت.

- كوهن. نعم، ردَّ أمين في حَنَق .. كوهن عربي، ومسلم .. مسلم، يَعْني.. Une façon de parler

- وإنما كوهن .... أنتَ قريب إذن ...

- الماضي لا يحدِّد هويتي.

- ذلك ما نقوله دوماً، والحقيقة شيء آخر ... ظننتُ الشيء نفسه مع عبد اللطيف ... حبِّي الأوَّل. كان من أصول يهودية مثلكَ ... اكتشفتُ ذلك منه .. كما لدى أُسَر عديدة ... ولكنكم مذ تحوَّلتم للإسلام لم تقبلوا بالميراث اليهودي ... لذلك قلت لكَ إني يهودية مغربية، وليس مغربية يهودية ... .أحسنتَ أنكَ لم تخبرني باسمكَ أوَّل مرَّة، الأمر الذي جعلني متحفِّظة بعض الشيء ...

- الآن يمكنكِ ألّا تبقي متحفِّظة.

- فلنترك الزمن للزمن. اذهبْ ولا تُلقِ بالاً إليَّ .. تبدو متعباً.

عاد أمين إلى غرفته. أغلق بابها، ثمَّ انغمر في الفراش ... أسدل الغطاء على رأسه ... ولكن النوم جفاه ... لا تبدو السيِّدة في وضع طبيعي ... أثارته بما كان أسماه ميكانيكية ذهنية، وقُدرتها على التحليل، وسَعة اطِّلاعها، ولكنها تشكو الاضطراب ... شبح الهولوكوست. الحبّ المَوءُود. التوزُّع ببين الإيديولوجية والعاطفة ... تريد استدراك الحياة في خريف الحياة ... بدت له مثل بنيس مُعبِّرة عن وضعية ... موعد مُخلَف أفضى إلى اضطراب. إلى غيبوبة في حالة بنيس، مع حالة تداخل الأزمنة، وتوزّع بين العاطفة والإيديولوجية، وإلى انفصام الشخصية في حالة إستير ... هل يكون بنيس مُعبِّراً عن العالم العربي، وإستير عن إسرائيل؟ أم أنهما تعبيران عن واقع مغربي صرف، من حالتَيْن هامشيَّتَين جرفتْهما سرديَّتَيْن قويَّتَيْن، القومية العربية بالنسبة إلى بنيس، والصهيونية بالنسبة إلى إستير، ويعيشان اضطراباً جرَّاء ما آلت إليه الأمور؟ هذا كلّه ليس اختلاقاً .. محمَّد بنيس يوجد، ويوجد بمساره، وإستير كوهن توجد، وتوجد برؤاها، وهو أمين الكوهن يوجد ....

أزاح أمين الغطاء وأشعل الإنارة قرب الفراش ... ثمَّ انسلَّ إلى الصالون.. كانت إسيتر تضع يدها على رأسها كَمَنْ هو مستغرق في التفكير ... نفضت دخان السيجارة في المطفأة، ثمَّ قالت في هدوء من دون أن ترفع رأسها ..

- مصاب بالأرق مثلي ...؟ نحن قلقون ... الإنسان العبراني قلق .. كما الإنسان البروموثي. حتَّى لمَّا أن كلَّمَنا ياهو، لا نقبل بوصايته ... لفترة كنَّا في حاجة إليه، بعد أن حُكم علينا بالنفي عقب هدم الهيكل ... لألفَي سنة. وقبلنا بوصايته. عدنا لطبيعتنا مع إنشاء دولة إسرائيل، وتحلَّلنا من وصايته، وعاد إلينا القلق. لأننا نرفض وصاية ياهو ... على كلٍّ لم نعد نؤمن به ...

- توظّفونه ..

- كما آخرين ... لا أريد الحديث عن أشياء ميتافيزيقية .. أشعر بنفسي أحسن ... تبدّدت الأشباح ... حينما أكون وحيدة تُثقل عليَّ الأشباح ... سعيدة أن تكون كوهن ..

- لماذا يُجري مَنْ عانى معاناته على مَنْ هو أضعف منه؟

- ما الذي تقصده؟

- لماذا حكمت إسرائيل على الفلسطينيِّيْن بالطرد والنفي ..

- لسنا أشراراً. والدليل أنتَ ... تدافع عنهم. هل وقفتَ على نازي يدافع عن اليهود؟

- تفرضين عليَّ هوية ليست هويتي.

- الهوية ليست خياراً ...

- بلى ...

- لا أريد الحديث عن هذه الأشياء. أريد الحديث عن أشياء جميلة ... الهوية؟ التاريخ؟ الإيديولوجيا؟ قضايا بلا منفذ. هي هروب من أهمِّ اختبار للإنسان، يفشل فيه دوماً، وهو الحبّ ... ولأنه يفشل فيه، يَنصب قضايا كبرى، وسرديات مجلجلة، ورسالات مهدوية ... هو ذا مكر الحياة ... يصوغ القضايا الكبرى، أو الأوهام الكبيرة، كلُّ مَنْ يُخفق في امتحان الحياة. لكن لربمّا لو لم تكن تلك السرديات، لما أنجز الإنسان ما أنجز .. وهو مكر التاريخ. لم تعد تهمُّني السرديات، لأنني كما يقول بروست، صرفتُ حياتي مع امرأة لم تكن من صنفي ... طوّحت بي الإيديولوجية. لم أبرأ منها، صحيح، ولكني عدتُ كي أكتشف الحبَّ. هنا اكتشفتُهُ، بالمغرب، لا في إسرائيل، ولا في فرنسا ... وهنا يمكن أن أكتشفه.

- ينبغي اكتشافه في الوقت المناسب.

- توحي أني مُسنَّة؟

- لم أقصد لذلك ...

- ولكنه خطر ببالكَ ... لستَ مخطئاً .. هناك أشياء لا أستطيع أن أفعلها ... في المفهوم الأوَّل للحبِّ، اقتران جسدَيْن ... لا أريد أن أكون فجَّة ... ولكن الحبَّ ليس الاقتران الجسدي وحده ... الجسد قنطرة له .. الحبُّ هو وعاء يضمُّ شخصَيْن، أو ما يسمِّيه الإغريق بالروح الأخت ...

- تُضحِّين بالفكر من أجل الحبِّ؟

- يمكن للإنسان أن يعيش بدون فكر دون أن يسبِّب له ذلك اضطراباً، لكن فقدان الحبِّ يسبِّب الاضطراب ...

- الحبُّ لا يكفي.

- ما تزال شابّاً وتستخفُّ بهذه الطاقة التي تمنحها الحياة للشباب .. يحتقر الإنسان دوماً ما يمتلكه ... أتكلَّم بناء على مسار ضحَّى بالحبِّ من أجل الفكر ... هل أنتَ مستعدٌّ أن تستمع لي؟

- تفضَّلي ..

- وجدتُ الروح الأخت ... .

- هنيئاً ...

- لكن الطرف الآخر لا يعرف أني وجدتُها ...

- قلتِ بأن الحبَّ هو سكَنُ اثنَيْن في بيت وجداني. كيف يستقيم إن كان الآخر لا يعرف؟

- أعترف أن المسألة معقَّدة ... حدِّثني عنكَ؟ حالتكَ أهمّ من حالتي ..

- صحافي يساري يشتغل في صحيفة إسلامية. هذه أشياء تعرفينها.

- لم يعد يهمُّني الآن إلَّا الطبيعة الإنسانية لا ما يختلقه الإنسان من رُؤى، ولا ما يوثق به نفسه من إيديولوجيا ...

- السرديات ليست شطحات، هي التَّوق للحرِّيَّة والعدالة والكرامة، هي ليبدو المجتمعات ...

- حدِّثني عن ليبدو الطبيعة الإنسانية ... هل لديكَ امرأة في حياتكَ؟

- خرجتُ من علاقة فاشلة ..

- إذن ينبغي أن تبدأ علاقة جديدة ... في أقرب وقت ... اطمئنّ، ليس معي ..

ثمَّ أرسلت ضحكة ... أضافت بعدها:

- على كلٍّ حال، قلبي متعلِّق بآخر ... قلْ لي؟

- ماذا؟

- أليس لكَ فتاة في حياتكَ؟

- كلاَّ ..

- أليس لكَ علاقة مع فتاة؟

- ليس لي علاقة الآن.

- ألا تلتقي بفتيات؟

- بطبيبة .. تعالج قريب لي ... علاقة مهنية.

- أمتأكِّد أنتَ؟

- فتاة مهنية ... لم أفكِّر في شيء غير ذلك ...

- كيف هي؟ صفها لي؟

- طبيبة ...

- جميلة؟

- نعم ..

- مفيدة؟

- أعتقد ..

- ترى أنكَ لستَ مبالياً حيالها .. هل لها ارتباط؟

- لا أدري .. ما يمكن أن أقوله إنها غير متزوِّجة ...

- ألقِ بسهمكَ إذن ... أحسن من أن تُضيع جهدكَ في استنهاض العالم العربي، ممَّا لا يوجد، أو القضية الفلسطينية، التي لا يؤمن بها الفلسطينيون أنفسهم، أو الحركة الإسلامية، وأرى أنكَ محصّن منها ... لا ترتكب الأخطاء التي ارتكبها جيلنا ... ما بين التاريخ والسعادة، ينبغي اختيار السعادة. الشعوب السعيدة هي التي لا يثقلها التاريخ ...

- ولكنكِ لم تتخلَّصي أنتِ من أشباح التاريخ ...

- صحيح ... وددتُ ذلك ... ولذلك أنا هنا بالمغرب .. لأني هنا اكتشفتُ الحبَّ، وهنا أريد أن أستعيده ... سأحكي لكَ قصَّتي .. ليس اليوم ... أريدكَ أن تتكلَّم، وأنتَ منصرف عن الكلام. ستُحدِّثني عن فتاتكَ ... أرى أنها تسكنكَ، وتقمع إحساسكَ نحوها .. الشباب هكذا ... يملؤون أذهانهم بالمثاليات. ليس هناك من حقيقة سوى الواقع. يدرك ذلك الكبار، ولكن حين تضعف الطاقة وتذوي الإرادة ... هي ذي الطبيعة الإنسانية ... أترككَ ... تحتاج إلى أن تستريح ... هل يمكن أن أستعيد اللولب؟ لم يكن إلَّا ذريعة كي أحلَّ عندكَ. لا أريد أن أُزعجكَ غداً ...

لديَّ إحساس أنكَ لن تعود غداً من الدار البيضاء ... شكراً، شكراً، بددتَ أشباح الهولوكوست ... أوف ..

غادرت إستير شقَّة أمين ... قصد أمين غرفته وانغمر في السرير. وكان أن جفاه النوم .... كان يفكِّر في الطبيبة. كان ما يزال مستيقظاً حين انتهى إليه صوت أذان الفجر ... غفا بعدها .. وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة حين صحا.

5

كان ذهن أمين مبلبلاً. بعثرت إستير اتِّساق أفكاره، وتُلزمه بثاقب نظرها إلى مراجعة نفسه، والنظر في جوانبها المعتمة ... هي مَنْ فتح كوة بدت مغلقة من قلبه المكلوم. هل كان لامباليا حقّاً اتُّجاه الطبيبة بلحاج؟ هل كان حرصه الحضور إلى المستشفى من أجل بنيس فقط؟ لمَ إصراره كي يُعرِّج دوماً على الطبيبة بلحاج؟

كان يعرف أن الطبيبة غير متزوِّجة، لأنها لا تضع خاتماً في البِنْصَر الأيسر، ويُنادَى عليها بمادموزيل (آنسة) ... ما الذي جعله لا يُقدِم عليها أو يتجرَّأ؟ أحِجَابُها؟ ربَّما .. مع أنه لم تكن له أفكار مُسبَّقة من المحتجبات ... طبعاً، لم يكن يرى أن يرتبط بمحتجبة، أيّاً كانت نوعية العلاقة، لأن للمحتجبة مرجعيَّتها التي ليس هي مرجعيَّته ..

كان ممَّا يبدو جلياً أن الطبيبة بلحاج متميِّزة، في عملها وسلوكها وطريقة حديثها وتفكيرها، وتختلف عن الصورة النمطية لفتاة محتجبة ... وإذن؟ لا أدري، ردَّد أمين مع نفسه. حضَّر القهوة إثرها، ثمَّ فتح كمبيوتر عن رواية الحمامي ... أخذ في القراءة ... لم يستطع التركيز.. خرج من الشقَّة وقصد ساحة بورغون كما كانت تُسمَّى، أو ابن ياسين كما أضحت تسمَّى. اقتنى الجرائد من عند بّا براهيم صاحب المكتبة، ثمَّ جلس بمطعم الوزاني ... يُستحسن أن يتناول الغداء به ويغادر إلى الدار البيضاء بعد الظهر، كي يتسنَّى له الالتقاء بالطبيبة بلحاج ... يريد الحديث إليها خارج وضع بنيس كما أوحت بذلك إستير ... ينبغي التحدّث إليها ... كيف؟ واعتراه الارتباك

... لمَ الارتباك؟ هل كان يُسرُّ شيئاً في نفسه كما زعمت إستير؟ الساعة الثانية عشرة والنصف. طلب مشويات. اختصاص المكان. أخذ يفكّر في ترتيب الزمن. يغادر مع قطار الساعة الثانية، يصل مع الثالثة، يأخذ الترام. يكون في المستشفى كما دأب أن يحلّ به ... رنّ الهاتف. نظر في شاشته. رئيس التحرير ... ما تُراه يريد؟ ملفّاً حول العطلة الصيفية؟ ولمَ لا احتفالات عيد الأضحى، وجلود الكباش مكوّمة في الشوارع، وشوي الرؤوس في الأماكن العامّة، وإلقاء القاذورات أمام البيوت؟ انتهى إليه صوت رئيس التحرير من الهاتف:

- السي أمين، لا باس؟

- راك عارف.

- شوف، الله يرضي عليك، المدير بغى يشوفك .. إلّا عندك شي وقت غدا ..

- مستعجل؟

- شوية. كاين تطوّرات.

- بحال أش؟

- ما شي في التلفون، عافاك.

أغلق أمين الهاتف. تناول الغداء بسرعة، بلا شهية، ثمّ مشى نحو محطّة القطار بأكدال .. أخذ قطار الثانية ... لم تكن به رغبة أن يقرأ ... كان يفكّر في بنيس .. لن يتكلّم قطُّ ... هو الشعور الذي تولّد عنده من تلميح الطبيبة بلحاج ... يا للأسف أن يذهب صديق الشعراء والفنّانين والأدباء والمناضلين، من دون أن يفضي بتجربته .... حادثة سير بليدة بعثرت كلّ شيء ... ومن حينها وأمين يحل يومياً بالمستشفى، ويكبّ على بنيس .. يستمع لخلجات هذيانه ... كان هذيانه هو العِوض عن فرصة في البوح ضاعت، يمكن أن تكون سدى ذاكرة جيل ...

وصل أمين المستشفى كما اعتاد حوالي الرابعة .. ذهب توّاً إلى غرفة المريض .. جلس بكرسي قرب السرير. أخرج هاتفه، ومنه قصيدة لمحمود درويش من ديوان "أحد عشر كوكبا" ... كان يعرف عِشق بنيس لدرويش ... تنفَّس أمين في عمق، ثمَّ أخذ يترنَّم شِعْره في قَصْد:

للحقيقة وجهان، والثلج أسود فوق مدينتنا
لم نعد قادرين على اليأس أكثر ممَّا يئسنا
والنهاية تمشي إلى السور واثقة من خطاها
فوق هذا البلاط المبلَّل بالدمع، واثقة من خطاها
مَنْ سيُنزِل أعلامنا: نحن أم هم؟ ومَنْ
سوف يتلو علينا «معاهدة اليأس، يا مَلَك الاحتضار؟
كلُّ شيء مُعَدٌّ لنا سلفاً، مَنْ سينزع أسماءنا
أنتَ أم هم؟ ومَنْ سوف يزرع فينا
خطبة التِّيه: «لم نستطع أن نفكَّ الحصار،
فلنُسلِّمْ مفاتيح فردوسنا لرسول السلام، وننجو ...»
للحقيقة وجهان، كان الشعارُ المقدَّس سيفاً لنا
وعلينا، فماذا فعلت بقلعتنا قبل هذا النهار؟

لمَّا أن فرغ من الإلقاء، أغمض عينَيْه وأحنى رأسه، حين فاجأه صوت الطبيبة بلحاج .. كانت قد انسلَّت خُلْسة من دون أن يشعر بها:

- برافو ... اقشعرَّ جسدي وأنا أستمع إليكَ ..

- عفواً دكتورة ...

وقف أمين وَجِلاً ..

- تفضل ... أشارت إليه بالقعود ...

- شكراً ... ردَّ أمين بصوت خفيت وهو يعود للجلوس على الكرسيِ تبينَّ اضطرابه .. سأل وهو يواري ارتباكه:

- هل يمكن لكلمات الشِّعْر أن تكون نفذت إليه؟

- المهمَّة أن تنفذ إلينا، وأن يكون هو صاحب الفضل في ذلك.

- كان من عالم يغلب عليه الشِّعْر والحماسة.

- نحن في عالم مغاير.

ثمَّ أردفت:

- تعال إلى المكتب ونتحدَّث ...

وخرج على أثَر الطبيبة ... هل يمكنه أن يحدّثها عن شيء آخر غير حالة بنيس والطقس؟ هل يجرؤ أن يستضيفها، مع الحاجز الذي يطرحه حجابها وسنّها ... تكبره، كما يبدو جلياً. بيد أنها كانت تسكنه، ولذلك جفاه النوم حين فضحت إستير مكنونه ... كان قرّر أن يلتقي بالطبيبة خارج المستشفى، ولا يعرف كيف أن ينفذ إليها، وكيف يُقدِّم عرضه لها ... ولم يجد سوى أن برغم وهو بمكتبها:

- الجوُّ ما يزال حارّاً ..

- بالفعل، خريف هذه السنة حارّ ..

لم يجد ما يضيفه ... يُستحسن الإبقاء على علاقات مهنية ... فاجأته:

- مفيد ما قلته عن عالم يغلب عليه الشِّعْر واضطراب الزمن ...

- أظنّ. ولذلك لم يدخل التاريخ.

- مَنْ لا يصنع التاريخ يخضع له ... قالت.

خُيِّل إليه وكأن يسمع إستير. في قوَّة تحليلها نفسها ونفاذها. ردَّ أمين:

- ذلك ما انتهيتُ له في علاقتي ببنيس، أو ما انتهى له، وأخذتُهُ عنه.

- الشِّعْر مرحلة في تطوُّر المجتمعات، وهو ليس ما تستوجبه العصور الحديثة ... هي تقوم على الدقَّة ... أو بتعبير أدقّ، هي تأنف من الشِّعْر ...

- هل تظنِّين أن الشِّعْر ليس ضرورياً للمجتمعات؟

- طبعاً ضروري ... ولكنْ من دون أن يزري بالدقَّة والتنظيم والصرامة التي يفرضها العصر الحديث ...

كانت الطبيبة بلحاج منضبطة ... كانت نقيض حياة شاعرية ... على ما يبدو. ... لكن ما كان يُحيِّر أمين هو لباسها، أو حجابها ... هل تستقيم الهوية التي يفصح عنها لباسها، وخطابها الذي يقول بالدقَّة؟ هناك لُبْس، لغز ... أو سرّ ...

استجمع أمين قواه ونطق:

- الشِّعْر هو مستودع التجربة الإنسانية. هو سَكن لغة. هو زهرة الحياة وأريجها. هو عبقرية ثقافة. هو مفتاحها ... ليس هناك ثقافة من دون شِعْر، ولا لغة من دون شاعرية. الشِّعْر ما يحمل عبقرية ثقافة ما وجماليتها ورؤيتها للحياة ونظرتها للعالم ... حياة من دون شِعْر كما زهرة من غير أريج.

عقَّبت الدكتورة بلحاج:

- شريطة ألَّا يزري بالفكر.

- لم يُتَح للعالم العربي أن يفكِّر، لا لأنه غير قادر على التفكير.

- سهل أن يقول المرء إن الجحيم هم الآخرون.

استرعى أميناً استشهاد الطبيبة بجملة من سارتر. لم يجد ما يردُّ به .. الآخر هو الذي أجهز على الحُلْم ... ذلك ما أسرَّت به إستر ... هل يكون الآخر مرآة؟ هل يمكنه أن يكون أداة للخروج من اضطراب عالم أو كما كان

بنيس يسمّيه بسنترا، في شاعريّته، وفوضاه، وشغبه ... لم يبرأ بنيس من حبّه الأوّل. من سوليكا التي رحلت إلى إسرائيل .. كان أسرَّ لأمين بشيء لم يكن يريد أن يفشيه، وهو زيارته لإسرائيل في نهاية التسعينيات ... تحدَّث عن عالم عصري، منظّم، صارم، العلم فيه ثقافة، والقراءة جبلّة، أو طبيعة ثانية ... ثمَّ عن انتساج علاقات إنسانية حميمية خلال مقامه... الرجل الذي آمن بالقومية العربية ورموزها وصراعها وعايش حروبها، يزور إسرائيل كَمَنْ يضرب صفحاً عن مرحلة، وما اعتراها من حروب وتمزُّق وإحن ... وحين كان مغادراً مطار بن غوريون أوقفه الأمن ... أجبروه أن يُخلف الرحلة، واستجوبوه في فِرَق عدَّة متتالية، بالعربية والفرنسية .. لأنه كان عندهم مسجَّلاً. كان مشبوهاً ... كان محطَّ تقدير قبل أيَّام، لرؤيته الثاقبة وشجاعته، وتبصُّره وسعة معرفته، مثلما كان يُردِّد على مسامعه .. وتحوَّل في اللحظة التي كان يتأهَّب للمغادرة إلى مشبوه ... .لم يفهم بنيس هل أن المسألة جزء من تقسيم المهامّ، كما قال له الأمن، أم أن إسرائيل تشكو سكيزوفرينية .... لماض الاضطهاد. لذكرى الهولوكست، لما وقر في النفوس من المحاصرة وقولبة الأذهان.

الصراع العربي الإسرائيلي قصَّة أسرة، ردَّد أمين مع نفسه ... نزاع تغلب عليه العاطفة الجياشة un conflit passionnel، وليس النزاع على الأرض إلَّا الجانب البارز منه .. هو نزاع من أجل الوجود، ولكي يوجد الواحد ينبغي أن يُجهِز على الآخر.

ليس لهذا ذهب أمين يومه ذاك إلى المستشفى، ولكن ليستضيف الدكتورة بلحاج ... لكي يتحدَّثا عن أشياء الحياة التي تصنع حياة .. لم يشعر إلَّا وهو يردِّد:

- دكتورة، أتركك لحالكِ ...

كان ما يخالج نفسه عكس ما نطق به. كان يريد البقاء أطول بمعية

الطبيبة .. وكان يتوقَّع أن تستبقيَه لما همّ بالمغادرة، أو تَعرض عليه أن تأخذه بسيَّارتها إلى محطَّة القطار كما فعلت، ويدعوها إثرها لقهوة ...

- العفو، قالت.

نهض أمين من الكرسي ... لم تعرض عليه أن تصطحبه ... خرج إلى الدهليز في قسم جراحة الأعصاب. ثمَّ قصد ساحة المستشفى والباب المركزي. مشى صوب شارع عبد المؤمن، وأخذ الترام من محطَّة كلِّيَّة الطبّ. سيعود للرباط ... إلى شقَّته ... إلى الوحدانية.

تُرى لو تضبطه إستير ... ستهزأ منه ... «ماذا؟ لم تستضفها؟ خيَّبتَ ظنِّي يا أمين». توقَّف أمين عند المتجر الكبير هيبير، وقد وصل الرباط واشترى ما يسدُّ به رمقه .... لن يخرج من البيت إلَّا عند الغد حين يذهب إلى الدار البيضاء، كي يحلَّ عند مدير الجريدة ...

ومع ذلك كان يتمنَّى أن تحلَّ إستير ... حتَّى ولو خيَّب ظنَّها إذ لم يُحدِّث الطبيبة ... أضحى يجد متعة في الحديث إلى إستير. كانت عوضاً عن البوح المَوءُود لبنيس ... كانت الجسر ما بين عالم سنترا الشاعري، وعالم الفكر .. أو بين الأنا والآخر ...

ولم تَحُلّ إستير.

6

كان رئيس الشؤون الإدارية بالجريدة هو مَن استقبل أميناً وليس المدير، كي يخبره بقرار الفصل، مع مستحقَّات ثلاثة أشهر، وتعويض في حالة تنازله عن الدعوة، أم حقّه في المقاضاة من دون تعويضات ... اختار الخيار الأوّل ... كان يودُّ أن يُسلِّم على الزملاء، ولكن تحاشى الإحراج ... انسلَّ إلى مصعد البناية كأن لا شيء وقع، ثمَّ نادى في الهاتف على محند أمزيان مستعملاً اللازمة:

- ممش تجيت؟ مْريح؟

التحق به محند، وذهبا للتوِّ إلى مطعم شعبي من المطاعم المنبثّة بسوق المارشي سنترال ... بقيت لافتة تحيل إلى استفتاء دوكول لسنة 1969، وعلامات انفجار قنبلة سنة 1953 خلال احتفالات عيد الميلاد، أودت بحياة أكثر من تسع عشرة فرنسياً ... كان المكان خارج أيِّ علامة تاريخية، تتداخل فيه الأزمنة ...

اكتفى أمين بالقول وهو يحتسي الشاي:

- هكذا أحسن. لهم دينُهم وليَّ دِين ....

- يمكن أن تجد شغلاً في جريدة أخرى ...

- أين؟ في منابر تنال من أعراض الناس؟ في أخرى صدى للأجهزة؟ الجريدة التي كانت صدى لدينامية المجتمع هي هذه، وسقطت. انتهت الصحافة يا محند بلادنا.

- يمكن أن تشتغل في منابر بطريقة مهنية، ولو لم تشاطر خطَّها التحريري.

- لا أستطيع ذلك، ولم تعد الصحافة تغريني. الذي يهمُّني هو ترتيب أفكاري. لا أدري كيف، ولكنْ هو الأمر الذي يستحثُّني ..

لم يُعقِّب محند. سأل أميناً عمَّا يريد أن يأكل. ردَّ أمين بطريقة آلية:

- تشكيلة سمك مقلي ... مع صلاطة ...

نادى محند على النادل، وطلب تشكيلة سمك مقلي. بعدها توجَّه إلى أمين بالقول:

- هذا العالم الذي تَكْلف به ليس عالمي.

- بمعنى؟

- أنا أمازيغي ...

- أعرف.

- لا أعني العِرْق. ولكن خياراً.

- هل من الضروري أن يكون خارج الأنا الجمعي؟

- وما الأنا الجمعي؟

- أنا، نحن، قضايا الحرِّيَّة والكرامة والعدالة. لعالم لا يمثِّل شيئاً، ويريد أن يصبح شيئاً.

- فليصبح ما شاء. لا أجدُني فيما تراه الأنا الجمعي. الأنا الجمعي يخفي مظالم كثيرة يُتستَّر عنها. الأنا الجمعي أو ما تسمِّيه كذلك انبنى ليس فقط على إنكار الآخر، بل محقه. باسم أراجيف.

- لم تُبد ذلك قطُّ ...

- لم تكن الأمور قد نضجت ... ولم يكن السياق ملائماً. الحضارات

تتصالح من نفسها. الفراعنة، الآشوريون، الأمازيغ. يمكن للعرب أن يتصالحوا مع تاريخهم في دائرة حيزهم، وأساطيرهم.

- هل يمكن للتاريخ أن يعود القهقرى .... بعد هذا الامتزاج؟

- وما نتيجة هذا الامتزاج؟ تخلُّف. تناحُر. يمكن أن أؤمن بالامتزاج لو كان قصَّة نجاح، ولم تكن فئة تُجري وصايتها على الآخرين، وتجرّدهم من ماضيهم، وتكذب على حاضرهم، وتعبث بأمانيهم.

- تريد أن تركب المغامرة؟

- ليس هناك تحوُّل من دون مغامرة. انظر إلى منطقة الريف. شبيبة يُحكم عليهم بأحكام قاسية.

- مأساتهم مأساتنا.

- تقولون ذلك، ولا تعلمون إلَّا ظاهراً من الأمر. ذلك أننا حين نجهر بأننا موجودون، بماض ومستقبل، تغضبون. هي مأساة تتكرَّر عبر العصور، وفي أماكن متعدِّدة.

لم يعقِّب أمين. تناول الزميلان الغداء، ولفَّهما الصمت ... عاد محند للجريدة، وأخذ أمين يمشي من غير وجهة. ثمَّ تحوَّل في اتِّجاه المدينة القديمة ... لم يعد راغباً أن يذهب إلى المستشفى ... حالة بنيس مَيؤوس منها، وأضحت الزيارة طقساً ... .قام أمين بما يستطيع، وكلَّفه ذلك شغله، أو مورد رزقه ... الدكتورة بلحاج؟ علاقة مهنية، وينبغي أن تبقى كذلك ... إستير كانت مجانبة للصواب ... حتَّى ولو استدرَّت الدكتورة بلحاج اهتمامه فليضع حدَّاً لذلك. ليست من صنفه .. مرجعية مختلفة لمرجعيته ... ثمَّ محند. ما الذي اعترى محند؟ الشابّ الودود، يحدِّد رؤية خارج الأنا الجمعي، ويشكِّك في الأنا الجمعي. لم يكن يبدر منه شيء مخالف للأنا الجمعي. ملمّ بشؤون العالم العربي وقضاياه. وفجأة يقرِّر التنائي.

غشي أمين دروب المدينة القديمة ... يبحث عن الزنقة التي يمكن أن يكون بنيس قد تنكَّر بها في نهاية الأربعينيات مع مناضل شيوعي، كما كان أسرَّ له..

جلس في مقهى شعبي .. طلب شاي .. كان ينظر إلى جموع زبائن من الدهماء وهم يلعبون الورق والضامة. إلى غلامَيْن يلعبان كرة القدم، وهما يراوغان كلبَيْن يتسلَّلان بينهما يبحثان عن فضلات ... بعد حين سيأخذ أمين القطار للرباط .. الفراغ يترصَّده ... كيف أن يعيش بدون مورد؟ ومن دون غاية في الوجود؟ كانت الصحافة تعطي الشعور بالوجود. كانت توحي بأن الصحافي أصبح فاعلاً، من هامة الكبار، في مستوى أصحاب القرار .. يشرِّح الصحافي الفعل السياسي، ويحلِّل الظاهرة الاجتماعية، ويملي ويفتي، ويلتقي مصادفة، في القطار، أو مطعم، أو في الشارع بقارئ يثني عليه، ويُعبِّر عن إعجابه به. إذاك يساور الصحافي الغرور .. ينسى المشاكل التي يتخبَّط فيها، من تمزُّق علاقة أسرية، وخيبات عاطفية، ومشاكل العيش، وعدم ضمان استقرار الشغل ... يستخفُّ بذلك لأنه في دائرة قضايا كبرى. يخادع نفسه .. وحين يتمُّ فصله عن العمل، يجد نفسه أمام المشاكل الحقيقية التي كان يتحامى .. الوحدة، التمزُّق، عدم الاستقرار، الخصاصة ... تقفز تلك المشاكل المضمرة إلى الواجهة قوية حين يتوقَّف عن الكتابة، أو الإكسير الذي يوهمه أنه في لعبة الكبار ... لماذا سيدخل أمين الرباط وليس له به صدر يحضنه؟ ولمَ يبقى بالدار البيضاء وليس له ما يربطه بها؟ الدكتورة بلحاج؟

كأس شاي أخرى .. للدار البيضاء سِحْر خاصّ ... رَغْم أن علاقته بها علاقة مهنية ... هي المدينة التي تطفح بمتناقضات المجتمع المغربي .. أو ما يسمّيه محند بالتحديث المؤجّل .. أو غير المكتمل ... يعي أمين أن التحديث دينامية مجتمعية وليس قراراً، وأن دوره كمثقَّف هو أن يرصد مسيرته لا غير .. يعي محدودية طاقته ... كانت الأمور تبدو له من قبلُ

مُغرية مع عنفوان الربيع العربي. حضارة ران عليها الخمول، تنتفض وتنهض ... لم يعد متأكّداً من شيء ... إستير بثّت فيه الشكّ، ومحند بما باح به من رغبة في الانسلاخ ثبّطه .... ينبغي أن يذهب قبل أن تغصّ قاطرات القطار، ممّنْ يغادرون مع الخامسة ... نادى على النادل. في تلك اللحظة رنَّ الهاتف ... لا يتبين رَقْم المنادي .. فتح الخطَّ. كان صوتاً نسوياً ..

- السيِّد كوهن، عفواً أمين، هل ستأتي إلى المستشفى؟

كان الصوت صوت الدكتورة بلحاج. ردَّ في هدوء:

- لا أظنُّ ...

- فقط كي أرى هل أنتظركَ أم أغادر ..؟

- آسف، لا أظنُّ أني سأحلُّ بالمستشفى.

- هل أنتَ بالدار البيضاء؟

- نعم ..

- هل أنتَ حُرٌّ في لقاء؟

رسم فاصلاً زمنياً كَمَنْ يتفكَّر في السؤال. ثمَّ نطق غير مصدِّق لما يسمع:

- يسعدني ذلك.

- أين أنتَ؟ ألتحق بكَ حالاً ...

- نلتقي بمحطَّة القطار.

أغلق الهاتف، وسجَّل رَقْمها باسم Révélation (كشْف). أدّى الحساب، ونفر مسرعاً إلى محطَّة القطار ميناء.

7

كان أمين غارقاً يستمع للموسيقى من هاتفه الذكي، وهو ممدٌّ في صالون شقّته، بعد إذ عاد من الدار البيضاء، يملؤه شعور الغبطة والحبور وقد كان في رُفْقة الطبيبة بلحاج ... كاد كلُّ شيء أن ينتهي. كان قرَّر أن يضع حدّاً لتوهّماته حين فاجأته بمكالمتها ... عاد مفعماً من اللقاء، يستحضر لحظاته البهجة، بعد إذ حلَّت نعيمة من قُبَالَة محطَّة القطار، وإذ أخذته بسيَّارتها، وإذ قعدا بمقهى «منظر المحيط» Ocean View، مشرف على البحر .. كان لقاءً أنساه قرار الفصل، وبدَّد شعور الشكِّ الذي كان يساوره حول نفسه ووضعه.

وفجأة سمع رنَّة جرس الباب. اعتدل، ثمَّ نظر إلى الساعة. العاشرة ليلاً ... فتح الباب. كانت إسيتر. بدت منشرحة. ابتدرته بدون مقدِّمات:

- عزيزي أمين. هيَّأتُ لكَ وجبة للأكل ... تعال .. أعرف أن ليس لديكَ الوقت لتهيِّئ ما تأكل، أو للتبضُّع ...

ثمَّ أضافت:

- وعندي زجاجة من خمر فرنسي، أنا متأكِّدة أنكَ ستحبُّه.

بقي أمين يحملق فيها، من دون أن يُحير ردّاً .. أعجلته في غير كلفة:

- لا تتأخَّر ..

اكتفى بالقول:

- سألتحق بكِ، بعد دقائق.

ردَّت إستير في إلحاح:

- أنا في انتظارِكَ ...

التحق أمين إثرها بإستير في شقَّتها. كانت الإضاءة مخلَّلة، مع شموع. المائدة مرصوفة بالمقبِّلا ت، مع زجاجة نبيذ أحمر ...

- سعيدة أن أتيتَ، عزيزي أمين ... أرى أنكَ لم تتأخَّر. لا أحبُّ الانتظار ولا أُحسنه. ستفتح الزجاجة ... ليس الملك داود، ولكنه نبيذ فرنسي... أنا متيقِّنة أنك ستستحبُّه ...

مدَّ ت له الزجاجة مع اللولب. فتح قِنِّيْنَة الخمر ..

- دعْه يتنفَّس ... خمر جيِّد ...

كانت إستير مبتهجة وكأنما تهيَّأت لسهرة ...

لم تسعف الكلمات أميناً ... ألقى بنظرة على جنبات الغرفة. استرعى انتباهه صورة لفتى، أسمر اللون، نحيف الوجه، حادّ القسمات. تلقَّفت إستير نظرات أمين، فردَّت على التوِّ:

- هارون ... ابني. هو وسيم. أليس كذلك؟

أخذ أمين الصورة متصفِّحاً إيَّاها .. شفعت إستير بالقول:

- قد يكون في مثل سنِّكَ. أخذ من أبيه لونه وطول قامته، ومنِّي ملامح الوجه ...

ثمَّ عقَّبت:

- C'est la vie (هي الحياة).

افترَّ ثغر أمين عن ابتسامة متأدِّبة، ثمَّ سأل مبدياً الاهتمام:

- أين يعيش؟

- في تولوز. هو مثلكَ بوهيمي. أخذ هذا الطبع عن أبيه. ولكنه أخذ عنّي كذلك. الجانب الحجاجي العبري Le côté casuistique hébraïque. هل تعلم؟ تشبهه.

- فعلاً؟

- أنتَ كذلك تخفي نزوعاً حجاجياً. واسمح لي أن أقول لكَ إن مصدره عبراني ..

- أتظنّين؟

- وهو مثلكَ، نهمُ القراءة Un rat de bibliothèque

- يمكن أن نتفاهم إذن.

- أظنُّ. هو توليفة غريبة. سنغالي من أبيه، مغربي من أمِّه، فرنسي من حيث الإقامة. ثمَّ إسرائيلي.

لم يُعقِّب أمين. أشعل سيجارة. استنشقها في عمق. ثمَّ قال كما لو يريد أن يقطع مع الموضوع.

- الجوُّ ما يزال حارّاً ....

- يذكِّرني بحيفا ... الجوُّ بها أكثر حرارة من الرباط ... هي أَحَبُّ المُدُن الإسرائيلية إليَّ ...

لم يعقِّب أمين ...

استرسلت:

- ينبغي أن آخذكَ إليها ... أنا متيقِّنة أنكَ ستحبُّها ... مدينة متوسِّطية. لن تشعر بالغربة بها ...

شعر أمين بالحرج وهي تتحدَّث عن إسرائيل وعن حيفا ...

أشعلت هي الأخرى سيجارة، ثمَّ نظرت إلى أمين:

- أظنُّ أنه يمكن أن أفرغ من القِنِّينَة ..

وأفرغت منها، وتذوَّقت من الخمر ... ثمَّ أرسلت:

- خمر معتَّق ... لا أحبُّ الخمر إلَّا معتَّقاً ... خمر بوردولي ...

ثمَّ أفرغت كأساً إلى أمين، ومدَّتها إليه. استلمها، ثمَّ تذوَّق منها. سألته:

- وإذن؟

- خمر جيِّد.

- قلتُها لكَ .. أنا سعيدة أنكَ أحببتُهُ. على نخبكَ، يا ابن العمِّ (mon cher cousin).

ثمَّ رفعت الكأس، وارتشفت منه. نفثت من سيجارتها ونطقت في هدوء:

- حيفا مدينة إسرائيلية يا عزيزي ... إسرائيل توجد ... العرب في الشرق الأوسط يعرفون أن إسرائيل حقيقة، ولكنهم يصرُّون على الإنكار. كيف تجرؤ أنتَ أن تُنكر وجود إسرائيل؟ أنتَ بعيد، بعيد جدَّاً عن بؤرة التوتُّر كي تُعدَّ نفسكَ طرفاً .. أنتَ تحت تأثير قولبة إيديولوجية ... عزيزي ... وكوهن مع ذلك ...

لم يكن وارداً بالنسبة إلى أمين أن يلتزم الصمت. ردَّ في لباقة:

- إستر، هناك أشياء كثيرة أجهلها، ولكنْ يكفي أن أعرف بعض الأشياء، وأن تكون هذه الأشياء حقيقية، وهي أن هناك شعباً في أرض فلسطين أُخرِج من أرضه ... حيفا إسرائيلية كما كانت الجزائر فرنسية ...

- مقارنة غير مُوفَّقة يا أمين ... فرنسا كانت مُحتَلَّة .. نحن عدنا لأرضنا ... كانت أرضنا ...

- عدتُم أو حللتُم بالقوَّة؟

- كنَّا ندافع عن أنفسنا. وهل تحسب أن هُشَّ لنا، أو رُحِّب بنا؟ كنَّا عرضة للقنص، والقتل، وواجهَنا العرب بالحرب. وأيّ هزيمة كانت ستكون النهاية لنا. لكلِّ شعوب العالم الحقُّ في الهزيمة، إلَّا نحن. هل تفهم؟

- كيف تريدين لشعب أن يواجه مَنْ يُخرجِه من أرضه؟

- كانت لنا، وعدنا إليها.

- الشعب الذي كان بتلك الأرض، لم يبرحها قطُّ. والغالب أنه الشعب الذي تزعمون الارتباط به، سوى أنه غيَّر دينه ولسانه، كما يحدث في مسار التاريخ.

- ولماذا ترفض أنتَ، أو الإيديولوجية العربية، مسار التاريخ؟ كلُّ شيء يتغيَّر، ويعود كما كان.

- لن أفلح يا إستير في إقناعكِ، ولن تفلحي في إقناعي ...

- مؤسف ... لأنكَ ذكي، وعقلاني .. لا أسعى أن أقنع الإسلامي، ولا مَنْ هو تحت وطأة إيديولوجية، أو مَنْ هو موتور ... أنتَ لستَ من هذا الصنف ...

- دعينا اليوم في الخمر. خمر جيِّد ... أُفضِّل هذه الخمر.

- على الملك داود؟

- أُفضِّل البوردولي.

- حتَّى في الخمر تُدخِل الإيديولوجية؟ ما تزال شاباً .. دعني أضع موسيقى ... أريد أن أستمع لهايدن:

ثمَّ وضعت قرصاً من موسيقى هايدن، واستنشقت بعمق دخان سيجارتها ... ثمَّ أغمضت عينَيْها ... أرسلت بعدها:

- كيف لمَنْ أبدع هذا الجمال أن ينطوي على البشاعة؟ التربة التي أنجبت هايدن وستفنين سفيغ هي التي أنجبت هتلر ...

- السياقات هي التي تفرز الجنوح والزيغ ..

- ممكن ... واقع الحال أن الثقافة التي أنجبت موزار وبتهوفن وهادين وجوته هي التي أفرزت النازية ... سؤال كبير..

- بمعنى؟ سأل أمين.

- بمعنى أن أوربا لم تكن قادرة على استيعاب اليهود، ردَّت إستير.. وهذا هو ما يشرح فكرة وطن لهم.. لا يمكن أن نشعر بالأمان إلَّا بوطن لنا ... حتَّى لو أجهزنا على جزء من عبقريَّتنا.

- هل يمكن أن تُسحب تجربة انتسجت في أوربا على ما انتسج في غيرها بحضن الحضارة الإسلامية؟

- كانت أقلّ سوءاً ... يمكن أن ننظر للأمور نظرة إيديولوجية ... لعصر ذهبي للتعايش ما بين المسلمين واليهود في الأندلس ... في أروقة معيَّنة، في دائرة السلطة، وبين الفلاسفة، والعلماء والأطبَّاء، ولكنْ ليس مع الدهماء ... كنَّا تحت الذمَّة، يا أمين ... وأجدادكَ كي يحظوا بوضع طبيعي تخلَّوا عن معتقدهم وتحوَّلوا إلى الإسلام ... قصَّة مؤلمة ... ولمَّا تنتهِ.

ثمَّ أضافت:

- أَفرِغْ لي كأساً .... الخمر جيِّد فعلاً ... الفيصل بيننا وبين المسلمين أن دينهم حرَّم الخمر ... لأنه دين حربي. لم ينسلخ المسلمون من نزوعهم الحربي ... لا يحبُّون أن نقول لهم ذلك ...

- الشعوب تصوغ فهمها للدِّين ..

- في الهوامش فقط ... الإيديولوجيات أثّرت في الإنسان أكثر من الطبيعة. أكثر من الثقافة ... رجل يحبُّ امرأة كما تملي الطبيعية، أو امرأة تحبُّ رجلاً، وقد يرتبطان بالثقافة ذاتها، باللغة نفسها، والعادات نفسها، ثمَّ لا يلتقيان لأن الإيديولوجية تُفرّق بينهما. الدِّين كان إيديولوجية العصور القديمة ... حتَّى العقول النَّيِّرة لم تسلم من قولبة الإيديولوجية ... على كلٍّ حال، شكراً أن أتيتَ يا أمين .. اليوم عيد ميلادي. ولم تكن بي رغبة أن أقبع وحيدة في شقتي ...

لا يذكر أمين كيف انقلبت إستير كما ينقلب الجوُّ فجأة من الصحو إلى الإعصار ... بكت بكاء مُرّاً ... كانت تريد أن تكون في يوم عيد ميلادها، مع حبيبها، أو مَنْ تحسبه كذلك. كانت تعرف أن له امرأة في حياته، وكان يتستَّر عنها، ويحجب أمرها عن إستير، ولم تقف عليها، ولا استشفَّت شؤونها.

- هي حياته. أعرف. ولكني كنتُ أريده أن يكون معي اليوم. قالت إستير في مَعرِض بوحها، وهي تمسح دموعها.

ثمَّ أردفت:

- Dure, dure est la vie (لكَم هي شقية الحياة).

غادر أمين شقَّة إستير على الساعة الخامسة صباحاً، وهو يجرُّ رِجلَيْه نحو شقَّته من أثر الشراب ... أشعل آلة القهوة .. أفرغ فنجاناً. ارتشف منه، عسى أن يستعيد صفاء ذهنه وترتيب أفكاره.

8

جلس أمين بمقهى قصبة الوداية وطلب شاي. كان يحبُّ ذاك المكان، وكان أحبَّ الأمكنة إليه في الرباط، ويختزل في جوانب كبيرة صدام حضارتَيْن. كانت القصبة ما ابتناه الموركسيون لمَّا أن طُردوا من الأندلس...

كان المكان غاصّاً بالسيَّاح والزبائن، يعرف إقبالاً ساعة الأصيل... فتح أمين هاتفه، كي يبعث رسالة للدكتورة بلحاج. لم يعرف ما يكتبه لها... كان يودُّ أن يعتذر لها، لأنه لم يحلّ بالدار البيضاء، ولم يعرف كيف يعبِّر عن ذلك... هل يفعل بطريقة مهنية، أم بطريقة تنمّ عن حميمية وقد خرجا سوياً البارحة وتحدَّثا طويلاً عن أشياء غير حالة بنيس؟ كتب:

«دكتورة، وددتُ أن تكوني هنا، أو أكون هناك، أيّاً كان المكان، ولكنْ مُجتمِعَيْن... للأسف لم أتمكّن من الانتقال للدار البيضاء هذا اليوم... أمين.»

قرأ النصَّ، ثمَّ محا «دكتورة»، و«أيّاً كان المكان، لكنْ مُجتمِعَيْن» ثمَّ ضغط على زرّ الإرسال.

كان رأسه مثقلاً بالخمر والسهر وبوح إستير... أصيبت بإسهال خطابي. كانت متعلِّقة بحبّ. وجدت مَنْ تحبُّه، والرجل الذي تتعلّق به، ولكن لم يكن يبادلها الشعور ذاته، وكانت تألم لذلك... كيف أن تحبّ في مثل سنها، أو أن تحبّ حتّى يفسد عليه الحبّ أمرها؟ ومَنْ تهوى مُنصرف عنها.

بدت المرأة مُتعِبة، ومزاجية ... كان أمين منصرفاً إلى حالة بنيس، يستنطق جسداً خائراً، في بوح مضطرب، اختلطت فيه الأزمنة، فإذا الأقدار تضعه وجهاً لوجه، لحالة مغايرة، تطفح بالحياة، ولكنها تشكو الانفصام .... غنوصية على أرضية دينية. هيام على خلفية عدائية. حبّ عارم لامرأة غاض منها الشباب. توجّه هوياتي من مرجعية كونية ... كان كلّ من بنيس وإستير مُعبِّرَيْن عن عالمين ... كان بنيس مُعبِّراً عن عالم غلب عليه الشِّعْر والغناء والحنين، ثمَّ أُصيب بحادثة أفقدته الحركة، وأدخلته الاضطراب واختلاط الأزمنة، وكانت إستير، وهي موزَّعة بين الرغبة والاستحالة، معبِّرةً عن عالم يشكو الانفصام ... ولم يكن أمين يرى أن الحالة المَرضية لكلٍّ منهما منفصلة عن الآخر. ذهاب سوليكا ما بثّ في بنيس الاضطراب وتداخل الأزمنة، وإعراض إستير عن حبِّها الأوّل ما حكم عليها بالانفصام ...

هل ذلك كلّه اختلاق؟ أم توهُّم؟ وحتّى لو كان توهُّماً، ألا يخفي حاجة الإسرائيلي للآخر؟ كان الإسرائيلي قد حسم الصراع لصالحه، وأثبت قوّته العلمية والتكنولوجية، ولكنه يشكو فراغاً وجدانياً يمتلك «العدوّ» جزءاً منه ... "هذا العدوّ" الذي يشبهه في تصوّره الميتافيزيقي والقرابة اللغوية، وأضحى جاراً ولو باقتحام Par effraction. أضحى «الجار العدوّ» ضرورياً لوجوده ... كان ضرورياً في أثناء المعركة، لأنه به التحم مجتمع إسرائيل، ويظلُّ ضرورياً دوماً، لأنه عبارة عن ضمانة تاريخية وأخلاقية ... إلى هذا انتهى أمين من خلال استقراء بوح إستير واعترافها. محتاجة للآخر، لأنه مَنْ يمدُّها بإكسير الحياة ... كان الإسرائيلي يُعبِّر لفترة عن ذلك بشعور الاحتقار حيال العربي ... وها هو ذا يسعى إليه كي يتصالح مع الحياة إن كان يصحّ أن تكون إستير مُعبِّرة عن حالة إسرائيل ...

لم يكن أمين متيقِّناً من أيِّ شيء ... لأن ما يعرفه عن إسرائيل هو نتاج قراءات، وليست القراءة كالعِيان ... كان يوظِّف تحليل إستير، أو تناقضاتها

في التحليل... العالم العربي كسر أشكال الآخر كلّها، وأضحى بلا مرآة، كما تقول إستير، ولكنْ ألا يجوز أن يقال الشيء ذاته عن إسرائيل التي كسرت الآخر، وتجد نفسها مهدَّدة بانتفاء ما يعكس صورتها، وتصبح لذلك كمَن يُبحر بلا وصلة، أو يطير بلا رادار...

طلب أمين في كأس شاي ثاني... لم يتناول منذ أن استيقظ أيّ شيء سوى القهوة... نام مع الفجر، واستيقظ مع الظهر... ولم يكن في الحالة التي فيها أن يذهب إلى الدار البيضاء...

أشعل أمين سيجارة. حلَّ عنده النادل ليخبره أن التدخين ممنوع في المكان. أطفأ السيجارة. لن يستطيع أن يبقى طويلاً في مكان لا يستطيع أن يدخِّن فيه. لم تردَّ الدكتورة بلحاج. كان ينتظر ردَّها... ما الذي صرفها عنه؟ هل أزعجها تجرُّؤه عليها؟ هل حسب استضافتها له دعوة؟

أجال نظره في السابلة. الجوُّ تلطَّف. أطياف عدَّة من سياح يرطنون لغات متعدِّدة، الإسبانية، الإنجليزية... الفرنسيون قلَّة... ربَّما لأن المكان لا يعني لهم شيئاً.... خُيِّل لأمين أنه سمع رطناً بالعبرية... الإسرائيليون يحلُّون كثيراً بالمكان ذاته... ولا يذكر أمين أن رأى عربياً، عدا المغاربة، يزور المكان، أو أنه استرق السمع لِلُّغة العربية... كان عزوف العرب عمَّا يعتبره أمين أجمل مكان في الرباط يختزن ذاكرة جريحة، مُعبِّراً... العربي يعيش بلا ذاكرة.. مثل زومبي يمشي مكبَّاً على وجهه.

رنَّ الهاتف. اهتزَّ أمين. حدَّق في الشاشة. لم تكن الطبيبة بلحاج. كان محند بلازمته المعتادة:

- ممش تجيت؟

لم يجرؤ أمين أن يجيب باللازمة ذاتها «مريح» التي هي تحوير لمليح. ردَّ أمين:

- كيف نقول بأني في حالة غير جيِّدة بالأمازيغية؟

- أور كيخ مريح. وعلاش؟

- كذلك.

- ستجد شغلاً.

- ليس البحث عن عمل ما يشغلني ...

- ينبغي أن تجد شغلاً. لا يمكن أن تظلَّ هكذا.

- ليس مهمّاً. كيف الإخوة؟

- محسن يقرئك السلام ... لا يجرؤ أن يكلِّمكَ في الهاتف. الجوّ متوتِّر بعد تغيير الخطِّ التحريري ... تعرف موقفي. ليس لديَّ موقف.

- هناك حالات لا يمكن للمرء أن يبقى بدون موقف.

- متى ستأتي إلى الدار البيضاء؟

- غداً مبدئياً ...

- أريد أن ألتقي بكَ ...

- متى شئتَ.

أنهى أمين المكالمة. شعر بالجوع. نادى على النادل كي يأتيه بحلويات مغربية. نال منها ... ثمَّ فتح كتاب «في أرض إسرائيل» لأموس عوز في طبعة إنجليزية. استرسل في القراءة. كان مشدوداً لشعور التعاطف الوجداني empathie الذي يحرِّك الكاتب الإسرائيلي حيال الفلسطيني. وهل يكفي ذلك؟

أغلق أمين الكتاب بعد لأي، ثمَّ غادر المقهى الموريسكي بالقصبة. غار وسط المدينة القديمة، حتَّى باب الحد، ومنها صَعِدَ إلى شارع محمَّد

حتّى محطّة القطار، ولفّ في اتّجاه شارع الخامس، وسط أسراب السابلة حتّى محطّة القطار، ولفّ في اتّجاه شارع النصر، ومنه إلى أكدال عبر شارع عقبة إلى التقاطع مع شارع بين الويدان ... كان في حاجة إلى المشي .. مشى لساعة. وبلغ شقّته منهكاً. تناول دوش، وبعده أشعل قناة 24 i واستلقى على الكنبة. مرّرت له إستير عاداتها ... لم يكن يتابع ما يحدث عنه المتحاورون .. بدوا له من خلال ما ينتهي له عقلانيون في نقاشهم ... ربّما كانت إستير مصيبة في قولها إن العالم العربي من غير مرآة. ومَنْ يُبقي على مرآة حين تكون المرآة سبباً في الجرح؟ وهل هي مرآة؟ كانت شكل مرآة لا تعكس الصورة، قفاها أملط، يحمل صورة مموّهة، مع حروف منها حادّة أدمت مَنْ كان يُفترض أن يرى صورته فيها، ولم يعد يُعنى إلّا بجرحه ...

نعم، فقد العالم العربي المرايا. لكن ماذا عن إسرائيل؟ يرى أمين في إستير صورة إسرائيل. تشعر بالاضطراب لأنها لم تحظَ بالاعتراف ... تريد أن تبعث شيئاً هي من أقبره. هي مَنْ غادر وكانت مقترنة بحبّ، وضحّت بالحبّ من أجل الإيديولوجية، ثمّ تبيّنت عبث ذلك، وعادت تبحث عن الحبّ .. حينما استعصى الحبّ. بعد طول السنين، وما خلّفته تلك السنون من إحن، وجراح. لا يستطيع أمين طبعاً أن يحسم في أن إستير مُعبِّرة عن إسرائيل، ولكنها عيِّنة تحمل تناقضات إسرائيل التي نجحت في كلّ شيء، سوى في اعتراف الآخر الذي يمسك جانباً من ذاكرتها العميقة، وهو الضمانة الأخلاقية لوجودها. نجحت إسرائيل في الفكر، وامتحان القوّة، كما في شهادة عوز، وأضاعت الشعر، أو البصيرة. استعاضت عمّا أضاعته، بإنسية بعض من بنيها، ممَّنْ تعتبرهم الأبناء الضالّين أو العاقين. كان أمين يودُّ أن يذهب لإسرائيل كي يعرفها، عن كثب، وكانت إستير قد عرضت عليه الذهاب، ولكنه يعرف أن حاجزاً يحول دون ذلك ... ذكرى مَنْ هُجِّروا، ورُحِّلوا، ومَنْ منهم يعيش حياة الأبارتيد ... ولأنه لا يستطيع أن يذهب فهو لن يقدر أن يعرف إسرائيل إلّا ظنّاً. ستظلُّ نظرته مبتسرة ومجروحة. ولكنه لم

يكن يبحث عن حقيقة موضوعية. اليوم الذي أسرَّ له بنيس فيه أنه ذهب لإسرائيل في أثناء عشاء في مطعم لابافرواز La Bavaroise، تحدَّث بلا انقطاع عن الحُلْم المَوءُود ... عن العالم العربي وقد كان واعداً. لمَّا أن فرغا من العشاء ذهبا لكابريه سنترا، واستمعا للمغنِّي السقاط، وهو يردِّد أغاني محمَّد عبد الوهاب. أقبل الشاعر الحمري والفيلسوف العلام للسلام على بنيس. سألهما عن الملياني. قالا له إنه تخلَّف لطارئ. نطق بنيس مبتسماً: «الشيوعي الأخير».

سأل أمين بنيس عن الملياني مَنْ يكون. وانتفض بنيس: «الموتشو، كيف أنتين (أنك) ما تعرفش الملياني؟ شاعر كبير.»

بعد نصف ساعة غادرا. نصف ساعة، هي المدَّة التي حلَّ فيها أمين بكابريه سنترا، وتعرَّف فيها على عنيبة والعلام، وسمع عن الملياني، واستمع لتقطيع السقاط وهو يغنِّي أغاني محمد عبد الوهاب. أردف بنيس متنهِّداً وقد غادرا: «لو يستطيع كابريه سنترا أن يتكلَّم. سأحكي لكَ كلَّ شيء ألموتشو. يوماً ما». كان بنيس قد أسفر عن جرحه، وتكلَّم عن زوجته سوليكا التي رحلت لإسرائيل. ثمَّ وقعت الواقعة، في حادثة السير، ودخل مرحلة هذيان، واختلاط ذهني، وتداخل الأزمنة، وغار بعدها في كوما عميقة.

وعادت سوليكا، في ... صورة إستير. بعد جيلَيْن. أكثر تعلُّماً ووعياً. وأشدّ تمزُّقاً. انتصرت عسكرياً، وفرضت الصلح، ولكنها لم تبلغ المصالحة. عادت لأنها لم تبرأ من حبِّها الأوَّل. وهل نستطيع أن نستحمَّ في النهر مرَّتَيْن؟

استعاد أمين بوحها يوم عيد ميلادها، حين لم تتمالك فسالت دموعها على خدَّيْها.

غادر أمين شقّته مع الضحى نحو محطّة القطار أكدال. مع نهاية السنة ستنتهي صلاحية بطاقة النقل في القطار التي تُمنَح للصحافيِّين. وبعد شهور معدودة سيكون بلا مورد. ينبغي أن يبحث عن شغل مثلما قال له محند، ولكنه لا يستشعر الرغبة في الشغل. الصحافة مرّة أخرى؟ كَمَنْ يجمع فضَلات الموائد، أو ما يسمِّيه المتحدِّرون من المورسيكيِّين بالميخالة، كي يَطعمَ ممَّا فضُل عن مجتمع أو ما تخلَّى عنه فاعلون، ثمَّ يجري تقييماً لتلك الفُضَلات. كيف أن يُقدِّم رأياً أو آراء حول أشياء لم تتَّضح معالمها، أو تُخفي أكثر ممَّا تُظهر؟ بيد أنه ينبغي أن يكون له مورد، من أجل الحدِّ الضروري للعيش. وإذ يحصل على شغل، سيدخل في قالب لا يتيح له نظرة جليّة. كي يتفكّر فيما يجري، عليه ألا ينغمر في أيّ قالب. حتَّى الصحافة ... كي يكون حرّاً. وهل يكون حرّاً مَنْ يَعدم سبل العيش؟ كانت تلك هي المعادلة وهي تشبه ما يسمَّى بالفرنسية تربيع الدائرة. يفضِّل ألا يفكِّر في الأمر. له بديل مرحلي، هو أن يبيع لوحة أهداها له بنيس.

اشترى أمين الجرائد من كشك المحطَّة، واستقلَّ القطار .... فتح الجرائد .. ألقى نظرة عليها وتركها جانباً.

إستير. اللغز الجديد في حياته، ينبري في ظرف أقعد فيه صاحبَه بنيس، وأضحى موزّعاً بينهما. كيف يخلص للواحد من دون أن يبخس الآخر حقّه؟ أم أن الأقدار ساقت إستير كي تُعين على فهم بنيس؟ لكن إستير أضحت هي موضوعاً. لم تتحدَّث في بوحها إلّا عن خيبة حبِّها ..

لكنْ ما كان يهمُّ أميناً ليس ظاهر الجبل الثلجي وإنما عمقه. تتحدَّث عن حبِّها بضمير الغائب. وتتستَّر عن تجربتها في إسرائيل. وكان ما يهمُّ أميناً هو حياتها في إسرائيل، والضمير الغائب، أو مَنْ تسمّيه كذلك، ولم تسفر عنه. هل هو اختلاق؟ أم توهُّم؟ وحتَّى حياتها في إسرائيل لم تكشف إلَّا نتفاً منها. كانت جزءاً من الهوامش، في انخراطها مع تنظيم الفهود السود، في علاقتها مع الثلاثيِّينْ، وحياتها مع مامادو. لكنها لم تتخلَّ عن مرجعيتها الإيديولوجية. تعتبر فلسطين أرضاً لها، وتعيب على العرب رفضهم لدينامية التاريخ، وتُنَشِّئ ابنها على الديانة اليهودية. تطلق عليه اسماً عبرانياً، وتربطه بالطقوس الدينية .. غريب، حتَّى الحداثيون لا يقطعون حبل السُّرَّة مع التقاليد ..ألا تكون إسرائيل قد ألجأت العالم العربي إلى الانثناء في الميتافيزيقيا أو الانكماش الهوياتي، ومن ثمَّة مجافاة الحداثة، تساءل أمين؟

محطَّة المحمَّدية. يتبيَّن أمين أزوفها بالقنطرة التي تلوح من نافذة القاطرة، وبسياج ثانوية متروكة لحالها ... تذكِّره تلك العلامات أن يعود للواقع، أو أن ينزل الأرض كما يقول التعبير الإنجليزي. عن قريب يصل إلى محطَّة الدار البيضاء - ميناء. يتناول قهوة في مقهى كافينو، ويدخِّن سيجارة في الجناح الفوقي المخصَّص للمدخنين، ثمَّ يأخذ تاكسي إلى صاحب الكالري، ويحدِّثه في شأن اللوحة، ثمَّ يعود إلى موعده مع محند.

ينبغي أن يتفاوض مع أصحاب التاكسيات حول الوجهة، وليس أشد نُكراً لديه من ذلك. انتظر حتَّى اكتمل نصاب ركاب التاكسي وذهب لصاحب كلاري بحي كوتيه. انتظر في البهو. شعر شعوراً غريباً وهو ينتظر بالقاعة كما لو أنه يُجهِز على بنيس. لا يتخلَّص من هدية، بل يصرم الحبل الذي يربطه ببنيس. ثمَّ غادر قاعة الانتظار. لحقت به المساعدة. تعلَّل بالتزام ووعد بأنْ سيعود.

مشى حتَّى شارع أنفا، وأخذ يرفع ذراعه للتاكسيات ... يسأله السوَّاق

وجهته، ولا يكلِّف السائق نفسه عناء الرّدّ. ينبري مغادراً. أخيراً وقفت سيّارة تاكسي من دون ركّاب. «وسط المدينة، عافاك»، قال أمين. «تخلّصْ على ثلاثة، (تؤدي عن ثلاث)»، قال صاحب التاكسي. «ما عليهش»، ردَّ أمين. طلب السائق أن يؤدّيها مُسبَّقاً. ثلاثون درهماً. ركب أمين. وبعد برهة، توقَّف السائق ليحمل زبوناً آخر. راجعه أمين أنه أدَّى عن ثلاث، ردَّ السائق بحدة: «نخلّيه؟ ما عجب ك حال انزل.»

التزم أمين الصمت وتساءل هل من أجل أن تبلغ الأمور هذا الحدّ من التحايل، انغمر بنيس في الحركة الوطنية، وتلظّى بالنفي، وتعرَّض للتضييق؟ هل يجوز حقّاً أن يكتب المرء ما يكتبه، من دفاع ويصمد من أجل مبادئ ويتعرَّض جرَّاء ذلك للأذى، من أجل شرائح همّها أن تخادع وتخاتل، وتواجه مَنْ يدافع عنها بالجحود. كان أمين يعرف أن المشكل هو الحوت الكبير، وأنه هو مَنْ أرسى القواعد ونمَّط المجتمع. والحوت الكبير لم يكن يظهر للعِيان. كان يقتات من التهام الأسماك كلّها. ولم يكن للأسماك الصغرى سوى أن تلتهم ما أصغر منها. السائق سمكة صغيرة، يلتهمها صاحب التاكسي، وصاحب التاكسي سمكة يلتهمها صاحب الرخصة، وصاحب الرخصة يحظى بإكرامية من الحوت الكبير، كي يُبقي على ولائه له، ولا يطرح أسئلة وجودية، ولا قضايا مرتبطة بالتوزيع العادل للثروة، وأمين السمكة الضعيفة في حلقات حجم الأسماك التي تبقَّت لسائق التاكسي. في سلسلة الإنتاج هذه، أو الالتهام على الأصحّ، لا يبقى لأمين سوى أن يطرح الأسئلة التي يتمُّ التستُّر عنها، والتي لا تكتفي بمحاسبة الأسماك الصغرى، بل تذهب إلى الحوت الكبير .. إلى منظومة. هو ثأره الوحيد.

نزل أمين شارع الجيش الملكي قرب عمارة الحُبُس، ومشى حتّى المارشي سنترال، واتَّخذ مجلسه بمطعم به، وطلب كأساً «شبّاري» من النعناع. بعث برسالة من هاتفه لمحند يخبره فيها أنه وصل، ثمَّ فتح الجرائد. لم يتأخّر محند.

- ممش تجيت؟ باغت محند أميناً.

- مريح، أوهو.

ردَّ أمين بتركيب أمازيغي مكسَّر، المقابل بالعربية ل : مليح، لا. ابتسم محند مصوِّباً الجملة:

- أور كيخ مريح. (لست في حال جيِّدة).

وعقَّب أمين:

- لستُ أندم على شيء ندمي أني لم أتعلَّم الأمازيغية ...

- الكلُّ يزعم الرغبة في تعلُّم الأمازيغية لإبراء الذمَّة. لندع الموضوع .. اخترتَ الأكل أم ما تزال؟

- كنتُ أنتظرك.

نادى محند النادل، وطلب صلاطة ثمَّ تشكيلة من السمك المقلي.

- كيف هي الجريدة؟ سأل أمين.

- تعرَّت الحسينية[1]. «الملتزمون»، زعمَ، باعوا الماتش. ما كيهمهم غير «البِنْكا» (المال).

- آخر ما كنتُ أتوقَّعه، ردَّ أمين. ثمَّ شفع: خطاب المدير الحماسي. مقالاته النارية. وعظه وإرشاده. وأخيراً يرتمي في حضن مَنْ كان ينتقد. لأنه يؤدِّي. كم تبدو الأمور زاهية لمَنْ ينظر من بعيد.

- سأغادر كذلك.

- كلَّا؟

1) تعبير رائج في فاس، يحيل لما يشبه مسرحية، تسمَّى الحسينية، إشارة لمحنة الإمام الحسين، إذ يضع شخص ما يشبه قناع يزيد، وفي نهاية التشخيص يزيح القناع، ويفيد التعبير أن القناع سقط.

- انتهيتُ إلى ما انتهيتَ إليه. قد يستغنُون عنّي. فضّلتُ أن أستبق الأمر. كنتُ أؤثّث مشهداً يضفي على الجريدة نوعاً من المصداقية. أمازيغي يشتغل بالجريدة لكسر الصورة النمطية، ولربّما أنتَ أيضاً، علماني حتّى لا تُتّهم الجريدة بالانغلاق، مع أن لكَ مع الجرائد من حيث المنطلقات والمآلات قواسم مشتركة.

- القاسم المشترك هو أني فُصلت عن العمل، وأنكَ ستغادر الجريدة.

أشعل أمين سيجارة. تنفّس عبقها بتلذُّذ. أجال نظره في الزبائن. كلُّهم من الغلبانين، كما يقول المصريون، وهم يعنون المغلوبين. يلزم مفتاح سرّي لإدراك مؤدّى المفاهيم في العالم العربي.

وُضعت الصلاطة. سأل محند أميناً عن بنيس. ردَّ أمين:

- حالة مَيؤوس منها. محزن أن يذهب من دون بوح. تركتُهُ ينسلُّ من بين يدي ... لم أستقِ منه إلّا نُتفاً. الرجل الذي يحمل جزءاً من ذاكرتنا يرحل من دون شهادة.

تناولا الغداء، ثمَّ ابتدر محند أميناً:

- لماذا تجري وراء سراب العروبة؟ لستَ عربياً لكي تحمل وِزْراً ليس وِزْرَكَ.

- لا أدري مَنْ أكون. التعريف الذي لا يخالطه أيّ احتمال الخطأ هو أني إنسان. إنسان يخادع نفسه ربّما برُؤى من قبيل الجامع المشترك بين بني الإنسان. تَرَفٌ أُمنّي به نفسي من خلال الاصطفاف مع جمهرة الخاسرين.

- الخاسرون، أو معذّبو الأرض. أُفضّل تعبير فرانز فانون على تعبير Loosers المركانتلي. معذّبو الأرض يوجدون في الجانب الذي لا تعيره أهمّيّة.

- وأنتَ لماذا تريد أن تسلخ عن الأنا الجمعي؟

- أحمل ندوب الاحتقار.

- لم تشتكِ من ذلك قبْلاً.

- ليس لأني لم أتحدَّث عنه أنني لم أكن أعاني الاضطهاد. الاضطهاد كلمة كبيرة، ولكن التهميش نوع من الاضطهاد. لم يكن يتاح لي في الجريدة سوى الصفحة الثقافية. يمُنَع عليَّ أن أكتب في القضايا السياسية. بيد أني لا أتحدَّث من منطلق شخصي. المسألة تنصرف لقومي. مَنْ هم في الجبال يعانون الخصاصة، ويعيشون الشظف. ومَنْ هم في السجون لأنهم عبَّروا عن مطالب اجتماعية، واستعادة تاريخهم وخصوصيتهم الثقافية. هم في الطيف السياسي والثقافي يؤثِّثون مشهداً. نحن في أرضنا دون أن نكون مالكين لأمرنا.

- وتريد أن تقود معركة من أجل العدل وحيداً، أو مع زمرة ممَّنْ تشاطرهم الجرح الوجودي؟

- لن تفهم شعور الدونية والاحتقار الذي يستشعره مَنْ يتعرَّض له. ينبغي أن تتعرض له كي تعرفه.

- وهل تعتقد أني لم أتعرَّض له؟ كلُّ شيء قابل للتبرير. حتَّى العلم لم يعد موضوعياً. يمكن أن نبرِّر الحماقات كلّها علمياً. النازية اعتمدت العلم لتؤكِّد سموَّ الإنسان الآري، ولتقضي على شرائح واسعة من المجتمع. وبرَّرت التصفية بما تسمِّيه l'eugénisme .

رفع أمين يده إلى النادل. حلَّ هذا الأخير وهو يضع قلماً على أُذُنه. مزَّق شطراً من الورق الموضوع على المائدة. أجرى الحساب. أدَّى أمين. مانعه محند ... اكتفى أمين بالرَّدِّ:

- مرّة أخرى.

دخل أمين مرحاضاً بداخل المطعم. ثمّ ذهب إلى حيث صنبور قرب المطعم وغسل يدَيه بمُنظّف الثياب موضوع قرب الصنبور. كان محند قد فرغ من غسل يدَيه وينتظر صاحبه.

لم ينبسا بكلمة، ثمّ سارا حتّى محطّة السوق المركزي (ة) القريبة. افترقا. استقلّ أمين الترام. نزل بمحطّة كلّيّة الطبّ. قصد مستشفى ابن رشد. ذهب توّاً لمكتب الدكتورة بلحاج.

- أمين! صاحت الطبيبة، مبدية الحبور. ثمّ شفعت:

- تأخّرت.

اضطرب أمين. لم يكن يتوقّع أن تستقبله الطبيبة من غير كلفة، وتبدي العتاب عن التأخُّر. ردّ:

- كان لي موعد سابق. آسف.

أشارت له بيدها للجلوس. سألها كي يداري حرجه:

- السي بنيس؟

- حالته مستقرّة. حقنته بالمضادّات الحيوية.

- هل يمكن أن أراه؟

- معه زوجته وبنتاه. بعد أن يفرغا من الزيارة يمكنكَ ذلك ... ثمّ أضافت:

- قهوة؟ اشتريت آلة مع حبوب القهوة .. لأجلكَ.

- شكرا لكِ.

- لا أحبُّ هذه الكلمة.

- وما البديل للتعبير عن الاعتراف؟

- ليس كلمة الاعتراف، ولكنْ فعل الاعتراف. قد تحجب الكلمات المعنى. أحضِّر لكَ بدءاً القهوة.

وضعت الحبوب في محقن الآلة، ثمَّ ضغطت على الزرّ، وسالت القهوة من أنبوب في فنجان. أسلمت أميناً الفنجان. ارتشف منه.

- فرق كبير، عقَّب أمين. كثيرون لا يميِّزون ما بين القهوة. كما ... ثمَّ توقَّف. تبيَّن أنه أمام فتاة محتجبة ...

- كما الخمر. أردفت الفتاة.

أرسل ابتسامة.

- ذلك ما كنتُ أفكِّر فيه، ولم أجرؤ. كيف عرفتِ؟

- خمَّنتُ وقدَّرتُ.

- هل يمكن أن ندرك أشياء من دون أن نحياها؟

- ممكن.

- لا أدري. معرفة الأشياء من الخارج هي غيرها من الباطن، بل هل نستطيع أن نزعم الإدراك من خلال معرفة متنائية، أو ما يتأتَّى لنا من الغير؟

- لا يمكن أن نعيش الحيوات كلّها، كي ندرك الحقائق كلّها. ليس لي أن أبدأ من الصفر. أبني من خلال ما انتهى إليه آخرون.

- في العلوم الدقيقة. نعم.

- حتَّى في العلوم الإنسانية، أتصوّر.

- ربمَّا، عقَّب أمين.

- أُحبُّ ميلكَ للشكِّ وعدم القطع بشيء، ردَّت الطبيبة.

رفع أمين وجهه نحو الطبيبة كي يتأكَّد أنها صاحبة القول. كان يحكم عليها من خلا ل حجابها وما يحيل إليه من مرجعية. مع أحكام جاهزة. طريقة حديثها تُناقِض الفكرة المُسبَّقة التي كانت لديه عليها.

دخلت ممرِّضة، واستأذنت الطبيبة في شأن زوجة بنيس. اعتذرت الطبيبة لأمين، كي تلتحق بزوجة بنيس. فاجأها أمين بالقول:

- أريد أن أراها.

- هذا ليس بيدي، ولا يمكنني الحديث معها بمحضرِكَ.

- هل يمكن أن أنظر إليها من بعيد؟

- سأتدبَّر الأمر. لا عليكَ. دعني أرى السيِّدة أوَّلاً. يمكنكَ قراءة الجريدة. أتوصَّل بالجريدة الحكومية. لا أقرؤها. يمكنكَ أن تقول لي ما فيها. هي على مكتبي.

خرجت الطبيبة. أخذ أمين الجريدة. طالعتْهُ صور مسؤولين في الدولة وأنشطتهم ... ثمَّ وضع الجريدة جانباً. تجرَّأ وذهب إلى حيث صورة الدكتورة بلحاج في أثناء التخرُّج. أخذ الصورة ثمَّ حدَّق فيها. كانت الطبيبة تتوسَّط والدَيْها. نظر إلى أمِّها المحتجبة. تبيَّن وقد اقترب من الصورة أنها كانت تمسك بيد أمِّها. كان وجه الشبه بينهما لافتاً. أنف دقيق وبياض البشرة. ثمَّ وضع الصورة ... ظهرت له صورة أخرى لأبيها وحده، بلباس عسكري. أبوها عسكري إذن. على كتفه وقبَّعته نياشين رتبة جنرال. لم يكن يعرف هذا الجانب من حياة الطبيبة بلحاج. جزئية مهمَّة، لأنها ستكون عاشت مع أمِّها أكثر ممَّا عاشت مع والدها، الذي سيكون أمضى جزءاً كبيراً من مساره في الصحراء .. وضع الصورة وعاد إلى مكانه. كان يودُّ أن يدخِّن ولكنه لا يستطيع. ازدادت الطبيبة لغزاً.

عادت الطبيبة ومعها امرأة مُسنَّة، وتصنَّعت الطبيبة البحث عن وثيقة، وعرضت عليها أن تجلس في الكرسي المقابل لأمين.

- تفضّلي ألحاجة.

جلست المرأة المُسنَّة، وأرسلت التحية لأمين:

- مشا (مساء) لخير أوليدي.

وردَّ أمين بأدب وهو يتجنَّب النظر إليها:

- مساء الخير ألالا.

استرسلت السيِّدة:

- هاذي مشيبة (مصيبة) كحلة نزلت بنا ..

استرعى انتباه أمين طريقة حديثها. استرَق أمين النظر فيها خُلْسة. لم تكن تغطِّي رأسها، وكان شَعْرها ينسدل حتَّى كتفَيْها، بتسريحة خفيفة.

- العين خرزات (خرجت) ف الحاز (الحاج) مشيكين (مسكين). أردفت السيِّدة. ثمَّ أضافت: كان مشيكين حابني نحوف معه مراكش.

تبيَّن أن نطقها مزيج من نطق أهل فاس، مع لُكْنَة يهوديِّيها ممَّنْ يَقلبون السين شيناً والجيم زاياً فيما يُعرَف باللاشون، وهو اللسان بالعبرية ..

استدارت السيِّدة نحو أمين متسائلة:

- انتين ليسِّير (ليشّير/ الفتى) اللي كان الحاز (الحاج) يعمل معه الكتاب؟

- نعم ألالا.

- ادعي معه أوليدي. ادع معه بزاه (بجاه) الشادات (السادات) والأولياء ورزال (رجال) البلاد.

- الله يشافيه ويعافيه أللا.

- كان يأول (يقول) فيك الخير.

- الحاج، الله يعمّرها دار.

قاطعتهما الطبيبة متوجّهة إلى السيِّدة:

- ما لقيتش الورقة أللا. ولكن نعمل لك واحدة أخرى.

- الله يزازيك (يجازيك) بالخير أبنيتي.

حرَّرت الطبيبة ورقة، ثمَّ وضعت عليها الختم.

- هذه ل La mutuelle (التعاضدية، ملفّ التأمين).

وأسلمتْها الوثيقة.

نهضت المرأة المُسنَّة وهي تردِّد:

- خلّيت لكم الراحة.

لم تختلس حرف الراء على خلاف نطق الفاسيِّيْن. كان نطق اللاشون ينطق حرف الراء.

رافقت الطبيبة السيِّدة. استدارت زوجة بنيس نحو أمين ناطقة بالقول:

- بالشلامة أوليدي.

ثمَّ خرجت من المكتب ...

خُيِّل لأمين وكأن سوليكا تتكلَّم، الزوجة اليهودية لبنيس، والتي كانت قد رحلت لإسرائيل.

عادت الطبيبة، وأرسلت ابتسامة إلى أمين:

- راض؟

- شاكر لكِ. ولو أن الأمر يزداد تعقيداً ...

- أقترح عليكَ أن نتناول العشاء سوياً، ونتحدَّث حول الأشياء المعقَّدة كلّها. لديَّ مرضى الآن. هل تستطيع أن تبقى حتَّى المساء في الدار البيضاء؟

- طبعاً.

- سنتناول العشاء باكراً، وأُوصلكَ لمحطَّة القطار - مسافرين لآخر قطار.

- لا عليكِ. سأمضي الليلة في الدار البيضاء. خذي وقتكِ. أنتظركِ قرب فندق شيراتون. سأحجز في مطعم لا بافارواز، حيث دأبتُ أن أُجالسَ بنيس.

- أنا مَنْ يستضيفكَ.

- كلَّا.

- أصرُّ.. سأدعو الكاتبة لكي تحجز مائدة. لا تُزعج نفسكَ. حين سأكون قريبة من الفندق أُهاتفكَ.

11

نزل أمين بغرفة بفندق صغير يسمَّى Mon rève هكذا، والصواب Mon rêve (حلمي). فندق في المتناول ممَّا تتيحه إمكانات أمين المادِّيَّة. ميزته أنه قريب من مطعم لابافارواز. كانت الأخطاء الإملائية بالعربية والفرنسية في الواجهات والإعلانات مؤشِّراً على تدنٍّي مستوى التعليم. Réstautrant, Acceuil, Préstige أو بالعربية: اشري دارك. لا تنسى ذِكر الله. لنحمي شواطئنا. أو في أخطاء إملائية سارية من قِبل متعلِّمين، تظافر الجهود، أو الغيض (عوض الغيظ)، وتقريض عوض تقريظ، أو زبنائنا الكرام، أو نرجوا، أو في تعابير تبعث على الضحك، من قبيل زنقة «الاجتماع» (كذا) La Réunion وراء ثانوية ليوطي بالدار البيضاء، في تقاطع مع زنقة كوادلوب. لم يخيِّب الفندق ظنَّ أمين، رَغْم أنه قديم يعود للفترة الاستعمارية. كان نظيفاً، وبه دوش، وهو ما كان يحتاجه أمين. أدَّى 160 درهماً، عشر مرَّات أقلّ من شيراتون لغرفة عادية. ثمَّ صَعِدَ إلى الغرفة، وأخذ دوش، ثمَّ خرج إلى مكتبة قريبة عسى أن يجد فيها كتاباً يستجيب لشغفه، ويزجي فيه الوقت حتَّى العشاء. حلَّ بمكتبة DSM على شارع محمَّد الخامس، غير بعيدة من الفندق، دأب أن يتردَّد عليها. قصد توَّاً جناح الروايات، واقتنى رواية «يهوذا» لأموس عوز، ووجد كتاباً معروضاً في آخر الإصدارات، لبرنارد هنري ليفي بعنوان «الإنسية اليهودية»، تردَّد في شرائه، لأنه لم يكن يحمل النقود الكافية. كانت هناك نسخة وحيدة، وخشي إن لم يأخذها أن يقتنيَها زبون فتضيع منه.

طلب من صاحب المكتبة أن يحتفظ له بكتاب هنري ليفي، بيد أن الكتبي ألحَّ عليه في أخذه، إلى أن يتهيّأ له أن يؤدِّي ثمنها. كان يعرفه لأنه كثيراً ما يتردَّد على مكانه. حمل الكتابَيْن وعاد إلى غرفته في فندق «مون ريف». قرأ ظهر كتاب أموس عوز واستأثر باهتمامه. شرع في قراءته، ولكنه لم يستطع أن يُركِّز ذهنه. كان يفكِّر في عشائه مع الطبيبة بلحاج. هل كانت تريد أن تزداد معرفة ببنيس؟ قال كلّ شيء تقريباً ممَّا يعرفه عنه. وهل سيغيِّر الحديث عن حالته الصحِّية من وضعه؟ أم هل استحكم الطَّعْم ولانت الطبيبة، وتقبل أن تربط علاقة معه؟ لم يسبق له أن ارتبط بفتاة محتجبة، ولم يكن وارداً قطُّ أن يرتبط بفتاة من ذلك الصنف، لأن الأمر في غير دائرة توجُّهه. كانت هناك فتيات محتجبات في الجريدة، بهيئة التحرير، وفي الطاقم الإداري، والعلاقة الوحيدة التي كانت تربطه بهنَّ علاقة مهنية. لكن الطبيبة .... تبدو مختلفة. ليس لأنها مُفرنَسة. كثيرات من المحتجبات مُفرنَسات، وإنما لأنها ... لا يمكن الزعم أنها متحرِّرة، لأنها لا تصافح باليد. مختلفة هي. استأثر باهتمامه كيف اختلقت حيلة كي تستدرج زوجة السي بنيس، وهو أمر لا يطابق الصورة النمطية لمحتجبة. مكَّنته من خلال تحايلها أن يعرف زوجة السيِّد بنيس، لأن ذلك قد يساعده على معرفته أكثر. لثغتها تكشف أصولها اليهودية.

انتهى أمين ألَّا يَقصر البُعد اليهودي فيمَنْ يدينون باليهودية. اكتشف ذلك حين كان طالباً بإكس أو بروفونس بفرنسا، وكان إذ يكشف عن اسمه، يُعتقد أنه يهودي، من خلال الإيماءات والإيحاءات. هل تأكل كوشير؟ هل تحترم عطلة السبت؟ وكان يضطرّ كلَّ مرَّة أن يشرح أنه من أسرة مسلمة متديِّنة. ووقف على أشكال التداخل حين هيَّأ رسالة عن اليهود الذي حلُّوا من الأندلس ببلاد المغرب، المعروفين بالغوراشيم، حيث تظل البنية الثقافية واحدة، في المعتقدات والأفراح والأتراح، مع ما تحبل به الحياة من مفاجآت، من زواج، أو اعتناق يهود للإسلام، عن خيار أو اضطرار، خوفاً أو

طمعاً، أو لِما كانت تفرضه المجاعات حين تقع، ويتحوَّل كثير من اليهود إلى الإسلام. تأنف أسرته من أن تخوض في ذلك، وتعتبر نفسها أسرة مسلمة ملتزمة. أبوه كان، قيد حياته، مقيماً للصلاة، وحجَّ إلى بيت الله الحرام، وأمّه متديِّنة. ليست من عائلة الكوهن، وإنما من عائلة لحلو. أدرك أمين عِلَّة أشياء كان والده ينصحه بها، منها ألّا يلج مقبرة، ولم يفهم علَّة ذلك إلا حين درس التراث اليهودي، وعرف أن الكوهن لا يغشى المقبرة. ولم تكن أمُّه تقبل أن يُغسَل الغسيل أو تُنظِّف البيت يوم السبت. وتعرَّف أمين على بنيس، وألفى أن يهوديَّته مطمورة كذلك، وأنه جعل من الشيوعية السبيل للتعبير عنها. المثير هو إيمانه بالقومية العربية، وانخراطه فكرياً ونضاليا في الصراع العربي الإسرائيلي. بل حجّه إلى الكعبة.

لا يريد أمين أن يقع في التنطُّع، ويُجري المطابقة بينه وبين بنيس، ولكن هناك أوجه تقاطع كثيرة. ليس له غنى تجربته بكلِّ تأكيد، ولكنه يعي جذوره اليهودية، ولم تصرفه طقوس والدَيْه عن النفاذ إلى المخبوء. هناك يهوديات. أو أشكال عدَّة منها، وكان أمين يرى أنه لا يمكن لليهودية أن تُختزَل في الصهيونية. كان مناهضاً للصهيونية، مثله مثل بنيس. هو ذا الفرق بينه وبين إستير. إستير تعتقد أنه لا يمكن الفصل بين الأمرَيْن، وأن الصهيونية هي الوجه الجديد لليهودية.

لماذا يفكِّر في هذه الأشياء وهو على أُهْبَة العشاء مع فتاة؟ المهمُّ هو الحياة، مثلما أسرَّت له إستير. لا تجعلْ حياتكَ جرياً وراء السراب، نصحتْهُ مرَّة. سراب الإيديولوجيات. المعركة الوحيدة التي يخلُق بالإنسان أن يخوضها هي معركة الحبِّ، إن كان يصحُّ أن تسمَّى معركة. وكانت معارك خسرها أمين من قبل. ارتبط بفتاة تعرَّف عليها في أثناء حَرَاك 20 فبراير. كانت ياسمين، وهو اسمها، متَّقدة حماساً، لها قدرة كبيرة على التنظيم، وصياغة الرسائل القصيرة في الفيسبوك. كان يلتقيان في شقَّة كريم، صحافي في مجلَّة بالفرنسية، ومن معارف أمين، وكانت لياسمين صديقة

تُدعى سونيا. وارتبطت سونيا بكريم، وانتهيا بالاقتران. كانوا أربعتهم لا يفترقون. يتبادلون الحديث حول أريج «الربيع العربي» وهم يشربون الخمر حتَّى الفجر، ولا يصْحون إلَّا مع الظهر. كانت أجواءً ثورية، انتفت فيها التناقضات بين الحداثيِّيْن والإسلاميِّيْن. كان الجامع هو الدعوة للاصطفاف ضدَّ الاستبداد وضدَّ الفساد، ولم يكن يخطر ببال أمين قطُّ أن ينتفش مَدّ «الربيع» أو ينحسر. وانكسر المَدُّ كموج يرتطم على الصخر، ثمَّ أخذ في الجَزْر. وتناءت ياسمين. أصبحت لها شركة تواصل، وتتلقَّى عروضاً من كبريات الشركات، والإشهار من المؤسَّسات الكبرى. كيف لياسمين التي لم يكن لها ما تشتري به علبة سجائر أن تتحوَّل بين عشية وضحاها إلى صاحبة شركة كبيرة للعلاقات العامَّة؟! اشتغلت عليها الأجهزة، وتلقَّفتْها في رفق، في دعوة «مناضل» لعشاء بمطعم فاخر، مع الخمر المعتَّق، وانتهت في فراش «المفتِّش الأكبر» Le grand inquisiteur، عرَّاب المنظومة. وذلّل «المفتِّشُ الكبير» كلَّ شيء. كان حالة مثيرة. يساري راديكالي مناهض لكلِّ شيء، ظاهرياً، ومع الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينتشله من الضَّعة، وهو السلطة. وتقرّب من أصحابها، وفتح لهم علبته من أسرار المناضلين، وأمدِّته السلطة بالوسائل، وأصبح مزيجاً من عرَّاب، كما في المافيا، ومطراناً، كما المفتِّش الأكبر عند دوستويفسكي في الإخوة كرامزوف، مَنْ يتولَّى عن المسيح تدبير رسالته، ليس باسم المعجزة، ولكنْ في حالة صاحبنا باسم الترهيب والترغيب. كان غريباً هذا الالتقاء ما بين بنية محافظة، وعناصر كانت لفترة تدعو لتقويض المنظومة. كانت المفارقة ظاهرية، لأن الفئتَيْن ترتبطان، في العمق، بمصالح مشتركة، لا تتأتَّى إلَّا بالإبقاء على المنظومة، وهو ما يمكِّن عناصر من غير قَدَم راسخة من التسلُّق. كانت كلاب حراسة. واستعملت المنظومة دوماً كلاب حراسة. تتغيَّر فصيلة كلاب الحراسة، حسب السياق والظرفية. من بنية «الأمن»، ومن اليساريِّيْن ممَّنْ أقعد بهم الركب، كما فتاة أصابها البوار، وصحافة

الخدمة، والمجتمع المدني الذيلي. وهكذا انتهى الأمر بياسمين إلى اقتناء مكتب بشارع أنفا بالدار البيضاء وتجهيزه، مع عقود مجزية ... بفضل «كلب الحراسة» الجديد. أضحت ياسمين من العالم الذي كانت تمقته، وتقدح فيه، وترفع الشعارات ضدَّه، ولم تعد تستتر في الخروج مع «كلب الحراسة» الجديد الذي اخترق المَدَّ. كانت خليلته جهاراً. تسافر معه إلى حيث يرحل إلى الخارج في الدرجة الأولى. وكانت تخونه كما خانت أميناً. ربَّما في دائرة مهامّ خاصَّة، للإيقاع بوجوه مزعجة. تصويرهم إن دعت الضرورة وتسجليهم ليوم الحاجة.

لم يبرأ أمين من تجربته، ممَّا جعله يرتاب في «الحداثيِّيْن» وقدرتهم على الثبات. كأس في بار ويمكن «للحداثي» أن يبيع أصله وفصله ...

بدأ أمين تجربة في الصحافة بعد انكسار الربيع، ولمع نجمه، وتعرَّف على جمهرة الصحافيِّيْن. وهكذا التقى بإلهام، وهي صحافية في موقع إلكتروني. كانت دائمة الاتِّصال به، لغرض أو غير غرض. خرج مع إلهام للعشاء بمطعم الدلفين بالدار البيضاء، واعتذر كي يغادر للرباط في آخر قطار، واستبقتْهُ، وعرضت عليه المبيت في شقَّتها. ولأوَّل ليلة ضاجعها. وبدأت قصَّته معها. كانت خرجت من تجربة طلاق، وبدأت مشاكلها مع أسرتها حين عادت إليها، في الحَيّ الحَسَني الشعبي. كانت تُنعَت بالبائرة. ولم تصطبر للتعريض والتلميح والشماتة. كانت تشتغل في محطَّة راديو، وفُصلت عن العمل، وأقدمت على محاولة انتحار، بابتلاع كمِّيَّة كبيرة من المُسكّنات. ولحسن الحظِّ أن تنبَّهت أُمُّها لأنها لم تصحُ من النوم. نُقلت على عجل إلى المستعجلات، وأُجري لها غسيل البطن. أُنقِذت في آخر لحظة. غادرت بيت والدَيْها، والتحقت ببيت أختها المتزوِّجة ريثما تجد شغلاً. ووجدت شغلاً في موقع من المواقع التي تناسلت كالفُطر. وكان لها أن تجد رفيقاً، ووجدتْهُ في أمين. لا يمكن الزعم أن أميناً كان مغرماً بها، ولكنها العلاقة التي بلسمت جرحه من الفتاة التي وُظِّفت لإفشال المدِّ

التحرُّري. وقف أمين على قوَّة الجهاز، وهو المصطلح الذي يحيل للقرص الصلب لبنية الأجهزة الأمنية على استمالة العناصر المتمرِّدة والشاردة وتطويع العُتاة. لم يكن إخفاقه ذاك إخفاقاً لتجربة عاطفية فقط، ولكن هزيمة كذلك لأن الجهاز تسلَّل إليه وسلب منه الفتاة التي كان يحب، مَن كان يُنظر لها في عزِّ الحرَاك كأيقونة. لذلك استكان أمين إلى إلهام. لم تكن في تميُّز، ولا شفوف، ولا انخراط فكري أو سياسي، وكان أغلب همِّها هو نفقاتها واستلافه منه ممَّا لم تكن تردُّه. عرضت على أمين أن يسكنا سوياً، كي يقتسما الإيجار ورفض، لأنه لم يكن يريد أن يتحوَّل عن الرباط. كانت الدار البيضاء مدينة الشغل، وكانت الرباط المدينة التي يخلُص فيها لنفسه. عرضت عليه أن تسكن معه في الرباط، وكاد يفعل. لم يكن يضيره ذلك، إلى اليوم الذي أُصيب بمرض جنسي، وأيقن أنها تخونه. كتم الأمر، ثمَّ ما لبث أن كلَّم زميله محند، وأطلعه هذا الأخير على ما لم يكن يعلم من أنها تخرج مع الزميل القاعدي، عمر الوجداني، وأن الجميع في الجريدة كان يعلم بتلك العلاقة، سوى أمين، وأنها فتاة لعوب تُعرَف في زمرة الصحافيِّينْ بالجنس مقابل الغداء تحويراً لهذا المبدأ الذي أرستهُ الولايات المتحدة لمَّا أن فرضت الحصار على العراق: البترول مقابل الغداء. دعاها أمين لقهوة، وقال لها في رفق إنه أُصيب بمرض جنسي، ولا يريد أن ينقله إليها. تكلَّفت الغضب، وصرخت في وجهه أنه يخونها. واكتفى بالردِّ: أنه نذل، وأنه لا يستأهلها. أدركت أنه أدرك، وأخذت تبكي، وتستعطف، وتقسم أنها لم تخنْهُ قطُّ، وأن احتمال انتقال الفطريات وارد، في الحمَّام، وفي الملابس الداخلية، وأن عليه أن يتأكَّد أين أصابه التعفُّن ... ردَّ في هدوء: «كلُّ شيء ممكن، حتَّى الافتراق ممكن.» وغادر المقهى. دون أن يودِّعها.

آلمتهُ خيانتها. وقف على الجانب المستتر من عالم الصحافة. كانت الحرِّيَّة تُقرن لدى الكثيرين بالتحرُّر، بله التفسُّخ. أي قصَّة تلك قصَّته مع

إلهام؟ يُستحسن ألّا يفكّر فيها ... يشعر بالخزي وهو يستحضر تجربته مع إلهام، ومع مَنْ كان زميلاً وصديقاً ويلتقي به بشكل طبيعي، وهو يعرف بعلاقته بها، وهو مَنْ كان يزجي في مقالاته النارية، الدروس في الأخلاق، والنُبْل، والطُهر، والعفّة، والالتزام.

ينتقل أمين من النقيض إلى النقيض. من فتيات يمكن أن تدرجنَ في خانة الحداثيات إلى فتاة محتجبة، أو حسب المصطلح الرائج ملتزمة. كيف ستجري الأمور؟ وهل يرتبط بها بعلاقة خارج الزواج؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون دعوة صداقة خُلْوٍ من أيٍّ خلفيات أو مرامٍ ..

تذكّر أن ليس له معجون أسنان ولا فرشاة. لا يضيره أن ينام من دون بيجامة، لكن لن يستطيع أن ينام من دون أن ينظّف أسنانه قبل النوم أو حين يصحو من النوم.

انتعل حذاءه وغادر الغرفة وقصد حانوتاً قرب المارشي سنترال، واشترى معجون أسنان رخيصاً وفرشاة، مع صابون الحلاقة وموسى، ثمَّ عاد لغرفته بالفندق .. وأخذ يقلّب في هاتفه، متنقِّلاً في المواقع. سمع رنَّة، وضغط على الواتساب. قرأ الرسالة:

- عندي عشر دقائق تأخُّر بسبب حركة السير. انتظرني على الساعة التاسعة إلّا ربعاً. نعيمة.

نظر إلى وجهه في المرآة. لا يبدو عليه التعب .. شعر بالارتباك كما لو كان على أُهْبة أن يجتاز اختباراً. كيف ستتعامل فتاة محتجبة مع مكان فيه الخمور؟ هل سيشرب أم لا؟ لا. لا يليق. ثمَّ هي مَنْ دعتْهُ للعشاء..

نزل درج الفندق. فضَّل أن يخرج قبل الموعد، يذرع المكان أمام فندق شيراتون ينتظر فيه نعيمة.

12

كان رأس أمين مثقلاً وهو عائد، صباحاً، في القطار من الدار البيضاء إلى الرباط. أسلم رأسه على زجاج النافذة والقطار يهدهده. لم يشمله النوم في القطار، مع أنه كان يشكو قلَّته، ويثقل عليه رأسُه، لكثرة الشرب. شرب البارحة وأسرف، وبقي مع نعيمة في المطعم حتَّى لمَّا أن غادر الزبائن المطعم ولم يبقَ سواهما. كانت قد أتت بفستان خفيف، يغطِّي ذراعَيْها، وكانت تلُفُّ رأسها بحجاب من حرير، مصفَّف بشكل أنيق، وتضع على عنقها سلسلة من فضَّة مع قلادة مع حجر أميتيست. استرعى حضورها زبائن المطعم، وظلُّوا يسترقون النظر لزبونة محتجبة، مع فتى يصغرها. يمكن للأمر أن يكون عشاء عمل، لكنهما صَعِدَا إلى الميزانَيْن، حيث يختلي العاشقون. كان يضوع منها عطر زكي، وكان يبدو لأيِّ ناظر أن العشاء ليس عشاء عمل، بل لقاء عشيقَيْن ...

- أهنا دأبتَ أن تلتقي بالسي بنيس؟ فاجأت نعيمة أميناً بالسؤال.

لم يكن يريد أن يثير أيَّ شيء يرتبط ببنيس.

- أي نعم. ولذلك يعتبر هذا المكان أثيراً بالنسبة إليَّ.

- خلتُهُ سيكون أثيراً، لأنكَ برُفْقتي.

فاجأه الردُّ. وهل للإسلاميات جميل الردِّ وحضور البديهة؟

حضر النادل، واكتفى أمين بطلب قِنِّيْنَة ماء. ردَّت:

- يمكن أن تشرب ما تريد. أعني، لا تتحرَّجْ من شرب الخمر وأنتَ معي.

استدار حيال النادل، وسأله أيّ نوع من الخمور لديهم، في زجاجة نصف ليتر، ولم يكن لهم من الخمور المعتّقة إلاَّ في زجاجة لتر إلاَّ ربعاً.

- خذْ زجاجة كبيرة، قالت له.

- لا أستطيع أن أكملها، أردف.

- اشربْ ما تقدر عليه ..

دعتْهُ للحديث عن نفسه. وتحدَّث عن مولده بفاس من أسرة محافظة، ودراسته بشعبة التاريخ، وتحضيره لرسالة في إيكس أو بروفانس ..

- حدِّثني عن نفسكَ، لا عن مساركَ ..

- ما تريدين أن أقول؟ مات أبي وأنا في سنة الباكلوريا. كان له دكَّان يبيع فيه الثوب في باب جديد، بفاس، غير بعيد عن المكان الذي كنَّا نقطن فيه بحَيّ مولاي عبد الله. كان رجلاً متديِّناً، ويمضي حياته على سَنن صارم. يفتح الحانوت في وقت مضبوط. السابعة والنصف صباحاً، قبل أن تبدأ الحركة، وينفُض عن البضاعة بمِنشَّة من الريش، ثمَّ يشعل الراديو، ويستمع لأخبار الثامنة من الإذاعة الوطنية، وعلى الساعة العاشرة يأمر في برَّاد شاي، وعلى الحادية عشرة يأتيه مساعدة بجريدة العلم، ويقرؤها من ألفها إلى يائها، ثمَّ أخذ يقتني جريدة الشرق الأوسط، في أخريات حياته. يصلِّي الظهر في مسجد الحمراء المحاذي لدكَّانه، ويعود إلى البيت ويتناول الغداء، ثمَّ يَقيل ولا يخرج إلَّا بعد أن يصلِّي العصر في البيت ... وحينها إن لم يكن هناك زبون، يقرأ القرآن ... لم يكن من الصنف، الذي مثلما نقول «كيجمّع»، أي يحب الخوض في الحديث أو النميمة، ولا يعود إلَّا مع الساعة الثامنة مساء، عدا الجُمُعة حيث يعود قبل صلاة المغرب. ما يقطع رتابة حياته الخروج في النزاهة قرب سيدي حرازم في فصل الربيع، والاصطياف في شهر غشت بإيموزار. خلال شهر غشت يكفّ عن أيِّ نشاط، ويلتقي ببعض معارفه من فاس، تحت ظلال الأشجار، ويلعب لعبة الورق التوتي.

- لم تشبهه على ما يبدو؟! سألت نعيمة أميناً.

- بلى. كنتُ متديّناً في صباي، ولكن وفاته المفاجئة أحدثت صدمة في نفسي الغضَّة. لماذا يأخذه الله إليه، والحال أنْ لم تكن عليه أعراض مرض؟ لم يصحُ من النوم ذات صيف. مات في الفراش. وحينها تمرَّدتُ على السماء ... وكان هذا التمرُّد ما فتح عليَّ ما كان مستغلقاً. وربَّما هو ما مكَّنني من أن أفهم والدي. كان يحمل شعور الاضطهاد، ممَّا ورثه عن أجداده. وكان ذلك ما يظهر من خلال انطوائه وانضباطه. وأنتِ؟

- أنا، معكَ.

- أعني حياتكِ.

- ينبغي أن تكتشفها.

- أهي مستغلقة حتَّى أكتشفها؟

- كلّ شيء مستغلق ممَّنْ لا يحدوه حبُّ الاطِّلاع.

- هل أنتَ منضوية في اتجاه إسلامي؟

- كلَّا.

- وحجابكِ؟

- أُمِّي محتجبة. ومتديِّنة. مثل أبيكَ. لكنني لم أتمرَّد عليها.

- وأبوكِ؟

- تعرف عنه الأهمّ. ضابط في الجيش.

- كيف عرفتِ أني أعرف؟

- لأنكَ نظرتَ للصورة التي في المكتب حين تركتُكَ وحيداً بها لمَّا خلوتَ بالحاجة زهرة.

- كيف عرفتِ أني نظرتُ إليها؟

- من عينيْكَ.

طلب أمين شريحة لحم من نوع نيويورك ستريب ولم ينهه. كان مشدوها بالفتاة. كانت تتكلّم في أناة، وكانت تسأل أكثر ممّا تتكلّم. علم منها أن والديها يقطنان بمكناس، وأنها تعيش وحدها بالدار البيضاء. سألتهُ عن جارته. ردَّ أمين بالقول:

- .. اشتكت مرّة من أشباح الهولوكست، ودعتني أن أعانق الحياة...

- وأين هي من هواجسها؟

- حاولت أن تُقنعني أن الفكر العبراني والإغريقي متشابهان، وأنا غير مقتنع... لا يمكن في الفكر الإغريقي أن نستحمَّ في النهر مرّتَيْن، والفكر العبراني حلقي يتكرّر... هي تستمسك بتلابيب حُلْم أو وَهْم ..

- قد لا يكون كذلك؟

- ربّما ...

- وحبيبها؟

- ازداد ألمها، لأن مَنْ تحبّ يخونها.

- جمال الحبِّ في الخيانات ..

- لكنها خيانة معقَّدة. خانها قبل أن يعرفها. تريده لنفسها، وتريده أن يضرب صفحاً عن حبيبته التي عرفها قبل أن يتعرَّف عليها.

- و ما تبتغي؟

- لا أدري على وجه التحديد. تريد اعترافاً. ربّما. ومن يمكن أن يضفي عليها الاعتراف يرفض ذلك. أظنُّها تريد أن تستأثر به. هي مستحوذة. possessive.

- ألم تُسفِر عن شخصية حبيبها؟

- كلاَ، ولا أدري أيوجد حقّاً؟! ...

- ومَنْ أدراكَ؟

- وُجِد أم لا يُوجَد، هي تُجري عليَّ نوعاً من الإسقاط، لمَنْ تعتبره حبيبها.

حينما غادر أمين ونعيمة المطعم وكان قد فرغ من الزبائن، طلبتْ منه أن يمشيا حتَّى كابريه سنترا. وقفا أمامه. التمست منه أن يغشياه. اعترض.

- لماذا؟ سألت.

- أخشى أن يُخيِّب ظنّكِ. ألَّا يطابق تصوُّركِ عنه.

- لن ألحَّ. ولكنكَ ستُحدِّثني عنه يوماً.

- أعِدكِ.

وعادا من قُبَالَة كابريه سنترا، نحو مطعم لابافاروز، وتجرَّأ فأمسك يدها اليسرى، ولم تسحبها منه. كانت أوَّل مرَّة تلمس يده يدها. كانت أصابع يدَيْها دقيقة كما أنفها، وكان يَشعّ من راحتها الدفء .. تمنَّى لو أن المسير طال بهما. بلغا مربض السيَّارات. لمَّا أن جلست في مقعد السيَّارة، أمسك يدها ورفعها إلى شفتَيْه وطبع عليهما قُبلة. لم يبدر منها اعتراض ... أغلقت باب السيَّارة، وأرسلت إليه ابتسامة، ثمَّ تحرَّكت بسيَّارتها. ظلَّ ينظر إليها حتَّى لفَّت يساراً في اتِّجاه شارع الجيش الملكي، وعاد هو الهُوَيْنَى إلى فندق مون ريف ... ولم يستطع النوم. تمدَّد في الفراش والإنارة مشتعلة. تبيَّن أنه متعلِّق بالفتاة.

***

وصل أمين محطَّة القطار أكدال، وقد عادت إليه مخلَّفات سهرته.

توقَّف بدكَّان على الطريق، واشترى مصبرات وخبزاً. قصد شقَّته. وجد الحارس با بوشعيب على باب العمارة. ابتدره:

- وبّا أمين، خليتني مهوَّل عليك يامس (أمس). بقيت نستنا فيك حتَّى الفجر. وتقول واش دّاتني عيني.

- ما باينش عليك سهرت.

- ربي اللي عالم. قل لي فين كنت باش إلَّا سولني لمقدم؟

لم يردَّ أمين. فتح باب شقَّته. قصد غرفته. نزع حوائجه من غير أن يلبس بيجامة، ثمَّ انغمر في السرير، ونام حتَّى الثالثة بعد الظهر. نهض من الفراش. أخذ دوش، وحضَّر قهوة، وتناول تونا بالخبز، ثمَّ فتح رواية «يهوذا» لعوز، ولم يرفع عينَيْه عن الكتاب إلَّا حين نزعه أذان المغرب من مسجد بدر. أضاء الغرفة .. أشعل التلفاز على قناة 24 i. وقع على مائدة مستديرة عن تنظيم «الدولة الإسلامية» واندحارها عسكرياً، وخطورتها الدائمة. لفت انتباهه أن المتحدِّثين كانوا على دراية عميقة بالموضوع ... لم يدخل العالم العربي عالم الخبرة بعد. جامعاته مؤسَّسات لتفريخ العاطلين والمؤدلجين ..كما لو أن الغرب يريد أن يهزأ من العرب: أردتُم الاستقلال، ها أنتم مستقلُّون، ولسوف نرى ما أنتم صانعون. لو كان أمين يستطيع أن يُحدِّث بنيس، ويُطلعه على الحقيقة المرَّة، لقال له إن نضاله لم يُثمر، أو كان من غير جدوى ... يتذكَّر أمين محاضرة لمثقَّف مغربي قال في عزِّ حَرَاك «الربيع العربي»، إمَّا هَبَّة، وإمَّا عودة الاستعمار في شكل جديد. الخيار الثاني هو الأكثر احتمالاً ...

دهن أمين شريحة من الزبدة والمربىَّ، ثمَّ قضم منها وهو يرتشف القهوة ... راودتْهُ نفسه أن يحلَّ عند إستير. أن يقول لها إنه خرج مع الطبيبة، وتناول العشاء معها، ولمَّا أمسك يدها لم تحُلْ بينه وبينها ... ستسعد للخبر. أغلق التلفزيون وفتح باب شقَّته. تركه مواربا، ثمَّ صَعِدَ للطابق الأوَّل حيث

شقتها. ضغط على الجرس. رنّة واحدة. انتظر. لم يَرِد ردّ. عاود الضغط. لم تكن إستير في بيتها. عاد أمين لشقّته خائباً.

استلقى على الصوفا، ثمّ انغمر في قراءة رواية «يهودا». القصّة مثيرة، ومصدر الجذب من ألمها، في مرحلة كانت إسرائيل في دائرة الشكّ، وتحمل ندوب الهولوكوست، لكنها لا تدير الظهر للنقاش. البيت الذي تجري فيه القصّة هو إسرائيل برمّتها. الأب الموتور مَنْ فقد ابنه الوحيد في حرب 48، مع ذكرى صهره مَنْ كان يؤمن بالصداقة العربية الإسرائيلية، ويُطرَد من الوكالة اليهودية، ويُلصق به نعت الخائن، وألقاب المؤذّن، والمُفتي، والفتى الذي يحُلُّ بالبيت، من أجل أن يلازم صهيونياً مقعداً .. استوقفت أميناً جملة حاييم وايزمان الواردة في الرواية، إمّا أن تقوم دولة إسرائيل ولن تكون يهودية، وإمّا الحفاظ على البُعد اليهودي ولن تقوم دولة إسرائيل. كان الحوار في الرواية حوار بالغين، ولم يكن الحوار أو ما يمكن أن يسمّى حواراً في العالم العربي إلّا لغط مراهقين ..

أدرك أمين الاختلاف بينه وبين إستير. لا تقيم تضارباً بين اليهودية والصهيونية. في هذا المنظور، لم يكن هناك مكان إلّا لواحد، وعلى الآخر أن ينسحب. لكَم هو ثقيل أن تحكم على الآخر بالزوال، وأنتَ تصدر من مرجعية أخلاقية؟ كيف للجماعة التي عانت الاضطهاد تحت فرعون، وفرّت من بطشه، ووضعت وصايا هي الأرضية إلى اليوم لحقوق الإنسان، ولشعب عاش في الغيتوهات، وتحت الذِّمّة، ثمّ المحرقة، أن يجترح مظلمة كبرى بأن يزيح شعباً، ويُخرجه من أرضه، ويحكم عليه بالنفي والتشريد؟! وكان هذا هو الخطّ الذي لم يستطع أمين أن يتجاوزه .. لا يغيِّر ذلك شيئاً طبعاً، لأنه يظلُّ هلوسات مثقّف. مثقّف هامشي، يحمل في بلده، رَغْم اعتناق أجداده للإسلام، لعنة اسمه. كان من زمرة هؤلاء الذين يُنعتون بيهود الصمت، أو مَنْ ضُرب عليهم الصمت.

في الجريدة كان يُنظَر إليه بارتياب خفي، لاسمه، بالضبط. رَغْم أن

الجميع يعرف إيمانه بالعروبة، والتزامه بالقضية الفلسطينية. ولم كيف كان عرب الشرق ينظرون إليه باستغراب حين يُسفِر عن اسمه. ولم ينسَ أمين خيبته حين تقدَّم بطلب منحة في مركز للدراسات بالدوحة، لإجراء بحث عن جذور التطرُّف. رحَّب القيِّمون على المركز، لأنه سبق أن التقى مديره، لمَّا أن حلَّ مرَّة في ندوة مشتركة مع الجريدة، وتناول معه القهوة في فندق فرح بالدار البيضاء، وأعجب «الزعيم» الجديد، بسعة ثقافة أمين، وإلمامه لتجاويف الصراع العربي الإسرائيلي. حسب أمين لأوَّل وهلة، أنه أمام هرتزل عربي ... وتبيَّن بعدها ثقافة الالتقاطية، وإحالاته الغربية الجزافية، ممَّا يغري مَنْ لا يطَّلع على النتاج الفكري الغربي. رَغْم ذلك كلّه، هيَّأ أمين خطاطة عن الموضوع لوحدة البحث، واستغرق منه الأمر شهراً، ثمَّ بعث بها.

لم يُكلِّف مسؤول الوحدة البحثية نفسه عناء الردِّ إلَّا حين عاوده أمين، وكان الجواب صادما: «تجاوزتَ الأجل لتقديم العرض». وردَّ أمين أن التكنولوجيا لا تكذب، وأن طلبه كما يُفصح عن ذلك تاريخ تقديمه عبر الإميل كان في الآجال، بعث نسختَيْن واحدة لمدير المركز وثانية لمسؤول الوحدة. تلقَّى رسالة اعتذار بعد أن لم يعد ممكناً التستُّر عن المخاتلة في كلام فضفاض عن التعاون في المستقبل، والإطراء على شخصه. والحقيقة، الحقيقة التي حالت دون قبوله هي اسمه.

مديرة جريدة القدس العربي طلبت منه أن يكون من كتَّاب الرأي، واستحثَّه الأمر. بعث بمقال، وانتظر نشره، ثمَّ بعث يسأل عن التأخير، وأتاه الردُّ. «نأسف لعدم إمكانية التعاون». من دون تعليل. ماذا يفيد أن يقف على السبب؟ اسمه؟ مرجعيَّته؟ ضغوط من جهة ما؟ لا يهمُّ، والمهمُّ أن جريدة القدس العربي رفضت أن يكون من كُتَّابها. نعم ما حدث لأمين جزئية في تاريخ الجريدة، لا علم للقرَّاء بها، ولن تؤثِّر في الصورة التي تشكَّلت عنها، ولكنْ تولَّد لدى أمين شعور أنه وقف على عورتها. وهي مؤشِّر على

عورات منظومة، ومنها الانفصام بين ما تزعمه، وتدفع له، وبين حقيقتها. بل هي عرَض لانفصام شامل، يتسترَّ عنه التقدّميون على خلاف غرمائهم من المحافظين الذين هم أكثر اتِّساقاً، ولا يزعمون المبادئ، ويدافعون عن مصالحهم، ويجهرون بذلك. وما يتسترّ عنه «التقدّميون» لا يظهر للعيان، لكن ما يلبث الزمان أن يكشف عنه ويُجلِّيه. ومأساة العالم العربي تكمن في «التقدّميِّينْ»، أكثر من المحافظين، لأنهم لا يستطيعون أن يذهبوا إلى أبعد مدى. ينثنون أمام أوَّل منعرج.

لماذا تسعى أن تحبَّ مَنْ لا يحبُّكَ؟ ردَّد أمين مع نفسه. محند وجد الحلّ: لن أحبَّ مَنْ لا يحبُّني. ولكن أميناً لم يكن في دائرة أن أحبّ مَنْ يحبُّني، وأكره مَنْ يكرهني، بل أن أحبَّ العدل .. شعر بخفَّة بعد أن انزاحت غُمَّة الخيبة من «سَدَنَة» العروبة. أمين يرتبط بقيمة، وبمُثُل، ولا يضيره أن يحبّه مَنْ يحبّ، ويزري به مَنْ يزري.

كانت أرض العروبة جرداء لم تعد تُنبت قيادات ولا أصحاب رؤى ثاقبة. محاربين ربَّما. سياسيين يتقنون اللفَّ والدوران، بكلِّ تأكيد. وهُواة في كلّ شيء. حتَّى اليهود لم يعودوا يُنجبون أنبياء. منذ بن غوريون يُفضِّلون صورة الملك داود. صورة نمطية لماكيافيلي، وقاعدة الغاية تبرِّر الوسيلة.

وكان على العرب أن يستعيروا زعامات من مرجعية مسيحية، فهم الوحيدون ممَّنْ كانوا جدِّيين ... وكان هؤلاء يخطبون في تربة جرداء، من صحراء قاحلة. مات ميشل عفلق قبل أن يموت، وأدرك جورج حبش علَّة المشكل. المشكل ليس هو تحرير فلسطين بتحرير الأرض، ولكن تحريرها بتحرير الإنسان العربي. لكن الخطاب الثوري خبا مع ظهور الخطاب الديني في صورته الكاريكاتورية، من قراءة حرفية للنصِّ التي من شأنها أن تمنح الصهيونية مبرِّر وجودها، وتستعدي الغرب ضدَّ العرب. كان البديل من منظور أمين بلا مخرج. يفضي إلى مأزق.

أشعل أمين سيجارة، ثمَّ فتح في اليوتوب قطعة «كل دا كان ليه» من موسيقى محمَّد عبد الوهاب. ثمَّ استرسل في القراءة، حتَّى الفجر.

لانت أتاليا، ورضخت لغزل الفتى الهامشي شميل .. أسدلت غطاء على صورة أبيها، مَنْ يرمز للخائن، أو يهودا، مَنْ آمن بمصالحة بين العرب واليهود، في دائرة تعايش سِلْمي ينبني على العدل.. لم تُرد أن تُشهد ذِكْراه وهما يمارسان الحبّ. كانت موزَّعة ما بين تراث أبيها الداعي للتعايش مع العرب، وجرح زوجها الذي قتله العرب.

تُرى أيتاح لأمين أن يضاجع نعيمة؟ هل سيطبع شفتَيْه على شفتَيْها، وهل تسري يده في جسدها البضّ، أم أنها ستشترط عليه ورقة، من عقد، مع تلاوة الفاتحة، ثمَّ عرساً، يُحمَل هو وإيَّاها على «العمارية»، والأصوات تصدح، «عبّاها عبّاها، والله ما خلَّاها». وإذ يقترن بها ينغمر في الطقوس والتقاليد. حول مائدة الإفطار في رمضان. خروف عيد الأضحى. ورسائل جمعة مباركة. هو مَنْ تخلَّص من ذلك كلِّه، يعود إليه من بَوَّابة الزواج؟

قبل أن يخلد أمين للنوم بعث ببرقية لنعيمة: «شكراً على كلِّ شيء».

ثمَّ انغمر في فراشه، واستسلم للنوم وهو يحلم بنعيمة.

13

كان أمين مستغرقاً في نوم عميق حين انتهى إليه رنين الجرس قوياً. لم يسعْه إلّا أن ينهض من فراشه. كان حارسَ العمارة با بوشعيب. أسلمه وصل أداء الإيجار. سأله أمين عن إستير، وردَّ الحارس أنها غادرت منذ يومَيْن، وأنها كانت تحمل حقيبة حين غادرت.

كانت الساعة التاسعة. دخل أمين المرحاض، ثمَّ عاد للفراش، ولكنه لم يستطع النوم. نهض، وقصد الحمَّام. غسل وجهه، ونظَّف أسنانه، إثرها هيَّأ قهوة. ارتشف منها، ثمَّ عاد إلى غرفته. استلقى على السرير. فتح كتاب يهوذا لعوز. غار في القراءة، ثمَّ ما لبث أن دبَّ إليه الملل. أشعل هاتفه. نظر في رسائل الواتساب. كانت أغلبها من قبيل جمعة مباركة، وأدعية لصباح سعيد، مع أخطاء لغوية وإملائية. لم يجد ما كان ينتظره: ردُّ نعيمة. هل أخذ يدها وقبلَّها؟ وهل تركتْهُ يفعل؟ أم خُيِّل إليه، بفعل الشراب؟ لماذا تسرَّع في بعثه رسالة لها في الفجر؟ ولماذا لم تَرُدَّ؟ وضع الكتابَ على الفراش منفتحاً على وجهه، ثمَّ نهض. أخذ دوش، ولفَّ فوطة على خاصرته، ثمَّ قصد المطبخ. أخرج كسيرات الخبز من الثلّاجة، ووضعها في الفرن، ثمَّ وضع الزبدة والمربىَّ والزيتون الأسود. أشعل سيجارة وهو ينظر إلى ظرف أداء الإيجار. إن لم يجد شغلاً، فلن يستطيع أن يثبت لأكثر من أربعة أشهر. ثلاثة أشهر عن التعويض الذي حصل عليه، ومدَّخراته التي لن تتجاوز بالكاد شهراً. على أكبر تقدير، مع نهاية السنة سيكون صفر

اليدَيْن. لم تكن لديه أيَّة رغبة أن يعود للصحافة. كانت الصحافة تفترض ردود فعل حول أحداث طازجة، ممَّا لا يتيح مسافة للفهم والإدراك. وكان يودُّ الفهم .. الجامعة هي مكان الفهم، لكن الجامعة شاخت من دون أن تعرف فتوَّة الشباب. انتقلت من الطفولة، في براعمها الأولى، ممَّا أخذته عن الجامعة الفرنسية، ثمَّ دخلت مرحلة الشيخوخة. نقلت مصطلحات من دون محتوى، من قبيل مختبر كذا، ووحدة كذا، والماستر، ممَّا يعني التمكُّن، ولا تمكُّن ... تحوّل سُلّم القيم، كما يفصح عنه هذا البيت المُعبِّر للبحتري:

متــى أرتِ الدُّنيا نباهــةَ خاملٍ فــلا تَرتَقِــبْ إلَّا خمــولَ نبيــهِ

قاعدة حديدية، أو صلبة، يُعبَّر عنها في الاقتصاد بالعملة السيِّئة تطرد العملة الجيِّدة. كان أمين قد تقدَّم بطلبه للالتحاق بالجامعة بعد أن عاد من إيكس أون بروفانس. استغرق تهيِّئ الملفِّ ثلاثة أشهر وأمين يتردَّد على العمادة، والكتابة العامَّة، ورئيس الشعبة، ويجمع التوصيات، ويُصوِّر نسخاً من بحثه لعناصر اللجنة. حُدِّد تاريخ تقديم الملفِّ، ولم يحضر أستاذ عضو في اللجنة، لأنه اصطحب بنته للمطار، من دون أن يعتذر. وأخيراً التأم جمع اللجنة، وكان يظهر جلياً أن لا أحد منهم قرأ رسالته، وكان أغلبهم يُبينون عن ضحالة معرفية، ويشفعون بركاكة لغوية وأخطاء نحوية .. سأله أوَّل أستاذ لمَّا أن أنهى عرض تقديم لعمله، لماذا لم يبدأ باسم الله الرحمن الرحيم. لم يُحر أمين جواباً. فضَّل الصمت. أستاذ آخر سأله لماذا كتب رسالته بالفرنسية؟ وردَّ أنه هيَّأها في إيكس أون بروفونس. سأله آخر لماذا موضوع اليهود المُرحَّلين من الأندلس؟ وردَّ أن ذلك جزء من تاريخ المغرب وواقعه وطبع ثقافته. ثالث فتح رسالته على صفحة مسطَّرة بقلم الرصاص، وسأله مَنْ هو موشي بن يهوذا هذا الذي استشهد به؟ ردَّ أمين من أنه أحد الكتَّاب

اليهود المجيدين للُّغة العربية في فترة الأندلس الإسلامية. سأله لمَ كتب بالعربية؟ وردَّ أمين أن ليس هناك بالضرورة علاقة بين اللغة العربية وبين العقيدة. شفع السائل، لمَ لم يعتنق موشي بن يهوذا الإسلام؟ واكتفى أمين بالقول إنه لا يدري. وأخيراً عقَّب الأستاذ الذي كان يبدي اطِّلاعه على العمل، أن عمله نوع من الإسرائيليات. ورسب أمين في المباراة. كان مبتهجاً أنْ رسب، في نهاية المطاف، لأنه لم يكن يريد أن يُحشَر في زمرة جامعيِّيْن أبعد هَمِّهم البحث والدقَّة والموضوعية، وشُغلهم الشاغل النميمة وكتابة البلاغات التي تحبل بالأخطاء مع توقيع «غيور على الجامعة» ... لا ينكر أمين جهود أشخاص متميِّزين، متأرجحين بين مَن استقطبَتْهم مراكز بحثية أجنبية يشتغلون معها، أو مجانين، ليس هناك تعبير آخر يعبر عن حالهم، يستمسكون بحُلْم أو سراب، بإمكاناتهم الذاتية، لكن طائراً واحداً لا يأتي بالربيع. حتَّى اللغة العربية تُبتَذَل، ولم تعد اللحمة التي تشدُّ أجيالاً إلى ذاكرة، ولا تربط معاصريها في قضايا، ولا هي تطرح رؤية مستقبلية، ممَّا يمكن أن تتيحه دور نشر جادَّة، وقنوات للتوزيع فعَّالة. دور النشر أغلبها مؤسَّسات ربحية، تقوم على الاحتيال، إمَّا جهاراً أو بالتدليس. ليس هناك أيَّة ضمانة لصيانة حقوق الكاتب ... عامل برولتيري ويُمنِّي نفسه أنْ قد سيحصل على جائزة، ويكتب تحت الطلب لما قد يروق للَّجنة المانحة للجائزة. أغلب أعضاء اللجان لم يُبدعوا شيئاً، سوى رسائلهم التي تعود إلى أزمنة سحيقة، ولكنهم حاذقون في العلاقات العامَّة، ولا يتقنون اللغة التي يزعمون الرغبة في الارتقاء بها. كان مثقَّف مغربي قد كتب في السبعينيات كتاباً جيِّداً عن أزمة المثقَّفين العرب، والإيديولوجيا العربية المعاصرة، وكان بحقٍّ مثقَّفاً جدِّيّاً لا مكان عنده للمعرفة التقريبية، ويتحلَّى بالصرامة العلمية، ولو أنه أضحى هو نفسه معبِّراً في خريف عُمُره، عن الأزمة، لأنه لم يعد يقول شيئاً سوى أوانٍ فارغة كما في تعبير الشاعر

الفرنسي مالارميه Des bibelots d'inanité sonore ممَّا كان استعمله سارتر عن الكاتب الذي لا يقول شيئاً. لو كان لأمين أن يكتب لكتب عن أزمة الثقافة العربية. لم تعد ترتبط بمشروع سياسي ولا فكري، ولا سردية تستحثُّها، ولا طموحاً جماعياً يلمُّ شَعثها. والدليل هو أن الكتابات الفكرية أغلبها مترجَم، وبترجمة رديئة لأنها تجارية. أمَّا الإسلاميون، فلا يُنتجون فكراً. يظلُّون فيما يسمِّيه أورتيغا إيكاسي بالمعتقدات، أي أنهم لم يبرحوا دائرة علم الكلام. ينطلقون من منطلق موضوعي، حالة الاحتقان، وكلبية الغرب، واستفراد الأوليغارشيات، لكنهم لا يتجاوزون هذا المنطلق، لأنهم يظلُّون في دائرة ردود الفعل، وفي إسار الحقيقة المطلقة، وفي جهل للتجربة الكونية وإعراض عنها. يجمعهم سدى واحد، ويختلفون في الوسائل، من المعتدلين الذين يتعاملون مع الواقع بانتهازية، والسلفيِّيْن الذين هم في قراءة حَرفية للنصوص والحِسْبة، والمتشدِّدين الذين يُنذرون بالأبوكاليبس، ويرتقبون المهدي المنتظر، ثمَّ الراديكاليِّيْن ممَّنْ يوظِّفون الدين أكثر من أن يكونوا في روحه، أو حتَّى معرفة لمتنه، وينتهون إلى ما يسمِّيه باحث فرنسي من أصل إيراني فرهد خوسروخوفار بـ «وحشنة» الدين. الكلمة جديدة وهي المعبِّرة عن l'ensauvagement، ولم يكن أمين على يقين أن يكون تعبيراً صائباً، ومُعبِّراً، ولكنْ في جميع الحالات يلزم نحت مصطلحات دقيقة، من وحي عبقرية اللغة العربية.

ما علَّة الضحالة الفكرية المُستشرية؟ أقصورٌ ذاتي؟ كلَّا، لا يمكن لأمين أن يقول بذلك لأنه لا يمكن لحضارة أنجبت في السابقين جهابذة في كلِّ أوجه الحياة العلمية، في بغداد وفي قرطبة وسرقسطة والقاهرة، وفاس وتونس وصقلية، أن تكون قاصرة. وكانت في أولى احتكاكها بالغرب واعدة. أمردُّه زيغ العالَم الذي أخذ يُفضِّل الخبير الذي يُقدِّم أجوبة جاهزة على مَنْ يطرح الأسئلة؟ هل يعود الوضع إلى أيادٍ أجنبية لتنميط سياسي، ومن ثمَّة ثقافي؟

كان أمين يشعر بالغربة، وكان حاله شبيهاً بتلك الصورة التي عبَّر عنها أبو حيَّان التوحيدي حين قال إن أغرب الغرباء مَنْ صار غريباً في وطنه. التوحيدي من الوجوه اللامعة المعبِّرة عن أزمة الثقافة العربية في العصور القديمة إلى جانب أبي العلاء المعرِّي والجاحظ. لم يكن أمين يميل إلى المتنبِّي، رَغْم إقراره بعبقريَّته، ويَعيب عليه استرزاقه، وفي هذا كان أمين يختلف عن بنيس الذي ظلَّ، كما هو حال جيله، معجباً بالمتنبِّي.

أخْلف أمين موعده مع التاريخ. كان يرى أن المدرسة التي أمدَّت المستضعفين بأدوات كي يخرجوا من دائرة التخلُّف والتبعية هي الماركسية، وكانت الشيوعية ذكرى اقترنت بالإخفاق ... لا يمكن إنكار إخفاقها، وتتحمَّل جزءاً كبيراً من انتكاستها، لأنها تحوَّلت إلى رؤية ميكانيكية. كان أمين يؤمن بأن الاشتراكية اللاتينية مع سان سيمون وبرودون، وبخاصَّة كرامشي هي ما يمكن أن ينقذ العالم. أو حتَّى مع سارتر في قرنه للوجودية بالإنسية. يتخلَّص الإنسان من أوهاق الماضي، بأن يوجد، كي يرتبط في آصرة، مع مَنْ يستحثُّهم أمل العدل والكرامة من البسيطة كلّها ...

تردَّد أمين أيَحلق ذقنه أم لا؟ ثمَّ استقرَّ أنْ لا حاجة للأمر. ارتدى ملابسه، ثمَّ غادر شقَّته، وصَعِد إلى شقَّة إستير، ودس ورقة من ثقب الباب. Fais moi signe quand tu viens ثمَّ كمش الورقة. لا يمكنه أن يناديها بكاف المخاطبة. لا يمكن الزعم بأنها صديقة، ثمَّ كتب ورقة أخرى بضمير الجمع، كي تُخطِرَه إن عادت. كان في حاجة للحديث إليها ... انسلَّ بعدها من باب العمارة وهو يحمل رواية أموز عوز إلى مقهى الوزاني. طلب شاياً. أغلق هاتفه كي يستطيع أن يقرأ الرواية. كان الجوُّ رَغْم الخريف حارّاً ... استغرق في القراءة، إلى أنْ بلغ مقطعاً استوقفه عمَّنْ كان يُنعَت بالخائن: «المأساة ليس أن يتوق المضطهَدُون والمعذَّبُون لأن يتحرَّروا ويرفعوا الرأس. الأسوأ هو أن يحلم المضطهَدُون أن يصبحوا جلَّادين. يتوق المُضطهَد أن

يَضطَهِدَ بدوره، والعبد أن يصبح سيِّداً.» أخرج قلم رصاص وسطَّر عموديا على المقطع. أغلق الكتاب، ثمَّ أشعل سيجارة. هي ذي المأساة، أن يتحوَّل الضحية إلى جلَّاد. ثمَّ أرسل طرفه في السابلة .. سيَّارات تجوب الشوارع. راجلون يمشون لا يلوون على شيء. تُرى أيتاح لهم أن ينظروا إلى نفوسهم؟ ولكنهم يحتاجون إلى مرآة، والمرآة هي المثقَّف الذي يعكس حقيقة المجتمع. سيقف المجتمع حينها على نفسه، كما غادة تنظر في المرآة إلى ذاتها، فتقف على أوجهها الشاحبة، تلك التي تحتاج لتزيين، وتنظر إلى علاماتها الناضرة كذلك، ممَّا قد يحتاج إلى الإبراز، أو التزيُّن أو التعهُّد. ولكنْ هل يستشعر المجتمع الحاجة إلى مرآة؟ نعم، ولكنْ لا يريد أن يؤدِّي ثمنها. اقتنى ما اعتبره مرايا، ولكنها إطارات تحمل صورة. صورة جميلة، دلَّس به عليها مَنْ يملكون القرار، ومَنْ يُفترَض أن يصوغوا المعنى، وظلَّ المجتمع ينظر للصورة الجميلة ويحسبها صورته. لم يقف على التدليس، ولذلك لم يتبيَّن بُثوره، ولا الأدران التي تلتصق بوجهه، ولا الأوضار التي علقت به، ولا التجاعيد التي علتْهُ ... ألا ليت إستير تأتي كي تُظهِره على حقيقته. كانت الآخر، أو المرآة التي تريه وجهه.

أشعل أمين هاتفه، وتنقَّل في رسائل واتساب. لا ردّ من نعيمة. ألم تجد الوقت كي تتوقَّف عن شغلها كي تنظر للرسائل؟ لمَ لمْ تردَّ؟ ثمَّ أغلق الهاتف ... تأسر المرأة لُبّه، رَغْم الحواجز كلّها، ومنها الحجاب .. حجاب لباسها، وحجاب نفسها.

نادى أمين على النادل وطلب نصف دزّينة قضبان لحم، مع بطاطس على الطريقة الفرنسية. أكل بنهم، ثمَّ أشعل سيجارة. هل سيبيع اللوحة التي أهداها إيَّاه بنيس؟ هل يتخلَّى على وديعته، إذ اللوحة ليست لوحة، وإنما آصرة. إنْ كان يريد أن يرتبط بنعيمة، فعليه أن يبيع اللوحة كي يغطِّي مصاريف لقاءاته بها. لا يريد أن يشتغل في الصحافة، على الأقلّ في

المرحلة التي هو فيها، ولا في التدريس. ومع ذلك لم يستطع أن يتخلّص من اللوحة.

عاد إلى الشقّة يجرُّ رِجْلَيْه في أسى. ما العمل؟ أن يحلّ بمستشفى ابن رشد بالدار البيضاء؟ أن يقف أمام زجاج قاعة العناية المركزة لرجل خارج الوعي، لا يتكلَّم. مفهومٌ أن يعود شخصاً مريضاً يعي ويتكلَّم، لأن ذلك يخفِّف عنه. مفهومٌ أن يَقْدم على أسرة فقيد للعزاء، لكن حالة بنيس هي حالة بين الحياة والموت. ليس واعياً كي يعوده ويخفِّف عنه، وليس ميتاً كي يُعزِّي فيه ... كما العالم العربي.

يدرك أن ما أصبح يستحثُّه للحلول بمستشفى ابن رشد ليس بنيس، ولكنْ نعيمة، وهي متنائية، غريبة الأطوار ...

أسدل أمين ستائر النافذة، ثمَّ خلع ملابسه، إلّا من التُّبَّان، وانغمر في الفراش .. فتح الهاتف. لا ردّ من نعيمة. أغلف الهاتف. وهو يلعنها: Qu'elle aille se faire foutre .

نادى على والدته من الهاتف. لم يرد منها رد. حاول أن ينام، ولكن النوم جفاه .. أشعل إنارة الأباجور. قصد المطبخ وهيَّأ قهوة. أشعل سيجارة ... عاد إلى الغرفة. فتح الهاتف. ولم ينظر لرسائل الواستاب. بحث في الريتوار، حتَّى كلمةRévélation. ضغط على الكلمة. سيسأل نعيمة عن بنيس .. ينبغي أن يبقى في دائرة علاقة مهنية. كان صوت رنين الهاتف ينتهي إليه. هل ستجيب أم لا. لم تردّ.

استلقى على ظهره. عاد فكلَّم والدته مرَّة أخرى. لا تعيد النداء لأنها أُمِّيَّة، لا تستطيع معرفة الأرقام ولا الأسماء. تتبَّع ذبذبات الهاتف. أخيراً ردَّت:

- شكون؟

- أمين، أإيما.

- كنت نصلِّي العصر أوليدي، ونعمل الورد ديالي، ونترحّم على باباك.

- الله يتأبل (يتقبل). كيف انتين؟

- مشيت البارح مع دادة مباركة لمولاي ادريس. مباركة؟ تعأل (تعقل/ تذكر) عليها؟

- وماش نسى خيرها؟ الخادمة اللي كانت عند بّا سيدي (جدي).

- الله يرضي عليك أولدي. هكذا يكونو خصايل ولاد المحظية. مباركة هي مسكينة اللي عبّتني لمولاي ادريس، وأبضت (قبضت) لي اليد حتَّى للأبة (القبة)، ودعيت معك في هذاك المآم (المقام). اللهم تعالى وعلا يأبل (يقبل).

- آمين.

- أش ماش نأول لك، ما ك نصطاب راسي (أرتاح) إلَّا في مولاي ادريس. أش من أومان (قومان/ أقوام). جاوا من كل موطع (موضع)، تؤول (تقول) المحشر. الغاشي (الحشود) في الأبّة والخصة والجامع، حتَّى الباب. شايه الله أمولاي ادريس.

- دعتي معي ف هذاك المآم (المقام)؟

- و ما ندعيش مع وليدي؟ ندعي معك في الفجر، لما تكون بيبان السما مفتوحة والدعاء مستجاب. ولمَّا نصلِّي الشفع والوتر ندعي معك. ودعيت معك ف أبة (قبة) مولاي ادريس. ألبي (قلبي) مخطوف من جهتك أوليدي. الله يحفظك ما حفظ اللسان بين الأسنان.

- آمين، أيما.

- تهولت عليك.

- ما تهوليش إيما. إيوا خلّيت لك الراحة.

- خليك لي لي.

قطع المكالمة، ثمَّ استند إلى الكنبة.

وفجأة سمع جرس الباب. قام لكي يفتح، وفي الوقت ذاته، رنّ الهاتف. عاد إلى الغرفة، وأخذ الهاتف، حدّق في شاشته. بدت له حروف Révélation. ضغط على المكالمة وهو يردّد: دقيقة كي افتح الباب. انتصب عضوه، بطريقة آلية. انتبه إليه، فتح شقًّاً من الباب. وكانت إستير. أشرع الباب وهو يُردِّد «ادخلي»، ثمَّ أدار ظهره كي لا تَظهر على عضوه المنتصب، وغشي غرفته، كي يحدّث مَنْ أصبح قلبه يخفق لها.

14

قعدت إستير في الصالون تنتظر حلول أمين. تأخَّر في التلفون. أشعلت سيجارة، ثمَّ استرخت على الكنبة ...

عاد أمين وقد فرغ من المكالمة. كان قد ارتدى لباسه. تُرى هل رأت إستير شكل عضوه منتصباً لمَّا أن فتح الباب؟ ابتدرتْهُ إستير:

- ها أنتَ ذا تبدو مبتهجاً، عزيزي أمين. فتاة، أراهن ..

- الطبيبة، كانت تحدِّثني عن حالة المريض.

- نصف ساعة كي تتحدَّثا عن حالة المريض؟ على أيّة حال، أنا فرحة لكَ. وجدت بطاقتكَ .. كنت عند أسرة العوفير. أسرة ودودة ...

- تريدين قهوة؟

- تعال إلى شقّتي، عندي خمر جيِّد من اسبانيا. أهدانيها سعد العوفير. أسرته تحدب علي، لأنها تعرف أني وحيدة، وأنتَ لا تعتني بي. لم يعد أحد يعتني بي.

- لستِ في حاجة لمَنْ يعتني بكِ.

- مَنْ زعم ذلك؟

- أمازحكِ ... سألتحق بكِ يا إستير، ريثما أن أُرتِّب الشقَّة ...

- لا تتأخَّر ... سأُهيِّئ المائدة. لديَّ مطحون الكبد الدسم كذلك ... خذ معكَ لولوب القِنِّيْنَة ... ترى أن إستير تعتني بكَ.

حلّ أمين عند إستير، وانتهى إليه صوت موسيقى الجاز. كانت المائدة مرصوصة بمقبّلات، وبها قِنِّينَة خمر غير مفتوحة.

- يمكن أن تفتحها، قالت إستير.

أخذ أمين القِنِّيْنَة وفضَّ غُلْفها، ثمَّ أدخل سِنان اللولب في يسر، وشرع في تدوير اللولب في رفق وإستير تنتقل بين المطبخ والمائدة. نزع أمين اللولب، وتوقّف في الوسط، كَمَنْ هو في عملية جنسية يستطيل المتعة، وأخير جرّ في قوَّة، حتَّى انتهى صوت الغشاء ينفصل عن القِنِّيْنَة.

- أرى أنكَ عارف، عقَّبت إستير وقد اتّخذت مجلسها وأشعلت سيجارة.. ثمَّ استرسلت:

- كنتُ في حاجة كي أغيِّر الجوَّ. انتهى لقائي الأخير بمَنْ تسمِّيه بالضمير الغائب بعاصفة هوجاء ... O la la .. استطار غضباً حين حشوتُ أنفي في حياته .. أعترفُ أنه لم يكن عليّ أن أسأل ... على أيٍّ. ذهبتُ عند أسرة العوفير في شاطئ روز ماري. كانوا ودودين.

- العوفير أسرة موريسكية؟

- تماماً.

- جاؤوا كيهود، واعتنقوا الإسلام بعدها.

- لا أجرؤ أن أحدّثهم عن ذلك ... يمكن أن أستشفَّ العمق اليهودي من خلال سلوكهم، وأنفذ إلى الثاوي منهم عبر غلالة إسلامهم ... كيف لهم أن يتبنّونني لو لم يكونوا يحملون بُعداً يهودياً؟

- هل تنبني العلاقات كلّها على محدِّد الدين؟

- يمكن أن نزعم العكس، باسم الحداثة، والمواطنة، ولكن عنصر الدين يظلّ ثاوياً، محدّداً وحاسماً ... هل تحسب أن أوربا تحرّرت من أثر الدين؟

قامت فرنسا بثورة باسم المواطنة، ولكن ذلك لم يغيِّر نظرة فرنسا للدين.
حاكمت ضابطاً منها باسم معتقده، واتّهمته بالخيانة. قضية درويفوس،
يا لها من مأساة (L'affaire Dreyfus, quel drame !). صُبَّ لي من
هذا الخمر. لسوف يروق لكَ.

صَب أمين لنفسه عقب كأس وتذوَّق منه. استطابه:

- جيِّد بالفعل...

ثمَّ أفرغ لإستير... سألها:

- كيف تعرَّفتِ على آل العوفير؟

- كنتُ ألتقي بزوجة سعد في كورال الموسيقى الغرناطية... الموسيقى هي ما جمعتنا. كلّ خميس أتردَّد على معهد موسيقى تابع لجمعية رباط الفتح... الذاكرة ليست معطى كما كنز نقع عليه، ولكنها جهد مستمرٌّ. لا أريد أن أتحدَّث عن هذه الأشياء التي تصيب الرأس بالصداع. حدِّثني عنك. لا تتستر عن شيء.

- حالة بنيس مستقرَّة.

- حدِّثني عمَّنْ تطفح بهم الحياة. صديقك هذا بنيس عاش حياته. أتمنَّى أن ينهض من غيبوبته، وإن لم ينهض منها، فهو قد عاش حياته.. حدِّثني عن الطبيبة التي تعالجه، وعليها أن تعالجكَ أنتَ. أنتَ مَن يحتاج للمعالجة.

شعر أمين بالحرج رَغْم أنه كان يودّ أن يُطلع إستير على خروجه مع نعيمة للعشاء. أليس ذلك ما كان يبتغيه، قبْلها، وقد كان متحرِّقاً أن يلتقي بإستير؟ أُصيب بالحصر.

- لا تريد الحديث؟ سألت إستير.

- ليس أني لا أريد الحديث. لا أدري من أين أبدأ؟

- من النهاية. من مكالمتكَ الأخيرة ... حينما انسللتَ كطفل إلى غرفتكَ. احكِ لي.

- ماذا تريدين أن أقول لكِ؟ خرجنا للعشاء، وألفيتُ الفتاة مفيدة.

- لا تودُّ أن تُهيِّئ أطروحة معها؟ حدِّثني عن الأشياء التي تصوغ الحياة. جِدّي حتّى في الأشياء التي لا ينبغي فيها الجدِّية. هي سمة، أو لعنة، نحملها، نحن اليهود. كي نعيش وسط أجواء مناوئة، لم يكن لنا بديل سوى أن نكون جدِّيِّيْن فيما يُعهَد لنا، من طبٍّ، وموسيقى، وصياغة، وصيرفة، أحياناً مشورة الحكَّام، لأننا لم نكن محطَّ ريبة، لا يمكن أن ننازع أحداً السلطة، وفي أوقات خلوتنا نروغ للدرس. كان الزمن يؤودنا، فنملؤه نقاشاً، ممَّا تحبل به أدبيات المشنة. كفى جدية. مع قيام دولة إسرائيل نريد أن نكون طبيعيِّيْن. أناس ككلّ الناس. أن يكون لنا، كما قال مرَّة هرتزل، منتشلون وعاهرات ... لم يفهم العرب مصطلح التطبيع، ممَّا أخذوه عنَّا. يفهمون التطبيع على أنه إقامة علاقات مع إسرائيل. التطبيع مصطلح صهيوني، وهو للتطبيع مع الحياة. العرب أخذوا منَّا كلَّ شيء، عقيدة التوحيد، والهيكل، وأقاموا به مسجداً، وأطلقوا عليه التعبير العبري نفسه، بيت مكديش. وفي كلِّ ما قاموا به هناك سوء التقليد la contrefaçon. نحن نتحدَّث إلى ياهو، وهم يزعمون أن الله كلمهم. لا يمكن أن نتفاهم .. نحمل خطيئة البداية، أو الاستكشاف الأوَّل، ولكي يجد اللاحق مبرِّر وجوده، يعمد دوماً على محق السابق. مريع أن تكون السابق. لكي يوجدوا علينا أن نندثر.

- ولكي توجدوا عليهم أن يندثروا.

- لم أقل بذلك، ولا تُقوِّلني ما لم أقل.

- اليهود يزعمون أن ياهو كلَّمهم، وسطَّر القواعد الناظمة بقلمه لهم.

- ولكنْ تمرَّدنا عليه. العرب لا يستطيعون ذلك ... لا أقيم تمايزا بين

العرب وديانتهم. الآخرون من غير العرب مستلبون. تبنّوا ديناً لا يرهقهم. اليهودية دين متعِب. تمرين جدّي. من الميشفا (سنّ البلوغ). ثمّ المتسفا (الدرس)، وفي ضروب الحياة كلّها، من الأكل والجنس. والمسيحية معقّدة، بحمولتها الهيلنية، والإله الإنسان، أو الإنسان الإله ... ثمَّ كان الإسلام حينها الدين الغالب، بحمولة حربية، يستحثّ، كما ليبدو، الجماعات ... الغَلَب نوع من ليبدو، وكان يُستحسن بالنسبة إلى الفُرس والترك والأمازيغ أن يتبنّوا ديناً صاعداً، أعني إيديولوجية صاعدة .. الأمور مختلفة الآن.

- الفُرس قاموا بثورة باسم الإسلام، والأتراك يربطون الصلة بتراثهم العثماني، والأمازيغ متعلّقون بالإسلام ...

- لستُ مقتنعة يا أمين ... أسقني كأساً.. وأعطني سيجارة ...

- عندي مالبرو حمراء. أنتِ تدخّنين البيضاء.

- لا بأس ... أتيتُ على علبة سجائري، ولم أخرج لاقتنائها. الحمراء قوية، ولكنْ لا خيار.

قدَّم لها أمين سيجارة ثمَّ أشعلها لها، وبعدها صبّ لها من قِنِّينَة الخمر ...

- لستُ مقتنعة، استرسلت إستير، والدليل أن الأتراك مع مصطفى كمال تخلَّصوا من دين العرب، والفُرْس فعلوا الشيء ذاته إبَّان الشاه.

- لكنْ انقلبوا على الشاه ومشروعه التغريبي، باسم الإسلام.

- لا تغرَّنَّك المظاهر. هي أزمة عسر الهضم. الإيرانيون فُرس قبل أن يكونوا شيعة، ويستعملون الدين من أجل الهيمنة. والأتراك يفعلون الشيء ذاته، لذات الغرض. قل لي هل يجرؤ أيّ واحد من الأتراك أو الإيرانيِّين أن يتخلَّى عن لغته لفائدة لغة القرآن، أو عن الأراضي التي قضموها من

العرب، في عربستان والجزر التي يحتلُّونها في الخليج، وقُلِ الشيء ذاته عن الأتراك في إسكندرون. ثمَّ انظر إلى الأمازيغ أو مثقَّفيهم وهم يسعون أن ينسلخوا من هيمنة العرب. يتمرَّد الأمازيغ على الدين من بَوَّابة العروبة. يدركون أنهما ممتزجان. تمرَّدوا على القومية العربية بادئ الأمر، ولمَّا ترنَّحت شحذوا أسلحتهم ضدَّ الإسلام، أعني مثقَّفيهم، مَنْ يحملون وعياً. وهم الآن بصدد التخلُّص من العروبة، جملة وتفصيلاً.

احتسى أمين من كأسه، ثمَّ أشعل سيجارة ...

كانت لإستير مسافة تقدُّم على أمين، بحُكْم ثقافتها. لم يكن مقتنعاً بما قالته، ولكنه لم يجد ما يدحض به قولها ... فضَّل أن يسألها:

- إلى أين تريدين أن تنتهي يا إستير؟

- إلى لا شيء. نظرة موضوعية لما يعتمل، بعيداً عن الحماسات الزائفة.

- فليكن. ولمَ تستنكفين عن التخلُّص من رِبقة الدين؟ أعني لمَ لا تتخلَّص إسرائيل من أثر الدين؟ لندع الإسلام والمسلمين والعرب، ولنتحدَّث عن إسرائيل وقانون القومية الذي استصدرتْهُ وتبنَّتْهُ، ممَّا يجعل المواطنة حِكْراً على مَن هم يهود.

- ما الذي يزعجكَ من هذا القانون؟ ثمَّ إن قضايا الشرق الأوسط معقَّدة ومتداخلة، لا يمكن أن نفهم ظاهرة من دون فهم ما يحيط بها.

- لنبق في إسرائيل. قانون عنصري يزري بعرب إسرائيل. مَن كانوا هناك لآلاف السنين قبل أن يحلّ يهود العالم، من أصقاع نائية؟ إسرائيل دولة احتلال ودولة أبارتيد ...

- اسمع يا أمين لو غيركَ قال ما قلتَ لصفعتُهُ على الوجنتَيْن ... نحن دولة أبارتيد؟ منذا يزعم أن يؤاخذنا؟ شعوب تنعدم فيها سيادة القانون،

واستقلالية القضاء، وحرِّيَّة التعبير، واحترام كرامة الإنسان وتُجري علينا أحكاماً جزافية .. لألف سنة في حمى الإسلام كنَّا تحت الذِّمَّة. رعايا من الدرجة الثانية. لا يمكن أن نتولَّى منصباً في الشؤون العامَّة، ولا يمكن أن نلبس لباس المسلمين، ولا يمكن أن نحمل سلاحاً، بل حتَّى أن نركب فرساً. تريد أن تعيد على مسامعي خطاب فلول القومية العربية .. أليس كذلك؟ والعمليات الانتحارية؟ وغرس سِنان السكاكين في أجسام الأبرياء؟ هل هذا هو الحوار الذي تدعو له؟ ليس لنا أن نأخذ دروساً من أحد، عزيزي. لا من أوربا التي قتلت منَّا ستَّة ملايين حرقاً، ولا من العرب الذين ساموننا الخسف خلال مسارنا الطويل في حضنهم، ولا من الصين التي تحشر ملايين المسلمين في محميات، وتضيِّق على البوذيِّيْن في التبت.

- أنا لستُ مسؤولاً عمَّا اجترحه الأوربيون، ولا ما اقترفه المسلمون في مسارهم الطويل ... ثمَّ ألا تتبجَّحين بالتعايش في المغرب، فيما تكتبين، وتحاضرين فيه؟

- لأن المغاربة ليسوا عرباً أوَّلاً، وثانياً ماذا تريد أن أقول؟ أن أصدح جهاراً بأن نبي الإسلام قتل يهود بني قريظة، وطرد بني النضير، ومثَّل ببني قينقاع؟ دينا ملخوت دينا، كما تقول الحكمة العبرية. حينما تكون في روما تصرَّفْ على شاكلة الرومان.

- أنا لا أنطلق من الماضي يا إستير. أنا أنطلق من الحاضر.

- وهل يتخلّص الإنسان من الماضي؟ لماذا أقدمتَ على تحضير رسالة عن اليهود المطرودين من الأندلس؟ قل لي. لأن ذلك الماضي يسكنكَ. تحوّل أجدادكَ إلى الإسلام، Grand bien leur fasse (طوبى لهم). وليعتبروا أنفسهم مسلمين أكثر من المسلمين، أو يجدوا شجرة أنساب تلحقهم بالجزيرة العربية. لكنْ أنتَ؟ بحمولتكَ العقلانية كلِّها ترفض أن

تنظر إلى الواقع؟ لو كنّا مواطنين كاملي المواطنة في بلاد الإسلام، يا أمين، ولم نُحشَر في غيتوهيات بأوربا، ولم نتعرَّض للهولوكوست، لكان عليكَ أن تعيب على اليهود أن يبحثوا عن ملاذ لهم. نعم هناك ثمن. وهل هناك بقعة في الأرض لم يتغيَّر مالكوها. نيس كانت إيطالية، والألزاس جرمانية، والنيو ميكسكو مكسيكية، وقُلِ الشيء ذاته عن أطراف من كاليفورنيا ... إن أراد الفلسطينيون حلاً، فليكن، وإلّا فمن حقّنا أن ندافع عن أنفسنا لمَن يتهدَّدنا. نحن رَغْم غلبتنا نمدّ اليد إليهم. تصوّر لو انتصر العرب علينا، أكانوا سيمدُّون لنا اليد؟ ... إلهي، ماذا اجترحتُ؟ فررتُ من إسرائيل، كي أهرب من هذه النقاشات البيزنطية، لكي أجدها هنا تتعقَّبني في الرباط، ومع شخص أصوله يهودية .. افتحِ النافذة ... أختنق ...

- على رسلكِ، يا إستير، نحن نتناقش، ولا سلطة لديَّ، ولا أستطيع قتل ذبابة. نتحدَّث فقط ...

- كي تقول لي إننا دولة احتلال؟ إننا دولة أبارتيد؟

- إن كنتِ ترفضين النقاش، أُمسِك عن الحديث ..

- يمكنكَ الحديث. دأبتُ على ذلك. الخطأ أني حسبتُه ورائي ... وكنتُ أودُّ الحديث معكَ في أشياء جميلة ... كنتُ انتهيتُ أن لا جدوى من النقاش حول هذه القضايا. لن نُقنع الفلسطينيِّيْن لأنهم يؤمنون بأن فلسطين أرضهم، ولا يريدون أن يقتسموها مع أحد، ولأننا نعتبر فلسطين أرضنا، ومستعدُّون أن نمدَّ اليد فيما يخصُّ الضفَّة الغربية، رغم حمولتها الدينية للكثير من اليهود.

- الفلسطينيون مستعدُّون لحلٍّ، بناء على الشرعية الدولية ...

- حسبُكَ. لستُ دولة إسرائيل، ولستَ الفلسطينيِّيْن. لا تردِّد على

مسامعي دولة أبارتيد وإلَّا طردتُكَ من بيتي ... ماذا فعلتُم بالأمازيغ في أرضهم، لأنكَ تعتبر نفسكَ عربياً؟ سرقتم منهم الماضي والحاضر، وتريدون أن تسرقوا منهم المستقبل بالزعم أنهم عرب، لأنهم مسلمون، في خلط غير بريء، ومَن تكلَّم العربية فهو عربي كما يردِّد إيتوس (Ethos) الإسلام.

التزم أمين الصمت ... ينبغي أن يغادر ... ينتظر أن يهدأ الجوُّ ...

- أعطني سيجارة من فضلكَ، نطقت إستير.

مدَّ لها أمين علبة السجائر، ثمَّ أشعل لها سيجارة ...

تكلَّفتِ الهدوء، ثمَّ سألته:

- أين وصلتَ مع محبوبتكَ؟

- خرجنا للعشاء ..

- جيِّد .. أتروقكَ؟

- نعم ..

- كيف هي؟

- مفيدة كما قلتُ لكِ. على ثقافة واسعة ...

أراد أمين أن يناكف إستير فأضاف:

- لن تصدِّقيني. محتجبة.

- كيف؟ محتجبة؟

- نعم، ترتدي الحجاب.

- وقبلت الخروج معكَ؟

- نعم.

- وكيف قبلتَ الخروج معها؟

- حرَّضَتْني على ذلك.

- ولكنْ لم تقلْ لي شيئاً عنها ... كيف يمكن أن تتفاهم مع محتجبة؟

- وكيف ألّا أتفاهم معها؟

- اصنعْ من حياتكَ ما شئتَ يا أمين ... أنا متعبة اليوم، وغداً سأذهب لإفران .. عرض علي صديقي أن أصطحبه مع بنته ... أظنُّ أنه يُستحسن أن أتركَكَ .. أتممْ كأسكَ، ودعني لحالي.

أفرغ أمين الكأس، ثمَّ نهض ... لم تُخفِ إستير امتعاضها. نطقت:

- أحتاج للراحة.

قام أمين من أريكته مرغماً:

- ليلة سعيدة يا إستير.

ثمَّ غادر من دون أن تُشيِّعه.

15

كان أمين يستمع صباحاً لموسيقى شوبان وهو يقرأ من رواية يهوذا لعوز أموس بمكتبه. لم يتبقّ من الرواية إلّا صفحات قليلة. بمقربة منه فنجان القهوة، والمِطفأة، وهو ينثر عليها رماد سيجارته حين رنّ الهاتف. نظر إلى شريطه، وألفى كلمة Révélation:

- ألو دكتورة، صباح الخير.

- ألو أمين .. ماذا تصنع؟

- أنا بصدد القراءة.

- ليست لديَّ أخبار سارَّة، وفضَّلتُ أن أتَّصل بكَ قبل أن أتَّصل بأسرة السيد بنيس. وضعه يسوء.. دقَّات قلبه خفتت، ولا يستجيب للدواء ... أُخبركَ بالأمر ... أعرف علاقتكَ بالسيِّد بنيس..

وساد صمت. لم يعرف أمين بماذا يرُدّ.

- ألو أمين. هل مازلتَ معي؟

- أنا هنا، دكتورة. سألحق بك حالاً .. سآخذ القطار ...

أغلق الكتاب، وأوقف الموسيقى من هاتفه، ثمَّ تلفن إلى محند يخبره بالمستجدِّ ... سأله محند متى يصل الدار البيضاء لينتظره في المحطَّة؟ ردَّ أمين أنه سيتَّصل به بمجرَّد أن يستقلَّ القطار.

استقلَّ أوَّل قطار. وصل الدار البيضاء حوالي الحادية عشرة. وجد محند

في انتظاره. نزلا إلى مرأب السيَّارات واستقلاَّ سيَّارة محند. لمَّا وصلا قسم الإنعاش بمستشفى ابن رشد، وجدا زوجة بنيس للا زهرة وبنتَيْه، وبعضاً من معارفه في الردهة المفضية لقاعة الإنعاش، واقفين وهم وُجوم. لم يكن يُسمَح لأحد بالدخول. سلَّم أمين بأدب على زوجة بنيس وبنتَيْه. اعتذر لمحند كي يلتحق بالطبيبة. طرق باب مكتبها، وأذنت له في الدخول ... لم يتبيّن أنه مدَّ يده لها. نسي أنها لا تصافح الرجال. بعد بُرهة، ثمَّ مدَّت له يدها. شعر بدفء رَغْم الذهول الذي كان فيه.. أشارت له بالجلوس. نطقت:

- تجشمتَ العناء، يا أمين..

- أقلّ ما يمكن. كيف هي حالته؟

- ما أبلغتُكَ به هذا الصباح. خفقان قلبه وئيد ومضطرب .. يتنفَّس اصطناعياً ...

- بمعنى؟

- يمكن للقلب أن يتوقَّف في كلِّ لحظة ... لا يستطيع الطبُّ كبير أمر الآن ...

أحنى أمين رأسه، في أسى. تلمَّس جيبه يبحث عن علبة السجائر، ثمَّ تبيَّن أنه لا يستطيع التدخين. أخرجتْهُ الطبيبة من ذهوله:

- سنضطرُّ لاستعمال صعقة قلبية ... عملية غير مأمونة قد يترتَّب عنها مخلَّفات ...

- أيّ نوع من المخلفات؟

- جلطة. مع خطر شلل.

- لا أدري ما أصنع. أشعر بالعجز. قال أمين.

- آسفة. عقَّبت الطبيبة.

- لا عليكِ .. ليس هناك ما يستدعي التأسُّف من جانبكِ ...

ضغطت الطبيبة على زرٍّ. دخلت ممرِّضة. طلبت منها الطبيبة أن تنادي على الطبيب المساعد. دخل شابٌّ. حيَّى الطبيبة:

- نعم دكتورة ...

- ينبغي القيام بصعقة كهربائية (Electro choc)... وقل للأسرة أن لا حاجة للبقاء ... حضور معارفه بكثافة يزعج سير المصلحة ..

- Entendu (سمعاً) دكتورة.

ثمَّ خرج الطبيب المساعد.

- يمكنكَ أن تبقى إن أردتَ .. قالت نعيمة لأمين.

تذكّر رفيقه محند مَن بصحبته في ردهة المصلحة واعتذر لها:

- ينبغي أن أغادر إن غادرت الأسرة ..

- نبقى على اتِّصال، في الحالات جميعها.

قام أمين، وأومأ برأسه تحية للطبيبة، ثمَّ انسلَّ من مكتبها. التحق بمحند الذي كان ينتظره بالردهة ... كان أعضاء الأسرة ومعارف بنيس قد غادروا المصلحة. حذا كلٌّ من أمين ومحند حذوهم. توجها نحو الساحة ومنها إلى مقصف المستشفى. كان أمين مطرقاً لا ينبس. قاطع محند الصمت:

- هل أنتَ على علم بما حاق بالصحافي السعودي جمال خاشقجي؟

- لا، اكتفى أمين بالردّ.

- دخل مبنى قنصلية بلاده بإسطنبول ولم يخرج منها .. هناك إشاعات أن تمَّ اختطافه أو لربمَّا تصفيته. السعودية تُنكر وتزعم أنه غادر مبنى السفارة..

- اختطاف؟

- قضية غامضة ...

- كنتُ أقرأ مقالاته التي كان ينشرها في الواشنطن بوست مترجمة إلى العربية. كان صاحبَ فكر ثاقب.

- العالم العربي لا يريد فكراً ثاقباً، عقَّب محند متندِّراً.

- قضية مهدي بن بركة مكرَّرة ... أتمنَّى أن يُفرَج عنه وتُعرَف الحقيقة بشأنه.

وقف النادل عليهما. اكتفى أمين بطلب همبرغر مع كوكا، وفعل محند الشيء ذاته ..

- لم يعد ممكناً أن ننتظر شيئاً من العالم العربي للأسف. قرن من الزمن من أجل لا شيء كما قال غسّان تويني، ردَّد أمين بأسى.

- العالم العربي لا يوجد.

- لا يوجد لأنه أخفق. لو أنه نجح لما كان الموضوع ليثير أسئلة عن وجوده من عدمه ... ما فشل هو عملية البناء، أمَّا مواد البناء فموجودة. قضايا مشتركة، ذاكرة، لغة ..

- هل اللغة آصرة؟ أحكم على ما أرى لا على ما يمكن أن يكون.

- من هذا المنحى أنتَ مُحقّ، ولكنْ هل دور المثقّف أن يبقى في دائرة ما هو كائن، ويجدَ التبرير لما هو قائم؟ هل هناك مجتمعات من غير حُلْم؟ حُلْم كبير؟ من دون حُلْم، تُردُّ المجتمعات إلى استراتيجية البقاء. تَطعم، تتناسل، يراكم المحظوظون الأموال. تنثني المجتمعات للغة الحساب، وتنتفي لديها القِيَم. قِيَم التضامن والبذل والتضحية وأواصر من ثقافة مشتركة، ومصير مشترك ... انظرْ إلى مصر كيف كانت وكيف أضحت،

أو كيف كان المصريون وكيف أصبحوا .. الأمّة التي أبدعت فكرة التجريد، من خلال الإله أمون، وأرست منظومة أخلاق هي الأسّ لما تناسل عنها من عقيدة التوحيد. من قدرتها على التجريد أبدعت الهندسة في إنجازات مبهرة ... ظلَّ هذا العمق ثاوياً فيها، وهو ما كان عبَّر عنه توفيق الحكيم بعودة الروح. ارتمت في أحضان الآخر، منذ اتِّفاق كامب ديفيد، وعوَّلت على الغرب، فيما كان أسماه توفيق الحكيم بعودة الوعي. ولا أرى عودة وعي، وتمّ الإجهاز على الروح ... كان الناس يأكلون الطعمية وهو منتشون، لأنهم كانوا يرتبطون برابط، وبحُلْم، ومصير مشترك. أضحت فئة من القطط السمان كما ينعتهم نجيب محفوظ تتبختر اليوم في فور سيزنس بجاردن ستي، تأكل الكافيار وتشرب الشامباني وتختال في الغردقة. ولم يعد يُحرِّك الغلبانين إلَّا الحقد ... لأن السدى انحلَّ، ولأنهم أضحوا من غير حُلْم ...

- ذلك ماض ولَّى ... الحقيقة هي ما نرى. ديكتاتورية عسكرية في مصر. خراب في سورية. دمار في اليمن. حرب أهلية في ليبيا. تنظيم إرهابي في العراق، وممارسات تعود إلى العصور الوسطى بالسبي والرمي من شاهق ... العرب غير قادرين على القواعد الدنيا للتعايش، كما قال أكاديمي إسرائيلي.

- يمكنه أن يقول ما يريد، لأن الخراب الذي ألمعتَ له، هو في جزء كبير صنيعة إسرائيل.. ليس بطريقة مباشرة.. لا يمكن أن أسبغ عليها هذه القوَّة كلّها، ولكن قوّتها في توظيف التناقضات الداخلية. ليس اليوم، ولكنْ منذ أن قامت ...

- كيف لشخص مثلكَ أن يقول بهذا؟ أن يفسَر كلَّ شيء بالمؤامرة.

- أُعيد ما يقوله الإسرائيليون أنفسهم. يردِّدون في ازدهاء أنهم مَن أجهز على الحُلْم. أعترف أن المسؤولية مشتركة، أو كما يقول المَثَل المغربي،

شوية من الحنَّاء وشوية من ترطاب اليدَيْن (أيادي رخصة). أيادينا مَجِنة، لأن السلطة والثروة محتكرة، والحنَّاء سيِّئة، حنَّاء الغرب ..

حضر النادل، ووضع شطيرتَيْن من الهومبورغر، ثمَّ أحضر حُقَّيْن من كوكا .. قضم أمين ساندوشه في صمت.. باغته محند بالسؤال:

- كيف تُلقي بالتعلَّة على إسرائيل؟ أنتَ؟

- وكيف تُنزِّه إسرائيل، وتنظر إليها كمثال؟ أنتَ؟

- إسرائيل دولة ديمقراطية.

- لساكنتها اليهود. كما كانت أمريكا ديمقراطية لساكنتها البيض، من غير الإنسان الأسود ... اسمع يا محند، نبع الغرب آسن، ومَن يقول لكَ بهذا نتاج للغرب، من خلال ثقافته، ومنظومته الفكرية ... هو ذا المشكل، أو مثلما قال أبو حيَّان التوحيدي: إلى متى نبتلع السموم ونحن نظنُّ أن الشفاء فيها.

- لا يمكن أن أجاريكَ في تحليلكَ يا أمين ...

- أفهم جرحكَ الوجودي يا محند. وهو جرحنا جميعاً ... أعرف ما تستشعره منذ اعتقال ناشطي الريف، والحكم عليهم بأحكام قاسية. من المؤكّد أن هناك أشياء لدى الأمازيغي لا أدركها، ولكني لا أريد أن نتحوّل إلى شيع وطوائف .. عدالة لكلّ طائفة، وحرِّيَّة لكلّ طائفة ... حينما تُجتزأ العدالة، وتُجرى بناء على طوائف تكفّ أن تكون عدالة ... كما الجسد حين تقتطعه إلى أطراف تكفّ فيه الروح ... نحن لسنا في مشرحة يا محند، كما أطبّاء متمرِّنين، يُجرون تجارب على أجسام من دون روح، يُقطِّعونها إرباً إرباً. الجسد ما يزال ينبض بالحياة، ولا يمكن أن نُجزِّئه إلى أطراف كي نفهم ما بداخله. والجسد جسدنا جميعاً.

- على مستوى شمال إفريقيا، نعم. لكنْ ليس على مستوى ما تسمّيه بالعالم العربي.

- انظرْ لواقع شَمَال إفريقيا؟ هل تحسب وضعها منفصلاً عمَّا يجري في الشرق الأوسط؟ هل تعتبر أن فرقعاته لا تصلنا، وأن تموُّجاته لا تبلغنا؟ هل تعتقد ألَّا رابط يربطنا؟

- مَن لم يتلظّ بندوب الاحتقار لا يمكن أن يدرك حقائق الاحتقار.

- وهل تحسبني لم أتلظَّ به، ولا أني أحمل ندوبه؟ كوهن ... اسم يهودي، يُرتاب في حامله، وأجده في كلِّ منعرج من حياتي يقف حجر عثرة في مساري. رُفِضتُ من الجامعة لأن أستاذاً اعتبر بحثي نوعاً من الإسرائيليات. لم يتمّ قبولي في مركز بحث بالدوحة، لأن اسمي لم يشفع لي. وجريدة القدس العربي لم تقبل أن أكون من كتَّاب الرأي فيها، وحتَّى في الجريدة التي فُصِلت منها. تغيير الخطّ التحريري مجرَّد ذريعة ..

- العالم العربي قصَّة لم تعد تستهويني. النور يُشرق من الغرب، هذه المرَّة.

- ويسطع نوره على الغرب، وعلى الغرب وحده. ليس لنا مكان بداخل الغرب. وسطاء، أهالي، موظّفو الخدمة، مرتزقة. كان ذلك في عنفوان الغرب ... الغرب يشيخ يا محند ... ولا ينبغي أن نكتفي بترديد ما يقوله كببغاوات ... ينبغي أن نُخضعه للنقد ... التقليد ليس حلاًّ. يفضي إلى ما يسمِّيه الفيلسوف الفرنسي رونيه جيرار بالعار الوجودي، لأن المقلِّد ينتهي إلى فقدان تقدير الذات.

- أفضل أن أقلِّد الغرب على أن أقلِّد الشرق.

ارتشف أمين من حُقِّ كوكا عبر التبن البلاستيكي، ثمَّ قال كما لو تعب من نقاشات هامشيين، من غير منفذ:

- لا أدري كم سيعيش بنيس. أيّامه معدودة، ولكني أشعر منذ اليوم بواجب الوفاء ..

- في هذه الحالة، لا ينبغي أن تجتزئ الشهادة.

- بمعنى؟

- هل أنتَ مستعدٌّ أن تسمع؟

- ومتى استنكفتُ عن الاستماع؟

- كنتُ جزءاً من هذه السردية يا أمين. لجيلَيْن. بل لثلاثة أجيال، لأني كنتُ أؤمن بها ... أنا سليل رجل لم تسمع به قطُّ. محمَّد سلام أمزيان. كان انتفض في الريف ضدَّ التسطيح والظلم سنة 1958. وأخفق، وفرَّ إلى القاهرة وعانق قضايا القومية العربية. ولم يعد منذ ذلك الحين إلى المغرب إلَّا جثّة، كي يدفن في هزيع الليل، بلا تشييع، سنة 1995. كان مريضاً، يعيش بالعراق، حين أطبقت الولايات المتَّحدة حصارها عليه، وغادره إلى هولندا، حيث كان له ابن، تركه في بطن أمِّه، ولم يلتق به إلا بعد ثلاثين سنة، قبل أن تجمع بهما بلاد «الكفر». كان يريد أن يموت في بلده، ومُنع من ذلك، رَغْم أنه خلَّف السياسة وراءه. اعترض رجل كي يموت رجل في أرضه. الرجل الأوَّل أنيل السلطة المطلقة. ولم يكن لهذه السلطة المطلقة أدنى مكان لاعتبارات إنسانية. فرَّ جَدِّي وقد أخفق في مسعاه، وهو يقطع الجبال ليلاً، لأكثر من مئة كيلومتر مشياً على القدمَيْن، نحو مليلية، يقتات من الأعشاب. ترك طفلاً، في الرابعة من عمره، هو أبي، وكان أن غشي السجن في سنِّه تلك، وخلَّف جَدِّي بنتاً تُوفِّيت في ظروف غامضة، وأخرى عاشت حياة مأساوية، وجنيناً، هو مَن يعيش اليوم مَنفيّاً في هولندا. حمل أبي خطاب حقوق الإنسان وقاده إلى السجن، مرَّة أخرى، وخرج منه بندوب نفسية وجسدية، منها قصور كلوي .... إن كنتَ تريد أن تكون وفياً لمرحلة، فلا تقف عند جزء منها، ولا تكتفِ بالنتائج دون

المسبّبات. القومية العربية ليست خطاباً فقط بالنسبة إليَّ، ولكنْ جراحا ما تزال ندوبها قائمة. يمكن أن أفهم أن يكون جَدِّي فشل. ضربة عادية في السياسة. ولكنْ كيف يمكن أن أقبل منعه من العودة لبلده، كي يموت فيه، وألّا يأتي إليه إلّا جثّة هامدة، وأن يُدفَن في جنح الظلام مِن قِبَل مَن يُلوِّحون بالتقاليد والنسب الشريف، والحنفية الغرّاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلّا هالك.

غار أمين في ذهول. لم يُكمل ساندويشه .. ساد صمت ثقيل بين الصديقَيْن. ثاب أمين لنفسه حين رأى محند يرفع ذراعه نحو النادل. أدّى محند، ثمَّ ذهبا صوب السيّارة.

عرض محند على أمين أن ينزل عنده ببيته .. اعتذر أمين.

- شكراً يا محند ... يستحسن أن أعود للرباط ... إن أمكن أن تأخذني إلى المحطّة.

كان السير في الدار البيضاء مزدحماً، لأنها ساعة الذروة مع الأشغال في شارع الكورنيش..

أخذ أمين قطار السادسة. كان مكتظّاً. لم يجد مقعداً، وبقي واقفاً حتّى المحمَّدية. رنّ الهاتف. قرأ اسم المرسِل. Révélation. خفق قلبه. خشي خبراً مفجعاً. أشعل الهاتف:

- أمين، أين أنت؟

- في القطار ...

- للأسف كنتُ أودُّ أن أعرض عليكَ أن نتناول قهوة ..

- لم تُخبريني من قبل.

- لم أستطيع بالنظر إلى الالتزامات المهنية وحالة السي بنيس.

- كيف حاله؟

- تحسُّن طفيف. الحمد لله لم يقع ما كنتُ أخشاه من مضاعفات جانبية للصعقة الكهربائية تؤدِّي إلى شلل ..

- أوف ..

وغاضت قريحة أمين .. لم يجد ما يقوله لها، ووجد الحرج أن يتكلَّم في القطار ...

- أنا في القطار، هل يمكن أن أُكلِّمكِ فيما بعد؟

- طبعاً ...

بلغ أمين شقَّته. فتح رواية يهودا. أنهاها ... أشعل موسيقى كلاسيكية، ثمَّ فتح قِنِّينَة نبيذ، وأخذ يحتسي منها وهو يدخِّن، مسترجعاً لمحات من علاقته ببنيس، وهو يناديه «الموتشو انتين ماش تحمأني» ... تذكر حين حدّث أمين بنيس عن شاعرة أمازيغية نشرت في صفحتها في الفيس بوك أنها تُنذر فرجها للمقاتلين الأكراد من البشرمكة ردّاً على نداء الدولة الإسلامية لجهاد النِّكَاح. كم ضحك حينها بنيس وطلب من أمين أن يقرأ له من شِعْرها .. تذكّر حين حضرا حفلاً موسيقياً بفاس، لفرقة تغنّي المنفرجة، ولم يتمالك بنيس أن نهض وهو يرفع يدَيْه في انتشاء كما يفعل أصحاب الحضرة الصوفية. تذكَّر وبنيس يتكلَّم عن جمال عبد الناصر، الفرصة الضائعة كما كان يسمِّيها، ثمَّ حديثه بإعجاب عن المهدي بن بركة وقد ارتبط به بصداقة في الجزائر. استحضر حديثه عن عمر بنجلون يوم إذ قتل، وكان في المكان الذي قتل فيه في شارع كاميل مولان (المسيرة الخضراء حالياً) ... استحضر وبنيس يحدِّثه عن تلك البراعم الفنِّية التي بزغت بعد هزيمة 67، من ناس الغيوان ومسرح الشعب مع عبد الصمد الكنفاوي .. استحضر ولعه بالشِّعْر، من السيَّاب وكان يحفظ له، ومحمود درويش، وكان مفتتناً به، والشعراء المغاربة، وكان قارئاً لهم، متتبِّعاً لنتاجهم. لم يكن شيء يُطرب بنيس في الغناء كما أمّ كلثوم ومحمّد عبد الوهاب. الرجل

الذي عاش المحطات الفارقة في العالم العربي منذ 48، جسم بلا حَراك، اختلطت في ذهنه الأزمنة والأشياء والأشخاص ...

ثمَّ عاد إلى أمين بوح محند. تبيَّن أنه لم يكن يعرف عن زميله إلَّا ظاهرا من الأمر.

دخَّن أمين سيجارة تلو أخرى. نهض إلى الحمَّام، تبول وهو يمسك الحائط بيده، ثمَّ قصد المطبخ. أخرج الجبن والزيتون من الثلَّاجة .. عاد إلى الكنبة وهو يتهادى من الثمل .. أفرغ الكأس الأخيرة، وقضم من الزيتون والجبن.

- Zut (أُفٍ)، نسيتُ أن أُكلِّم نعيمة .. نطق محدِّثاً نفسه.

نظر إلى ساعته. كانت الساعة متأخِّرة.

16

في القطار من الرباط إلى الدار البيضاء، قرأ أمين في الصحف، تسريبات جريدة يني شفق التركية، ممَّا نقلته الصحافة الدولية عن تصفية محتملة للصحافي جمال خاشقجي. فتح أمين هاتفه وانتقل بين المواقع .. لم ينادِ على نعيمة لأنها في الصباح لا تردّ أو تُغلقُ هاتفها، إذ تكون في عيادات أو فحوصات أو قاعة العمليات.. استقلَّ تاكسي من محطةَ القطار إلى المستشفى، ولمَّا بلغ واجهة مبنى الجناح السادس، لفت انتباهه جمٌّ غفير عرف منهم بعضاً من الفَنَّانين والأدباء والصحافيِّينْ ... تقدَّم إليه محسن المرغيني، وارتمى في حضنه وهو يجهش بالبكاء:

- مشى اللي كان يعطف علينا ...

أُصيب أمين بالذهول.. سلَّم عليه المؤرِّخ بوعزيز برباطة جأش، واحتضنه الناشط المعطي، وكان بنيس يخصّهما بالتقدير. تقاطر عليه المعزّون حتَّى لم يعد يثبت على أحد منهم. كانوا يعرفون علاقته ببنيس. أخذ يرِّدد بطريقة آلية «البركة في روسكم» ،«ما مشى معك باس»، «لا أحزنك الله.» «إنّا لله وإنا إليه راجعون» .. ألفى محند وسط الجموع. احتضن محند أميناً وهو يربِّت على ظهره.. لا أحد تجرَّأ أن يُكلّم أميناً في الهاتف ليخبره بوفاة بنيس.. ذرع أمين الردهة المفضية لجناح الإنعاش رَقْم 17. وجد نعيمة واقفة تنتظره في الدهليز وقد أُخبِرت بحلوله. كانت تحبس دموعها. تقدَّمت نحو أمين وارتمت في حضنه، ولم يشعر إلَّا وهو يجهش بالبكاء ...

- متى كان ذلك؟ سأل أمين بصوت متهدِّج.

- هذا الصباح ..

- لمَ لم تخبريني؟

- لم أجرؤ ..

دعتْهُ إلى مكتبها. جلس بالكرسي، ثمَّ مسح عينَيْه بظهر يده. أقبلت عليه الممرِّضة التي كانت تعالج بنيس، والطبيب المتمرِّن وقدَّما إليه العزاء ..

- أين أسرته؟ ردَّد أمين ولمَّا يبرحِ التهدُّج صوتَه.

- هناك أخوه، ردَّت نعيمة، مَن يقوم بالإجراءات الإدارية. زوجته وبنتاه في البيت .. لن يُدفَن إلَّا غداً. لأن له ابناً في الإمارات وآخر في كندا، ولن يحضرا إلَّا غداً ... هل تريد أن تقدِّم العزاء لأخيه؟

رافقت نعيمة أميناً إلى جناح مستودع الأموات. غشيت مكتب الطبيب الشرعي. كان به رجل مسنٌّ يلبس جلباباً أبيض، واستنتج أمين أنه أخاه. قدَّم له العزاء، ثمَّ قفل مع نعيمة إلى مكتبها. كانا وحدهما. أمسكت يده وضغطت عليها. أكان لبنيس أن يموت كي تحتضن نعيمة أميناً وتمسكه من يده؟ احتبس الكلام من أمين ولم يَدر ما يصنع ... انتهى بالقول:

- لديكِ ما تصنعينه يا نعيمة (من دون لقب) .. ألتحق بالمعزِّين ..

شيّعته حتَّى باب الجناح المفضي إلى الساحة، ووضعت ظاهر يدها على وجنته قائلة:

- أقدِّر حزنكَ يا أمين. أنتَ ابنه الروحي، ولكنْ لا تُبن عن ذلك ... قد تعتبر الأسرة ذلك تطاولاً منكَ ...

وجد أمين أخ الفقيد بالساحة والمعزُّون يسلِّمون عليه. دعاهم هذا الأخير للالتحاق ببيت الفقيد .. تذكَّر أمين نصيحة نعيمة ... ينبغي أن يتضاءل حتَّى لا يُشعر الأسرة أنه أكثرهم وِتراً، كما زوجة ثانية خَفيَّة تظهر في أثناء الجنازة، ولا يُسمح لها أن تشاطر الأسرة الشرعية مصابها ..

قصد أمين محند، وكلَّمه كي يغادرا ... عرض عليه محند أن يبيت عنده، واعتذر أمين لأنه لم يأتِ بأغراضه، ولا يليق أن يحضر مراسم الدفن بلباس سبور ... لم يُلحَّ محند. ذهبا لمطعم الدلفين قرب الميناء. اختار أمين جناح التدخين بالمطعم. صَعِدَا إلى الطابق الأوَّل منه ...

تناولا الغداء في صمت .. أدَّى محند .. ثمَّ سار أمين إلى المحطّة، بمقربة من المطعم ... كانت الحياة عادية. أفواج تحلُّ من القطار، وأخرى تمتطيه، ومسافرون يهرعون كي يتداركوا القطار، وهو نفسه كان يبدو طبيعياً ... قدَّم بطاقته لمراقب المحطَّة وتوجَّه إلى رصيف القطار المتوجِّه للرباط، كأن لا شيء تغيَّر. استلقى على المقعد. في القطار لم يكن إلَّا مسافراً، وفي أعماق نفسه كان شخصاً موتوراً ، يحمل جرح رجل رحل، يحيل لمرحلة من تاريخ منطقة أثَّرت في العالم بقدر ما تأثَّرت به.

17

وصل أمين بيت الفقيد عند الغد ضحى قبيل خروج الجنازة. كان يرتدي بدلة داكنة من غير رابطة عنق. قدَّم العزاء لزوجة الفقيد وأولاده. كان ابنه من الإمارات العربية وابنه الآخر من كندا قد وصلا الدار البيضاء .. وكانت الحاجة زهرة جالسة في ركن من الصالون وهي ترتدي لباساً أبيض، وأصوات فقهاء يُرتِّلون القرآن. أخذ فتى سوري مغنٍّ، مقيم بالمغرب، أميناً، سبق أن التقاه مع بنيس وحضر لقاء فنِّياً له بفاس، وهو ينسج على منوال صباح فخري، إلى الحاجة زهرة. أمسك أمين يدها، وضمَّته إليه:

- مسى الحاز ... مسى المكَب اللي نتغطاو به..طاح لنا المزّان أوليدي.[1]

كان ما استرعى انتباه أمين في البيت هو المرايا المغطّاة ... كان يعرف أن الطقس يهودي ... خرج من البيت وأشعل سيجارة. التحق به جمعٌ من المعزّين، وكان الحديث أغلبه عن الصحافي السعودي جمال خاشقجي، ما تردّد من أنه قُطِّع إرباً ارباً. اقشعرَّ جسم أمين لِما نُمي إليه.. هل يمكن للتحامل على مُعارِض أن يبلغ هذا الحدَّ من الهمجية؟ طلب أمين من الفتى السوري إن كان يمكن أن يرافقه في سيّارته إلى المسجد، حيث تقام صلاة الجنازة ..

---

1) تعبير يُستعمل بمدينة فاس، ويعني مَنْ فقد حظوته. هناك اختلاف حول أصل كلمة المزّان. يرى الأكاديمي شفيق أنها أمازيغية من إمجان، أي الأذنان، كما الكلب حين يطوي أذنيه، ويرى شمعون ليفي أنها كلمة من أصل عبري تعني السعد.

انطلق الموكب في اتِّجاه مسجد التيسير القريب من مقبرة الشهداء، على نداء الله أكبر. ثمَّ خفت الدعاء ... سأل أمين الفتى عن الوضع في سورية. رد الفتى «اللي بيصير فزيع، (فظيع) .. بس شو بدنا نعمل. الله كريم». ثمَّ أخذ يترنَّم بأصابعه على مقود السيَّارة «يا مالي الشام يا الله يا مالي، طال المطال ..» هل هو ذا مآل ما كان آمن به بنيس؟ الخراب وعدم الوعي بالخراب.. هل يُطمَر مع بنيس العالم الذي حلم به والفكرة التي استحثَّته؟ يا للحسرة، ردَّد أمين. كان أمين يريد أن يمسك بتلابيب ذاك العالم، من خلال بوح رجل، عاش مراحله الفارقة، من 48، و67، فخروج مصر من الصفِّ العربي مع كامب ديفيد، مع محطَّات انقشاع تشي بعودة الوعي. من حرب أكتوبر، والانتفاضة، وحماسة الشارع في أثناء أزمة الخليج، وفورة الربيع العربي، لكنها لحظات حماس عابرة، أو زائفة بتعبير إستير ... هل تكون تعبيراً عن وعي زائف؟

لعلَّ التحوُّل الكبير وقع مع حرب الخليج (1990-1991)، ردَّد أمين والسيَّارة تقفو موكب الجنازة .. كانت تلك حادثة السير التي أدخلت العالم العربي مرحلة الكوما، كما وقع لبنيس ... مع لُمع وعي، وما تخلَّلها من اختلاط الأزمنة، من مرجعيات مختلفة ... كان بنيس يردِّد على أمين أن التحوُّل هو 67 .. منذ ذلك التاريخ والجمرة تخبو. لم يكن أمين قد وُلد حينها، ولا يعرف عن تلك المرحلة إلَّا ما قرأه عنها ... ألفى أن التحوّل الذي أطفأ الجمرة هو 1990، أو حرب الخليج الثانية ... هي المرحلة الضرورية من أجل فهم حادثة السير وزيغ الرَّكب ... هي التي أطفأت الجمرة ... هي شراء الذِّمَم، والتسطيح الثقافي، والقولبة السياسية والتأثير الإعلامي. مع ما صاحب ذلك من غضب في شكل سُعار. سُعار هو نتيجة، وليس سبباً.

كان الشابُّ السوري يترنَّم مواويل شامية حين توقَّف الموكب قرب المسجد. تصنَّع الفتى التأثُّر وهو يردِّد «الله يرحم الحاج». أخرج منديلاً

كي يمسح دموعه. دخلت الجموع المسجد لصلاة الظهر. لم يدخل أمين المسجد. بقي متسمِّراً في مكانه. ذاهلاً عن كلِّ شيء. هي صلاته لذكرى بنيس. خرج المصلُّون بعد أداء صلاة الظهر وصلاة الجنازة. تكوَّف موكب الجنازة في اتِّجاه مقبرة الشهداء .. سيَّارة إسعاف تتقدَّم الموكب، وجموع وراءها تردِّد «مولانا نسعاو رضاك، وعلى بابكَ واقفين، لا مَنْ يرحمنا سواك، يا أرحم الرحمين.» لفت انتباه أمين، والموكب يسير، رجل في الخمسينيات من عُمُره من زمرة المشيِّعين، يعتمر قبَّعة من تبن، من نوع باناما. كان متخلِّفاً عن الموكب، ولم يكن في حديث مع أحد ... لم يدرِ أمين لمَ استأثر الشخص باهتمامه ... لقبَّعته الغريبة؟ آخرون كانوا يعتمرون قبَّعات لدرء أشعَّة الشمس. لوجومه؟ طبيعة الجنازات الوجوم. أو لما كان يبدو منه من تحفُّظ ... حينما كان فقيه يرتِّل دعاء الميت، لم يرفع الشخص الغريب كفَّي الضراعة، وأحنى رأسه في خشوع ... كان شيء مسيحي فيه ... الوجه مألوف، ولم يدرِ أمين أين يكون رآه، أو التقى به، أو رأى صورة له، في الصحف أو المجلاَّت ...

قفل الموكب نحو بيت الفقيد، وعاد أمين مع الفتى السوري في سيَّارته وهو يردِّد الموَّال:

لمــا أناخــوا قبيــل الصبــح عيسَــهمُ
وحمّلوهــا وســارت في الدُّجــى الإبــلُ
وأرسـلتْ مـن خـلال الشّـق ناظرهـا
ترنو إليَّ ودمع العين ينْهمــــــــــــلُ

ويشفع استحساناً باللازمة: ألله ألله ..

سأل أمين الفتى السوري عن معنى «العيس»، فردَّ الفتى «شو بدّي

أعرف، حِلوة الأغنية، مش هيك؟» .. وردّ أمين: صح. كانت القصيدة من عيون الشِّعْر العربي، نظمها متعبِّد في دَيْر، لمَّا أن حل الرَّحل بنوقهم، وهام في حسناء، فقال قصيدته تلك ... لم يثبت الراهب لجمال الغانية ومزّق سُجُف المواضعات ... هو ذا الفرق بين إستير والفتى السوري. ما كانت لتردِّد شيئاً لا تفقهه، وليس عندها مكان لمعرفة تقريبية، أو هلامية ...

وصل الموكب بيت الفقيد، ولمَّا غشي الفتى السوري فناءه أجهش بالبكاء ...

وُضع الغداء على أصوات المنشدين يرتِّلون الأمداح النبوية. كان أمين يفكِّر في الشخص الغريب الذي حضر الجنازة وحدَها، ولم يحضر للبيت، ولم يرفع كفَّي الضراعة ... فجأة رنَّ هاتف أمين. نظر في الشاشة. قرأ Révélation .. نهض من مقعده. غادر المائدة كي يكلِّم نعيمة في حرِّيَّة ... انتهى إليه قولها:

- أنادي عليكَ، لأرى إن كنتَ حرّاً كي نلتقي ...

- طبعاً. أنا هنا في غداء المأتم. أفرغ بعد ساعة ...

- آخذكَ أنَّى تريد ...

- البيت في منتهى شارع غاندي بأنفا ... نادِ علي لمَّا تكوني بمقربة البيت كي أخرج.

عاد أمين إلى مائدة الغداء .. كان الحديث عن الصحافي خاشقجي .. وكان الحضور يتحدّثون بحرِّيَّة، من غير تحفُّظ، ويوجِّهون حِرَاب النقد للأجهزة الأمنية السعودية التي أنهت مشوار صحافي، بطريقة همجية .. وجد أمين الحلقة الضائعة. لم تكن حرب الخليج لتقع، تلك التي أجهزت

على المنظومة العربية، وأدخلتهُ في الثقب الأسود، وحكمت على العراق بالتجويع، لولا تواطؤ القوى المحافظة برعاية أمريكية.

أخذ الحضور ينْفَضُّون، وقصد أمين إلى خارج البيت .. أشعل سيجارة. التقى بالمغنِّي عبد الوهاب الدكالي، صاحب «ما أنا إلَّا بشر، عندي قلب ونظر، وأنت كلك خطر» و«مرسول الحب».. سلَّم عليه .. رنَّ الهاتف. كانت نعيمة. أبلغها أنه ينتظرها أمام مدرسة الملائكة بشارع غاندي ... لم تتأخَّر. استقلَّ سيَّارتها. لم تصافحه.

- إلى أين نذهب؟ سأل أمين.

- أظنُّ أنكَ لستَ في حالة نفسية كي نذهب إلى مكان عمومي. أقترح عليكَ أن نذهب لشقَّتي ..

أمسكت بيدها اليمنى يده اليسرى وهي تسوق سيَّارتها في اتِّجاه حي راسين حيث تقيم. لم ينبس بشيء.

18

مذ ووري بنيس الثرى تحوَّلت حياة أمين. ساعات معدودات، بعد إذ رقد الفقيد بطن الأرض، انتقل أمين من وضع لوضع .. فتح بنيس، إذ رحل، لأمين القلعة التي كانت تبدو مستعصية: قلب نعيمة وجسد نعيمة، مَحميَّة بحجابها، وما يحيل عليه من مرجعية. في شقَتها قبَّل أمين يدها تعبيراً عن الامتنان، ثمَّ بقي ممسكاً يدها، وإثرها طبع قُبلة على جبينها، وبعدها قبَّلها على شفتَيْها، ثمَّ ضمَّها إليه، وفي كلِّ عملية تستكين دون أن تصدَّه .. غارا في قُبلة عميقة، ثمَّ أجال يده في تضاريس جسدها. بدأ يفكُّ أصداف ثيابها. توقَّع أن تُوقِفَهُ. لم تفعل. كان في تجربة فريدة، مع فتاة محتجبة، كشخص يكتشف الجسد لأوَّل مرَّة. كان يتوقَّع في كلّ لحظة علامة قفْ (والصواب توقَّفْ). تسلَّلت يده إلى جسدها، وانتقل إليه دفؤها .. فتح صدريَّتها، وتقلَّبت يده في نهدَيْها. نزع حجابها، واشتمَّ عبق شَعْرها، وغارت يداه في غدائره .. لم يترك مكاناً من عنقها لم يُقبِّله .. وأقبل على حَلَمَتَي نهدَيْها يداعبهما بلسانه. تحوَّلت يده إلى فخذَيْها. وجد العنت في حلِّ تنُّورتها التي تنسدل حتَّى قدمَيْها. أخذت تنزعها. أجال يده في فخذَيْها، إلى أن بلغ خاصرتها، وأدخل يده في التُّبَّان. أخذ يعبث بشعرات عانتها، ثمَّ نزل إلى الفُوَّهَة .. كانت مبلَّلة. أمسكت يده، وذهبت به إلى غرفتها. أسدلت الستائر، وأشعلت إنارة مائدة النوم. نزع ملابسه، وألقى بها، ثمَّ أخذ في نزع ملابسها كلِّها. استلقيا على الفراش.. اعتلى جسدها وهو يُقبِّله، من جبهتها إلى أخمص قدمَيْها ... كانت تأوُّهاتها تقطع الصمت الذي يلفُّ المكان ... أتكون عذراء؟ .. لم يكن يبدو ذلك

من حركاتها. «أريدكِ» قال لها. «يمكنكَ ذلك» ردَّت .. ولجها، وامتزجت تأوُّهاتها بحركاته وجسمه يرتفع وينخفض، وهو يخنقها بشفتيْه على شفتيْها .. صرخت من اللّذّة، وخار جسده عليها ... بقي مستلقياً عليها بلا حراك .. أراد أن يستلقي على جنبه. أمسكتْهُ. إلى أن استرجعت أنفاسها. ثمَّ استلقى على جنبه وضمَّها إليه، مُطوِّقاً إيَّاها بفخذه الأيسر. ندَّ عنه:

- حياتي كلُّها لم تكن إلَّا انتظاراً لكِ يا نعيمة ...

ردَّت:

- لم أكن لأمكِّن جسدي شخصاً لا يتعلَّق بي. لستُ امرأة سهلة المراس، وأنتَ أمين شخص استثنائي.

- أنتِ الاستثنائية..

ثمَّ قبَّلها ..

قامت إلى الحمَّام عارية. ثمَّ عادت بعد بُرهة ..

- هل يمكن أن أُدخِّن؟ سألها أمين.

- مبدئيا لا، ولكنْ يمكنكَ، استثناءً، بشرط أن تُمكِّنني منكَ مرَّة أخرى..

- سنمارس الحبَّ حتَّى تقولي كفى. لم أكن أتوقَّع يوماً أن أضمَّكِ إليَّ، ولا أن أُقبِّلكِ ..

نهض أمين من الفراش عارياً، وأخرج من جاكتته الملقاة علبة السجائر .. أشعل سيجارة. نهضت نعيمة، ثمَّ عادت وهي تحمل صحناً صغيراً يقوم مقام مِطفأة. ثمَّ قبَّلتْهُ على وجنته، وتطامنت في حضنه ...

- أشعر بالدفء في حضنكَ يا أمين ..

- وأشعر بدبيب الحياة يسري فيَّ يا نعيمة.

أطفأ السيجارة وقبَّلها، ثمَّ أخذ يجيل يده في جسمها ... تحوَّل إيقاع

قبلاته ومداعباته من التلهُّف إلى حركات مُتَّئِدة، كنحَّات يرشق إزميله في منحوته برفق. اعتلاها ثمَّ وطئها .. كان يتحرَّك في رفق على صدى تأوُّهاتها، حتَّى بلغت الرعشة، وتعالى صراخها. استطال المتعة ... دعتْهُ أن يغيِّر الوضع. استلقى على ظهره. ركبتْهُ .. أمسكت يدَيْه كي تداعبا نهدَيْها، وظلَّت ترتفع وتنخفض على جسده وهي تعبث بشَعْرها .. حتَّى بلغا الرعشة، وانهارت على جسده، والتصقت به وهي تضمُّه إليها ..

- سوف أحبُّكَ أيُّها اللعين، قالت بصوت خائر.

- أمَّا أنا، فأحبُّكِ .. ردَّ أمين.

أخذ يعبث بشَعْرها الذي ظلَّ محجوباً عنه، ويسعى أن يستجلي من خلال حركاتها نفسيَّتها.

- أريد أن أصوغ حياتي معكِ يا نعيمة؟

- مهلاً يا أمين، أنتَ لا تعرفني.

- أشعر بكِ، وهو الأهمُّ ...

- وهل تريد أن تقترن بفتاة محتجبة؟

- الحجاب هو ما يحجب الحقيقة. أحبُّكِ لما أنتِ، ليس للباسكِ ..

- لباسي يحيل على هوية ...

- لا تثبت الهويات لنداء العقل والقلب ...

- أتعتقد ذلك؟

- نعم.

- أتؤمن بالله؟

- أؤمن بالإنسان ..

- لم تجبْ عن سؤالي ..

- هو يوجد ما دام الإنسان يؤمن به ..

- تتملَّص. لا تريد أن تجيب عن سؤالي.

- أظنُّ أنني أستطيع أن أصرم الحبل معه، لأني أتحدَّر من أصول يهودية، تلك التي مدَّت الحبل إليه.

- هل يهوديَّتكَ مؤثِّرة في رؤيتكَ؟

- أظنُّ ذلك ... لا يمكن أن أقول ذلك لأيٍّ كان. حتَّى لأمِّي، لا أستطيع أن أجهر لها بذلك، ولم أقل بذلك لأبي قيد حياته. لستُ في دائرة الطقوس ولا المعتقد ولا الإيديولوجية. أنا في دائرة الأخلاقية ...

- ألستَ في دائرة الخيانة؟ أن ترتبط بالعمق اليهودي، وتنغمر في قضايا متعارضة مع إسرائيل؟ دفاعكَ عن القضية الفلسطينية؟ إيمانكَ بالانبعاث العربي؟

- الخيانة جزء من التراث اليهودي. المسيح كان يهودياً، واعتُبر مهرطقاً .. لكنَّ هرطقته ما حمل رسالة جديدة .. حين تكون الخيانة عديل الحقّ، تكف أن تكون خيانة، ويصبح ما يُعتبر عدلاً هو الخيانة .. لا أظنُّ أن العدل يتعارض والتراث اليهودي. ثمَّ إن التطابق بين اليهودية وإسرائيل مجانب للصواب.

- أتظنُّ؟

- أعتقد ذلك جازماً.

- وما العدل؟

- سؤال كبير. لا يمكن أن نحدِّده، ولكنه القاسم المشترك لمجموعة. الحضن الذي يجد فيه المضطهدون الدفء والحماية. هو منطلق الفلسفة. كما في أوَّل حوار لسقراط.

- ألا تظنُّ أن من العدل أن يكون لليهود وطن يأوون إليه، بعد الذي تعرَّضوا له؟

- أنتِ مَن يقول بذلك؟

- أدفع بالنقيض كي أعرف الحقيقة ...

- لا أُجادل في حقِّ إسرائيل في الوجود، ولكنْ هل ينبغي لهذا الحقِّ أن يقوم نقيضاً لحقِّ الآخر، وفي حقِّي أن أقبلكَ.

وضع رأسه في جِيْدها، وقبَّلها، ثمَّ قال وهو يستعيد لُكْنته الفاسية:

- ماش تحمأيني (تحمقني) ألمحتجبة.

ثمَّ نهض من الفراش وقصد الحمَّام. فتح الدوش. ترك رذاذ الماء الدافئ يتدفَّق على جسده، ثمَّ أخذ يفرك الصابون. ما لبثت نعيمة أن دخلت الحمَّام عارية، وأخذت تدلِّك جسده حتَّى لمَّا أن بلغت عضوه انتصب .. كفَّ أمين يدها عنه، وترك الماء المتدفِّق يزيح بقع الصابون من جسده. حمل نعيمة من فخذَيْها، وضغط بها على الحائط، ثمَّ باشرها .. امتزجت تأوُّهاتها ورذاذ الدوش ... كلَّت ساعداه فحطَّها، ثمَّ أدارها، وأحنى جسمها وباشر فرجها من خلف، إلى أن أطلقت صرخة اللَّذَّة، وخارت ركبتا أمين ... رفعها نحوه، وأدار وجهها إليه وهو يُقبِّلها، ثمَّ بدر منه في صوت مُنهَك:

- الله يرحم السي بنيس ...

- قتلتَني يا لموتشو.

- أحيبتِني.

- تحاميتُكَ أيُّها الوغد. منذ التقت عيناي بكَ تعلَّقتُ بكَ ... وأخيراً هويتُ.

- ولم تُبينِي عن شيء؟

- كان الأمر معقَّداً. ضعِ الفوطةَ عليكَ وتعال إلى الصالون ...

مسح أمين جسده، ووضعت نعيمة معطف الحمَّام، وجلسا في الصالون ... لم يكن قد ألقى له بالاً حين حلَّ به. ألفاه مزيَّناً بذوق مع لوحات فنِّية وتُحف.

- قهوة؟ سألتْهُ.

- لا. أريدكِ أنتِ. تعالي قربي ...

اقتربت منه وجلست في الكنبة واضعة رأسها على ذراعه الأيسر ...

- كنتُ موزَّعة ... يا أمين ... الواجب المهني. لم أكن أعرفكَ حقَّ المعرفة، ثمَّ السنّ، أكبركَ سنّاً ... لم أكن مستعدَّة لمغامرة عابرة ... لا أستطيع ...

- كنتُ قد يئستُ، ردَّ أمين.

- كنتُ أتحرَّق شوقاً لرؤيتكَ لمّا تحلّ بقسم المستشفى ... كنتُ أحبُّ أن أراكَ مكبّاً على جسد المرحوم بنيس تكلّمه، وهو يبرغم كلامه غير المفهوم، بلا اتّساق، وكان يبدو وكأنكَ تفهم عنه. ولمَّا غار في غيبوبته، لم تيأس وظللتَ تُحدِّثه ... شخص مثل هذا لا يمكن أن يكون عادياً .. ثمَّ بدأتُ أتعرَّف عليكَ، وألفيتُكَ صاحب وعي وإحساس مرهف.

- كان عليكِ أن تختصري الطريق إليَّ ...

- لم يكن الخيار بيدي.

ذهبت نعيمة إلى المطبخ. قام أمين من الكنبة، وتوقَّف على صورة لامرأة في الكعبة بجلباب أبيض، تبيَّن أمين أنها صورة أمِّها تشبه تلك التي رآها في مكتبها ...

- في الحجّ؟ سأل أمين ..

- في عمرة ... أظنُّها عمرتها الأخيرة ما قبل ستّ سنوات ..

ثمَّ انتقل أمين صوب خزانة كُتُب. أجال فيها النظر. في الرفّ العلوي للخزانة موسوعة طبِّية، وتحته مجموعة من الكُتُب الجميلة عن مُدُن في المغرب، وفي الرفّ الثالث، كُتُب مختلفة بالفرنسية. «هكذا تكلَّم زاردشت»، وكتاب عن جلال الدين الرومي، وكُتُب عن الشرق الأوسط، ثمَّ كتابان مطروحان أفقياً على الكُتُب المصفوفة. أخرجهما. قرأ على الغلاف: «تأمُّلات حول المسألة اليهودية» لسارتر، و«السجن اليهودي» لجان دانييل. فتح أمين كتاب «السجن اليهودي» لجان دانيل، واسترعى انتباهه أنه مسطَّر. لم يكن للزينة ...

وضعت نعيمة فنجان القهوة. سألها:

- ما هذه الكُتُب التي تقرئين؟

- أيّ كُتُب؟

- المسألة اليهودية لسارتر، والسجن اليهودي لجان دانيل؟

- اعرفْ عدوَّكَ ...

- إذن أنا عدوُّكِ.

- ممكن ...

- بجدّ .. ما الدافع لكي تقرئي هذه الكُتُب؟

- وما الدافع لكي لا أقرأها؟

- أعني ..

- الحجاب؟ هل يُمنَع على محتجبة ألَّا تقرأ هذه الأدبيات؟

- الحافز هو ما يوجِّه القراءة.

- تماماً.

- وما الحافز؟

- المعرفة.

- وما محفِّز المعرفة؟

- عدم الجهل.

- هل يمكن أن أستعير منك كتابيَ «تأمُّلات حول المسألة اليهودية» لسارتر و«السجن اليهودي» لجان دانييل؟

- بشرط أن تردَّهما ça s'appelle revient

- أعدكِ أن أردَّهما إلَّا إن مانعتِ في اللقاء ...

- لن أستطيع ذلك الآن، أيها الوغد ... أوثقتَني بكَ ...

ذهبت للحمَّام للاغتسال. بقي أمين واقفاً أمام خزانتها يجيل النظر في كتاب جان دانييل. رفع رأسه نحو الخزانة، واسترعى انتباهه، كتاب غير مدرج في الرفوف، موضوع عمودياً فوق الكُتُب، كما الكتابَيْن الأوَّلَيْن. سحبه. كانت كتابَ «اعترافات» لأغسطين بالفرنسية. فتح غلافه. لفت نظره في صفحته الأولى كتابات بحروف تيفنياغ. لم يفكّ شفرتها، لأنه لم يكن يُحسن قراءتها. أسفل السطر أعداد تحيل حسبما قدّر لتاريخ، لتقويم شهر وسنة، 2884 لعلّه تاريخ اقتنائه بالتقويم الأمازيغي. لا يمكن أن تكون نعيمة لأنها لا تحسن الأمازيغية. قلَّب الكتاب، وألفى مقاطع مسطَّرة، ووقف على كتابات عبارة عن تعاليق، بقلم الرصاص، بخطّ واضح وجميل بالفرنسية. طريقة الخطّ القديم. قرأ أسفل صفحة تعليقاً بالفرنسية بقلم الرصاص، «أليس فكر القدِّيس أغسطين تعبيراً عن العبقرية الأمازيغية؟».

باغتت نعيمة أميناً وقد فرغت من الحمَّام، وترتدي لباس الاستحمام، وأحاطتْهُ من وراء ظهره بذراعَيْها:

- ما تصنع؟

- أنظر إلى خزانتكِ.

- أرني الكتاب الذي بيدكَ.

كشف لها الغلاف. قالت في هدوء:

- رُدَّه إلى مكانه.

أعاده. لم يفهم ردَّ فعلها. ثمَّ رجع للكنبة وأخذ يتصفَّح كتاب جان دانيل. دخلت نعيمة غرفتها لترتديَ لباسها. أذَّن المؤذِّن لصلاة المغرب. حلَّت نعيمة وهي ترتدي الحجاب. توقَّع أن تصلِّي. لم تفعل. كان لسانه يتحرَّق كي يسألها إن كانت تصلِّي، ثمَّ أحجم. اكتفى بالسؤال إن كان يستطيع أن يُدخِّن... ردَّت في هدوء:

- تعرف القاعدة. إن أردتَ أن تدخِّن تمكِّنني منكَ، وبما أننا سنخرج ولن نستطيع أن نكون في حالة حميمية، لا يمكنكَ التدخين ..

- ألا استثناء على القاعدة؟

- كنَّا في الاستثناء، وأنتَ تطلب الاستثناء بداخل الاستثناء ... وهذا شأن العرب. C'est très arabe

- ألستِ عربية؟

- أنا امرأة.

ازدادت المرأة لغزاً، وزاد لغزها أميناً تعلُّقاً بها ..

***

استقلَّ أمين آخر قطار متوجِّه إلى الرباط من محطَّة الدار البيضاء-مسافرين ... كانت نعيمة قد دعته للعشاء، واقترح أن يذهبا إلى مطعم Le Petit Rocher على البحر. كان آخر مرَّة التقى أمين بنيس قبل الحادثة، في المكان ذاته... كان أمين كَمَنْ يريد أن يؤبِّن بنيس ليس بكلمات، وليس بتلاوة أدعية، بل أن يحلَّ بمكان. للأماكن رمزية. حاول أمين أن يتذكَّر حديثه مع بنيس في عشائهما الأخير، ولم يثبت إلَّا على شيء واحد ... حديثه عن مثقَّف مغربي، أحمد بناني، ارتحل إلى سويسرة، واتَّخذها مستقرّاً .. كان ممَّا قاله عنه بنيس إنه من الوجوه اللامعة، صاحب أفكار مزعجة ...

ذهب الحديث في المطعم مع نعيمة كلّ مذهب. دعته أن يتناول الخمر لمَّا بدا منه التردُّد.

- لا تحرمْ نفسكَ. أنا مَنْ يستضيفكَ ..

وتحدَّث أمين لنعيمة عن أحمد بناني، مَنْ كان موضع حديث مع بنيس في ذات المكان. وجد أمين الحاجة للوفاء لبنيس بالحديث عمَّا حدَّث به في المكان ذاته، عن أحمد بناني، صاحب الأفكار التي تخلخل المتواضع، بأدوات نقدية عصرية. تساءل أمين والأسى باد عليه:

- ألكي يحافظ المرء على شعلة الفكر أن يلجأ إلى للنفي؟ أيستحيل على تربتنا أن تحضن أبناءها المزعجين، مَن يطرحون الأسئلة، ويُبصِّرون ذويهم بما يعمى عليهم، بسبب العادة والخوف والمصلحة؟

- أنتَ تطرح الأسئلة وأنتَ في بلدكَ .. ردَّت نعيمة.

- لا أدري يا نعيمة .. أنا مجرَّد ورقة كاربون ... مجرَّد صدى لما يعتمل. المثقَّف مسار معقَّد. كما شحمة الصَّدَفة، كي تتحوَّل إلى لؤلؤة تتعرَّض لعملية اقتحام حين تنسل فيها حبَّة رمل، ومن هذا الاختراق تنشأ اللؤلؤة عبر مسار طويل ... عبر معاناة.

أمسكت يدَيْه غير عابئة بالحضور ولا ما قد يحيل إليه حجابها.

سعى أمين أن يعرف عن أحمد بناني منذ أن حدَّث بنيس عنه .. تتبّع لقاءاته في يوتوب. أعجِب بحصافة فكره، وثاقب نظرته وقوَّة عرضه. لكن ما استثار أميناً هو سَحْنَةَ أحمد بناني. كانت بشرته سمراء، وملامحه إفريقية. كان في مظهره ينبئ عن واقع. كان يتحدَّر ممَّنْ كنَّ يتَّسمون بخادم. خادم سوداء، قد تكون اشتُريت في سوق نخاسة، واستُعمِلت للخدمة، في بيت العلية، واتَّخذها ربُّ البيت سَرِيَّة وحملت منه، وأنجبت منه ابناً يحمل اسمه، ويحمل ملامح أمِّه .. هو ذا التناقض الذي يسفر عن ولادة أشخاص خارج المعتاد. قلَّة تنفرط من عقد المواضعات، فتصبح أشخاصاً استثنائية. لما يحملونه من ندوب، ولما يضطلعون به من تسامٍ. يَعْلق بهم التعبير القدحي «ولد الخادمة»، ويُعيِّرهم إخوتهم من أبيهم بذلك، ويتبادل الناس خلسة أنهم أبناء خادم. ليسوا من «مَحْتد كريم».. يحملون ندوب الاحتقار ويدركون، لأنهم تلظّوا به، معاناة الآخرين.

طلبت نعيمة سمكاً لنفسها، ولم يحر أمين ما يختار فاختار من خيار نعيمة.

- عجيب غنى هذه البلاد .. استرسل أمين ... ولكنه غنى تحت الركام.

- وواجبكَ أن تزيح الركام ... عقَّبت نعيمة.

- لكن أهلها لا يريدون أن يروا غناها. أو لا يستطيعون. تفرز أشخاصاً استثنائيِّيْن ولكنهم ما يلبثون أن يضووا، كما زهرة تنبثق في الصحراء، تسمَّى الثمامة، ثمَّ تذوي. لا نُراكم في أيّ شيء، لا في إنجازاتنا ولا في جراحاتنا. لا في أفراحنا، ولا في أتراحنا. وهل هناك أمَّة من غير ذاكرة؟ وهل هناك ذاكرة من غير تراكم؟

شرب أمين حينها كثيراً... توارت البهجة التي استشعرها وهو في حضن نعيمة ليعقبها الحزن السرمدي الذي يرين عليه. ولم يدرِ لمَ؟ ألغياب بنيس؟ أللحديث عن مأساة المثقّف واللعنة التي تحيق به؟

غادرا المطعم، وأخذت نعيمة أميناً بسيّارتها إلى محطّة الدار البيضاء مسافرين. قبّلها على وجنتها، وأرسلت في إثره «لن أصطبر على بُعدكَ منذ اليوم. أفهمتَ ألموتشو؟»

عاد وقبّلها على شفتَيْها غير عابئ بالنظّارة، دون أن ينبس.

- متى تعود؟ سألته.

- بعد غد لحضور ذكرى ثلاثة أيّام لوفاة السي بنيس. قرّرت الأسرة أن تُنظّمها في اليوم الثالث من دفنه، وليس من وفاته ..

- أنتظركَ .. اذهبْ، لم يبقَ إلّا دقائق لقطاركَ.

انفتل أمين وهو يعدو ممسكاً الكتابَيْن بقوّة. أدرك القطار. ارتخى على مقعد في المقصورة. ثمّ هبَّ من مقعده فجأة. لماذا أشارت نعيمة كي يردّ كتاب «اعترافات» لموضعه؟ ربمّا هو ذا سبب انقباضه.

19

كان ما حيَّر أميناً وهو يقرأ كتاب «السجن اليهودي» ليس الكتاب ذاته، ولكنْ علاقة نعيمة بالكتاب. محتجبة تقرأ كتاباً بالفرنسية عن اليهودية بقلم فرنسي يهودي غنوصي، وتسطِّر على الكتاب، كَمَنْ يجري حواراً مع الكاتب. ولم يعد يهمّ أميناً أن يعرف رُؤى جان دانيل بقَدْر أن يعرف رُؤى نعيمة .. تسطيرها على مقاطع لا يعبّر عن رؤاها بالضرورة، وإنما عن تفاعلها فقط ... كانت أفكار الإسلاميِّيْن عن اليهود جاهزة وفضفاضة، تخلط الإسرائيلي واليهودي، واليهودي المتديِّن باليهودي الغنوصي ... كان أمين يستشعر النفور من أيِّ خطاب سياسي ذي مرجعية دينية، لأنه يفضي إلى حقائق مطلقة، تنتهي بنفي الآخر ... كان ينفر من خطاب الإسلاميِّيْن، فما الذي دهاه كي يرتبط بمحتجبة؟ لكنْ هل كلُّ محتجبة إسلامية؟ طبعاً ليست كلُّ محتجبة إسلامية، ولكنْ يظلّ الأمر في دائرة الاستثناء، ولا يمكن فصل الانتماء عن رموز، منها اللباس. اللباس ليس محايداً، كما الحركة. أن تضع عمامة، وبلون معيّن، أو طربوشاً أحمر عوض العمامة، أو تعتمر قلنسوة، وتُقبِّل اليد، أو تنحني أمام شخص، أو أن ترفض امرأة مصافحة رجل، كلّها أشياء تحيل إلى منظومة، أو إلى ... هوية. لم يكن أمين يحبّ هذه الكلمة التي كان مدلولها يحيل إلى برميل بارود، وسط شهب من نار. الهويات قابلة للانفجار، وكان أمين يدرك أنها اختلاق، ونظرة هلامية للماضي، وغيرية مع الآخر، إذ يصبح الآخر غيرا l'Autre devient Autrui عوض أن يكون مكملاً، ونرجسية مع الأنا، تفضي إلى تضخيمه .. الهويات هي التعبير الطفولي للوعي، وسنّ الرشد هو النأي عن الهويات، مثلما كان سارتر يأبى على الإنسان الحرّ «الانغلاق

في محدِّدات هوياتية». ما يصوغ الإنسان هو ألَّا يرضخ للمحدِّدات الهوياتية، والنأيُ عنها هو التعبير عن الحرِّيَّة، والإنسية لا تستقيم بدون حرِّيَّة. لا حرِّيَّة وسط العسكرة الهوياتية، أو هويات تحت الإقامة الجبرية. من السهل حين تكون زولو ألَّا ترى الأمور إلَّا بالمنظار الغالب عند الزولو، ولو ذهب الأمر إلى شيطنة الآخر... وضعٌ في متناول أيٍّ كان، فضلاً عن أن ذلك يمنحكَ وضعاً اعتبارياً في جماعتكَ. لكنْ أن تكون زولو ولا ترى الأمور بمنظار الاتِّجاه العامِّ للزولو، يجعلكَ خائناً. عربي في المغرب يدافع عن العرب، ويزري بالأمازيغ، أو أمازيغي في المغرب، يهزأ من العرب، من لغتهم ودينهم، لعبة سهلة ومُزجية، تستعيض عن التفكير بالصراخ... والكلّ يصيخ للصراخ، لكن التفكير لا ينتهي لكلّ الأذان. لأن التفكير يدعوكَ إلى أن تُنسِّب كلّ شيء. لا أحد على صواب، والكلّ على صواب، أو لكلٍّ واحد جانب من الحقيقة، وهي معادلة صعبة. من السهل أن يكون المرء في جانب ضدَّ جانب، أو جوانب. ولم يكن أمين في أيِّ جانب، أو كان في جانب العدل، والعدل يحتوي كلًّا من الفلسطينيِّيْن المُهجَّرين، واليهود المضطَهَدِين، ومَن تعرَّضوا للشواه، وتلظَّوا باللاسامية، والأمازيغ في الجبال، مَن يعدمون ضروريات العيش، ومَن يحملون «معرَّة» الجذور في محيط ثقافة عربية مهيمنة، والصحراويِّيْن في المخيَّمات، ومرشَّحي الهجرة من الأفارقة جنوب الصحراء، ممَّنْ يقطعون الفيافي، حُفاة عراة، ويموتون عطشاً، ويتكدَّس الأحياء منهم في ظروف لا إنسانية في مستودعات تسترقُّهم... والعدل يقتضي الصدع بما يتعرَّض له المسلمون من تضييق في فرنسا، والجهر ضدَّ فحيح الإسلامفوبيا، والتقتيل ضدَّ الهوينكا، والحجر على الإيغور في الصين، وقصف المدنيِّيْن في اليمن. هذه هوية أمين، إن كان يصحّ أن تكون هوية... ولم يجد أمين مخاطباً يمكن أن يتماهى معه، عدا بنيس الذي لم يعد من هذا العالم، وكان قيد حياته يتجنّب هذه المواضيع، وكان حين يحدّث عنها يعدم الدقَّة العلمية. كان يُعبّر عن ذلك بشكل شاعري، ولم يعد الشِّعْر يفي بالغرض... ينبغي تجاوزه

للعودة إليه، كما فعل الإسرائيليون ... وهو ما لم يفعله العرب، وحسبوا لفترة أنهم تخلَّصوا من الشِّعْر إلى الحكي، ومن الفكر إلى الدعوة .. خَوَاء مريع، هو سبب وحدانية أمين. أوصدت إستير باب الحوار لأنها اعتبرت إرز إزرائييل أو أرض إسرائيل خالصة لليهود، وكان لنعيمة أن تكون المحاور، لولا ... لولا الحجاب ... أسرَّ لها، وهما عاريَيْن في حميمتهما أنه لا يعير بالاً للحجاب، لأن الحبَّ أسقط الحجاب، ولكنْ الآن يتبيَّن أن هناك حجاباً مستتراً، وليس الحجاب بُرقع الثوب الذي تضعه على رأسها. كان حجابها ظلاًّ بلا جسم .. ولم يقف على الجسم. كان يشاهد رأي العين ظلاًّ على الأرض، من دون أن يتبيَّن الجسم الذي يعكس الظلَّ ... تمارس الجنس خارج قوالب الزواج. لو كانت مرجعيتها إسلامية لرفضت ذلك، أو لطلبت منه على الأقلِّ أن يقرأ الفاتحة، كي تصبح المضاجعة حلالاً ... ثمَّ هي لم تنفر وهو يشرب الخمر، ولكن اللغز، اللغز الأكبر هو نوعية قراءاتها وتعليقاتها.

أشارت بقلم الرصاص على الجملة التالية من الكتاب: «محكوم علينا بالانتماء». وسطَّرت بعدة أسطر على الجملة التي تليها: «هل الانتماء هذا يمنع خياراً ما؟ هو ذا الأهمّ ...»

Nous sommes condamnés à l'appartenance, et pourquoi cette appartenance exclut-elle un choix ? C'est le plus important.

كان يمكن لأمين أن يقول ذلك من غير نشاز ... أن يردّد أنه محكوم عليه بالانتماء ... في دائرة وطن، وثقافة، ولو أن ذلك لا يمنع أن يصوغ نظرته لذلك الانتماء ... مرجعية أمين ليس حقيقة مطلقة، ولا توهّمات ضرورية كما يقول شومسكي، وإنما العقل وما ينبني عليه من شكٍّ حين قطع حبل السُّرَّة مع أيَّة رؤية ميتافيزيقية ... لكن نعيمة لم تكن مضطرَّة على اختيار الانتماء، بل انغمرت من تلقاء نفسها في قالب جاهز، هذا الذي يحيل إليه حجابها.

لم يعد أمين متأكّداً ... قالت له: «ينبغي أن تكتشفني». أزاح الحجابَ الذي كان تضعه على رأسها، ولم يقف بعدُ على الحجاب الذي تلفُّ به شخصيَّتها ... هناك تناقضات تُسفر عنها الجملة المسطَّرة.

أمِنَ المُجدي أن يسعى في جعل نعيمة موضعاً للتفكير عوض أن تكون شريكاً في الحياة؟ ينبغي أن يحيا الحياة، كما نصحته بذلك إستير. ما يستهوي شريحة قلقة ليس ما تدعو له الحياة، مِن تعلُّق بأسبابها، حبّاً ونجاحاً ووضعاً اجتماعياً، وإنما سراب يستحثُّها من أجل رؤية رومانسية للنوع البشري، قد تكون عقيدة أو رسالة أو دعوة، أو مهدوية، أو إيديولوجية، أو نظرة للعالم، أو فلسفة الحياة ... والفشل مؤكَّد في تلك الرؤى كلِّها، لأن الواقع معقَّد دوماً، ولا يمكن أن يُختَزل في نظرة، والحقيقة تحْسر دوماً عن الرُّؤى المهدوية ..

ربَّما أن اليهودية استطاعت أن تُطوِّع هذا التناقض، من خلال التوق للأفضل .. الكلمة المستعملة في كتاب جان دانييل هي Espérance، ولعلَّ المقابل لها في العربية هو التأميل. ربَّما أن سمة اليهودية، ممَّا قد يكون مصدر قوَّتها، هو أنها الديانة الأكثر علمانية، أو دنيوية، ضمن الديانات التوحيدية.. هي طقوس أكثر منها دوغما، أو عقيدة. لا تُطلِّق الدنيا، على خلاف المسيحية، ولذلك كانت القطيعة حتمية في دائرة المسيحية بين مَن أرادوا القبض على الحياة الدنيا فأجهزوا على المطلق كما في الجملة المأثورة لنيتشه «مات الله ونحن مَنْ قتله».. ولم تكن اليهودية في حاجة لعملية اغتيال، وتعايشت مع التناقض بالتمرُّد على الله دون أن تتجرَّأ على الإجهاز عليه. كانت اليهودية في حاجة إليه، للاحتماء، ولكي يتمرَّد عليه بنوها الأفذاذ، وفي تمرُّدهم عليه كانت اليهودية تفتل عضلاتها .. يعقوب يصارع إييل، ويُضحي إزرا إيبل (مَنْ صارع الله) .. يساور الشكّ النبي موسى، ويريد أن يرى الله جهرة. حتَّى موسى بن ميمون لا يرضخ لوصاية الله، ويستعمل العقل. وسبينوزة يفعل الشيء ذاته. لم تكن الهلاكة، أو أنوار اليهودية قطيعة،

كما في عالم المسيحية. تمرين مطابقة، أو مواءمة، لا غير. أمَّا الإسلام، فظلَّ عَوانا بين الحالتَيْن. حمل لفترة مزيتي الديانتَيْن، من العضّ على ناجذ الحياة، مع واجب التوقير لله، والخضوع لناموسه، وعدم مراجعته في شيء. كما في قصّة الخضر في سورة الكهف. يتمرَّد النبي موسى على ما يراه ظلماً بواحاً. قتل طفل صغير. هَدْم جدار. خَرْق سفينة كي يَغرق راكبوها ... ولكنه مَدعوّ أن يخضع لحُكْم ربِّه، وألّا يراجعه في شيء. أسفر الإسلام عن مساحات عقلية، في الأطراف، من إخوان الصفا والمعتزلة، وبخاصَّة في تجربة الأندلس الفريدة، منذ ابن مسرَّة وابن باجة وابن رشد ... وحين الانكسار، منذ سقوط بغداد، ونكبة ابن رشد، حمل الإسلام مثالب الديانتَيْن، الطقوسية وإرجاء الرضوان إلى الدار الآخرة .. أضحى المسلم في حالة استكانة، وحينما استفاق عبَّر عن صحوه بالغضب ... لكن الغضب ليس حلاًّ ... ينبغي بناء عقلي، ومعرفة دقيقة بتجاويف الحضارة الغربية.

أغلق أمين كتاب «السجن اليهودي» وقام إلى المطبخ .. كان متكاسلاً كي يخرج لمطعم الوزاني .. سيكتفي بوجبة خفيفة يهيِّئها .. اختار موشَّحاً أندلسياً يستمع له وهو يُحضِّر ما يسدُّ به رمقه:

سلب النوم خيال مرّ بي … في فؤادي لحبيب غائب
فاستثار الطيف قلباً مثقلاً … أضرم الحبَّ فأهوى جانبي
يا خليل الروح هلَّا زرتنا … في شروق الشمس أو في المغرب
أو فزرني في منامي علَّنا … نلتقي ولو في زوايا الحجب

أخرج الخبز من الثلّاجة، ووضعه في الفرن، ثمَّ أشعل فرن الغاز، وأساح في المقلاة زيت الزيتون، مع الزبدة، حرَّكها إلى أن ذابت، ثمَّ كسر بيضتَيْن، في صحن مقعَّر، أو زلافة باسمها الأمازيغي، وخلط البيضتَيْن، وبعدها ألقاهما في المقلاة ... وأخذ يحرِّك البيض. كان من أطباق بنيس المفضَّلة "البيض المحيَّر" omelette baveuse.

وضع المقلاة على حافَّة الطاولة المزلجة للمطبخ، وأخرج الخبز .. فضَّل أن يأكل في المطبخ واقفاً. غرز الشوكة في البيض المقلي .. نسي أن يضع الملح. كان الطعام سمجاً .. ذرَّ الملح على الطعام، ثمَّ قطع الخبز وأخذ يقضم منه، وهو يستمع لبقية المقطع:

أظلـم الكـون لفراقـكِ ولاح طائـــر ذَلّ لهُجــراك جنــاح
نظـرة يـا حُلوتي منـكِ حياة يُـشرق الكـون ويرتـاد الصباح
أزهـر الـورد لذكـراكِ وفـاح أذّن السـاقي إلى هـذا الفـلاح

أتى على الصحن، وفتح الحنفية وأفرغ فيها كأس ماء، ثمَّ تناول زبادي، وعاد لغرفته .. وانغمر في الفراش. فتح كتاب «السجن اليهودي» في فصل الشّواة والمقاطع المسطَّرة منه. تملَّى المقطع: «الكتابات حول عالم الاعتقال جزء من سجلِّ آلام الإنسانية. يحال الإنسان إلى حيوان حتَّى يتمَّ الإجهاز عليه بصفته كذلك. تجربة (الشواة) فريدة غير مسبوقة، لا يمكن تصوُّرها بالمقاييس الإنسانية ... رمز الشرِّ المطلق.»

انتقل إلى مقطع مُعلَّم بخطَّيْن موازيَيْن:

«إنه لتناقض فظيع أن تمُنَح الأرض ويَلْزَم مَنْ وضع اليد عليها أن يتحلَّى بالمثالية.»

تحوَّل إلى الفصل «إسرائيل كإرادة وتمثّل» في نفحة شوبنهاورية .... والعنوان الفرعي «الرفض العربي»، ومحطَّة 67 الفاصلة، بعد الشّواة، في هوية إسرائيل. تنفَّس أمين بعمق، وردّد مع نفسه معلِّقاً: «وهنا تباين المساران.» ... تحوَّل العالم العربي إلى ردود فعل، وعوض أن يعانق العالم، غار في الوجدان ... اضطراراً ... لم يعد مالكاً لنفسه، وأضحى تحت تأثير الآخر، مضروباً عليه كما في مصطلح من العلوم النفسية hétéronomie، (الآخر مَنْ يصوغ القاعدة)، وهي اللعنة التي تلاحقه إلى الآن.

أغلق أمين الكتاب ... نفذ إلى فحوى السجن اليهودي: التناقض الذي يقع فيه مَنْ تلظّى بالظلم ويجريه على الآخر، ولا يستطيع من ثمّة أن يحافظ على منظومته الأخلاقية ...

المنفذ هو الخروج من شرنقة المهدويات، ردّد أمين. لكن عالم الإسلام يتأثر بالصراع السرمدي ما بين المسيحية واليهودية ... دُفع العالم الإسلامي إلى خطابات مهدوية بعد أن قامت الهدنة بين المسيحية واليهودية .. وكانت على حساب الإسلام، ونَواته الصلبة، العروبة، في اقتطاع جزء منه، رغماً عنه، ورسم خرائطه .. الأرض واسعة تتّسع للجميع، ولكن النفس مكلومة، ولذلك ترفض التسوية ... كيف قبول تسوية مع مَنْ جعلك موضوعاً، ونظر إليكَ باستخفاف، ثمّ أجهز على محاولات التحرّر، ومالأ تنظيمات خارج التاريخ، تتوارث السلطة، وتعتبر بلدانها مِلكيات وشعوبها قطيعاً ...

ودّ أمين لو كانت نعيمة معه كي يناقشها فيما سطّرت ... لن يستطيع أن يكلّمها لأنها منشغلة في عملها ... فتح هاتفه وبعث لها رسالة. «لم أصطبر لبُعدكِ يوماً ... استمعي لهذا الموشّح»، ثمّ حمّل الموشح «سلب النوم خيال مرَّ بي ...».

تحوّل إلى كتاب تأمُّلات في المسألة اليهودية لسارتر، ثمّ أخذ يقرأ منه حتّى داعبه الوسن، ونام ...

20

أخذ أمين دوش، بعد أن صحا من القيلولة، ثمَّ هيَّأ قهوة، وقصد صالون شقَّته. أشعل سيجارة، واسترسل في قراءة كتاب «تأمُّلات في القضية اليهودية» لسارتر.. اللاسامية حقيقة من تاريخ أوربا: رفضُ اليهودي والإزراء به وشيطنته لأنه يحمل إصر قتل النبي الإله déicide ... ظلَّت تلك المعَرَّة حتَّى لما أن تعلمنت أوربا، كما جمرة وسط فناء بيت، وحملتها المسيحية وألقت بالجمرة في بيت الجيران ... وهكذا حلَّت المشكل، بأن نقلته لآخرين .. لوحدتَيْن تعايشتا عبر زمن طويل ... كان اليهودي ضرورياً للحضارة الإسلامية. كان جزءاً منها. لا يمكن فهم أهمِّ مرجعية فكرية في التراث اليهودي وهو ابن ميمون من دون مرجعية الثقافة العربية الإسلامية، ولا القوام الذي انبنت عليه من دون ابن باجة ... ليس كتاب «دلائل الحائرين» إلَّا نسجاً على منوال علم الكلام، ونفحة من الأشعرية، وصدى للغزالي. ولا يمكن فهم سبينوزة من دون المرجعية الأندلسية، فهو يحمل عبق الأندلس في نظرته. هو استمرارية لابن حزم وابن باجة وابن رشد وتجاوز لابن ميمون. لا جَرَم أن العلاقة بين المسلم واليهودي، كانت تكتنفها مناطق ظلّ، ولكن المسلم كان هو القريب، وكانت الملاحة مع هذا القريب ما يضفي نكهة للحياة ... كان الواحد محتاجاً للآخر، وبينهما تواطؤ خفي... ولفترة، بالأندلس، لمَّا أن تعرَّضا للاضطهاد، بعد حروب الاسترداد، كانا وحدة، ثمَّ لمَّا أن طُردا إلى بلاد المغرب، كان الواحد ظهيراً للآخر، ولم يجد اليهودي العنت أن يتحوَّل إلى الإسلام ... ولمَّا تحوَّل إلى الإسلام لم يتخلَّص من يهوديته. ثمَّ كان المسلم يسترق بين حين وحين النظر كتلميذ

إلى فرض زميله كي يفكَّ طلاسم اللاهوت .. سُمِّي ذلك بالإسرائيليات، لكنه نوع من الاقتباس، ممَّا قام به المسلم، وليس ممَّا دسَّه اليهودي، ولذلك كان يُسمح لليهودي من داخل اليهودية، أن يعانق الإسلام، ظاهرياً، ولا يعانق المسيحية .. انتقل اليهودي إلى الإسلام، كما ينتقل مخاطب من لهجة إلى أخرى متفرِّعة عن جذع مشترك ... كما أجداد أمين ..... وتغيَّر كلُّ شيء حين حلَّ اليهودي ليس كضيف، وليس كقريب نزل عند قريبه، ولكنْ، كغريب يخرج العربي من أرضه .. كان اليهودي قد تخلَّص من الميتافيزيقا وعمد لتوظيفها. ومنذ ذلك الحين ساءت العلاقة بين القريبين ... أضحت مواجهة، يغلب عليها التوتُّر دوماً، وكان لليهودي حسّ التنظيم ورؤية عقلانية، على خلاف العربي. وفي 67 وجَّه اليهودي الضربة القاضية للعربي على حلبة التاريخ ... بين العرب واليهود تاريخ مشروخ، وينبغي أن يذهبا سوياً إلى معبد التاريخ كي يجريا قراءة لذلك الحدث الفاصل كما عند طبيب نفسي، ولكن الإسرائيلي غير مستعدٍّ، لأنه مزهوٌّ بالنصر، ومسكون بالخوف .. الخوف المتواتر لقرون، وتأجّج مع ذكرى الهولوكوست. محكوم عليه بالسكيوزفرينية. صاغ هوية جديدة تقطع مع ما تواتر لألفَي سنة، لكن هذه الهوية الجديدة هي ما يُوثِقه. السجن الإسرائيلي، ربَّما هو التعبير الأصحّ، ردّد أمين على خلاف تعبير جان دانييل..عوض أن يقيم الإسرائيلي قرطبة جديدة، احتمى في قانون الهوية، ليقع في الأبارتيد ... أمَّا العالم العربي، فقد تناثر عقده .. لم يعد يمثِّل شيئاً مذكوراً.

حاول بنيس أن يجمع ذلك النُّثار من العالم العربي من خلال اهتمامه بالفنّ وحدبه على الفنَّانين والأدباء، في تناس للقضايا الوجودية. كَمَنْ يجمع عناصر عقد، من غير خيط ناظم. إلى هذا، لم يعد الشِّعْر يكفي .. أو عالم سنترا كما يسمِّيه أمين. لم يعد كافياً أن يجتمع أناس في حلقة، ويقرضون الشِّعْر، ويمرحون ببعض القفشات، ويتسلُّون ببعض الذكريات ويغلبهم الحنين، يستمعون لأغاني محمّد عبد الوهاب، وتأوُّهات أمِّ كلثوم،

وشدو فريد الأطرش، ومواويل صباح فخري، أو يرقصون ويبقون في دائرة الفلكلور، ويبرِّرون ذلك بالتنوُّع الثقافي. ينبغي الانتقال إلى عالم الفكر، والوسيلة الوحيدة هي النظر في مرآة إسرائيل. هو تمثّلها. هو قراءة تجربتها. هو نسج سدى جديد. هو خوض المعارك التي خاضها اليهود ومنها تخلّصهم ممّا أسماه جان دانييل بالعبء اليهودي كي يتخلّص العالم العربي من أوهاقه، وما أكثرها ... ومنها ما يوثقه، ويحدُّ من حركاته، من ميتافيزيقا تغُلُّه، وسُلطة مطلقة تحجره، وجسد لم يتحرّر، أو انفرط بشكل فوضوي. أي التحرّر من الثالوث الذي إذا فُكَّت عُروته، انقدحت الأنوار. ينبغي للعرب أن يقدحوا أنوارهم، من مادَّة حطبهم، ولا ضير أن يقفوا على سابقة أنوار أوربا ... لكنْ هل يمكنهم أن يقدحوا الأنوار من مادَّة حطبهم؟ يلزمهم شرارة .. أدركوا ذلك، مع فترة الليبرالية العربية، ثمَّ مع الماركسية. لكن النار لم تورث. لأن بالحطب نداوة. لربمّا. أي غير استعداد المجتمع للأنوار. لا بد من روِيّة، ولابد لمن ينفث في الشرارة العزم والأناة.

أخذ أمين يبحث عمَّا سطّرته نعيمة في كتاب «تأمُّلات في القضية اليهودية» لسارتر ... حتَّى كتاب سارتر قرأتْهُ. وقف على مقاطع مسطَّرة ... لم تعد أفكار سارتر ما يهمُّ أميناً حول وضع أصبح متجاوزاً، لأن اليهودي لم يعد الآخر، ولا الغير، في أوربا، وأصبح الآخر والغير هو المسلم. كان ما يهمُّ أميناً هو الوقوف على أفكار نعيمة. الساعة السادسة مساء. يمكن أن يكلِّمها ... ضغط على علامتها Révélation في الهاتف من لائحة الريتوار ... انتهت إليه رنّاته ... ردَّت نعيمة:

- أمين ... كنتُ أنتظر مكالمتكَ.

- بعثتُ لكِ برسالة .. مع مقطع موسيقى.

- لم أستمع للمقطع بعد. كيف أنتَ؟

- تلحُّ عليَّ ذكرى بنيس.

- الموتى لا يموتون حين يسكنون قلوب مَنْ يحبُّونهم ..

- آمل أن يكون كذلك. وأنتِ، كيف حالكِ؟

- يوم متعب ... ردَّت بالفرنسية، أنا كذلك أشعر بغياب السي بنيس، الله يرحمو (قالتها بالعربية) ... والطاقم كلُّه في القسم يشعر بالشعور ذاته.

- لا تساوي الحياة شيئاً، ولا شيء يعدل حياة، كما يقول مالرو.

- ليس مالرو هو القائل، أخذها من الكتاب المقدَّس .. من كتاب النبوءات.

- لم أكن أعرف ذلك ...

رسم أمين فاصلاً ثمَّ نطق:

- غداً سأكون في الدار البيضاء.

ردَّت نعيمة:

- أستقبل أُمِّي غداً .. ستأتي من مكناس ... وستبقى معي لبضعة أيَّام ...

- جيِّد ...

قالها أمين وهو يواري خيبته .. لن يستطيع أن يلتقيَ بنعيمة في شقَّتها ... وأردف:

- متى أراكِ؟

- سيكون الأمر صعباً.

- حسنٌ أن تحضر أمُّكِ ... ستؤنسك ...

- أحتاج لألتقيَ بها ... هي علامتي .. كنتُ دأبتُ أن أُرافق والدَيَّ

إلى الشمَال في أثناء العطلة الصيفية. ولم أفعل. لم يكن عليَّ أن أترك

المرحوم بنيس .. انهار للتوِّ .. الجسر الذي ربط أمينا وكما لو أن جسراً يربط شطّي نهر، الجسر الذي كان يعبُر منه لقلبها وجسدها .. الجسر الذي بنعيمة هوى. كان يتيح له أن يمازحها في مستملحات، ونقاشات، لم يعد قائماً، أو ربُما أضحى معطّلاً ... كان يودُّ أن يلتقيَ بها في شقَّتها، وما إن تغلق الباب حتّى ينزع حجابها، وينثال عليها بالقُبل، ثمَّ يهوي بها على سجَّاد الصالون ويقبِّلها ويداعبها، ثمَّ يضاجعها به ... .كان حجابها ما استثار الشبق لديه... كان حين يضاجع صديقته السابقة ياسمين في طقوس عادية لما أن يكونا بالفراش. قبلات، ثمَّ ينزع لباسه ويعتلي جسدها .. ويوشك أن يكون إطفاءً لهيب مع إلهام .. ينزع تبَّانها حين تستحثُّه الشهوة، ويعلوها، ويحدث ألَّا يقبِّلها ... ما عاشه الأمس تجربة فريدة، وكان يودُّ لهذه التجربة أن تكون مستجدَّة دوماً ... في كلِّ شيء.

خرج من الشقَّة، في اتِّجاه وسط المدينة، عبْر شارع النصر، ثمَّ شارع محمَّد الخامس، وغار في المدينة القديمة، حتَّى باب لعلو، ومنه عرَّج نحو الأسوار الأثرية التي تحيط بالمدينة القديمة، إلى أن بلغ مطعماً شعبياً، عن شِماله، «دار الناجي» بحي لوسيان أو المحيط، .. طلب عصير ليمون.. ثمَّ في عشاء .. كان يشعر بالجوع. طلب صحن الكراع بالحمُّص، المعروف بهرْكما .. أكل بنهم ... صبّ له النادل كأس شاي، وهو يرفع البرَّاد حتَّى مستوى الرأس، ثمَّ يُفرغه في دقَّة في الكأس إلى أن تعلو رغوته .. ارتشف أمين الشاي، ودخَّن سيجارة، وأدَّى سعر العشاء. كان سعراً معقولاً ... عمَّا قريب ستنضب ذخيرته، ولا خيار له إلَّا أن يبيع اللوحة التي أهداه إيَّاها بنيس ... ليس اللوحة هي الآصرة التي تربطه به، بل ذكرى وفكرة ... هل حقّاً ستحلُّ أمُّ نعيمة أم أنها حيلة اختلقتْها كي لا يغشى عليها

أمين حميمتها مجدّداً؟ هل ساورها الندم؟ هل اختلى بها حقًّا؟ هل فضّ حجابها، وداعب نهدَيها ... أم توهَّم؟ أأُغلِقت القلعة من جديد، أم أنها لم تُفتَح أصلاً؟

نزل درج المطعم. استقلَّ تاكسي كان رابضاً أسفل المطعم. التاكسيات في الرباط هي غيرها في الدار البيضاء. لا مشاكسة من السواق.

غشي شقَّته، وذهب توّاً لخزانة كُتُبه، وأخرج منها كتاب العهد القديم في نسخة فرنسية، ثمَّ استرخى في الصالون وهو يقرأ من كتاب أيّوب. لماذا يَكِلُ الله النبي أيوب، ولماذا يمتحنه؟ أليس جوهر الإيمان هو شعور التخلّي الذي يستشعره المؤمن، أو الهجران Déréliction؟ أليست هي آهات المسيح وهو على الصليب «إلهي لِمَ تركتَني؟»، وصرخة النبيّ محمَّد بالطائف فيمَا يُعرَف بحديث عادس، «إلى مَنْ تكلُني»؟ هناك سدى مشترك بين الديانات التوحيدية الثلاثة، أو قواعد ناظمة، ولم يفتأ أصحابها يقتتلون رغم ذلك، أو يقتتلون لأنهم يتشابهون.

21

كان المنشدون يردِّدون الأمداح النبوية في بيت بنيس، من البُردة والهَمزية والمنفرجة والدعاء الناصري، تتخلَّلها تلاوة الآيات القرآنية .. وكان النادلون يطوفون بين الطاولات ويَصبُّون لهم من كؤوس الشاي، ويقدِّمون كعك قريشلة واللوز المقلي. بعدها أنشد الفتى السوري من قصيدة شوقي:

ريمٌ على القاع بين البان والعلمِ   سفكْنَ دمي في الأشهر الحُرُمِ

وهو يتمثَّل طريقة إنشاد صباح فخري، فشنَّف إليه الأسماع، وتعالت أصوات الاستحسان «الله الله ..» حتَّى إذا فرغ من الإنشاد، تلا المرتلُّون القرآن، ثمَّ نهض فقيه يدعو الجمع للوقوف. خلعوا أحذيتهم والفقهاء يردِّدون «قفوا تسعوا لله، ها ذي ساعة من ساعات الله، يحضرْ فيها النبي رسول الله». وعلت زغاريد النساء ... واستمرّ الطقس حتَّى غلب الوجْدُ الحضور .. ودعاهم الفقيه بعدها للجلوس ... وتلا كلمة التأبين، وشهد للفقيد بالجنَّة، لأن مَنْ حضر جنازتَه أكثرُ من أربعين شخصاً، وجبت له الجنَّة، وذكَّر بمناقب الفقيد، ومنها أنه مات على سُنَّة الحبيب المصطفى، وأنه اليوم في جوار نبيِّه، في الجنان، ينعم بما وعد الله عباده المُخلَصين...

وظيفة الدين في جانب كبير مقارعة سطوة الموت ... من دون تلك الطقوس، يضحى الموت ثقباً أسود. يكون عذاباً وجودياً ... قد لا نحتاج الدين في مسالك الحياة، إلَّا لمَن يصوغ منه أخلاقية، ولكنْ لا مندوحة عنه أمام هول الموت ... أو على الأقلِّ طقوسه.

لم يقل المؤبِّن شيئاً عن المسار الشيوعي للفقيد، ولا عن اقترانه بقضايا الانبعاث العربي، ولا غنوصيَّته ... مع أن الجميع كان يعرف بذلك ... لكن هول الموت جعل الطقوس تسمو على الحقيقة ... لم يكن أمين يعرف كلّ شيء عن بنيس، ولكنه كان يعرف الأهمّ ... سوليكا التي كان بنيس يظنّ من خلالها أنه كسر السجف ما بين اليهودية والإسلام، وأنه حقَّق عبرها نوعاً من الموافقة بين الأديان œcuménisme من خلال رؤيته العقلانية، وأن سوليكا يمكن أن تعيش في أرض أجدادها، من غير أن يستهويها إغراء إيديولوجية بزغت في حضن أوربا، لكن سوليكا ضحَّت بالحبِّ من أجل أيديولوجية، فرحلت إلى فلسطين، ما أضحى إسرائيل.

زُجّ بسوليكا في مخيَّم بوادي الصليب قرب حيفا، ثمَّ نُقلت إلى كيبوتز، والتقت بناج من الهولوكست من بولنيا، وأنجبت منه ولداً جُنِّد في 67، ليقاتل ضدَّ ما آمن به زوجها السابق، أو حبّها الأوَّل.

ومن ذلك الجرح الذي فرَّق بين حبيبَيْن، أضحى بنيس صدى لنداء التعبئة «ضدّ العدوّ الصهيوني» و«من النهر إلى البحر» و«إنها لثورة حتَّى النصر» ... كان يواري حبَّه لسوليكا .. ولذلك هتك في خريف عُمُره المواضعات كلّها، وزار إسرائيل ...

كان بنيس كما أمين يلظيان، لأن الصراع العربي الإسرائيلي يجعلهما في تمزّق كما في صراع بين جَدّهم من أبيهم وجَدّهم من أمِّهم .. يلظيان لأنهما جعلا قضية العروبة قضيتهم، ولكنهما لم يريدا أن يطمرا البُعد اليهودي الثاوي في وجدانَيْهما، حتَّى ولو أن أجدادهم تحوَّلوا للإسلام. العقل فتح لهم الكوَّة المغلقة ... لكن العقل أو العقلانية لم تكن ثقافة في العالم العربي. مجرَّد واحات ذابلة، يتهدَّدها القحل .. تذكَّر أمين وهو في الثانوية أن أستاذ الآداب هيَّأ تلاميذ الفصل لتمثيل مسرحية عن النبي سليمان،

لتوفيق الحكيم، وانتهى الأمر إلى أستاذ التربية الإسلامية، فأقام الدنيا وأقعدها لمنع المسرحية. كاتب مدير الثانوية، ومندوب التعليم ومدير الأكاديمية والوالي، مشنِّعاً ومتوعِّداً، ونشرت جريدة «الراية» الإسلامية بلاغاً للجمعية الوطنية لأساتذة التربية الوطنية مندِّدة بالتطاول على المقدسات .. لم يكن العالم العربي في قراءة شِعْرية للنصوص الدينية، وظلَّ ينظر لها كحقائق تاريخية، ولكن مِعول البحث العلمي من شأنه أن يهدم الزعم التاريخي الذي تدعيه، وليس لها أن تصمد، كما يقول إيمانويل لوفيناس Levinas إلّا من خلال التأويل الشاعري لها ... لا تنصرف آهات أيُّوب للحظة زمنية انصرمت، ولكنها تُعبِّر عن الحالة السرمدية للإنسان وهو يشكو الهجران déréliction.

تخيَّل أمين سوليكا وقد عادت ... وتخيَّلها وقد توسَّطت حلقة البيت، في المأتم، تبكي بنيس لو لم تُفرّق بينهما الإيديولوجية ... تندب وتمزّق لباسها:

- «مسيتي (مشيت) وخليتني ألحبيب ديالي.. دي زمان وانتين بزنبي (جنبي) ... اليوم طاح لي المزان.. فرأونا (فرقونا) العديان ألحبيب ديالي. ربي ياخذ فيهم الحأ (الحق)»

لم يكن أمين يتصوَّر سوليكا إلَّا شبيهاً لشخص الحاجة زهور لحلو، مع روتوشات بسيطة. ربَّما كانت سوليكا شخصاً مغايراً. ربَّما كانت فتاة نالت نصيباً من التعليم في مدارس الرابطة الإسرائيلية، وتلبس الصاية (التنورة)، وتحسن شيئاً من الفرنسية واستنبطت بعض طرائق التحديث. سوليكا الحقيقية قد لا تكون سوليكا كما يتخيَّلها أمين. وليس المهمُّ كيف كانت، المهمُّ أنها غادرت بعد 48 ... والقاسم المشترك مع إستير هو أن هذه الأخيرة غادرت هي الأخرى بعد 67.

نودي على أمين، في الجانب الذي تقعد فيه النساء، وقُدِّمت إليه سيِّدة، في مقتبل العُمُر، تلبس غير لباس النساء الحاضرات مَنْ كنَّ يلبسن جلابيب مغربية. كانت السيِّدة ترتدي قفطاناً فلسطينياً بألوانه الحمراء الزاهية ...

- أنا زوجة ابن المرحوم، اللي ف الإمارات .. ألوا لي (قالوا) عنك مهتمّ في القضية الفلسطينية ...

اكتفى أمين بالرّدِّ في نبرة ممازحة:

- هي المهتمَّة بي ..

تشاجن الحديث بينهما. عرف عنها أنها أردنية من أصل مقدسي .. كانت من خلال قفطانها توحي أن الشعلة ما تزال متَّقدة.

أمسكت يد السيِّدة يد أمين، وضغطت عليها بقوَّة. شعُر بدبيب يسري في جسمه ..

ثمَّ أسفرت عن اسمها: «ريم». يا للمصادفة. أن يتغنَّى المنشد بريم القاع بين البان (البسيط) والعَلَم (المرتفع)، من شِعْر شوقي، وأن يكون اسم الفلسطينية ريم.

وُضع العشاء وخاض مَنْ كانوا في مائدة أمين في أسعار العقار، وتوسيع المجال العمراني، وتحوَّل دار بوعزة إلى قطب عمراني، وارتفاع العقار بها، وهي الفرصة السانحة للشراء، وعن سطو نافذين على «مرجة» (مرج) هي ملك عمومي يُمنع فيها البناء أصلاً، من أجل إقامة قطب عمراني، وتواطؤ إدارة المياه، والإدارة الترابية مع الجهات النافذة ... وكان هاجس أمين، في غمرة هذه النقاشات الحادَّة والجادَّة، أن يجد شخصاً يأخذه إلى الرباط ... نادى على الفتى السوري، وكان بادي السرور لأدائه لمقطوعة

شوقي. طلب منه أمين أن يجد له مَنْ يصطحبه للرباط، وطمأن الفتى السوري أميناً أن شخصاً من الحضور سينزل الرباط وسيأخذه معه .. كان أمين يؤمّل أن يقصد بعد الحفل شقَّة نعيمة، ويضمَّها إليه، ويجمعهما الفراش، كي يتكلّما عن كلّ شيء، ولا شيء، في تجاذب حديث لا معنى له ظاهرياً، وهو ما يفتح شغاف النفس ... في حديث حول الطقس، وألوان لباس نعيمة، ودراستها وأسرتها والكُتُب التي شدَّتها، والأفلام التي راقتها، ونوع الموسيقى التي تفضّل .. للنفاذ إلى نفسيتها، والوقوف على نفسه من خلالها، والسعي لفهم ما سطّرته في كتابيَ جان دانيل في «السجن اليهودي»، وفي كتاب سارتر «تأمُّلات في المسألة اليهودية»، وهو يداعب خصلات شَعْرها وقد تخلصت من الحجاب، لكنها تناءت ... لم تُكلّمه، ولم تردّ على مقطوعته الغنائية ...

تفحَّص أمين الوجوه في المائدة، ولم يكن عليها أمارات الحزن، بل كان ما يَشِعُّ منها الحبور. المأتم تحوَّل إلى حفل، وتتردَّد اللازمة لشخصَيْن التقيا ça fait plaisir (هذا ما يشيع البهجة)، في جنازة.

غادر أمين رُفْقة جنرال متقاعد كان صديقاً لبنيس ... بدا الجنرال بشوشاً ... فتح السائق باب سيَّارة مرسديس فخمة، ودعا الجنرال المتقاعد أميناً أن يجلس إلى جانبه في المقعد الخلفي ... تحدَّث الجنرال عن الحفل البهيج الذي أقيم، وأشاد بالمنشدين، بأصواتهم الرخيمة، والموَّال السوري، وتأبين الفقيه، ولغته الفصيحة، وحسن مخارجه للحروف ... وحتَّى المُموِّن كان محترفاً .. تصفيف الموائد كان رائعاً، والصحون ما ينبغي، ولو أن لحم الكسكس كان دسماً ... لكنه يظلُّ المُموِّن المتميِّز في المآتم .. وشفع الجنرال «السي بنيس يستحقّ، كان سيكون سعيداً لو حضر حفل تأبينه ...» عرف أمين عن الجنرال أنه كان مرافقاً للملك الراحل، منذ أن كان رائداً، إلى أن ارتقى جنرالاً ... «سيدنا الله يرحمُه، كان يقول لنا بعدو (ابتعدوا)

من السياسة وديرو لفلوس. عندو الحق». ثمَّ عقَّب الجنرال: «السياسة ما فيها غير الصداع.».. كان أمين قد بدأ لقاءات مع ضبَّاط من أجل تحقيق حول الجيش، ووقف على شريحتَيْن، شريحة لم تكن تريد الكلام، وشريحة تجرّأت على الكلام، في خفوت، وكانت على دراية وإدراك، وتشكو إصر الصمت، وهو أمضُّ عليها ممًّا بلته في المواجهة، وفي ضجر الثكنات، وهجير الصحراء، وشحّ الماء، والعجاج، ولدغات العقارب، وأشلاء الرفاق، وما تحمل الأجسام من ندوب جراح ماديّة، لشظايا نار، وفرقعات قنابل، وتمزُّق أُسَر... وشريحة يمكنها أن تتكلَّم لأن ليس لها ما تقوله سوى الثناء على المسمعين، والوقوف على مخارج الحروف، والإشادة بالمُموِّن، وارتقت في مدارج المسار المهني، وكلّ علاقتها بالجندية هو لباسها العسكري ترتديه في المناسبات.

كانت الساعة الثانية صباحاً حين بلغ أمين شقَّته. غشيها وهو يشعر بمغص، لأنه باع اللوحة .. باعها بثمن بخس، ولكن ذلك ما يمكِّنه من أن يعيش لسنة... ثمَّ انغمر في الفراش، وما لبث النوم أن شمله. وفجأة أنهضه جرس على الباب .. تجاهله. عاد الجرس. أشعل إنارة طاولة النوم. كانت الساعة الرابعة. مَنْ يكون الطارق في هذه الساعة المتأخِّرة من الليل؟

21

لم يكن أمين يريد أن يغادر الفراش، ولم يكن يعرف الساعة ولو أن نور النهار تسرَّب من خَلَل النافذة، ولم يرد أن يُشعِل نور طاولة النوم، ولا أن يعرف الساعة. يسعى أن ينام، فيَرين عليه الوسن ثمَّ يصحو.. بقي في الفراش يستعيد ما جرى. فتح الباب في دجنة الليل، وألفى إستير لدى الباب.. كانت بسيجارة وبلباس معتاد، لشخص جفاه النوم .. لم يقل شيئاً ولم تقل شيئاً ... وأخيراً نطقت ...

- معذرة أمين. كنتُ جلفة المرَّة السابقة ...

- لا بأس .. قال وهو على عتبة الباب.

- ألا تريد أن تُدخلَني بيتكَ؟

- أظنُّ أن الساعة متأخِّرة ...

- أعرف.. لا أشعر أني في حال جيِّدة ... أبقى معكَ لحظة، الوقت الذي أستعيد فيه صفاء ذهني ...

وأفسح لها أمين في الدخول ... ألقت بعقب السيجارة أمام باب الشقَّة، ثمَّ سحقتها بعقب حذائها .. كان يظهر أنها مُؤرقة ...

- أقدِّم لكَ التعازي في وفاة صديقك بنيس ..

- شكراً لكِ .. كيف عرفتِ؟

- صديقي بلغه الأمر ونحن بإفران، وقطع عطلته، وذهب للعزاء ...

كان أمين وهو في الفراش، يردد مع نفسه أن صديقها قد يكون هو الشخص الكتوم، مَن استرعى انتباهه في أثناء الجنازة ... لم يكن متأكّداً، طبعاً ... لم يرد أن يسأل إستير عنه، لأنها تعهّدت بألّا تكشف عن هويته. اشتكت من صديقها الذي لم يعتنِ بها، وآلمها بكثير من التأدُّب. مارس معها ما يسمِّيه مالارميه بإرهاب التأدُّب مثلما قالت ...

- أخذكِ معه إلى إفران؟ قاطعها أمين.

- نعم، ولكنْ اصطحب ابنته ... ينبغي أن أُقرَّ أنها طيِّبة المعشر ... حدَّثتُكَ عنها ... من البنين .... ليس لي ما أقوله عن بنته .. ولكني كنتُ أفضِّل أن أكون معه ... كنتُ أودُّ الحديث إليه.

لم يكن أمين يستمع لها ... كانت تبلغه شذرات من حكيها ... كان حبيبها يشتغل على مقال عن القدِّيس أغسطين، والاعتراف في المسيحية ...

لا يمكن إلّا أن يكون هو، ردَّد أمين وهو يتقلَّب في الفراش. كان شيء مسيحي فيه وهو بالمقبرة ... إستير تؤكّد ذلك بالقول إنه يشتغل على القدّيس أغسطين ...

- لا يريد أن يلتقيَ بي ... يتذرَّع بأشغاله .... ماذا صنعتُ له كي يعاملني بهذه الطريقة؟ .. قل لي يا أمين. أليس لي الحقّ في السعادة؟ لماذا يرتبط بها دوماً؟

- مَن؟

- خليلته.

- كان معها قبل أن يعرفكِ.

- ولكني أوجد، وأحبّه ..

- اسمعي إستير، لا أستطيع أن أصدر حكماً عن شيء أجهله. ولا

أستطيع أن أزعم أنه يرتبط بكِ برابط عاطفي. لا أعرفه، ولا أعرف وجه العلاقة بينكما.

- لا تريد أن تستمع لي أنتَ أيضاً.

- ليس أني لا أريد الاستماع إليكِ. لا أعرف شيئاً عنه، وعن علاقتكما.

- أنصتْ إليَّ. قطع علاقته مع خليلته، أو قطعت العلاقة معه. لا أدري.

- مَنْ قال لكِ بأنه قطع علاقته بخليلته.

- أعرف ذلك. لا يهمُّ المصدر.

- ممكن أن تكون توهُّمات.

- ليس توهُّمات.

- هو ربَّما ما تتمنّين أن يكون.

- ما أتمنّى أن يكون وقع. انفصل عن خليلته.

- لا أستطيع أن أساعدكِ يا إستير. ولا أفهم شيئاً عن علاقتكِ بصديقكِ.

- ولا أنا .. ردَّت إستير. سأذهب إلى باريس لفحوص، ولترتيب أفكاري.

نهض أمين من الفراش متثاقلاً وترسّبات حديثه مع إستير تصطخب في ذهنه ... كان النور قد تسرَّب من خلل النافذة .. نظر إلى الساعة ... الواحدة إلَّا ربعاً ... قلَّما ينام حتَّى ساعة متأخّرة .. نهض وكان قضيبه منتصباً .. قصد المرحاض. تبوَّل. ثمَّ دخل الحمَّام. نظَّف أسنانه وغسل وجهه ... نظر إلى لحيته .. هل يحلقها أم لا؟ تكاسل .. أشعل آلة القهوة ... ثمَّ انتظر بُرهة، إلى أن اشتعل الزرّ الأخضر .. ضغط على الزرّ، وسال سائل القهوة في الفنجان ... عبَّها في سرعة، ثمَّ أضاف فنجاناً آخر ... عاد إلى غرفته ونزع بيجامته وارتدى لباس سنبور. كانت البدلة التي ارتداها للمأتم ملقاة على الأرض قرب الفراش .. وضعها في المعلقة وأدخلها

صوان الملابس ... ينبغي أن يذهب إلى البنك كي يُدخل شيك ثمن اللوحة في حسابه ..

غادر الشقّة. كان بّا بو شعيب جالساً على كرسي ينظر إلى المارّة. سلّم أمين عليه، وردّ عليه الحارس «النصرانية خرجت» ... كانت إشارة منه أنه يعرف بعلاقته بإستير. اشترى أمين السجائر بقرطاسية أكدال بساحة ابن ياسين، ثمّ أخذ تاكسي إلى شارع 16 نونبر حيث البنك. وجده مغلقاً. سأل شخصاً واقفاً يبيع نظّارات شمس من ماركات عالمية مزوّرة عن علّة الإغلاق. أخبره بأن اليوم سبت .. لم ينتبه أمين إلى توالي الأيّام. كانت بلا علامة، لأنه لا يشتغل. عرض عليه بائع النظّارات سلعته. اعتذر أمين ... ألحّ البائع «لك أنت نخليها لك بـ 300 درهم.» أشاح عنه أمين. عاد البائع «ياالله، اعط غير 200. بغيتهم لك، ماركة أرماني، دورجين (أصلية)..» اعتذر أمين لأنه لا يضع نظّارات شمسية ... لم يكِله البائع لحاله ... «يا الله، 100 درهم، نبيعهم لك بالخسارة.. الله غالب». أخرج أمين مئة درهم، وتناول النظّارتَيْن .. استوقفه إفريقي يتسوّل وهو يلثغ بعربية مكسّرة لبعض الجمل «في سبيل الله خويا». أخرج ورقة 20 درهماً .. ذهب إلى مكتبة باسطا القريبة. اقتنى جريدة لومند وجريدة أخبار اليوم .. استوقفتْهُ امرأة، تلبس السواد وتحمل لوحة «إحنا من سوريا، ارحمو (من دون ألف) مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السما (من دون همزة) ..» أخرج ما تبقّى من فئة مئة درهم التي اشترى بها الجرائد. أعطاها للمرأة، ثمّ عاد إلى مقهى كاريون القريب من البنك .. طلب قهوة. نظر إلى هاتفه. وجد سيلاً غُثاء من الأدعية ونداء الصباح ... لم يكن منها رسالة من نعيمة .. أشعل سيجارة ... فتح جريدة لومند يقرأ عن قضية خاشقجي، واعتراف السعودية أخيراً بأنه قُتل في القنصلية، وإرسالها لمدّعيها العامِّ إلى أنقرة .. حلّ بالمقهى رجل في الستينيات من عُمُره يعتمر طاقية، ويتنقّل بين الطاولات، يتلو زجلاً شعبياً. استرق أمين السمع إليه .. كان يتلو من شِعْر عبد الرحمن المجذوب ..

يا صاحبي كن صبار، اصبر على ما جرى لك
ارقد على الشوك عريان حتَّى يطلع نهارك

استرسل الرجل في الإنشاد:

نرقد على الشوك عريان ونضحك للّي جفاني
نصبر لنحوس الأيام حتَّى ياتي زماني

نفحه شخص كان مصحوباً بامرأة نقوداً، ثمَّ تحوَّل الزجَّال إلى طاولة أخرى وهو يردِّد:

درت مطمورة في راس رافروف ومتّنتها من كل جانب
عهدي بالمطمورة متينة، ساعة من تحت شارب

أعرض عنه الشخص، وانتهى إلى أمين قول الزجَّال مستجدياً: «باش ما سخّاك مولانا.» انتهره الرجل: احنا ف كاريون ألمجذوب، سر عاود زابورك على اللي حلبو البقرة.».. تحوَّل عنه الزجَّال، وهو يبرغم «إن الله يُمهِل ولا يُهمِل» .. ثمَّ استرسل في التلاوة من شِعْر المجذوب:

يا ويل من طاح ف بير وصعب عنُه طلوعُه
فرفر، ما صاب جنحين، يبكي وسالو دموعو

توقف الزجال عند طاولة أمين ثمَّ أخذ يصدح:

سوق النسا سوق مطيار، يا الداخل رد بالك
يديرو لك من الريح قنطار، ويدّيوا لك راس مالك.

أرسل أمين إليه ابتسامة. شجَّع ذلك الزجَّال، فانبرى منشداً:

إذا هي دنيتك مهمومة وزمانك ما هو معك مليح
خلّي الدّرسة في التبن ملمومة واستنَّ حتَّى يهب الريح

ثمّ استرسل وهو يحدِّق في أمين:

تخلطات ولا بات (بغت/أرادت) تصْفَى، ركب خزُها فوق ماها
ريّاس من غير رتبة هما سباب خلاها

نفحه أمين ورقة مالية من فئة خمسين درهماً. نظر إليها الزجَّال. كانت رزق يوم. أمسكها، ثمَّ أخذ يدعو لأمين:

- سر ألمرضي الله يعرض لك طريق الخير، فيمن حطت إيديك يجيب على يدك الفتح.

ثمَّ تولَّى.

لم يعد أمين لقراءة الجريدة.. تملَّى وجوه السابلة ... لم يفهم قطيعة نعيمة ... نادى على النادل. أدَّى سعر القهوة، وتمشَّى في شارع فال ولد عمير حتَّى بلغ الزنقة المؤدِّية إلى مطعم بابل. غشي المطعم. وقف على صوره التي تزيِّن مدخله. صورة الملك غازي، وبقرب تلك الصورة ابنه فيصل الثاني، في لباس رودنكوت في عربة .. الفتى الذي تنكَّر في لباس امرأة، لما قام انقلاب 1958، وقتلتْهُ الغوغاء .. جاسم، صاحب المطعم العراقي جاسم حريص أن يُبديَ الوفاء للفترة التي سبقت فترة تقلُّب الجيش. لا صورة في المطعم، لعبد الكريم قاسم ولا عارف ولا حسن البكر ولا صدَّام حسين .... كما لو أن التاريخ بالنسبة إلى جاسم توقَّف

في تلك الفترة التي أجهزت على الملكية في العراق ... صَعِدَ أمين إلى الطابق الأوّل. سمع رطناً بالإنجليزية ... أمريكية مع مغربية ... أقبل جاسم صاحب المطعم .. حيّا أميناً ... «إيش لونك أمين» ... «زين» ردَّ أمين ... كان أمين يحبُّ أن يداعبه بالتعبير «ماكو أوامر» إحالة على فترة البعث .. كان صاحب المطعم يمقت فترة صدّام والبعث، ولم يكن أمين في مزاج راق كي يمازحه ...

- أسوي لك عصير بالأوّل؟

- ماشي ..

ألقى أمين النظر لصور المطعم للعراق على الحائط قبل فترة صدّام ... قنطرة على دجلة. عربة في شارع بغداد. صور نخيل البصرة. ثلج أربيل. فتيات بتنُّورات أمام جامعة بغداد. ملامح مجتمع عصري، ودولة واعدة ... كيف انتهى هذا كلّه إلى خراب؟ تذكَّر أمين شِعْر المجذوب من إنشاد الزجّال:

ريّاس من غير مرتبة هم َسباب خلاها ...

بيد أن المنظومة التي يحنّ له صاحب المطعم، هي التي قطّعت أوصال الصحافي خاشقجي إرباً إرباً، وهي التي اختطفت معارضاً مغربياً، من دون أثر ... هي المنظومة التي أقبرت سجناء أحياء، في سجن تازمامرت الرهيب .. هي التي أحالتهم إلى هياكل وجرَّدتهم من إنسانيّتهم ... هل يمكن أن ينتظم الشّعْر بعد ذلك، كما قال أدورنو، بعد أوشفيتز؟ وهل يُزهر الفكر في خضمِّ هذا الخراب؟ وهل يونع الشِّعْر والإحساس وسط الخَوَاء الذهني والتلفيق الفكري؟ واستمرَّت النخبة المثقَّفة بالمغرب، مَنْ تلطَّت من بطش المنظومة في فترة، في نظم الشِّعْر والتحليل والتأويل، ثمَّ التبرير، دفاعاً عمَّا كانت تناهض. والتزمت

الصمت أمام الانزياح، واكتفت بأن تسمّيه بـ «سوء الفهم الكبير»، كما لو يكن هناك تعبير آخر عن الشرخ حين أخذت المنظومة تُضيِّق على القوى الحيَّة، وتشْره إلى المال .. نعم، هناك خيانة النخب ...

- أسوي لك تشكيلة مشاوي؟ ... سأل صاحب المطعم.

- مع حمّص وبابا غنوش وكل الشغلات ..

- زين. المحلبية على حساب المطعم.

- الله يخلّيك.

أخرج أمين هاتفه ... لمَ يكن هناك شبكة ... وضع الهاتف على الطاولة .. كان ذهنه شارداً. عادت إليه صور الفتاة الفلسطينية، بقفطانها، وعينَيْها النجلاوَين، ودفء يدَيْها لما أن صافحتْهُ ... لماذا يفكِّر فيها؟ هي متزوِّجة، وهو متعلِّق بنعيمة ... ومع ذلك لم يستطيع أن يزيح نظَرها إليه ...

طرحت نادل الطعام. تناوله أمين في غير شهية رغم أنه لم يتناول فطور الصباح. أدَّى الحساب ثمَّ خرج ... تمشّى طول شارع فال ولد عمير حتَّى اجتاز قنطرة السكّة، وتسلّل من الدرج المفضي لزنقة ضاية الرومي .. وجد الحارس بابوشعيب على كرسيّه يرقب المارَّة ... «النصرانية رجعت. جابت معها التقدية» (اشترت الأغراض). دخل أمين شقَّته .. تلفن لنعيمة. لم تردّ. عاود النداء ولم تردّ ...

انغمر في السرير وأخذ كتاب «الإنسية اليهودية» لبرنارد هنري ليفي. كان يقرأ وذهنه شارد ...

كانت الشمس قد غابت حين سمع جرس الباب. ذهب كي يفتح، ولمّا وضع يدَيْه على القفل انتهى رنين الهاتف من غرفته.

22

لم تكن إستير بوجه جهم، بل كانت منشرحة وهي تضع على المائدة طعام عشاء السبت.. وقفت كي تردِّد الكاديش، وطلبت من أمين أن يضع قبَّعة على رأسه ... تلت الكاديش، ورفعت كأس خمر روخا الإسباني وفعل أمين الشيء ذاته ..

- الكل كوشير عزيزي أمين ...

استلذَّ أمين الطعام، وكان في مزاج راق وقد كلَّمته نعيمة، واستحسنت الموشَّح، واعتذرت عن انشغالها مع أمِّها ...

كان الخمر معتَّقاً ... وضعت إستير موسيقى كلاسيكية بعد أن أنهيا الأكل، ومالا إلى مكان جانبي، كي يتناولا الحلوى ويُدخِّنا ...

- إذن، عزيزي أمين، احكِ لي ... حياتكَ. مغامراتكَ ...

- لا شيء ممَّا يستثير الاهتمام ...

- وصديقتكَ؟

- ألتقي بها..

- أما تزال تضع الحجاب؟

- نعم ...

- إذا كنتَ سعيداً معها، فهو المهمّ ...

تحدّثت حديثاً آخر عن سفرها لإفران، كما لو أن حالتها النفسية الرائقة انعكست على نظرتها لرحلتها ... وضعُ الحاضر ينعكس على رؤية الماضي .. كان مقامها بإفران كابيا لمّا كانت مكتئبة، وأضحى جذّاباً ورائعا لمّا تحوّلت نفسيّتها ..

تحدّثت كثيراً عن صاحبها، وتعلّقها به، رغم نفوره عنها ... أنهى دراسة كان يقوم بها عن أغسطين. خرجوا جميعهم، مع بنته بالتبنّي، للتنزّه بمرج المدينة، وأخذت صوراً لها بنصب السبع، الذي نحته أسرى ألمان في أثناء الحرب العالمية الثانية، وصحبته إلى جامعة الأخوَين على النمط الأمريكي.

- هل يمكن أن تُرِيَني الصور؟

- لا.

- لماذا؟

- كذلك.

- ألا تريدين أن تقولي مَنْ هو؟

- إلّا ذاك.

- هل يوجد حقّاً؟

- قرّرتُ أن يوجد. سأجري ترتيباً على هذا كلّه. سأقول لكَ كلّ شيء.

23

رنَّ جرس منبِّه الهاتف الذكي على الساعة الخامسة والنصف صباحاً. هبَّ أمين من مرقده فزعاً. تكاسل عن الاستيقاظ، ولكنه خشي إن لم ينهض أن يغلب عليه النوم. نهض في تثاقل. قصد المرحاض، ثمَّ هيَّأ قهوة .. وبعده ارتدى ملابسه. شفع بفنجان ثانٍ. ثمَّ خرج من شقَّته وقصد شقَّة إستير في الطابق الأوَّل. نقر على الباب. فتحت للتوِّ. كانت متأهِّبة، مرتدية لباسها. بادرها أمين:

- جاهزة؟

- دائماً، مررتُ من الجندية ...

حمل أمين حقيبة كبيرة لإستير، فيما حملت حقيبتها اليدوية .. نزلا الدرج. كان باب العمارة موارباً، والبوَّاب با بوشعيب جالساً على كرسي يُقلِّب النظر في زنقة فارغة .. لم تدبَّ الحركة بعد. ألقى عليه أمين بالتحية، وبرغم الحارس بكلمة بونجور، لأستير، ورفع يده، كَمَنْ يقوم بالتحية العسكرية، دون أن تمسّ رأسه، ثمَّ أردف:

- فين بالسلامة أبا أمين؟

- نفوج شوية أبا بوشعيب ..

- أنت والنصرانية؟

- يهودية.

- ما باينش عليها. اليهود بكري ما كانو فايتينا بوالو. كنّا وهما واحد في المزيرية (البؤس).

كانت إستير تتابع الحديث في متعة، وقاطعت الحديث بدارجة متأنّية:

- ويلي، سمحتو فينا.

استغرب بّا بوشعيب أن تُحدِّثه بالعربية. أردفت:

- لا عسّاك، غادي يعبّيني (يأخذني) للمطار.

لم يستفق بّا بو شعيب من الذهول وهو يستمع «لنصرانية» تتكلّم العربية. ألقى بالقول:

- الله يكثر من أمثالك، تلقى المعقول في المراة ما تلقاهش في الرجل.

ردّت إستير:

- الرجل والمرأة كيف كيف.

- أش نقول لك؟ المرأة ما شي بحال الرجل.

- أيما ذي بابا. (بأُمّي وأبي)

- ربي بغى القسمة تكون هكذا، ردَّ بّا بوشعيب.

- أنا ما شي مسلمة.

- خسارة.

- وعلاش؟

- بغيت لك الجنّة.

- زعم ما ندخلش الجنّة؟

- شهدي، وتدخلي للجنّة.

- لا إله إلّا الله. قالت إستير.

- محمّد رسول الله، أضاف بّا بوشعيب.

- هاذي ما نكدر (نقدر) ش نكول (نقول) ها.

تدخَّل أمين ممازحاً إستير بالفرنسية:

- لا أنت ولا أنا سندخل الجنّة.

- أعرف. يا ليت هناك ما بعد الموت لكي نحلَّ ما استغلق في الحياة ... اختراع عجيب، الإيمان بحياة بعد الممات .. هديتنا للبشرية، ولا أدري أأحسنا صُنعاً؟

- اختراع يمكن أن يكون عائقاً لعيش الحياة.

- يستمسك الإنسان بالحياة، كما يستطيع. أستمسك بالحياة ولو أني لا أؤمن بشيء .. الحياة وحدها تستحقُّ أن يؤمن بها الإنسان.

توقَّفت سيَّارة أجرة كريم. حمل أمين الحقيبة ووضعها في مخزن السيَّارة .. التفتت إستير نحو الحارس:

- ادع معي بّا بوشعيب ..

- الله يديك ويجيبك على خير ...

- أمين.

- فين بالسلامة ..؟

- باريس.

- وشحال تبقيى فيها.

- نشوف الطبيب ونرجع ...

أخرجت ورقة مالية من فئة 100 درهم ونفحتها للحارس. انطلقت

السيّارة. انسربت في شوارع شبه فارغة، ونور الصباح ينجاب في الأرجاء، ثمّ توغّلت في المدار الدائري الذي يمرّ عبر قصبة شالة .. نزلت السيّارة المنحدر وهي تشرف على نهر بورقراق .. منظر أخّاذ ..

- جميل بلدنا .. نطقت إستير.

- أصبحتِ منّا؟ عقّب أمين ..

- لم أنسلخ قطُّ عن انتمائي للمغرب. ثمَّ أنتَ ترى أني عدتُ.

ثمّ أردفت:

- شكراً أن رافقتني أمين .. مَنْ تعرف لم يرد أن يصطحبني ..

- لماذا؟

- غاضب منّي .. لستُ سهلة المراس .. أعترف .. ولكني مبتهجة ..

- لماذا؟

- تأكّدتُ من أنه افترق من خليلته .. أو على الأصحّ، افترقت عنه ..

- هل الأمر مهمّ إلى هذا الحدّ؟

- دلال المرأة coquetterie de femme. حتّى ولو أصبحت عجوزاً، مثلي ..

- ليس ذلك ما عنيتُهُ. وكيف عرفتِ أنه انفصل عنها؟

- أحسستُ بذلك، ثمَّ أسرَّ لي به .. استضفتُهُ لمطعم الزردة .... كان يبدو منه الحزن. سألتُهُ علّته، وقال لي بأن خليلته ذهبت عنه .. تصنَّعتُ الحزن ... أخيراً سيكون لي وحدي .. قال لي بأنه يمكن أن نشتغل سويّاً .. نقوم بعمل مشترك ...

كانت السيّارة تصعد المرتفع من جهة شطّ سلا. استرسلت إستير

في الكلام. لم يكن أمين يلقي بالاً لها. كانت مرتاحة، لأنها تخلّصت من غريمتها. انتهت إليه جملة:

- لديَّ غاية كي أعود.

- لِكم من الوقت ستدوم فحوصاتكِ؟

- أسبوع، ثمَّ بعدها أُجري عملية قسطرة .. عبر الأنبوب .. أشار عليَّ الطبيب بالتوقُّف عن التدخين .. لم أستطع التوقُّف .. سأعود بقرارات حازمة. أقلع عن التدخين، وأشرع في تعلُّم اللغة العربية. وسأصطحبكَ معي إلى إسرائيل. ستُحبُّ تلَّ أبيب، وبخاصَّة حيفا.

توقَّفت السيَّارة أمام مبنى المطار. نزلت إستر. طلب أمين من السائق أن ينتظر كي يعود معه.

أخذ أمين الحقيبة، وجرَّها حتَّى مدخل المطار ..

- ألديكِ كلّ ما ينبغي؟ سأل أمين. ثمَّ أردف:

- أنتِ في الوقت.

- وددتُ أن أصطحبكَ معي أمين .. شكراً لكَ. شكراً على كلِّ شيء.

ثمَّ احتضنتْهُ احتضاناً قوياً ... لم تستطع إستير أن تغالب دمعها ..

- Ce n'est qu'un au revoir عقَّب أمين. ردَّت:

- أتمنَّى ذلك .. ثمَّ شفعت:

- عشْ حياتكَ يا أمين. إذا كنتَ مرتاحاً مع المحتجبة، فلا تتردَّد. الخليلة القديمة لصاحبي كانت محتجبة كذلك ... Vas y comprendre. حتَّى ولو تصبحون غنوصيِّيْن، تظلُّون مشدودين إلى التراث.

- مثلكم.

- مَنْ «نحن»؟

- الإسرائيليون.

رسمت لحظة تأمُّل، ثمَّ قالت:

- في العمق، محكوم علينا أن نتعايش، ولكنْ لا أدري كيف. لكَم هي الأمور معقَّدة.

ضمَّها أمين. قبَّلتهُ على وجنتَيْه. أمسكت يده. لم ترد أن تُطلقها. فتحت شفتَيْها، كَمَنْ يريد أن ينطق بشيء. تلعثمت ثمَّ نطقت بعد لأي:

- هل تحبُّني يا أمين؟

- طبعاً يا إستير.

- هل يمكن أن أثق فيكَ؟

- يمكنكِ ألَّا تثقي بي كذلك.

- أريد أن أثق بكَ. أحبُّكَ كثيراً أنا كذلك .. أريد أن أعهد لكَ بأمر، وأريد أن تقوم به كما أطلبه منكَ.

- أعدكِ.

أطلقتْ يده، وأخرجت من حقيبتها ظرفاً كبيراً مغلقاً.

- احتفظْ بهذا الظرف إلى أن أقول لكَ بفتحه.

- سأفعل.

- كم هو صعب الفراق. لن آخذ من وقتكَ أكثر. السائق ينتظركَ. اعتنِ بنفسكَ.

عاد إلى سيَّارة الأجرة وهو يغالب دمعه .. ركب بجانب السائق. ابتدره السائق أن يمسح أثر الأحمر على وجنتَيْه. مدَّ له كلنيكس .. فتح

أمين حاجب الشمس، ونظر في مرآته، ثمَّ أخذ يمسح برقع اللون الأحمر بكلينكس. أخذت الشوارع تمتلئ. طلب السائق الوجهة. ردَّ أمين: ساحة ابن ياسين. عقَّب السائق، أين توجد؟ صحَّح أمين: ساحة بورغون.

توقَّفت السيَّارة في مربض السيَّارات أمام مطعم الوزاني. أدَّى أمين السائق أجرته. قصد المطعم وهو يمسك الظرف. طلب فطور: شاي وبيض بالخليع.

بدأ الجوُّ يتلطَّف. قدح سيجارة. ثمَّ أشعل أمين هاتفه. لم يجد رسالة من نعيمة. أخذ يُقلِّب في المواقع .. إرهاصات نهاية الصحافة الورقية. ولا شيء يَعدل لدى أمين أن يلمس الورق، ويُقلِّب الصفحة، ويسطِّر مقطعاً، ثمَّ يحفظ المقال الذي يروقه ... كان يشعر من خلال تلك العملية أنه يمسك الزمن ويبني ذاكرة. الثورة الرَّقْمِيَّة تقوم بذلك الآن، وتدفع الإنسان إلى الكسل. تجتاحنا المعلومات وتذوي المعرفة، كما في بيت شهير لت. س. إليوت. فتح أمين ريرتوار هاتفه، وبعث برسالة لنعيمة: «هذا الصباح، رافقت إستير إلى المطار. بكت في المطار، وانفطر قلبي. خلَّفت فراغاً. الرباط فارغة. شخص تفتقده، وتضحي الدنيا يباباً كما يقول لامارتين. أحبُّكِ». أعاد قراءة الرسالة. تردَّد في أن يضغط على زرِّ الإرسال. ثمَّ أخذ يمحو الرسالة ...

نادى على النادل. أدَّى الحساب، ثمَّ غشي وراقة أكدال عند بّا براهيم. توجَّه إلى جناح الكُتُب، واقتنى كتاب اعترافات لأغسطين.

عاد أدراجه إلى الشقَّة. وجد بّا بوشعيب على الكرسي. ابتدره بّا بوشعيب:

- خلاّت النصرانية بلاصتها (مكانتها)..

- يهودية.

- ك انسى. الله يفكّرنا في الشهادة.

- آمين.

- سبحان الله، تتكلّم العربية بلبل.

- مغربية.

- قل والله؟ كاين مغاربة نصارى؟

- قلت لكَ يهودية.

- هاد النصارى عجب. أعطاهم الله الجنَّة في الدنيا. الآخرة نتاعنا بحرمة سيِّدنا محمَّد.

- ما نعرف أبًا بوشعيب.

- اللي تعذَّب في الدنيا يتجازى في الآخرة.

- وعلاش يتعذَّب في الدنيا؟

- القسمة. ربيِّ إلا حرمك ف الدنيا، يجازيك في الآخرة.

ثمَّ أردف:

- فين مشات النصرانية بعد؟

- علاش بغيت تعرف؟

- باش إلَّا سولني المقدم.

- قل له، فرنسا. مشت تدير عملية.

فتح أمين باب الشقَّة. كانت ملابسه المتَّسخة ملقاة على الأرض. سيغسلها بعد أن يستجمَّ. انغمر في الفراش، ثمَّ فتح كتاب اعترافات أغسطين.

24

لم يكن شيء يُسلّي أميناً ويقطع سأمه كما جحافل التلاميذ، قرب ثانوية الإمام البخاري، وهم يَعبرون من قرب نافذة شقّته بزنقة ضاية الرومي، ساعة الظهر، يَغدون ويروحون، وينتهي إليه صخبهم ومرحهم ... يتحدّث نُسّاك المسيحية عمّا يسمّونه بشيطان الظهيرة، إذ يرين عليهم إصر الزمان. وكان الشيطان يحلّ بشقّة أمين في الضحى والظهيرة والعصر، ويجشم عليه. كان إصر الزمن ثقيلاً، وحركته وئيدة. رحلت إستير، وتناءت نعيمة، ومات بنيس، وكان أن فُصل عن العمل. أثقلت عليه الوحدانية. لفترة اعتبر أنه وجد الروح الأخت مع نعيمة، ولكنها لم تعد تردّ على مكالماته، ولا تسأل عنه. هل يمنعها حلول أمّها عندها أن تهاتفه، أو حتّى أن تبعث له برسالة في الواتساب؟ كيف تمكّنها منه، ثمّ تنأى عنه بعدها؟ ليست من نوع الفتيات اللائي يجرين وراء مغامرات عابرة ... أم أنها اعتراها الندم، لأنها محتجبة اقترفت في مرجعيّتها إثماً. وهل يحيل حجابها لمرجعية؟ لم يعد يفهمها، على اعتبار أنه فهمها من قبل. أخذ على نفسه ألّا يكلّمها حتّى تكلّمه .. كان يلظى.

لم يجد عزاء إلّا في قراءة اعترافات أغسطين. لم يكن يعرف كبير أمر عنه. وجهٌ كبير من وجوه الكنيسة. فتى ساه، يعشق الحياة مُتعَها، من جسد وخمر ورُفقة الصحاب، ولا يتورّع من اجتراح المحظور .. أن تمتدّ يده لما ليس له، ويقطف من شجرة فاكهة من بستان ليس له. فتى نال

من المعارف العقلية التي كانت تُزجَى في قرطاج، ويَنظر باستهزاء إلى المتشدِّدين من الدوناتيين ممَّنْ لا يتورَّعون عن استعمال العنف في تأويلهم الحَرفي للديانة المسيحية. يُوَلّي وجهته إلى روما، ويحلُّ بها ليُشبع نهمه في المعرفة والحياة. الطريق إلى الله ليست طريقه. وفجأة يتحوَّل الفتى، إذ يكتشف الله. يشمله الرضوان La grâce. (لم يجد أمين المقابل بالعربية لهذه الكلمة). كما صاعقة تصيب امْرأً. أضحى شخصاً آخر. وصار مَنْ غيَّرَ عالماً، ومنحه الأدوات التي من شأنها أن يواجه بها تقلّبات التاريخ وأعاصيره. سقطت روما في يد البرابرة، وهُدمت عن آخرها. ولم تعد روما في روما. انتقلت إلى مدينة الله. إلى مشروع مستقبلي. تمايزٌ بين عالمَيْن. وسلطتَيْن. سلطة زمنية، وسلطة روحية. وهو ميراث أغسطين، ممَّا يعيش عليه الغرب إلى اليوم. وقف أمين في قراءاته لأغسطين وعنه، من أن الكُتُب التي صاغت رؤية الغرب، في الشأن العامِّ ثلاثة، المدينة الفاضلة لأفلاطون، ممَّا يترجم خطأ بالجمهورية، ومدينة الله لأغسطين، والمواطن لهوبز .. سِنْخ الحضارة الغربية، وكلّ ما عدا هذا الثلاثي متفرِّع عن هذا السِّنْخ. إسهام كبير هو إسهام أغسطين إذن في مسيرة النوع البشري. لا ينازع الغربي في مكانة أغسطين، ويعترف بدَينه له، حتَّى ولو هو انسلخ من اللاهوت، أو من هيمنة الدين. لكنْ ماذا عن غير الغربي؟ وبالأدقّ، ماذا عمَّنْ يبزغ من التربة التي أنجبت أغسطين؟ البربري، أو الأمازيغي، أو المغربي، أو ساكن شَمَال إفريقيا. هل يعتبر نفسه سليلاً لأغسطين؟ هل يدلُّ بقرابة إليه؟ وهل يعرفه حتَّى؟ خلال الفترة الاستعمارية، بعثت القراءات الكولونيالية أغسطين. اعتبرتْهُ الجسر إلى شَمَال إفريقيا، لإضفاء الشرعية على وجودها، فيما اعتبرته عودة ... هيَّأ كامو رسالته عنه، وتناسلت الكتابات عن أسقف هيبون أو عنابة كما كان يُعرَف. أفرزت فترة ما بعد الاستعمار، ردّ فعل ضدَّ أغسطين. أغسطين روماني، مرتبط

بالمتربول أكثر ممّا هو تعبير عن عبقرية المكان الذي وُلد فيه، وبزغ منه، ودرج به، كما مثقّفين فرنسيّين في بلاد المغرب إبّان الحِقْبَة الاستعمارية، أمثال كامو، أو ثلّة من الفرانكوفونيّين مَنْ هم صدى المتربول. وبدأ حينها تمجيد المسيحيِّين الدوناتيِّين، مَن قاموا على روما، وجنحوا للعنف. لم يكن الدوناتيون، من منظور أمين، في دائرة الفكر، ولكنْ في دائرة رد الفعل، كما الإسلاميِّين اليوم.

ما استوقف أميناً وهو يخوض في اعترافات أغسطين وتبتُّله، غوره في تجاويف النفس البشرية، في قوّة غير معهودة، والتعليق الذي كان قرأه بقلم الرصاص في النسخة التي وجدها عند نعيمة، لشخص مجهول، أو للشخص المجهول: «ألا يكون أغسطين تعبيراً عن العبقرية الأمازيغية»؟ كانت القراءات الوطنية تأبى عليه أن يكون كذلك، وترى فيه دخيلاً فكرياً، أو مستلباً ثقافياً. هل يمكن أن نجزم بذلك الآن؟ هل يمكن أن نفهم أغسطين من دون سابقة أفولاي؟ أليس حلقةً من سلسلة، وفرعاً من مادة، ونتاجاً من صلب؟ يدين أغسطين بالولاء لأفولاي، مَنْ قدّم مرجعية أخلاقية منبعثة من الذات، في كتابه الحمار الذهبي. هل يمكن أن نضرب صفحاً عن المدرسة البيلاجية، لصاحبها بيلاج بقرطاج، الداعية لرؤية عقلانية؟ هي التربة ذاتها التي أنجبت فيما بعد ابن خلدون. وهي الامتداد لتربة لابيسي La Bétique كما كانت شبه جزيرة إيبريا تُعرَف في عهد الرومان، مع عطاء الرواقي سينيكا، مع ابن مسرّة وابن باجة وابن رشد وابن ميمون، في الفترة الإسلامية .. هل هناك حتمية جغرافية؟ تؤلّف التربة التي بزغ منها أغسطين وابن رشد، وابن خلدون، بين النزوع الروحي والعقلي. يظلّ الشرق غارقاً في الروحانيات، ويُطمر الغرب الروحانيات كي لا يُبقي إلّا على العقل. والحلُّ هو في التوفيق بينهما. والحلُّ هو ما انتهى إليه أغسطين وابن باجة وابن رشد وابن ميمون وابن خلدون.

أشعل أمين سيجارة وهو بالسرير. ودَّ لو بقيت إستير كي يُطلعها على ما انتهى إليه. خلّف غيابها فراغاً مهولاً. شاقته بشكل مريع .. لعلّه أن يجد الجواب لما يضطرب في وجدانه، في الظرف الذي أسلمته إيّاه. كان قد تحسّسه وألفاه دفتراً .. تحرّق شوقاً أن يفض الظرف ويطّلع على ما فيه، ولكنه قطع العهد ألّا يفتحه إلّا بإذن من إستير، ولم تأذن له بعد.

نبّأ. لم ينظّف أمين الغسيل، ولم يكن هيَّأ شيئاً يأكله، والثلّاجة فارغة .. نهض من الفراش. فتح الباب. وجد بّا بوشعيب جالساً في كرسيه برمق السابلة.

- با بوشعيب، جيب لي بوكاديو (ساندويش اسباني) من عند الطنجاوي، والتيد من عند بيمو، عافاك.

أسلمه أمين ورقة مالية من فئة مئة درهم، وقال له أن يُبقي عنده ما تبقّى .. ردَّ بّا بوشعيب:

- مول الحانوت عندو غير تيد أومو.

- ما عليهش.

- نجيب لك موس الحسانة (الحلاقة)؟

- بلاش.

- وجهك ما محسن ش.

- ما كاين باس.

- ها انا مشيت. شوف إلّا بان لك البراني. خطرة خطرة، طل من السرجم. الدنيا مخلطة.

- واخا بّا بوشعيب.

أزاح أمين سترة النافذة. نفذ النور. ينبغي ان يضع حدّاً لعلاقته بنعيمة مراجية. وهل يستطيع؟ ينبغي ذلك. يألم لنأيها. ردَّد في نفسه مَن شعر بشَّار بن بُرد:

مـــن حبّهـــا أتمنَّـــى أن يلاقيَنـــي
مـــن نحـــو بلدتهـــا نـــاع فينعاهـــا
كيمـــا أقـــول فـــراق لا لقـــاء لـــه
وتضمـــر النَّفـــس يأســـاً ثـــمَّ تسْـــلاها

ثمَّ أزاح الخاطرة وهو يردِّد جهاراً:

ولـــو تمـــوت لراعتْنـــي وقلـــتُ لهـــا
يـــا بـــؤس للمـــوت، ليـــت الدهـــر أبقاهـــا

25

كانت نعيمة تنظر إلى الموج وهو يرتطم على الصخر من زجاج سويت بمنتجع ميراج في أرباض طنجة. كانت عارية تماماً. طوّقها أمين من ورائها بذراعيه. كان مثلها عارياً. وضع وجهه على جِيْدها. استنشق رائحتها. استدارت نحوه وغارا في قبلة عميقة. دعتْهُ للاستحمام في البحر. انتعلا أخفافهما. خرجا من السويت عاريَيْن، ونزلا دُرجاً ينتهي إلى حديقة. كان بستانيان يشذِّبان العشب ويتعهَّدان الحديقة. لم يُلقيا بالاً إليهما، ولم يُرهما منظر امرأة ورجل عاريَيْن. مرَّ أمين وهو يمسك بيد نعيمة، عارية، وألقى بالتحية على البستاني جنب الممرّ:

- الله يعاون.

رفع البستاني رأسه وردَّ:

- آمين يا رب العالمين.

ثمَّ استأنف شغله.

ألفيا على مشارف الدرج الكاتب برنار هنري ليفي عائداً من الشاطئ وهو يحمل معه كتاباً. كان يرتدي قميصاً أبيض، كمَّاه منفتحان، وعنقه غير مَطوِيّ، وأزراره غير مغلقة، ويعتمر قبَّعة من تبن. حيَّاه أمين:

- Bonjour Bernard, t'as été à la plage ?

- Ouiii. La mer est splendide. Qu'est ce qu'on est bien ici.

- Je te le fais pas dire. C'est vraiment paradisiaque, le Mirage.

- Unique.. Fais gaffe Amine, le soleil tape fort

- T'inquiète. Chui du bled[1]

استدار برنار هنري ليفي نحو نعيمة. قبَّلها على وجنتها:

- T'es toute mignonne comme ça.[2]

ردَّت نعيمة:

- Il faut revenir à la nature. La culture est voile. C'est autant de barrières.[3]

عقَّب برنار متوجِّهاً إليها:

- A qui tu le dis ? La France est méconnaissable avec ses voilées. Même à la plage, elles mettent leurs burkinis. On est infestés. Il faut y mettre fin, vigoureusement, sinon on est foutus.

---

1) - صباح الخير برنارد. أكنتَ في الشاطئ؟
- أي نعم. البحر رائع. لكَم نحن في هناء هنا.
- هو كذلك. منتجع ميراج قطعة من جنَّة.
- لا نظير له. احذر أشعَّة الشمس، فهي حارقة يا أمين.
- لا عليكِ. أنا ابن البلد.

2) - لكَم أنتِ جميلة هكذا.

3) - ينبغي العودة للطبيعة. الثقافة حجاب. كلّها حواجز.

- Tu sais, Naïma portait le voile avant.

- Sans blagues ? Pas elle.

- Si.[1]

استدارت نعيمة نحو برنار وعقّبت:

- Ne l'écoute pas Bernard, Amine perd la boule. Ai-je l'air d'une voilée ? Où tu vois le voile ?[2]

أردف أمين متوجّهاً إلى برنارد مغيّراً الموضوع:

- T'as pas été en Libye depuis l'insurrection ?

- C'est le bordel là bas, tu sais. Rien à faire avec les Arabes. On veut les aider, mais ils sont incorrigibles. Incapables d'apprécier notre action en leur faveur.

- - C'est génétique, tu sais!

- Je n'ose pas trop le dire, mais je n'en pense pas moins.

- Aide toi le ciel t'aidera.

- Voila ce qui est bien dit..Ils sont trop accrochés au ciel pour s'en défaire. On déjeune si tu veux à la terrasse et on continue la discussion. C'était sympa, hier à la

---

1) - ولمَنْ تقول ذلك؟ لم تبق فرنسا ما عهدنا، مع تفشّي المحتجبات. حتّى في الشواطئ، وهنّ بالبوركني. فشا الأمر. ينبغي وضع حدٍّ للأمر، وبسرعة، وإلّا طمّ الخطب.

- أتعرف أن نعيمة كانت تضع الحجاب من قبل؟

- كلّا؟ إلّا هي.

- بلى.

2) - لا تستمع إليه يا برنارد. أمين أضاع البوصلة. وهل يظهر أني محتجبة؟ وهل ترى من حجاب؟

villa Josephine. Le cadre est fantastique, la bouffe était succulente, et le vin, ah. Rien à envier au bordelais. Tu sais comment j'appelle ça ?:

- Dis-moi.

- L'islam andalous.

- Belle trouvaille.

- - Tchao tchao. Je vous attends pour déjeuner. Amusez vous bien.[1]

ثمَّ انفتل برنارد وهو يُحرِّك أصابع يده إشارة عن التوديع. نزل أمين ونعيمة الدُّرج المفضي إلى الشاطئ. تخلَّصا من أخفافهما. مدَّ لهما الحارس فوطتَيْن. وانغمرا في رمال الشاطئ. نشرا الفوطتَيْن على الرمل، وأخذا يمشيان بمحاذة البحر، عاريَيْن، والموج يداعب أقدامهم. صادفا مصطافين، يمشون في الاتِّجاه المعاكس. كانوا يهشُّون لهما برؤوسهم،

1) - ألم تحلّ بليبيا منذ التمرّد؟

- فوضى عارمة هناك. ليس هناك حلّ مع العرب. نريد أن نساعدهم، ولكنهم حالة ميؤوس منها. لا يدركون صنيعنا من أجلهم.

- المسألة مرتبطة بالجينات.

- لا أزعم الجهر بذلك، ولو أني في قرارة نفسي أؤمن بذلك.

- إن تُعن نفسك، تُعنك السماء.

- هو ذا القول الفصل. مرتبطون بالسماء كي ينسلخوا عنها. يمكن أن نتناول الغداء بالشرفة المطلّة على البحر، ونتمّم الحديث. كانت أُمسيَّة رائعة أمس بفيلّا جوزيفين. الإطار رائع، والطعام لذيذ، والخمر، ماذا أقول، يعدل خمر بوردو. أتعرف كيف أسمّي هذا الوضع؟

- قل لي.

- الإسلام الأندلسي.

- لله درُّكَ. اكتشاف جيِّد.

- تشاو، تشاو. أنتظركما للغداء. استمتعا بيومكما.

تحية لهما. مرّا أمام حراس لقصر أمير خليجي. ألقى الحرّاس بالتحية إليهما. مشيا حتّى أنبوب الغاز الآتي من الجزائر. توقّفا، وطبع أمين قبلة على نعيمة. عادا أدراجهما إلى أن بلغا الحيِّز التابع للمنتجع. انغمر أمين جرياً نحو البحر، ثمَّ ألقى بنفسه في اللُّجَّة. عاد أمين وهو ينظر إلى قسمات جسم نعيمة، بنهدَيْها المنتصبَيْن، وقدِّها الممشوق، وعانتها المُغرية .. تقدَّم نحوها ورشَّ جسدها بقدمه. صرخت:

- T'es un salaud.[1]

أحاطها بذراعَيْه، وقبَّلها. عقَّبت:

- Mais tu es mon salaud[2]

أمسكها من يدها ثمَّ انفلتت منه، وارتمت في لُجَّة الموج، ثمَّ أخذت تسبح. بقي أمين ينظر إليها، إلى أن توقَّفت وماء البحر على مستوى صدرها ونهداها يغوران ثمَّ يظهران على تموُّجات البحر. غطَّت غدائرُ شَعْرها وجهها. استثاره جمالها، وانتصب عضوه. التحق بها سباحة، وانفتل بين فخذَيْها وقلبها. غارا كلاهما في الماء، ثمَّ اعتليا، ولفَّها بذراعَيْه، وغارا في قبلة عميقة .. أمسك يدَيْها وأخرجها من البحر. لمَّا بلغا الشاطئ أخذ يقبلها ويداعب بيده ظهرها وعجيزتها. هوى بها على الرمل. اعتلاها. يقبِّلها بنشوة ورغبة، وموج البحر في مَدِّه وجَزْره يداعب أقدامهما. رفعت فخذَيْها. وطئها. أخذ يرتفع وينخفض على تأوُّهاتها وهي تصرخ Plus fort, plus fort (أقوى، أقوى) إلى أن بلغ الرعشة. وفجأة استفاق. أدخل يده في تُبَّانه، ولمس السائل اللزج ... احتلم. كان يشكو الغُلْمَة.

---

1)- أنتَ وغد.

2)- ولكنكَ وغدي.

نهض من الفراش منكسراً. قصد الحمَّام. نظَّف أسنانه، ثمَّ انغمر في الدوش ... هيَّأ القهوة بعدها .. عبَّ منها. أشعل هاتفه .. ثمَّ ضغط في الريرتوار. استمع لذبذبات النداء. أخذ الرنين يتردَّد، وأخيراً انتهى إليه صوت موهَن:

- ألـو؟

- ألو.

- شكـون؟

- أنا أمين، أإيما.

- وليدي، كيف انتين، وكيف عامل؟

- الحمد لله أيما.

- غبت أوليدي. ما بئت (بقيت) تسأصي (تستقصي) .

- الشْغال (الأشغال) أيما. كيف أنتين؟

- ما بأى (بقي) في الدنيا ما يعجب. الله يرحم ضعفنا. مهولة عليك أوليدي. آلوا (قالوا) لي المخزن يعبي الكوازيطية (الصحافيين) للحبس. هازّة لك الدبيلة[1]. أياس (قياس) الخير.

- ما تهوليش أيما.. نضرب ونأييس (نقييس).

- المخزن ما فيه تآة (ثقة) أوليدي.

- تأوليها (تقولينها) ليَّ؟

- شكون يكون بك؟

---

1) الدبل هو الإبل الممتلئ شحماً ولحماً. ومنه الثقل. وذهبت مثلاً في المغرب، أي أحمل هماً، أو مشوَّش البال.

- عندى خدامة..

- رد بالك، مش تعمل لك الفعايل، تبحلس (تتودد) عليك بالكلام الحلو، وتسحر لك. يعملوها الخدامات.

- تهنّي أيما، راد بالي.

- النسا ما فيهم تأة (ثقة) والخدّامات اكتر. ماشي ف حال الخدم د زمان. شوف أوليدي ابل (قبل) ما ترأد (ترقد) ارا (أقرأ) آية الكرسي تكون لك حجاب وستر...

- آمين.

- في الصباح لما تفيأ (تفيق) ارا (أقرأ) أول (قل) هو الله أحد ربع (أربعة) مرات، كتزوّل (تزيل) العين الأبيحة (القبيحة). إمتى تحوف لفاس؟

- مشغول شويش أيما. ادعي معي.

- كندعي معك كل فجر..اللهم تعالى وعلا يرضي عليك.

- آمين.

- وما تغيّبش عليّ. من العيد لكبيِر ما حُفتِ لفاس.

- ماش نجي.

- مرَّة مرَّة ضرب فيَّ الفأد (تفقدني). خليت لك الراحة.

قطع الهاتف. كانت الرغبة قد راودتْهُ أن ينزل فاساً، ولكنه طمرها، لأنه لم يكن يريد أن يُطلع أمَّه على فصله عن العمل، ولا عن ظروف عيشه.

حضَّر قهوة ثانية، ثمَّ أشعل سيجارة. لم يكن له أن يبدأ مغامرته مع نعيمة.

26

منذ ساعة وأمين في الفراش بعد إذ صحا. لم تكن به رغبة لشيء. ريح خريفية تهبُّ تحمل مخاييل المطر. أخذت قطرات المطر تنش. لم يكن شيء يفعم خاطره كما وقعُ المطر، ولكنه لم يكن في حالة نفسية ليستمتع بوقعه .. حتّى القراءة التي كانت تَشغله وتصرف عنه الأسى لم تعد تستهويه. ينبغي أن يغيِّر علاقته بالحياة. وينبغي كما سبق أن أشار عليه محند أن يبحث عن شغل. لم يعد يريد أن يعود للصحافة، وليس مُقدَّراً أن تقبل به، حتّى لو أراد ... تغيَّرت الصحافة، ولم تعد في دائرة التحليل ولا التحرير، فبالأحرى التنوير، بل سقطت في الهراش والتشهير، فضلاً عن الاختراق. كان الأحرى لربَّما البحث عن التدريس في مؤسَّسات خصوصية قبل بدء الموسم الدراسي. ولكنْ ماذا يمكن أن يُدرِّس؟ اللغة العربية؟ لم يعد أحد يهتمّ بها، وهي كماء غدير يغيض يوماً عن يوم، سوى ثُلَّة تزعم الدفاع عنها وتخطئ فيها. الفرنسية؟ يرطن الجميع بها ولا يُحسنونها .. التاريخ؟ أيُّهُ؟ التاريخ الرسمي للغُرِّ الميامين، والغطاريف المُحجَّلين؟ ليس هو من ذاك. تدريس التاريخ موضوعياً؟ لن يسلم من المآخذ التي بَلا شرَّها، من الاتِّهام بالإسرائيليات، ونفث سموم الاستشراق، وبعث القراءة الكولونيالية ... ربَّما يروغ للترجمة .... يعرف أن قبول تشغيله غير مؤكّد، ويدرك أنه لسوف يمرّ من تقييم ممَّنْ لا يحسن اللغتَيْن ويعتبر الترجمة مطابقة كلمة لكلمة، وحينما سيمرّ من ثقب الإبرة، سيؤدَّى أجره للصفحة .. كيف يمكن أن تُقيَّم الترجمة بالصفحة؟ أتيح له أن يقرأ بعضاً ممَّا كان يُترجم من الفرنسية أو الإنجليزية إلى العربية، وكانت أغلب الترجمات ركيكة

وغير دقيقة، ولا تنفذ إلى جوهر النصّ، ولا تحمل عبقرية اللغة العربية، ولا يُجشِّم أصحابُها أنفسَهم التنقيب في تراث اللغة العربية، للبحث عن المصطلح أو الكلمة المؤدِّية للمعنى، أو نحت مقابل مستقى من مادةّ اللغة العربية وعبقريتها. ينام العرب على كنز من ثراء لغتهم، ويحسبون أن هذا الكنز سيأتيهم طوعاً. كما كانوا ينامون على مخزون البترول ولا يعلمون عنه شيئاً إلى أن اكتشفه «الكفَّار»، ونقلوهم من الشظف إلى اليسار. ولكن استخراج نفائس تراثهم لن يقوم به غيرهم. والعجم، ممَّنْ لازموهم في مسرى حضارتهم، وأعانوهم على إيقاد وهج حضارتهم، تحوَّلوا عنهم، لأن نجم الحضارة تحوَّل، وتحوَّلوا معه، وأضحوا يدورون في ركابه. هل يمكن أن تتطوَّر لغة من غير دعامة إيديولوجية؟ أو قوَّة اقتصادية؟

تحوَّل النّشّ إلى زخَّات.

نعيمة نزوة. مغامرة اقترنت ببنيس. بنيس مات، وينبغي أن تنتهي المغامرة. ومع ذلك تعلَّق أمين بنعيمة، وأحبَّها، وهي نفسها أبدت التعلُّق به، ورأى أن يَقرن حياته بها، ولم يكن يضيره الاقتران بها وَفْق علاقة رسمية رغم كرهه للمواضعات. ضرب صفحاً عن المُثبِّطات كلّها. سنها إذ تكبره، ووضعه كعاطل. كان في دائرة الحبِّ، وليس في دائرة المواضعات، ولا واجب الاقتران «لاستكمال دينه»، أو تكوين أسرة، أو الانسكاب في القوالب الاجتماعية.

سمع جرساً على الباب. با بوشعيب ربمَّا. اليوم أحد، وهو لا يشتغل يوم الأحد، ويذهب عند أسرته بعين عودة .. خطأ. تجاهل أمين الجرس. عاد الجرس. نهض متثاقلاً. فتح الباب. وقف جامداً. لم ينطق بشيء. انتهى إليه النداء:

- ألا تريد أن تُدخِلَني؟

- أأنتِ؟

ثمَّ ارتمى في حضن نعيمة، وضمَّها إليه ضمّاً. لم يُصدِّق ناظرَيْه.

- إنكَ تخنقني يا أمين، ردَّت نعيمة وهو ممسك بها ...

انفصل عنها، ثمَّ أخذ يحملق فيها، كَمَنْ يتأكَّد من أنها هي. ثمَّ نطق:

- لماذا تعذِّبيني يا نعيمة.

- ولماذا تعذِّبني أنتَ أيضاً؟

- لا يبدو عليكِ أنكِ كنتِ تلظين.

- أدخلْ أوَّلاً.. لا يمكن أن نصفِّي حسابنا على عتبة الباب.

دخلت نعيمة إلى مدخل الشقَّة. غسيل التصبين يجاور الكُتُب على الكتب ... فوضى عارمة.

- خباء مثقَّف. لم أكن أتصوَّره إلَّا هكذا .. ألقت نعيمة.

- جُحر مكلوم.

- لستَ وحدكَ المكلوم ... كنتُ أفكِّر فيكَ هذه المدَّة كلّها.

- ليس هناك من برهان.

- وليس لكَ من برهان أني لم أكن أفكِّر فيكَ.

- كان يمكنكِ أن تبعثي لي رسالة في الواتساب. كوكو. صباح الخير. مساء الخير.

- وأنتَ لم تفعل.

- آخر مَن اتَّصل أنا. وأنا الطرف الضعيف ... قولي كيف عرفتِ بمكاني؟

- سرّ.

جلست نعيمة على الكنبة، بجوار الكُتُب وغسيل الملابس. ابتدرها أمين: أأقدِّم لكِ قهوة؟ ليس إلَّا القهوة ...

- لا تتعبْ نفسكَ. تناولتُ الفطور قبل أن أغادر مكناس. أوصلتُ أمّي أوّل أمس إليها، وقرّرت في أثناء العودة أن أتوقّف عندكَ.

جلس بمقربتها وضمّها إليه، ثمّ أخذ يداعبها. قبّلها على شفتَيْها. قبّلها على وجهها. ردّتْهُ إلى بعض القصد. كان في عجلة. أزاح حجابها ..

- على رسلكَ .. دعني أستردُّ أنفاسي ..

- لا. لن أتركَكِ تنفلتين منّي هذه المرّة .. كنتُ أراكِ في المنام. أحلم بكِ. تعالي معي ..

أمسكها من يدَيْها وجرّها إلى الغرفة .. رفعت أصبعها:

- أُحذّركَ.

- ألا أخور؟ أعدكِ ألّا ..

- Je suis indisposée (بي العادة الشهرية.) ..

- Et moi je suis disposé.. (أنا مهيّأ)

غشيا غرفته. كان غطاء الفراش غير مَطوِيّ، وكُتُب عدّة أسفل السرير ... لفَّ أمين نعيمة بذراعَيْه، ثمّ نزع حجابها. قبّلها. غشي أصابعه في غدائرها. هوى بها على السرير. أخذ ينزع لباسها. نزع لباسه كلّها. بقيت بتُبّانها.

- أمين. اضبطْ نفسكَ. أخبرتُكَ. لا يمكن اليوم ..

- كيف أستطيع الاصطبار؟

- لديَّ خبر غير سارّ.

- لا يمكن أن يكون أكثر سوءاً ممّا اختبرتُ ..

- الأمر بإيقافكَ واقتيادكَ .. أريد منكَ أن ترافقَني إلى الدار البيضاء. سيكون لنا الوقت لتدارك ما فات ..

لفتَ انتباهها على مائدة النوم كتاب اعترافات لأغسطين. حملتْهُ بيدها، ثمَّ وضعتْهُ من دون أن تنبس بشيء.

***

كانت السماء رمادية، مُلبَّدة بالغيوم. توقَّفت زخَّات المطر. البحر هائج والموج يزمجر وهو يرتطم بالصخر. شرفة مطعم ميرامار مغطَّاة بنافذة زجاجية مشرفة على البحر. جلس أمين ونعيمة متقابلَين، موازيَيْن للبحر. طلب أمين بيرة هاينكن. أنعشتْهُ. أتى عليها دفعة واحدة. شعر بالثُّمَل، لأنه لم يتناول شيئاً في الفطور. طلب أخرى ...

- ألم أوحشكَ هذه المدَّة كلّها؟ سألت نعيمة.

- لم توحشيني وحدي.

- أتحدَّث عنكَ لا عنه. يمكن أن يجد ضالَّته في أخرى.

- لا أعني ما توحين به. هو يأتمر بقلبي. أتحدَّث عن لا وعيي. حلمتُ بكِ مرَّة، حتَّى احتلمتُ ..

ضحكت نعيمة، ثمَّ أردفت:

- أنتم ثلاثة إذن.

- في ذات واحدة.

- أصبحتَ مسيحياً، إذن.

- ممكن.

- احكِ لي ..

- كنَّا كما في الجنان عاريَيْن ..

- بداية جميلة. أتمِمْ.

- في منتجع. والتقينا في الحديقة الكاتب برنارد هنري ليفي..
- حتى الحُلم يختلط لديكَ بالثقافة.
- كنتُ أقرأ كتابه عن الإنسية اليهودية ... وبقيت ترسُّبات في لاوعيي.
- أتمِم الحُلم.
- ومشينا بجنب البحر عاريَيْن، على مرأى العابرين..
- عسى ألّا يكون أحد رمانا بالحجارة.
- كنّا في الجنّة.
- تعرف ما يلازم مَن يكون بالجنّة. حينما نقرب الفاكهة المحرّمة، نخرج منها.
- استحممنا في البحر، وبعدها طوّقتُكِ بذراعي على جنب الشاطئ، ثمّ أنزلتُكِ على الرمال المبلّلة.

توقّف. استدرجتْهُ:

- وماذا بعد؟

- مارسنا الحبّ.

- من غير علمي؟ تجرؤ أن تخونني. تمارس الحبَّ مع طيفي..؟!

- لأنكِ غبتِ عنّي.

- سأغفر لكَ هذه المرّة.

- ولن أغفر لكِ أن تتركيني نهباً للتوهُّم.

وقف عليهما النادل، أخذ الطلبات..

أشار أمين برأسه نحو نعيمة:

- لسوف أطلب سمكاً. خاصِّيَّة المطعم السمك.

- أسبقَ أن حللتِ بالمكان؟ سأل أمين نعيمة.

- نعم. على كلّ .. سمك. سمك السيف ..

- خيار جيِّد، قال النادل. سمك اليوم.

وتحوَّل النادل نحو أمين:

- سمك الصول.

- مقلي، أم مشوي.

- مقلي ... Sole meunière

- وفي بداية الأكل؟.. سأل النادل.

- صلاطة، قالت نعيمة. نشترك فيها .. ليس بي جوع .. صلاطة. صلاطة المطعم ... غنية.

ذهب النادل. تحوَّل أمين نحو نعيمة:

- يبدو أنكِ تعرفين المكان، وخاصِّيَّة المكان ..

- ماذا تريد أن تعرف؟

- ما تخفين.

- ألستَ راضياً لما ترى، البحر وأنا، بصحبتكَ .. أعرف المكان. ليس للأمر أهمِّيَّة. تعرف، أريد أن نسافر كلانا إلى الصحراء يوماً.

- أتعرفين الصحراء؟

- اكتشفتُها. لها سحرٌ خاصٌّ .. وبالأخصّ في الليل..الظلمة مؤنسة في الصحراء ..

- لا أعرف الصحراء..

- ينبغي أن تكتشفها، وتكتشفها معي...

عبَّ أمين من كأس البيرة. ثمَّ قطع قطعة من الخبز، ودهنه بالزبدة، وتناوله. قضم من الزيتون. هل عرفت نعيمة المطعم مع آخر؟ .. وهل اكتشفت الصحراء معه؟ أزاح أمين الخاطرة. حياتها قبل أن يعرفها لا تعنيه. ولكن كيف لمحتجبة أن تقترن بعلاقة غير شرعية؟ هل كانت متزوِّجة من ذي قبل؟ يُنادَى عليها بآنسة في المستشفى. لم يجد ما يملأ به الفراغ. أخيراً قطعه.

- جارتي إستير رحلت.

- نهائياً؟

- لا. من أجل فحوص طبِّية في باريس.

- مسكينة.

- خلَّفت فراغاً..

- لا تتبيَّن أهمِّيَّة شخص إلَّا حين يرحل .. احكِ لي عنكَ.

- كنتُ ألظى. لأني أفكِّر فيكِ. ولم أفهم جفاءكِ.

- ليس هناك من جفاء. كنتُ أفكِّر فيكَ أيضاً، وفي علاقتنا .. حدَّثتُ أمِّي عنكَ.

- أصحيح؟

- لماذا سأكذبكَ؟ ولم أحدِّثها عنكَ قبل أن أحدِّث نفسي. لكن رأي أمِّي يهمّ.

- هل يمكن أن أعرف؟

- سألتني إن كنتَ مسلماً.

- وماذا قلتِ لها؟

- كذبتُ. قلتُ له إنكَ مسلم. طبعاً يكفي بالنسبة إليها أنكَ وُلدتَ مسلماً.

- هل الأمر مهمّ بالنسبة إليها؟

- أظنّ.

وضع النادل صحناً كبيراً فيه صلاطة من الأنديف والجمار والتونا وحبّات الذرة .. رشقت نعيمة شوكتها، وأخذت قطعة من الأنديف. أكل أمين بنهم. رفع يده نحو النادل. قاطعتْهُ نعيمة:

- ما ذا تريد؟

- بيرة أخرى.

- لا. سأغتسل اليوم، وفي حاجة إليكَ .. ينبغي أن نتدارك ما ضاع.

- إذا كان الأمر من أجل قضية سامية، لن أطلب بيرة ثالثة ...

- لا ينبغي أن نتأخَّر في المطعم. نأخذ الطريق إلى الدار البيضاء مباشرة.

هطلت ديمة. أسبغت مسحة رومانسية على حبيبَيْن لم يلتقيا لأسبوعَيْن، ويتحرَّقان شوقاً ليفضيَ بعضهما لبعض. ذكَّرت الدِّيمَة أميناً بيتاً كان حفظه وهو يافع:

وحديثها كالقطر يسمعهُ   راعي سنين تتابعت جدبا

27

لم يعرف أمين السعادة كما استشعرها وهو مقيم عند نعيمة في شقَّتها بالدار البيضاء بحي راسين. تستيقظ على الساعة السادسة. تغتسل، ثمَّ تهيِّئ القهوة، وينتهي إلى أمين وهو في الفراش جرس الخادمة. يدرك أنها السابعة. ينتهي له بعدها طنطنة الأواني في المطبخ والخادم تهيِّئ فطور صباح. يتأذَّن له أن ينهض من الفراش كي يتناول الفطور برفقة نعيمة. ينظِّف أسنانه ويغسل وجهه، ويلتحق بها في المطبخ. تكون نعيمة قد أكملت تهيُّؤها، وارتدت لباسها، ووضعت حجابها. يتناولان الفطور بالمطبخ، ثمَّ تطبع على شفتَيْه قُبلة. ثمَّ تغادر إلى المستشفى مع الساعة الثامنة. كانت كما ساعة سويسرية، منضبطة، ودقيقة. كانت على خلاف ما قد يحيل له حجابها متحرِّرة. لم تكن لتنزعج من الخادمة وهي تستقبل رجلاً في بيتها ينام معها في غرفتها. كان أمين يظنُّ، وهو برُفقتها، أن سينكشف له لغزها، ولم يزدد اللغز إلَّا غموضاً. لم تكن تصلِّي بكلِّ تأكيد، ولم تكن في بيتها كُتُب دينية. وكانت متحرِّرة في الفراش. هل كانت متزوِّجة واسترجعت لقب آنسة بعد الطلاق؟ أرَّقه السؤال ولم يرَ من اللائق أن يطرحه عليها، إلَّا أن تُحدِّث هي عن حياتها قبل أن تعرف أميناً، وهي لم تفعل وتريد أن تحيط حياتها بحجاب.

لمَّا أن تغادر نعيمة البيت، يتناول أمين دوش، ثمَّ بعده قهوة، ويشعل سيجارة. لم يكن يدخِّن إلَّا في المطبخ. تنادي عليه الخادمة بالسي أمين، تأدُّباً. كما لو كان زوجاً لنعيمة.

يَشرع في القراءة. وحوالي الحادية عشر يخرج كي يقتني الجرائد من مكتبة «خدمة الكتاب باريس»، ويتَّخذ مجلساً بمقهى أُليفرتي، يقرأ الصحف أو ينظر إلى المارَّة في حنو، وهو يتلهّف لعودة نعيمة. وقلّما تعود قبل الخامسة. يعود أمين إلى الشقَّة حوالي الثانية والنصف. يكون الغداء جاهزاً. ينال منه. يُفضِّل أن يتناول الغداء مع نعيمة سويّة. يسترخي في الصالون يقرأ ... كان قد أخذ معه بعضاً من الكُتُب التي كان يودُّ قراءتها، وكان أغلبها من كُتُب التراث، ومنها الحيوان للجاحظ، وكان بنيس يوصي بقراءته. شدَّه الكتاب أوَّل ما بدأه. كان مَتنُ الكتاب أوسع ممَّا قد يحيل له العنوان، وكان بستاناً في الطرائف، وكشكولاً من النوادر، وأداة ديداكتيكية للغور في غمار الآداب، والقطف من ثماره، وكنزاً للغة وصورة للحضارة الإسلامية في أوجها، وشهادة عن تنوّع مِلَلِهَا ونِحَلِهَا وقد التقت في رحاب لغة جامعة، ودلالة عن قضاياها المعرفية، بل الوجودية، ورؤية موضوعية في دراسة الحيوانات وأحوالها، مع حسّ الملاحظة لصاحبه، والتفكُّر في شؤون الإنسان. كان ممَّا أثاره حدس الجاحظ في تطوُّر الحيوانات وارتقائها، ممَّا انتهى له العلم. وجد أمين في التقلُّب في الكتاب متعة، بيد أنه ليس من الكُتُب التي تُقرأ دفعة واحدة، وإنما نزهة يرتادها المرتاد، ويتفيَّأ ظلالها.

تستأذن الخادمة في الساعة الثالثة، وتسأل أميناً حاجته، إن كانت له حاجة، ثمَّ تشير إلى أن غداء «للانعيمة»، في الثلاَّجة، وتغادر في أدب.

تعود نعيمة بعد الخامسة .. لم يكن هناك وقت قارّ لساعة أوْبتها، ولم تكن تعود قبل الخامسة. تنتهي إلى أمين قعقعة المفتاح، ويقف في الردهة، كما جندي. يرسل التحية: تحت أوامرك سيدي "A vos ordres chef" ثمَّ يُطوِّقها بذراعَيْه، ويُقبِّلها .. لا يدعها تستردُّ أنفاسها. حتَّى يغلب عليها الانزعاج، وتبدي النفور .. يشفع بالردّ بـ: «أنتِ لا تدركين حرقة الانتظار». يمسكها من يدها، ويذهب بها إلى غرفة النوم. ثمَّ يشرع

في نزع ملابسها. لا تبدي حراكاً. حتَّى ينفِض عنها لباسها، كما تنفض الريح أوراق الشجر .. ثمَّ يشرع في تقبيل جسمها، من شَعْرها، فجبهتها ثمّ جِيْدها، إلى نهدَيها، وينزل إلى فخذَيها، حتَّى أخمص قدمَيها. وفجأة تهجس: «انزع لباسكَ أيُّها الوغد Salaud، أورثت نار شهوتي». ينزع لباسه على عجل، ويلقي بها. يستلقيان على السرير، ويمارسان الحبّ .. ثمَّ يسترخيان في الفراش .. تهُمُّ نعيمة بالنهوض. يستبقيها. «ينبغي أن نسدُّ الرمق عزيزي» تردُّ. تذرع الشقَّة عارية. تضع الطعام للتسخين. تتناول دوش. تلفُّ عليها رداء الحمَّام. تهيّئ المائدة بالمطبخ. تنادي عليه .. يستفيق من غفوته. تعاود نعيمة النداء. ينهض من الفراش، يضع تُبَّانه، يدخل الحمَّام، ثمّ يلتحق بها في المطبخ. يتناولان الطعام، في وجبة هي غداء وعشاء .. يغوران في الحديث في كلِّ شيء، وعن لا شيء ..كان ممَّا حدَّث به، كما شيء يكتشفه، تلك الساعات التي كان يقضيها مع والده صغيراً في حفظ القرآن. كان التراث جزءاً من تكوينه قبل أن ينقلب عليه. وظلَّ رسيس منه، هو ما يفسِّر ولعه به، وقراءة ما يسمَّى بأمَّهات الكُتُب. تسأله عن الكتاب الذي هو بصدد قراءته، ولا يحير جواباً. يكتفي بالقول إنه محراب يتعبَّد فيه. تسأله عن الإله الذي يتبتَّل إليه زُلْفَى. يردُّ: اللغة العربية. تردُّ، هل تستحقُّ أن تكون معبوداً؟ يعقب من قولة مأثورة في المسيحية: تناولِ الماء المُبارك إلى أن تنتهي بالإيمان، (Prenez de l'eau bénite, vous finirez par croire) ويشفع بآية من القرآن: واعبُدْ ربَّكَ حتَّى يأتيكَ اليقينُ. تعقّب: وهل هناك يقين في الأفق؟ لا يعقِّب. تنطق بالقول: طوبى لكَ، تنتقَّل من ثقافة لثقافة. يردُّ: لستُ على يقين من ذلك، لا شيء يجعل الحياة جحيماً كما التمزُّق بين حضارتَين، وعالمَين، ولغتَين، كما يقول هرمان هيسه في ذئب البراري. تمسك يده. لا يقويان على مغادرة المطبخ. تكون الظلمة قد أسبلت رداءها. تنهض أخيراً، وتجمع الصحون. يساعدها أمين. تنظِّف الطاولة. تتخلَّص ممَّا يفضُل في القمامة. تضع

الصحون والسكاكين والشوكات في آلة غسيل الأواني. تضغط على الزر .. يتحوّلان إلى الصالون. تتطامن في حضنه. تشعل التلفزيون، في قناة التاريخ. لم تكن الأخبار تستهويها، على خلاف أمين. شاهدا سوياً أفلاماً وثائقية، عن الحرب العالمية الأولى، وانتهى أمين أنه لا يمكن فهم الغرب، من دون الوقوف على الحرب العالمية الأولى. لا يكفي قراءة الأنوار، المتن الذي يأتمُّ به الغرب، أو السِّنْخ العقدي، ومرحلة الإصلاح الجديدة التي أرساها سان سيمون فيما أسماه الاشتراكية. ليست الاشتراكية إلّا صورة من صورة للمسيحية. قلب سيمون مقولة أحبُّوا بعضكم البعض، إلى أعينوا بعضكم البعض. مهمٌّ أن يقف المرء على جينوم الغرب، ذلك الذي صاغته الأنوار، ولكنه يظلُّ مستعصياً من دون الحرب العالمية الأولى، فهي التي أجهزت على ما تبقَّى من أوهاق التقاليد. شاهدا فيلماً وثائقياً عن حرب الجزائر، ومجزرة البوسنة، ومذبحة برنيشكا، وترحيل الأرمن، والإبادة التي تعرَّضوا لها، وفيلماً وثائقياً عن حرب أكتوبر، وصور المعارك في سيناء، وآخر عن الحروب الصليبية .. لم تتوقَّف حروب الحضارات، ولم يكن ما قاله صمويل هنتغتن عن صدام الحضارات أمراً جديداً. يتغيّر اللبوس فقط. تغفو نعيمة أحياناً وهي مستلقية في الكنبة .. تنهض فزعة .. «كنتُ متعبة.» يتناولان زبادي أو فاكهة، ثمَّ يلتحقان بغرفة النوم. كانت نعيمة حينها تقرأ كتاباً عن تاريخ القدس بعنوان «سيرة القدس» لسيمون صباغ مونتفيوري[1]، وكان أمين قد انتقل من كتاب الحيوان إلى كتاب أخلاق الوزيرَيْن لأبي حيَّان التوحيدي. تفاجئه:

- ماذا تقرأ؟

- لعنة المثقَّف، والصراع السرمدي ما بينه ورجل السياسة.

- اقرأ عليَّ بعضاً منه؟

---

1) Simon Sebag Montefiore: Jérusalem, Biographie, Calmann-lévy, 2011 (traduit de l'anglais)

يتلو عليها مقتطفات من أخلاق الوزيرَيْن .. لا تدرك منه كبير أمر.

- مستغلق عليّ؟ هل يفيد هذا التراث؟

- هي مادّة خام، إن لم يتمّ تحويلها لن تصلح لشيء ..

- أتفكّر أن تُحوِّلها؟

- أرجو ذلك ..

يلحظ من عينَيْها الوسن.

- أرى أنكِ تريدين النوم.

يطبع على شفتَيْها قُبلة. يغلق أمين دفَّتَي الكتاب. ينامان متعانقَيْن. ينتهي إليه زفيرها وقد شملها الكرى. يجفوه النوم. تطبَّع بطابع الصحافيِّين، فلا ينام مبكِّراً ولا يستيقظ باكراً .. تتوزَّعه أفكار شتَّى وهو في دُجْنَة الظلام .. لا يتحرَّك حتَّى لا يُوقِظ نعيمة .. هل ما يعيشه حقيقة؟ إذا كان يريد أن يعيش مع نعيمة، ولا يتصوَّر حياته من دونها، ينبغي أن يجد شغلاً. لا يمكن أن يبقى عالة عليها ... يسعى أن ينسلَّ من الفراش وينزع جسده منها، خلسة. تنتبه للأمر. تبرغم ما بين صحو ونوم. «ابقَ. أريد أن تبقى بقربي.» تلفُّه بذراعَيْها. تراوده. تضع يدها على تُبَّانه ... ينتصب عضوه، فيمارسان الحبَّ.

28

كان أمين وحيداً بالشقَّة وقد غادرت الخادمة. الشقَّة واسعة. بها صالون بجناحَيْن، عصري وتقليدي. بالجناح العصري مكتبة، وتلفزيون، وآلة موسيقى، وبجانبه حمَّام. تُزيِّن الصالون لوحات زيتية أصلية لشخص عارف للفنِّ التشكيلي. بالشقَّة غرفة للنوم مع حمَّام، وغرفة للضيوف، هي حتماً حيث كانت تقيم أمّ نعيمة، إذ كان قد وجد بها سجَّادة للصلاة مَطويَّة، ونسخة من القرآن.

نظر إلى المكتبة في الصالون - وكان قد أعاد كتابي «السجن اليهودي» لجان دانييل، و«تأمّلات في المسألة اليهودية» لسارتر. بحث عن كتاب «اعترافات»، لم يجده.

انتقل إلى غرفة تقوم مقام مكتب نعيمة، به حاسوب، وآلة سحب، ورفوف بها كُتُب ومجلَّات. تملئ الرفوف، وكانت بها كُتُب طبِّية، ومجلَّات متخصِّصة، ورسائل جامعية في الطبِّ. في رفٍّ سفلي مجلَّات سياسية بالفرنسية، ممَّا يصدر في المغرب، تيل كيل، وماروك إيبدو، ومجلَّة زمان بالفرنسية.. لفت انتباه أمين كتاب موضوع بشكل عمودي. أثار الكتاب انتباه أمين. سحبه من موضعه. قرأ عنوانه بالفرنسية: «غرير في الأرض المقدَّسة» لريجيس دوبري. فتح دفَّة الكتاب. رمق في الصفحة الأولى كتابة بحروف تيفيناغ. قد تكون الكتابة اسم صاحبه، أو مكان اقتنائه، مع أعداد تبيَّن أنها أعداد للتقويم الزمني بالأرقام العربية. 25، و2008. التقويم الأوَّل في كتاب «اعترافات» كان لألفَي سنة وتسع مئة، وهو يحيل حتماً للتقويم

الأمازيغي، والتقويم الثاني كريكوري. وجد تعليقاً بقلم الرصاص، باللغة الفرنسية، بخطٍّ رشيق، ممَّنْ تلقَّى تعليم الخطّ في الصِّغَر، كما كان يُلقَّن قديماً. صاحبُ كتاب ريجيس دوبري، هو ذاته صاحب كتاب اعترافات أغسطين. الخطُّ نفسه في الكتابَيْن. قرأ أمين التعليق التالي بالفرنسية:

"Si justice et raison s'opposent, il faut pencher du côté de la justice".[1]

انسلَّ أمين من المكتب، وجلس في الكنبة، وانتقل مباشرة إلى المقاطع المسطَّرة من قِبَل القارئ المجهول.

استرعى انتباهه خطَّان صغيران في نهاية فقرة بالصفحة 207.

«ثقافة لا تُبدع التسلية، من ذاتها، هل تستطيع أن تبني حضارة مغايرة؟»[2]

عاد أمين إلى الصفحة ما قبلها كي يفهم سياق الجملة. كان لدوبري لقاء مع ناشطة من الإخوان المسلمين بعَمَّان، ووقف على ما أسماه إسلام السوق، ونزوعه الاستهلاكي وتقمّص النيوليبرالية، والميل إلى ما يسمّيه بـ «الثراء الفاضل»، لكنْ من دون تسلية. يأسى دوبري للضجر الذي يصاب به «الكافر» عند المحمَّديِّيْن (المسلمين).

استرسل أمين في القراءة عن حوار لدوبري مع داعية إسلامي. لم يكن المقطع مُسطَّراً. كان الداعية يشتكي من سطوة التلفزيون ممَّا أحال أشباه علماء إلى عناصر ساطعة ونافذة. أخذ ريجيس دوبرى بخاطره بالقول إن الأمر لا يختلف لدى «الكفَّار»، حيث يسطع نجم التافهين. عمَّ الفساد في البرِّ والبحر. أو في الشرق والغرب. استوقفت أمين جملة لريجيس دوبري، تعليقاً على حواره مع الداعية، لم تكن مُسطَّرة:

---

1) «إذا ما تعارض العدل والعقل، فينبغي تغليب العدل.»

2) Une culture qui n'invente pas le loisir en propre peut-elle bâtir une altercivilisation ?

«هل ترتسم جبهة تضامن ضد الميوعة؟»[1]:

استأثر باهتمام أمين التحليل الذي أجراه ريجيس دوبري عن عالم الويب أو الفضاء الأزرق وكيف أنه، كما القنبلة النووية، أداة توازن القوى الذهنية، لفائدة الأقلّ تعليماً (sous éduqués) إذ يُشيع والأعصاب الاغتباط، أو الرضا عن النفس. كلّ شريحة بما لديه فرحة. لكنْ أليس خطابَ الاغتباط، أو الرضا عن النفس. كلّ شريحة بما لديه فرحة. لكنْ أليس في الأمر خطورة، إذ حينما يتوارى الكتاب، يغيض الحسّ النقدي؟ لم يسطر القارئ المجهول على هذا المقطع، وقد كان خليقاً أن يستثير اهتمامه.

نظر أمين إلى ساعته. الرابعة إلَّا ربعاً. ساعة وربع قبل أن تعود نعيمة، مبدئياً. ما زال له متّسع من الوقت. قرأ المقطع الموالي حول تداعيات تأثير الويب في عالم الإسلام، كما أثَّرت الطباعة في عالم المسيحية. جيل بدير الظهر للكتاب لفائدة الشاشة. تنفلت من الدول القدرة على التحكُّم في «الحقيقة»، كما كان الشأن بالنسبة إلى المَلكيات المنبثقة من الحقّ الإلهي. فقدت الكنيسة سطوتها عليها من خلال انتشار المطبوع، ممَّا هيَّأ لحركة الإصلاح. لم يكن أمين متأكِّداً من التطابق الذي يجريه دوبري بين عالم المسيحية وعالم الإسلام. القفز على الكتاب لمرحلة الشاشة، سيفضي إلى أذهان ضاوية، أو عضلات فكرية ذاوية، ينعدم فيها ما يمنح القوَّة للعضلات، الحسّ النقدي. من العسير القول بحركة إصلاح في الأُفق.

استرسل أمين في القراءة. بدا له ما ورد من إمكانية توظيف العالَم الأزرق من قِبَل الناقمين غير واضحة. وقف على حوار مع مثقَّفة مصرية أصولية، تُتقن اللغات الأجنبية، وتهفو إلى إسلام على شاكلة البروتستانتية، يؤمن بالفرد وبالمنافسة، وتزعم أن الصفح والتسامح والحرِّيَّة من صميم زادها القِيَمي، ولكنها ليست ذات الأصول الغربية. يدرجها دوبريه فيما يسمِّيه بما بعد النزعة الإسلامية (أو الإسلاموية). تدفع بأن إسلاماً متجدِّداً لن

[1]- « Un front de solidarité anti-*people* va-t-il s'esquisser ? »

بذهب بالضرورة في اتّجاه المصالح الغربية، وأنها تأبى أن تمدّ وجنتها، لأنها غير مسيحية، وليس عليها أن تحبّ عدوّها ..

بهذه الوتيرة لن يقف أمين على محطّات الشخص المجهول. ينبغي أن يقتصر على قراءة ما سطّره .. لم يكن هناك تسطير في الصفحات الموالية.

استوقفتهُ علامة X في الصفحة 221. هل ينبغي أن يقرأ المقطع، أم لا؟ نظر إلى الساعة. الرابعة وخمس دقائق ... يمكن أن يقرأه. كان عن حوار الأديان، وقضايا الأقلّيات الدينية، سؤال القرن، حسب دوبريه.

اعترت أمين الرغبة في أن يُدخِّن، وعليه حينها أن ينتقل إلى البالكوني. سيُضيِّع الوقت .. يحسن أن يسترسل في القراءة.

المقطع الموالي، بعد الصفحة 226، مسطّر بخطٍّ طويل، حول وضع المسيحيِّين في الشرق. القارئ المجهول يبدو متعاطفاً مع مسيحيِّي الشرق المهدَّدين بالزوال. مقطع يليه مُسطَّر عليه بسطرين ممَّا يشي بأهمِّيَّته:

«لسوف تصبح قضية الأقلِّيات السؤال الأكبر في القرن. كلَّما تقلَّص الكوكب، اتَّسعت الهوَّة بين ساكنيه. ليست المسألة رجعية ولا فلكورية. وبخاصَّة بـ النسبة إلى العالم الإسلامي، الذي سيحكم على نفسه بالضوى والعقم، إن هو اختار التنميط.»(1)

استأثر باهتمامه مقطع بحروف مائلة هو عبارة عن رسالة موجَّهة إلى الكاتب الفلسطيني سمير قصير. لم يكن المقطع مُسطَّراً. لم يسترعِ اهتمام القارئ المجهول. كان المقطع رسالة من دوبريه، عبارة عن تأبين لسمير قصير. سبق لأمين أن قرأ كتاب قصير «تأمُّلات في المأساة العربية» ويذكر منه ذاك التحليل الذي ربط المأساة العربية بما أسماه بلعنة الجغرافية .. يأسى ريجيس دوبريه لأنه لم يقرأ الكتاب حين أهداه إيَّاه سمير قصير،

1) «La question des minorités va être la grande question du siècle. Plus la planète se resserre, plus les distances se creusent entre les habitants. La question n'est ni rétrograde ni folklorique. Et surtout pas pour le monde islamique qui se condamnerait à l'étiolement et à la stérilité en s'uniformisant.

وكان قد وضعه جانباً على رفٍّ، إلى أن بلغه خبر اغتياله، فأقبل عليه. وعلِق به مدخلُه: لا يحسن بالمرء أن يكون اليوم عربياً. ما القول اليوم؟ ردّد أمين. انتقل الأمر من سيّئ إلى أسوأ مذ كتب الكاتب كتابه. يُفصح ريجيس دوبريه عن مكنون الغرب. ليس لدى الغرب تعاطف مع العالم العربي، وإنما مصالح. مُصنّعو الأسلحة ومديرو المتاحف لا يستحثُّهم سوى مال العرب، ورجال أمنه واستراتيجيوه مُنصرفون إلى فرقعاته، وأرباب الشركات إلى شطآنه وفنادقه، مرّة أو مرّتَيْن في السنة، وبعض من فقرائه من المتقاعدين يَنفرون إلى بيوتات في تونس، وأُخَر من ذوي الخَفَض (الغنى) إلى الرُّوض (جمع رياض) بمراكش. الشأن العربي شأن موظّفين مختصِّين، من الاستعلامات العامّة، ومكتب العبادات التابع لوزارة الداخلية. «المأساة اليهودية، تعنينا كلّنا، وتشغل السياسيِّيْن والجرائد والمكتبات والمجلّات التي لها شأن، أمّا مأساتكم، فلا تهمُّ إلّا المختصِّين.» استرسل أمين في القراءة عن الاهتمام الطافح في فرنسا، بالشواه، ونزعة معاداة السامية وخفّة موازين العرب. «أنتم هم آخَرُنا. أو العدوّ، أو الخطر، على الأقلّ. كونوا جيراناً جيِّدين، ومستكينين، حتّى بالنسبة إلى إسرائيل، فهو الصنف الذي تريده. لا تحسبوا أنفسكم أبناء عمومة حتّى ولو كنتُم فرانكوفونيِّيْن. واجب الصفح يجعلنا نأخذ تلامذتنا بفرنسا إلى أوشفتيز، وليس إلى سطيف أو مدغشقر. أسهم البترول على شطّكم، هذا العسل الذي يستغوي الزنابير، في ثراء دول من غير ثقافة يُعتدُّ بها. وفي شطّنا كان لدينا رجالات من طينة ماسينيون وبيرك وكوربان ورودانسون، إلّا أن المهتمِّين بالبترول لا يأبهون بهم. ومنذا يأبه بأصدقائكَ أدونيس وغسّان تويني، ومحمود درويش، وإلياس الخوري ...؟»

قفز أمين إلى الصفحة الموالية فيما هو ثالوث المأساة العربية، أو التشريح الوجداني لها: الحنين للعصر الذهبي، والقول بالمؤامرة، وغلّ الشرف. لم يبرأ العربي من هذه الأوصاب، من الحُلْم بالمدينة الفاضلة،

والإحالة لتآمر الآخر، وإضر الشرف. ما الذي يعنيه دوبري بالشرف؟ هو الداء العضال، يقول دوبري. «في عالمك، تنوؤون تحت وقْر شعور الاحتقار. يُحْرَم الفرد من أن يتخاطب بمضير المتكلِّم، وأن يتفكَّر في ذاته، وأن يكون مستقلاًّ عن قبيلته وعشيرته التي لا تسلم هي الأخرى من الشعور بالضيم. أنتَ على صواب، ومن شأن ذلك أن يُغذِّي العجز، هذا الشعور العربي المستشري. هي القيود التي توثقكم كي تسيروا قُدُماً، لنهضة تحلم بها، لنهضة ثانية بعد أن وُئِدَت الأولى ببيروت في أثناء حصار إسرائيل سنة 1982، حين انتكست راية العروبة، أمام إسلام عابر للأوطان ونكوصي.»

لفت انتباه أمين مقطع مسطَّر في الصفحتَيْن المواليتَيْن من تسطير القارئ المجهول.

«وقفتُ على تمزُّق إخوانكَ العرب العلمانيِّيْن والتقدميِّيْن إزاء الغرب».

وضع القارئ المجهول علامة استفهام على المقطع، مع دائرة، بقلم الرصاص، على «إخوانكَ العرب». القارئ المجهول ليس عربياً، ولا يعتبر نفسه كذلك. حروف تيفيناغ تشي بذلك.

استرسل أمين في قراءة رسالة دوبري:

«هم يحبُّوننا لأنهم تعلَّموا منَّا أن يفكِّروا، وأن يعيشوا أحراراً. وهم يكرهوننا لأننا استعمرناهم، ولم نتخلَّ عن نزوعنا الاستعلائي وتصرّفنا معهم كأسياد .. وتستشعرون لا محالة ذات التمزّق في علاقتكم بالحركة الإسلامية. أتاح الإسلام لشعوب أن تصمد إبَّان الحِقْبَة الاستعمارية وقد محقت كلَّ شيء، سوى النَّوَاة الصلبة. وبغير الدين، ماذا كان يمكن أن يبقى من الثقافة العربية؟ يد مبسوطة. ولكن الذين يأتمُّون بالنَّوَاة الصلبة يتوعَّدونكم بحزٍّ رقابكم. وإذن يد مقبوضة. ومن حقِّكم أن تكونوا على حذر.»

أدار أمين الصفحة ووجد بها ظرفاً. أمسك الظرف بين إبهامه وسبَّابته. قرأ عليه اسم نعيمة وعنوانها، وعلى الظرف طابع بريدي من فرنسا ... كَمَنْ

يقف على تحفة أثرية. رسالة بريد في عصر الأنترنيت؟ هل يفتح الظرف؟ كلاً. لا يليق ... تجرّأ باقتحام عرين نعيمة، وبلبله الكتاب، فكيف يجرؤ على قراءة رسالة مُوجَّهة إليها؟ نظر إلى الساعة. الخامسة إلّا ربعاً. ولم يشعر إلّا وهو يُخرِج ورقة من قلب الظرف، لرسالة موجَّهة لنعيمة، مكتوبة بقلم ريشة، بخطٍّ جميل، هو خطُّ القارئ المجهول.

29

انغرز المفتاح في ثقب الباب. نهض أمين من مكانه في الكنبة وهو يتصفَّح كتاب «سيرة القدس» الذي كانت نعيمة بصدد قراءته. وقف أمام ردهة المدخل. تكلَّف الابتسامة. لم يُقدِّم التحية العسكرية كما دأب أن يفعل. انفتح الباب ودخلت نعيمة وهي تحمل حقيبتها. تقدَّم أمين نحوها وقبَّلها على وجنتَيْها. نظرت إليه مستغربة، ثمَّ قالت وهي تتوعَّد بسبَّابتها ممازحة بالفرنسية:

- 20 jours arrêt de rigueur pour manquement au règlement.[1]

اكتفى بالردِّ:

- أُفضِّل الحكم المدني.

ردَّت:

- بالنظر لما يجري، الحُكْم العسكري أقلّ سوءاً. على الأقلّ يتميَّز بالجدِّيَّة والانضباط.

- وطغمة وأوليغارشية وتكميم الأفواه.

- بعض الشّرِّ أهون من بعض.

نطقت بالمَثَل الفرنسي: Entre deux maux, il faut choisir le moindre

1) عشرون يوماً توقيف لمخالفة القانون المنظِّم.

وضعت حقيبتها، ثمَّ أرسلت:

- بي جوع شديد. لم أتناول شيئاً منذ فطور الصباح. أجريتُ عملية جراحية دقيقة استغرقت أربع ساعات .. لم يستفق المريض من البنج لأوَّل وهلة. اضطربتُ .. نتناول الغداء أوَّلاً ..

- إن أردتِ.

- لماذا قلتَ إن أردتِ؟ ألا ترغب فيَّ؟

- بلى ..

- لم تُبِنْ عن شيء .. كلَّما دخلتُ الشقَّة تقشِّرني كما تُقشَّر ليمونة، ولا تتركني آخذ أنفاسي .. اليوم لم تُقدِّم التحية العسكرية، ولم تَهُبَّ لاحتضاني ولا لتقبيلي. أتعبتَ منِّي؟

- لم أقلْ بذلك ..

- أعرف، ولكنْ، تعنيه. أليس كذلك؟ أسبوع فقط وتعبت منِّي؟

وبلا رابط قالت:

- لا أدري ما هيَّأته الخادمة للأكل ...؟

- هو بالثلَّاجة.

- يمكن يا أمين أن تضعه على الفرن، من فضلكَ .. لو سمحتَ، ريثما أتخلَّص من لباسي، وأدخل الحمَّام.

قصد أمين المطبخ، وأخرج الطعام من الثلَّاجة، وسكبه في إناء، ثمَّ أوقد الفرن ... كانت الطاولة مهيَّأة .. خرج إلى بالكوني المطبخ، وأشعل سيجارة ... استنشقها في عمق. توالى استنشاقه، في تواتر.

نسي الإناء. أخرجه نداء نعيمة عن ذهوله وهي عائدة ترتدي فستاناً خفيفاً.

- أراكَ نسيتَ الإناء فوق الفرن، عزيزي ...

- عفواً ..

أطفأ عقب السيجارة بقدمه. ثمَّ أخذ العقب، وألقى به في القمامة.

أخذت نعيمة الإناء من الفرن، وأفرغت الطعام في الصحن ...

- من فضلكَ، أخرِج الصلاطة من الثلّاجة، قالت ... (Zut) لا أدري أين وضعت الخادمة الخبز؟

- هناك ... أشار أمين بأصبع لطبق مُغطّى بمنديل.

- تعال حبيبي. نأكل ثمَّ نركن لقيلولة طويلة ... أُحذِّركَ. لن أدعكَ ...

أقبلت نعيمة على الطعام بشهية. اكتفى أمين بلقيمات.

- طاجين السفرجل بالملوخية. إنه للذيذ .. أرى أنكَ لا تنال منه، علّقت نعيمة.

- ليس بي جوع. أكلتُ قبل أن تأتي ..

- هو الشيء الوحيد الذي أسمح به لكَ من وراء ظهري.

كانت نعيمة تأكل وهي تحدِّث عن عملها بالمستشفى.

- الطبيب المتمرِّن أخذ عطلة. كان مرهقاً المسكين ...

- العطلة مهمَّة. يحتاج المرء إلى قطيعة. ردَّ أمين بطريقة ميكانيكية.

- تعرف، تذكَّرتُ بنيس اليوم وأنا أتفقَّد مريضاً في الفراش الذي كان يرقد فيه.

- شهر مذ تُوفيِّ.

حدَّقت نعيمة في أمين، ثمَّ أرسلت:

- لا تبدو في حال جيِّدة عزيزي ..

- قلّة النوم ..

- كان عليكَ أن تستجمَّ.

- لم أستطع النوم.

- وماذا فعلتَ النهار كلّه؟

- قرأتُ ..

- من هذا الكتاب القديم؟

- نعم ....

- ألم تتعب من هذه الكُتُب العتيقة؟

- قد نجد فيها من الفائدة ما لا نجده في الكُتُب الحديثة. أطللتُ على كتاب تاريخ القدس. كتاب مهمّ. يشرح الديانة اليهودية.

- لم أنهه بعد.

- لما أن تنهيه أستعيره منكِ.

لم تعقّب نعيمة. مدَّ أمين يده إلى صحن الفاكهة، وتناول موزة. قشَّرها وأخذ في تناولها. لم يتمِّم قطعة الموز .. وضع ما تبقّى على صحن ..

رنَّ الهاتف. نظرت نعيمة إلى الشاشة. تبيَّنت الرَّقْم. نهضت فجأة. غادرت المطبخ. انتهى إلى أمين حديث نعيمة بالفرنسية، ثمَّ تناءى الصوت. غشيت نعيمة غرفتها، وأغلقت الباب. لا يمكن أن تكون أُمّها، ردَّد أمين مع نفسه، إذن لحدَّثتْها بالعربية. لماذا أوصدت نعيمة الباب؟ لم تكن حتماً تريد من أمين أن يستمع لحديثها ...

نهض أمين من كرسي المائدة بالمطبخ، وتوجَّه إلى البالكوني، وأشعل سيجارة. لم يكن قد فرغ منها حين عادت نعيمة إلى مائدة الطعام. عاد أمين إلى مائدة المطبخ. ابتدرتْهُ نعيمة بالقول:

- لم تأكل شيئاً؟

- قلتُ لكِ، ليس بي جوع ..

ثمّ أردف:

- لو تسمحين، أريد أن أخرج لبعض الوقت ... تكلَّسْتُ. أحتاج لبعض الحركة ..

- لم يمنعكَ أحد من الخروج من قبل.

- صحيح. لكنْ أحتاج أن أخرج.

- كما تريد .. لن أمسككَ حتف أنفكَ .. لا تتأخَّر .. يمكن أن نشاهد الفيلم الوثائقي عن الحرب الأهلية الإسبانية في قناة التاريخ. مبرمج على الساعة الثامنة.

طبع أمين قُبلة على خدِّ نعيمة .. ثمَّ ارتدى جاكيته، وتوجَّه نحو الباب. أغلقه من ورائه. ضغط على زرّ المصعد. نزل منه. ثمَّ خرج من باب العمارة. لفّ يميناً في اتِّجاه زنقة أبي حيَّان القرطبي ... تلطَّف الجوُّ. عرَّج يميناً في اتُجاه شارع بئر أنزران (والصواب إنزارن – المطر بالأمازيغية). اجتاز مكتبة «خدمة كتاب باريس» التي يقتني منها الجرائد، ثمَّ مقهى موزار. مشى طويلاً حتَّى مقطع شارع الروداني. لفَّ شِمالاً. كانت بالمقطع أشغال حفر نفق .. حركة سير السيَّارات مختنقة بالمقطع .. لفت انتباهه بار. بار ماجستيك. غشيه. مكان عتيق، يعود إلى الفترة الاستعمارية، وبأثاث بالي وقديم. اعترتْهُ الرغبة أن يتناول بيرة. طلب بيرة كازبلانكا. اقتعد في الكونتوار. لم يكن عازماً أن يبقى طويلاً. أنعشتْهُ الجرعات الأولى، خاصَّة وأنه لم يأكل النهار كلّه عدا فطور الصباح، ولقيمات مع نعيمة في أثناء الغداء .. كان البار شبه فارغ، عدا زبونَيْن جلسا في طاولة جانبية وهما يحتسيان البيرة. طلب أمين في بيرة ثانية .. أين يمكن أن يجد كتاب دوبريه

في رحلته للأرض المقدَّسة؟ لم تعد له رغبة أن يقرأ من نسخة القارئ المجهول .. القارئ المجهول حتماً أمازيغي، ويتماهى مع وضع الأقلّيات المسيحية في الشرق، مثلما بدا في تسطيره في الفصل من الكتاب حولها. هو صاحب الرسالة. هو الخطُّ ذاته. هو رجل نعيمة. هل كان زوجها أم خليلها؟ وكيف لمحتجبة أن ترتبط بعلاقة مع أمازيغي يحمل عمقاً مسيحياً، ومتعاطف مع الصهيونية؟ لغز. تلك حياتها قبل أن أعرفها، ولا تهمّني حياتها من قبل، ردَّد أمين مع نفسه .. هل يمكنه أن يسألها؟ وبأيّ تعلّة؟ لم تقل شيئاً عن المستقبل، ولو أنها أنبأت أنها حدَّثت أمَّها عن علاقتها به. ولماذا يسألها الآن عن حياتها من قبلُ ولم يكن فعل؟ ستقف على أنه تلصَّص إلى مكتبها، ووقف على خصوصيَّتها، ولن تغفر له ذلك. بل هو يشعر بالخزي، لأنه اجترح فعلاً منافياً لمنظومته الأخلاقية. كان يودُّ أن يزجي الفراغ لا غير، ووقف على كتاب، ووجد به حروف تيفناغ، واستثاره أن يعرف فكر القارئ المجهول، ثمَّ وقف على الرسالة. ولم يعد المجهول قارئاً مجهولاً، بل الحبيب المجهول؟ هل هو في حُكْم الماضي، أم المضارع المستمرّ كما في النحو الإنجليزي؟ هل مردُّ غياب نعيمة المستطيل بعد أوَّل معاشرة لهما، عودتها للمحبِّ المجهول؟ هل هي في علاقة ثنائية؟ ما تعني المكالمة الهاتفية وانزواؤها للحديث بعيداً عن أمين؟ لو كانت مكالمة مهنية لم تكن لتتحرَّج من الحديث ...

طلب بيرة ثالثة. في جانب البار شاشة يتابع بها بعض ممَّنْ التحقوا بالبار مباراة في كرة القدم. أشعل أمين سيجارة. أغمض عينَيْه. ثمَّ غشي يده في جيب الجاكتة، وسحب الظرف، وأخرج منه الرسالة. تملّى حروفها بخطٍّ جميل، من غير تشطيب واحد، ولغة فرنسية راقية.

ميلوز 25 أكتوبر 2008

من الألزاس أكاتبكِ. بؤرة من صراع القوميات وتداخلها. هنا اشتعلت نيران انقدحت بين البوش (تعبير قدحي للألمان) وآكلي الضفادع (تعبير

فدحي للفرنسيِّيْن). لا يُرى اليوم أثر الأوار. وكنتُ ألمسه في كلِّ منعرج. تذكِّرُنكِ لا لأني أقرنكِ والصراع، ولكنْ لأنكِ مرآتي. معكِ يمكن أن أبسط السِّجال. لم يغبْ عنِّي طيفكُ، أيَّتها المحتجبة الساحرة. ما أعشق فيكِ هو هذا الدثار الذي يضفي عليكِ سِحراً، ويسبل عليكِ لغزاً. أحبُّكِ بهذا الدثار، لأنه يُشعرني أنكِ لي وحدي. أحبُّه لأنه الحِمَى الذي يحميكِ، ويحميني إذ يحميكِ. يذكِّرني بقصيدة لبودلير، إلى عابرة، لكنكِ لستِ عابرة.

وددتُ لو كنتِ معي. ومَنْ سواكِ يدرك هذا السِّحْر، وينفذ إلى الجوهر المكنون؟ جبال الجورا، المروج الشاسعة، المآثر التاريخية، وندوب الماضي .. معركة سودان*Sedan 1870*، وحرب *14-18*. وفرقعات الغرب التي انثالت شظاياها علينا.

أمس كنتُ بمدينة بال .. جُزت بلدين، ولم تكن هناك حدود. مدينة عادية. لم تكن لتدخل التاريخ لولا مؤتمر بال ودعوة هرتزل للكونغرس الصهيوني. أعرف شغفكِ بالتاريخ اليهودي والحركة الصهيونية. في البدء الحُلم. ونحن مجتمعات من غير حُلْم. ونُجهِز على مَنْ يحمل الحُلْم. نقلنا لعنتنا للغرب. لم يعد له حُلْم. حُلْم سان سيمون أُجهِض. تحوَّل العلماء، مَن كان عليهم أن يُمهِّدوا السبيل، إلى سفسطائيِّيْن، ورجال الدين إلى فرِّيسيِّيْن. مَن يحسبون أنهم يتكلَّمون باسم الرَّبِّ، وأنهم المخوَّلون للحديث عنه وحمل رسالته، والاشتراكية إلى أنظمة بوليسية، والليبرالية عادت لما كانت عليه، منذ تحليل ماركس لها في الطبقات في فرنسا بعد ثورة *1848*، مَطيَّة للأنانية والجشع. ولن يُنقذ العالم إلَّا الاشتراكية، الوجه الجديد للمسيحية. اشتراكية حقيقية.

ذرعت اليوم ميلوز أفناءها. منذا يزعم بانطفاء العمق الجرماني بها؟ هل أقبر الغربيون إحنهم؟ هل أداروا الظهر لحزازاتهم؟ هل توارت القوميات؟ هل بلغوا سنَّ الرشد ممَّا يجعلهم يتغلَّبون على خلافاتهم؟ قد يكون

ذلك، ولكني شعرتُ بأنهم شاخوا. معالم الوهن تدبُّ فيهم .. أشعر بذلك، ولا أقف على علَّة ذلك. وهل يمكن أن نزيح الحدس من الإدراك؟

بي لهج أن أقف على الغرب أُسَسِه، وانزياحِه، وأزمتِه. لأنه في أزمة. ولأننا الساحة التي يجري فيها صراعاته. نحن المِطرحة التي يُلقي بها فَضلاته. هناك في الغرب صناعة لتحويل النّفايات ... ولا خيار لنا إلّا ندرس هاته النّفايات التي تسمَّى مشاريع مجتمع حداثي وديمقراطي، والميثاق الوطني، وشبيه بهذا الهراء .. حداثة مقرصنة. حداثة زائفة. لكن ذلك لا يكفي، لا بدَّ من الصعود إلى المنبع. وإلى ما يشوبه. أزمة الغرب.

كنتُ قبل أن نلتقي، أشعر كما لو أني ذبالة انطفأت، ولكن وجودكِ في حياتي قدح النار في الفتيل. لا أغلو في القول.

تستحثُّني رغبة عارمة بعد إذ أعود للبلد أن نتيه في الصحراء. أن نذرع كثيبها وفلاتها. أن نستمع لنأمتها .. يفعمني صمتها.

كما تقولين دوماً، وأنتِ تستشهدين بلامارتين: العالم يباب حين يغيب مَنْ تحبُّ. قد أصل المغرب قبل أن تبلغ رسالتي، ولكني وددتُ أن أوقف الزمن عجلته. هو لامارتين مرَّة أخرى يسكنني، في قصيدة البحيرة الرائعة. ألا أيُّها ذا الزمن، أوقف تحليقكَ. لا مُعدَّى عن الغرب، رغم كلِّ شيء. غرب الأنوار ...

المتيَّم بكِ، المتولِّه بكِ.
(حروف تيفيناغ)
قد يكون اسم المُوقِّع

نفض أمين دخان سيجارته في المطفأة .. لا شيء كان ينبغي أن يستثير غَيْرته. كانت في علاقة مع رجل يحبُّها، يُعبِّر عن تعلُّقه بها، ويَبسط رؤاه لها ... وكانت لتلك الرؤى أن تكون رؤى أمين. كان أمين قد انتهى في عزلته

قبل شهر، إلى ما انتهى إليه القارئ المجهول، أو المُتيَّم القديم حول أزمة الغرب، وتحويله الأطراف إلى ساحة يُلقي فيها فضلاته الفكرية .. وهل المُتيَّم قديم؟ المكالمة والتستُّر عليها أثارا شكوكه.

أخذ البار يمتلئ، ومرتادوه يشربون البيرة، ويتابعون مباراة لكرة القدم بدأت للتوِّ برسم Champion's League. أحسَّ أمين بالجوع. سأل النادل إن كان عندهم مقبِّلات. عرض عليه النادل أن يأتيه بمشويات من سناك قريب. تلفن النادل، وراعه أنه تكلَّم بالفرنسية ... كانت مكسَّرة. هل كان في حاجة للحديث بالفرنسية؟ أفرغ أمين عقب كأس البيرة في جوفه. فجأة اهتزَّ المكان. إصابة .. كان أمين الوحيد ممَّنْ لا يشاهد المباراة. أحدثت البيرة إثرها. أخذت عيناه تنغلقان. يفتحهما كَمَنْ يغالب النعاس. أثر الثمل والتعب. غريب، كيف التقت رؤى المجهول ورؤى أمين؟

دخلت البار شابَّة شقراء جميلة. كانت تحمل طبقاً. رمقها البارمان وهو واقف يشاهد المباراة. توجَّه إليها بالقول: «كريسيتين، مسيو، لا با، لا با (هناك)». وضعت الفتاة الشقراء صحن المشويات على الكونتوار أمام أمين وتوجَّهت إليه بفرنسية رشيقة بلا نكهة:

- Je vous ai ramené le ketchup et la moutarde. Si vous voulez Tabasco, je vous la ramène, mais c'est assez épicé.

- (أتيتُ بالكتشاب والخردل. إن أردتَ تابسكو، آتيكَ بها، ولكن الطعام حارّ بما فيه الكفاية.)

ألقى أمين كلمة الشكر بالفرنسية. عقَّبت الفتاة:

- Vous désirez quelque chose d'autre ?

- (هل تريد شيئاً آخر؟)

لم يتمالك أمين، فأثنى على فرنسيَّتها. ردَّت أنها فرنسية. كانت أوَّل

مرَّة يرى فيها أمين نادلاً فرنسية في بار شعبي. استثاره الأمر. «هل أنتَ متأكِّدة من أنكِ فرنسية؟»، سألها بلسان مثقَل. ردَّت الفرنسية بالفرنسية:

- فرنسية جدّاً. لماذا أكذبكَ؟

- ذلك أنه ..

ولم يتمّ أمين الجملة. قاطعتْهُ ..

- ونادل؟ أليس كذلك؟

- ليس ذاك ..

- اذهبْ للهدف مباشرة. وما العيب؟

- استغربتُ للأمر.

- أحبُّ عملي .. شهية طيِّبة ..

تأهَّبت للمغادرة ..

- ابقي معي برهة، قال أمين. أستضيفكِ لشراب.

- لا أستطيع. ما زلتُ في الخدمة .. ولكنْ أبقى كي أدخِّن سيجارة. كُلْ من طعامكَ ما دام ساخناً.

قضم أمين من البطاطس الفرنسية، ثمَّ رشق الشوكة في قطعة كفتة. نطق:

- لذيذ.

- ينبغي أن تأتي عندنا في سناك «عند بُشرى» ..

- هل أنتِ متأكِّدة أنكِ لا تريدين أن تشربي شيئاً؟

- متأكِّدة.

أخرجت علبة سجائر سوداء من جيب أمامي لوزرتها. أشعل لها أمين سيجارتها .. باغته نداء متفرِّج انتبه إليها متوجِّهاً إليها بالدارجة:

- أجي أختي كرستين الله يكتر خيرك.

ردَّت كريستين بالدارجة:

- واخا سيدي. دابا. نكمل واحدة كارو.

استرعى أمين حديثها بالدارجة مع تأثير التركيب الفرنسي.

- تتكلَّمين الدارجة؟

ردَّت بالعربية:

- شوية. كنتألمها (أتعلمها).

ثمَّ أردفت بالفرنسية:

- أتكلَّم دارجة البار. حينما يكون مستقرّاً. البار كالبحر، يكون أحياناً هادئاً، كما اليوم لأن هناك مباراة، وحين يهيج تستغلق عليَّ. ولكنْ أفهم مدلولها. يتشاجرون من أجل لا شيء، وهم يثورون بصفة لاواعية عن وضعهم الطبقي. الساعة كم؟

نظر أمين إلى ساعته. تبّاً. جاوزت الساعة الثامنة ونصف، ولم يتلفن لنعيمة كي يعتذر.

- هل عليكَ أن تفكِّر قبل أن تقول لي الساعة؟ ابتدرتْهُ كريستين.

- كان لديَّ التزام وذهلتُ عنه.

- في البار، هناك زمنان، حين تدخله، وحين تخرج منه. وبين اللحظتَيْن النسيان. تنسى في أثنائه ما قبل، كي تستقبل ما بعد.

- الساعة التاسعة إلَّا ربعاً.

أخرجت علبة سجائر سوداء من جيب أمامي لوزرتها. أشعل لها أمين سجارتها .. باغته نداء متفرِّج انتبه إليها متوجِّهاً إليها بالدارجة:

- أجي أختي كرستين الله يكتر خيرك.

ردَّت كريستين بالدارجة:

- واخا سيدي. دابا. نكمل واحدة كارو.

استرعى أمين حديثها بالدارجة مع تأثير التركيب الفرنسي.

- تتكلَّمين الدارجة؟

ردَّت بالعربية:

- شوية. كنتألمها (أتعلمها).

ثمَّ أردفت بالفرنسية:

- أتكلَّم دارجة البار. حينما يكون مستقرَّاً. البار كالبحر، يكون أحياناً هادئاً، كما اليوم لأن هناك مباراة، وحين يهيج تستغلق عليَّ. ولكنْ أفهم مدلولها. يتشاجرون من أجل لا شيء، وهم يثورون بصفة لاواعية عن وضعهم الطبقي. الساعة كم؟

نظر أمين إلى ساعته. تبّاً. جاوزت الساعة الثامنة ونصف، ولم يتلفن لنعيمة كي يعتذر.

- هل عليكَ أن تفكِّر قبل أن تقول لي الساعة؟ ابتدرتْهُ كريستين.

- كان لديَّ التزام وذهلتُ عنه.

- في البار، هناك زمنان، حين تدخله، وحين تخرج منه. وبين اللحظتَيْن النسيان. تنسى في أثنائه ما قبل، كي تستقبل ما بعد.

- الساعة التاسعة إلَّا ربعاً.

- أتركك. سأذهب عند الزبون .. له طلب ..

- أستضيفكِ.

- لا أستطيع. مرّة أخرى. ربّما.

- الأداء؟

- مع الأح (الحاج).

.. غادرت كريستين وتحوّلت إلى جمهرة السكارى المتحلّقين حول الشاشة. انتهى إلى أمين صخبهم. كانت تبدو لهم وجهاً أليفاً. كانوا يكلّمونها بالعربية، وإن لم يميّز أمين قولهم، لصخب التلفاز. المعلّق الكروي تونسي، يمزج التعليق بمسحة شاعرية، يستحثّ الحماسة والبطولة كما في حرب. كان أمين يعرف قاموسه وسجلّه: عملها ميسي، لله درّكَ يا ميسي. أنتَ المنقذ. أنتَ الساحر. يا سلام. ولا أروع. مرحى للأشاوس، مرحى للأبطال. هزمتم أعداءكم. لقّنتهم درسا لن ينسوه. الزمن الشِّعْري حتّى في كرة القدم. غادرت كرستين البار بعد أن أخذت الطلبات.

أقبل أمين على أكله بنهم .. طلب بيرة رابعة. يشعر بنفسه أحسن حالاً من ذي قبل. ذهب عنه توتُّره، ونسي غَيْرته. العالم أكثر تعقيداً ممَّا انتهى إليه المجهول. العالم ليس أنا وآخر مُتقابلَيْن. الأنا والآخر أصبحا متداخلَيْن. الشرق في الغرب، والغرب في الشرق. امتزجت الأمشاج. لا يمكن فهم الواحد من دون الآخر. وهذا ما لم ينته إليه لا ريجيس دوبري ولا القارئ المجهول. ممَّا يجعل الوضع أكثر تعقيداً، وممَّا قد يكون فرصة سانحة إذا ما أضحى الآخر الموجود في ثنايا الآخر صلة وصل. إذا ما أضحى مسلمو الغرب جسراً، ومتغرِّبو العالم الإسلامي نافذة. غير مؤكّد. غير مؤكّد، لأن الغرب يريد أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء، قبل أن تحلَّ به جحافل المهاجرين المسلمين، ويجري وراء صفاء مستحيل، والمتغرِّبون في العالم العربي يعيشون في جزر مغلقة، وهم مصابون بعمى الألوان، لا يدركون ما

بواقعهم. والمشكل أو المشاكل متداخلة، ولا يُنظر إليها بصفتها متداخلة. لكنّ هناك ما هو أعمق، من منظور الغرب. الحاجة إلى عدوٍّ. إلى عدوٍّ حميم. إلى عدوٍّ مثالي. إلى عدوٍّ ضروري.

نفع أمين من بيرته، وأشعل سيجارة .. لم يبقَ له إلّا سيجارتان، ومكاتب التبغ (كما تُسمّى) أغلقت. تنسّم سيجارته في تلذُّذ. باغتَه نداء من جمهرة السكارى:

- يتوب عليك أكرسيتن.

كانت كريستين قد عادت وهي تحمل طبقاً، بها ساندويشات ملفوفة بورق الألمونيوم. طرحت الطبق وسط ابتهاج السكارى .. انزاح الوجل من نفس أمين وقد عمل السُّكْر أثره. نادى عليها:

- مادموزيل ..

ردّت عليه بالفرنسية وهي تضع الساندويشات على مائدة السكارى:

- J'arrive .

كان له وضع مغاير. لا يشاهد مباراة الكرة، ويشي لباسه وطريقة حديثه باختلافه عن باقي السكارى، ولذلك كان كريستين تكلّمه بالفرنسية. حضرت كريستين. توجّهت إلى أمين بالسؤال:

- Qu'est ce que je peux faire pour vous ?

- أستضيفكِ لشراب.

- قلتُ لكَ لا أستطيع. ماذا تريد على وجه التحديد؟

- أن تبقي معي.

- سأتناول قهوة.

واستدارت نحو البارمان بالدارجة:

- كهوة، مأصرة أفاك با صطوف (قهوة معصرة عافا ك با صطوف).

ردَّ البارمان با صطوف بـ «تيتسويت» بنطق هجين للتعبير عن: *Tout de suite* (حالا).

أخذ البارمان يهيِّئ القهوة من الآلة. حشا المسحوق في مَحقن، ثمَّ أداره، وضغط على الزرّ. سال سائل القهوة، ثمَّ مدَّها لكريستين. نطقت بالعربية.

- بغك الله فك (بارك الله فيك).

- تثيرين دهشتي (Vous m'intriguez)، قال أمين لكريستين.

- ما الذي يثيركَ؟

- فرنسية في مكان قميء..

- ليس هناك مكان قميء. ولا أشخاص قميئون. هناك أوضاع قميئة. هذا الفضاء جزء من الحياة.. ومن أهمِّها في الدار البيضاء. مدينة غول تلتهم مَن بها، ومَن ترى يأبون أن تطحنهم بأضراسها.

- أتعتقدين ذلك؟

- في هذه المدينة، إمَّا أن تكون غنياً، وحينها تفتح لكَ المدينة صدرها، وإلَّا عليكَ أن تكون إسلامياً لتواجه سطوتها. وهؤلاء ليسوا من هؤلاء ولا أولئك..

- لا تتحدَّثين كما نادل.

- أنا نادل. لديَّ هوية أخرى. إن كان الأمر يهمُّكَ. طالبة في العلوم السياسية من معهد بوردو للعلوم السياسة. هذا ما تريد أن تعرفه.

- لسنا في بوردو حسب ما أعلم.

- أكيد. برنامج تجريه جامعة بوردو مع جامعة مونديابوليس، التي هي في الجهة الأخرى من الشارع.

- إذن لستِ نادلاً.

- ألديكَ مشكل مع وضعي نادلاً؟ أدرُس وأشتغل. أو على الأصحّ، أدرس ما يُلقَّن، من المتن الأكاديمي، وهو الأقلُّ أهمِّيَّة، وأدرس المجتمع وأنا أشتغل نادلاً وهو الأهمُّ .. هي الكوَّة التي أنفذ فيها لمجتمعكم.

ثمَّ أخرجت سيجارة.

- ممكن أن آخذ منكِ سيجارة؟ سألها أمين ..

- شريطة أن يقف الأمر عند السيجارة.

مدَّت له سيجارة من نوع كولواز. أشعل لها وله:

- السجائر السوداء لها طعم خاصّ، مغاير عن الشقراء، عقَّب أمين، وهو يستنشق السيجارة.

- طبيعي. هو شأن الحياة. ليس مفترضاً أن نتشابه. ثمَّ إن الأمر مسألة عادة. نعتاد ما ألفناه.

- ما تدرسين؟

- ألا يمكن أن تكون من البوليس؟

- هل أبدو من البوليس؟

- آخر همِّي البوليس. لا يرون إلَّا الظاهر. أدرس العلوم السياسة في بلد ليست فيه السياسة لا علماً ولا فنَّاً. حالة. مجرَّد حالة. حالة جامدة. تبدو متحرِّكة ينشغل بها الشعب، من خلال أدوات إلهاء من قبيل الأحزاب والانتخابات، وتتيح للشطّار أن يتسلَّقوا. بمَنْ فيهم مَنْ يُوظِّفون الدين. وهم الأسوأ. مع السعي لبعث الروح في جثَّة هامدة من قبل الصحافة.

- أنتَ ضدَّ الإسلاميِّيْن إذن.

- ليس عن موقف مُسبَّق، ولكنْ من خلال الوقوف على المفارقة

بين الخطاب والممارسة. هذا ما يسمَّى في الأدبيات السياسة بخداع الشعب:Berner Démos. باسم الأنا الجمعي لشعب يعيش تحت وطأة التقاليد.

نفضت دخان السيجارة في مطفأة قرب صحن أمين. ثمَّ أعقبت بالقول، شافعة بضحكة:

- ولذلك أفضل سكاراي Mes ivrognes. هم أكثر صدقاً. ولكنهم مادَّة لم تتحوَّل إلى طاقة بعد.

- ليس مؤكَّداً أن تتحوَّل إلى طاقة.

- غير مخوَّلة لإصدار حُكْم. على أيّ، أجد سكارى بار ماجستيك أفيَد ممَّنْ يظهرون في الصفوف الأولى في مجتمعكم ويُحْدِثون الصخب. وأنتَ ما تصنع، إن لم تكن من البوليس؟

- صحافي.

- صحافي في بلد ليس فيه حُلْم، والسياسة زئبقية، وصْفة مضمونة للفشل.

- ولذلك أنا صحافي فاشل.

- أحسن لكَ.

- ما تفيدكِ دراسة العلوم السياسية وقد فهمتِ كلَّ شيء؟

- لا ننتهي من التعلُّم. لن أقول إن اللوحة سوداء .. هناك حالة فطرة Ingénuité نفتقدها في الغرب. أحبُّ سهو الناس. أحبُّ سناك «عند بشرى»، وأحبُّ بار ماجستيك، وأحبُّ درس الصراع العربي الإسرائيلي ممَّا أدرسه.

- صراع من دون مخرج.

- أعرف، ولكنْ ينبغي معرفةُ أوجهِه. ومحظوظةٌ أني وجدتُ في بلدكَ مَنْ يبسُطُه.

- حقّاً؟

- أدرُسُه على أستاذٍ يعرضه بموضوعية. أعني أنه يُحْسِن الحديثَ للغربيِّين بشأنه.

- وماذا يقول لكم؟

- ما ينبغي أن يقال.

- ليس جواباً.

- المهمّ هو السؤال.

- وفي أيِّ جانب أنتِ؟

- جانبُ الحقِّ.

- وما الحقُّ؟

- شعبٌ في أرضٍ أُزيحَ من قِبل جماعةٍ صاغتْ أسطورةَ شعبٍ، واستولت على أرضٍ، من مُنْطلِقِ القوَّة. القوَّة المادِّية والمعنوية.

- مواليةٌ للفلسطينيِّيْن إذن؟

- مواليةٌ للحقِّ.

- أجدكِ مفيدة.

- أتمنَّى ذلك. وأنتَ من أيِّ جانب؟

- ما زلتُ أبحث.

- أُفضِّل ذلك على الشعارات ..

- ومَنْ هو هذا الذي يُحسِنُ بسطَ النزاع العربي الإسرائيلي على الآذان الغربية؟

- شخص في دائرة الفهم. لحُسْنِ الحظِّ أنه يوجدُ هؤلاء المجانينُ أو مَنْ يُنظر إليهم كذلك من أجل فكِّ أوضاعٍ مشتبكةٍ.

- صِفيه لي.

- له عينانِ ورِجْلانِ.

- ويدان حتماً.

- ليس الصورةُ هي التي تَصَوغُ الإنسانَ وإنما فكرُه. طَرَحْتَ السؤال الخطأ. البوليس هو مَنْ يطرح السؤالَ حول الملامِح والمظاهِر، ورجل الفكر هو مَنْ يطرح أسئلةً حول الرؤى والقضايا .. أأكون أخطأتُ فيكَ؟

- لا أدري. أريد التعرُّفَ عليَهْ.

- حسِبتُكَ تريد التعرُّفَ عليَّ.

- قد تكونين مرآةً له.

- ربمًا. ولكنْ ليس بيني وبينه علاقةٌ. اطمئنّ ..

- مغامرة؟

- له روح مسيحية.

- مغربي بروح مسيحية؟

- قلتُ روحاً مسيحيةً وليس مسيحياً. هو حتماً غنوَصي.

شَعَر أمينُ بالدوار. دوار الثمل. كاد أن يهوى من كرسيه. أمسك بحرف الكونطوار. تذكَّر ما قالته له إستير عن عشيقها من أن له روحاً مسيحية. فاجأتْهُ كرستين:

- هل أنتَ بخير؟

استجمَعَ أمينُ قِواه، وردَّ:

- نعم. وعكةٌ عابِرة.

سَفَتْ كريستينُ من سيجارتِها، ثمَّ قالت:

- لي إليكَ نصيحة.

- ما هي؟

- عدْ إلى بيتكَ. عند زوجتكَ، إن كان لكَ زوجة، أو صديقة، أو لحُلمِكَ إن كان لكَ حُلْم..

- أريد أن أبقى معكِ.

- تعرفْ لا.

- إذن أصْحَبْكِ حيث أنتِ.

- غير ممكن.

- ولماذا؟

- لأنني لا أريد، ثمَّ لستُ وحيدةً حيث أَسْكُن.

- لا يضِيرُني التعرُّفُ على صديقِكِ.

- أسكن مع طالبة ..

- نذهب إلى مكانٍ آخر.

- تبدو وكأنكَ تعيش أَسَى حُبٍّ Un chagrin d'amour

- هو ذاك.

- لن أكون العكَّازَ الذي تستند عليه.

قالتْ كريستينُ ذلك، وأطفأتْ سيجارتَها. ثمَّ قالتْ بنبرة حادَّةٍ:

- أحِبَّ ما لنْ ترى ثانية. كنتُ قدَّرتُ أنه يمكنُ أن نلتقي ثانية. أفضَل أن لا. هي مُسَاعِدَتي لكَ كي تتغلَّب على أسى حُبِّكَ. سيكون مُرحبًا بكَ إن أتيتَ لسْنَاكٍ عند بشرى، أو بارِ ماجستيك. سألقاكَ بصفتي نادلاً ليس أكثر.

ثمَّ مدَّت يدَها إليه. بقي أمينُ متردِّداً، ثمَّ مدَّ ذراعه. صافحتْهُ بقوَّة وقالتْ بالفرنسية:

- سعيدةٌ أني تعرَّفتُ عليكَ.

وشفعت بالعربية:

- بِسْلَمة (بالسلامة).

تحوَّلتْ إلى حلقةِ متتبِّعي كرة القدم. كانت المباراة قد انتهت، وبدأ تعليق السكارى. تحلَّق السكارى حول كريستينِ مبتهجين. وكانت تجمع ما فَضُلَ وَتضَعهَ على الطَّبَق.

نادى أمينَ على «الحاج». حضر «الحاج»:

- الحِساب عافاك.

- اربعةَ كزابلانكا، وساندويش.

- وقهوة.

- خالصة.

- شكون اللي خلصها.

- كريستين. ثمَّ أضاف:

- وليةُ الله. ما ناقصها غير الشهادة.

- باش ولية؟

- كتشفق على المسكين. تلقى الشَّفقة في النصارى وما تلقاها في المسلمين.

- سربابة زَعْمَ (نادل لا غير)، قال أمين متفكِّهاً.

- ما تحيّدهاش من بالك. داية وجايبة في الدنيا. عارفة البلايص (الأماكن) اللي ما يطيحوا لكش في البال.

قال ذلك ثمَّ أخرج ورقةً، وأخذ يُجري الجمعَ من الكونتوار. أرسل بعدها:

- جاتك 180 درهم.

مدَّ له أمينُ ورقةَ مئتَيْن درهماً.

- خلّ الصرف عندك.

- الله يكتر خيرك.

غادر أمين والسكارى يُحدِّثون كريستين. كانت هي كذلك مبتهجةً. صفع جوُّ الخارج أميناً. ماذا يمكن لأمينٍ أن يقول لنعيمة؟ وماذا يمكن أن يقوله لنفسه بعد ما أثارتْهُ كرستين؟ مَنْ هو هذا المجهول الذي هو في دائرة الفهم؟ صاحبُ الروحِ المسيحية؟

30

لفَّ أمين وهو يخرج من البار في اتِّجاهٍ وسَطَ المدينة، ثمَّ بعده نحو اليسار في زُقَاقٍ للراجلين. قرأ علامتَه. زنقةُ أسامة ابن زيد. كذا. عوض أسامة بن زيد (من دون همزة وصل). مشى طوال الممرِّ. مصابيحُه أغلبُها مكسَّر. كلَّما توغَّل في الممرِّ قلَّت الإنارة. له روح مسيحية؟ مَنْ يكون هذا الذي أثَّر في كريستينٍ وتأثَّرت به؟ يُستحسن أن ينسى البارَ كما نصحتْهُ كريستين. نسي ما قبل البار، وينبغي أن ينسى ما في أثنائه. أَحِبَّ ما لا يمكن أن ترى ثانيةً كما قالتْ لَه. تجاوز بنايةً تبدو كنيسةً تحوَّلت إلى مركزٍ ثقافي. بلغَ نهايةَ الممرِّ. بنايةٌ يُظهر منها أنها مؤسّسةٌ تُعليميةٌ. قرأ حروفَهَا الغليظةَ: مدرسة الطبري. لفَّ يميناً. توغَّل في زنقة أحمد المجاطي. الزنقة مُظلمة. رأى هامةً. تبيَّنها بالكاد. رمق ماسحَ أحذِية. انتهى إليه ضَرْبُهُ بالمِمْسَحَة على الصندوق. إثرَهَا أحسَّ بوخزٍ في خاصرتِه وذراعاً تلفُّ عنقه. انتهى إليه صوت هادئ في أرنَبةِ أُذنِه:

- ما تّحركش وما تغوتش (تصرخ) ولاّ نفّس (أطعن) خويا.

تسمَّر أمين على وقعِ التحذير. كان الشخصُ يمسكه من ورائه بذراعه الأيسر، ويرشق سنانَ شفرةِ سكِّينٍ في خاصرته بيده اليمنى. كلّ مقاومة هي ضَرْبٌ منَ المغامرَة. نهض ماسح الأحذية. بقي يتابع العملية. كان متواطئاً. أمام أمين هامةُ شخص ثالث إن سوَّلت له نفسه الفرار. اكتفى بالردِّ في هدوء:

- اللي بغيتي أخويا.

- البزطام (محفظة الأوراق). بالخف (بسرعة).

أدخل أمين يده في جيب الجاكتة على مستوى الصدر، وأخرجَ الظرفَ، وأدخله في مقدِّمة سرواله وسط التُّبَّان.

- اسمح لي، في جيب السروال، نسيت.

- سربي (أسرع) ولا ننفّس خويا.

أدخل أمين يَدَه في الجيب الخلفي للسروال وهو يمدُّ محفظةَ الأوراق.

- التلفون. بالخف. (بسرعة)

أدخل أمين يده مرَّة أخرى في جيب الجاكتة، وأخرج الهاتف، ومدَّ ذراعه. استلمه الشخص.

- الساعة .

نزع أمين ساعتَه. تحسَّست يدٌ خشنةٌ رقبتَه. اشتمَّ رائحةَ الحشيش.

- الزامل اللي حط بوك، حط السلسلة.

- ما عنديش .

- مفركس (مُزيّن) بحال الزَّاوْج (طائر) وما عندكش سلسلة. حيّد الجاكتة القحبة إماك.

تجرَّأ أمين بالقول عن غير اقتناع:

- حيد يديك، عافى خويا، إلَّا بغيتي نحيد الفيستة.

انفلتَ الذراعُ الذي كان يَقبِضُه، ثمَّ أخذ أمينُ ينزّع الجاكتة، في هدوء. أحسَّ بأن سنانَ السكّين غير منغرِز في خاصرته. نزعَ الجاكتة، ثمَّ استدار فجأة ولفَّها على رأسِ الشخصِ وأطلَق ساقَيْه للريحِ في الاتِّجاه المعاكس للشخصَيْن اللذَيْن كانا قُبَالَته. سمِع وقعَ الجري وراءه. كان يسعى أن

يبلغ الزقاقَ الذي فيه الإنارة، ويصرخ حينها صراخَ الاستغاثة. كانت قدما الجانح تتعقبانه. فجأة أمسكت يدُ الجانح قميصَه. دفعه أمين بمرفقه. تمزّق القميص. استدار أمين على مستوى الكنيسة. فقد توازنه وهو يستدير. زلّ فجأة. حاولَ الاستواء. أسقطَهُ الشخصُ بضربةِ مِكنسَةٍ برجله. وقع أمينٌ على الأرض وقد ارتطمتْ جبهتُه على الأرضية .. استدار على ظهره، والفى الجانحُ يُصوِّب فيه نظراً حاداً:

- تحسب كرك طولانطي ..؟ (تعبير بذيء، أتحسِبُ نفسك ذكياً؟).

أدركَ أمينٌ أنها النهاية. استجمع الجانحُ رِجْلَه، واتَّقى أمينٌ ركلته بساعدَيه. كانت الضربةُ قويةً حتّى أطارت آثار السُّكْر منه، وأرتْهُ النجوم.

شَفَعَ الجانحُ:

- نحسب دين أمك مثبت (رصين)..

مدَّ أمينٌ يده إلى أنفه. كان ينزف .. سعى أن يتفحَّص وجهَ الجانح. كان ملثَّماً سقطَ القناعُ منه، ويعيد تصويبه. علامات الشرّ تلتهب من عينَيه. حَضَرَتْهُ صورةُ أمِّه في آخر مكالمةٍ لها. «رد بالك أوليدي. أتلُ سورة الإخلاص». هو أمامَ الهولِ الآن. عبثٌ أن يموتَ في سنِّه، وبشفرة سكّين مغروز في أحشائه. أغمض عينَيْه. ماذا يستطيع أن يقومَ به؟ سمِعَ صوتَ هُديرِ سيّارةٍ تقترب .. فتحَ عينَيه. الجانحُ يحرِّك رأسَه يَمنةً ويَسرةً يتحسَّس الصوتَ. كان الهديرُ يقترب نحو المكان .. سَمِع منَّ بعيدٍ صفيراً من الشخص المرافق:

- الريت الريت[1]. (حذار).. لا راف ... (سيارة الأمن)

وجَّه الجانحُ ركلةً مُدوِّية على مستوى حوضِ أمين .. ثمَّ أطلق الجانح ساقَيه للريح في اتِّجاه الزُقاق المُظلِم. تصَوَّرَ أمين من الألم. دنت السيّارة.

---

1) الريت من تارْيت، كلمة أمازيغة تعني الهيعة أو الفتنة، وتستعمل في دارجة الرباط والدار البيضاء بمعنى حذار.

خفف صاحبها السرعة .. كان أمين مُلقى على الأرض وهو يَنزِف .. أنزل صاحبُ السيَّارة زجاجَ النافذةِ، كي يرى المنظرَ.. رفع أمين يدَه، ثمَّ نطق في حَشْرَجَةٍ:

- الله يرحم الوالدين أخويا اعتقني. كريساني (اعتدى علي) واحد الشمكار (صعلوك).

بقي سائقُ السيَّارة لبرهةٍ يتملَّى المنظر، ثمَّ ضغط على دوَّاسة السرعة، وأنمَّت السيَّارةُ السيرَ.. لن تكون هناك فرصةٌ أخرى ليُنقِذ أمين جلدَه. نهض وأخذ ينطُّ مُنثَنِياً، في الممرِّ، إلى أن تراءت له أنوارُ شارعِ الروداني ... كانت الحياة عاديةً. السيَّارات تَذرَعُ الشارعَ في الاتِّجاهَيْن. الأنوار مشتعلة. لم تثر هيئتُه ولا الدمُ على وجهه ولا قميصُه الممزّقُ أحداً من المارَّة. أسند أمين ظهره على جذعِ شجرةٍ، كي يستردَّ أنفاسَه. غرغر بطنُه فجأة، ثمَّ علاه الغثيان. انتقل من الشارعِ في اتِّجاه مَعبر الراجلين، نحو حائط، ثمَّ انفجر قيئاً.. الشيءُ الوحيدُ الذي لم يَكُن يريدُه أن يحصلَ هو أن يلتقي بكريستين. أن تكون خارجةً مصادفةً من بارِ ماجستيك أو سناك «عند بشرى» وتجِدُه في الحالة التي هو فيها. ما عدا ذلك لم يعد مهمّاً، ما دام حيّاً. مسحَ الدمَ من وجْهِه بطَرَفِ قميصِه. كفَّ أنفُه عن الرَعيف. شعر بألم على مستوى الحوض، ولم يكن ينظر جيِّداً بعينهِ اليسرى. مدَّ يدَه إليها. كانت منتفخةً.

كان يريد أن يَشْرَبَ جرعةَ ماء، لا غير. ولم تكن له نقودٌ كي يشتريَ قنِّينة ماء، أو يأخذ طاكسي، ولا بطاقةَ ائتمان ولا ورقةَ هوية، ولا تلفوناً يمكِّنُه أن يتواصل به. المرفأ الوحيد هو نعيمة. وإذا حدثَ أن رفضتْ نعيمةُ استقبالَه، أو لم تمضِ الليلةَ بشقَّتِها، فسوف يجد نفسَه طريداً ... مَنْ يَرِقُّ له بقميص ممزَّقٍ، ووجهٍ منفوشٍ، وجبهةٍ مرضوضة؟ صعلوكٌ تعارك مع صعلوك ونال جزاءَه. غيرَ بعيد من المكان الذي تقيَّأَ فيه، استند على الحائط، وجلس على الأرض ممدَّاً رِجلَيْه. لن يجرؤ أحدٌ على المساس به في حَيٍّ آهِلٍ وشارعٍ كبيرٍ. تنفَّس بعمقٍ، وأدخل يدَه في تُبَّانِه. كان مبلَّلاً. *الضربة التي*

أسالت البولَ من دون أن يَشعُرَ به. ثمَّ ندّتْ منه ابتسامة تلقاها في حوضه
وانفجر بعدها ضاحكاً. أخرج الرسالة من تُبّانه كَمَنْ كان يعبثُ بعضوه، ثمّ دسّها في جيبِ سرواله. كانتْ مبلّلةً ومنكمِشةً. اعترتْهُ الحاجة إلى التبول.
نهض نحو مكانٍ غيرِ بعيدٍ مِنَ الذي تقيّأ فيه. استدار نحوَ الحائِطِ، ثمّ أخذ يتبول. كانت مَثانتهُ ممتلئةً لفرط ما شرِب من البيرة. شعر بلذّة وهو يتبوّل.
باغتهُ نِداءُ مارٍّ «هز (ارفع) رِجلك ألكلب. «تحوّل إلى وضعٍ حيوانيٍ دفعتْهُ إليهِ غريزةُ الحياةِ وهَوجُ الدار البيضاء. المعتدون عليه تحوّلوا إلى وحوشٍ ضاريةٍ، بسبب الدار البيضاء. عالم الإجرام والاعتداء والمخدّرات كان الحلقةُ التي تَنْقُصُ مِنْ تشخيصِ كريستين. بقيت في الثلاثي، الأغنياءُ والفقراءُ والسكارى. السكارى فئة هلامية. عابرة للطبقات. هناك فئة رابعة: شريحة الجانحين، الكبار والصغار. كان أمينُ ضحيةَ الصغار. الكبار يَسْلُبون ضحاياهم بكياسة وشطارة، ومعرفة. باسم القانون، ومن منطلق أوضاعهم.
ترك أمينُ ذيلَهُ يقطر، وهو يستند على الحائط بيده اليسرى ويمسك عضوه باليمنى. لم يكن مُستعْجِلاً. يمكن للرباعي الذي يعيش في المدينة الغول، أن يتحلّل في وضع مختلف. في وضع تسوده العدالة الاجتماعية. لا مَنْ يُبْطِرُهُم الغنى، ولا مَنْ يستثيرهم الحقد، ولا مَنْ يَهْرُبُون من هجير الواقع في السُّكْر، ولا مَنْ يجنحون. وراودته نفسُه أن يصرخ: الاشتراكية هي الحلّ. تبيَّن أن صاحبَ الرسالةِ المجهولُ يقول الشيءَ ذاتَه. أغلقَ سِلْسِلَة سروالِه. كان مبلّلاً من قُدّام. عنّتْ له فكرةٌ أن يبحث عن كريستين. ولو أنها أشارت عليه أن يحبَّ ما لن يراه ثانية .. سيفاجئها ويقول لها: هذا كلّه بسببكِ. لو أتحتِ لي أن أصطحبكِ لما تعرَّضتُ لاعتداء. وقصد سناك «عند بشرى». كان مغلقاً. عاد على عقبَيْه حتّى بار ماجستيك. كان ما يزال مفتوحاً. ما إن دخل حتّى ابْتَدَرَهَ الحاجُّ باصطوف.

- اخرج ألشمكار.

تصرّف أمينُ كَمَنْ لم يسمع وعيدَه، وألقى بنظره في المكان الذي كان

فيه السكارى. فوجٌ جديد. النَّواة الصلبة. السكارى الأقحاح. فوجٌ كرة القدم ومَن لهم أُسَرٌ غادروا. لم تكن هناك كريستين. تقدَّم نحو الكونتوار وهو يحكُّ وجنتَيْه، كي لا يتعرَّف عليه الحاج.

- كاسْ ما ألخوادرية، الله يسقيك في الجنَّة.

ملأ الحاجُ الكأس من صنبور دون أن ينظر إليه، ووضعه على الكونتوار دون أن ينظر إليه:

- اشرب الما ودرق زلافتك (أغرُبْ).

نفع أمينُ من الكأس نهَلاً بعد عَلَل. تبيَّن أن الحاجَ لم يعرفهْ. اعترتْهُ الرغبةُ أن يُمازِحَه:

- تعاون معي أخويا باش ما سخَّاك الله.

- الله يجيب.

- غَيرْ دْرِيهِم أخويا.

- قلت لك درق زلافتك.

تحوَّل أمينُ إلى طاولة سكارى. كانت قنِّيناتُ البيرة سبسيال مرصوصة .. مع حبَّات الزريعة والكاوكاو. نطق أمين بلسان مُتَعْتِعٍ:

- شي كارو ألخوادرية، الله يعفو عليك.

توجَّه إليه سِكِّير:

- شكون اللي خَلَا دَارْ بُوك أشمكار؟

- حميمصة اكَلَ لِي السيراج (دهن الأحذية) ديالي باش كنتبوق (أتخدر). مرمقت (صفعته) معه، وغوّث (استغاث) لرامبو وتحاموا علي (تحالفوا ضدي).

- شكون هاذ رامبو؟

- الولد (فتى الحي). قَاطعها فِي الحومة (صاحبُ الأمر والنهي)... رامبو واعر. عندو السلسلة والخُدّمِي (السكين) والزيزوار (الشفرة). هو باش ك يخلع (يخيف). اللي دوى (تكلم) يرعف. حميمصة ما يقد (يقدر) ش علي. ما في يدُه ش. نطحن أمُه. حالف ما ندوزها له. فاش نشدو نفرتك (أمزقه) باباه. أش جا بُه للسيراج. هو كيتبوق ببولة حمرا. شي كارو (سيجارة) خويا، ما نردوه لك في الخير غدا يوم القيامة.

مدَّ له سكِّير سيجارة من نوع ماركيز. أشعلها له. مَدَّ أمين يده إلى أعقاب القنِّينات .. انتهره الشخص الذي أعطاه سيجارة:

- يالله اجمع قلوعك، سر فحالك. لما تطحن حميمصة أجي تشرب بيرة على حسابي.

- أنا قاني عليه (أرصده). ردَّ أمين. ما يفلتش امُّه. سوا اليوم سوا غدا، الحرِّيَّة ولا بدّ.

- بعّد (ابتعد) من الحرية، أش تدير بها، وسِر حتَّى تخلي دار بو صاحبك وتعال ذيك الساعة، وإلا خلا دار بوك، ما ترومش لجهتنا.

رفع أمين يدَيْه، وأخذ يصفِّق، ثمَّ رفع عقيرته بغناء العيطة:

الهوا ما زال مع اصحاب الحال
احنا جينا كم وحبنا فيكم
والمعبود الله والنبي سيدي

الحاصل وما فيه، أيلي أيلي
الربطة زغبية، وايلي وايلي
طريق العَوْنات بكت وشكت
من حر عريبات وايلي وايلي

احنا ما تخالفنا ش، حنا ما تعايرنا ش
بغاو يفرقونا، احنا ما تفرقنا ش
أخذ أمين يصفِّق، وهو يردِّد اللازمة:
بغاو يفرقونا، احنا ما تفرقنا ش

استرسل في الغناء:

لالة ورّيني باب داركم، نسكر ونجيكم
آه أيا ويلي، يا يلي، نسكر ونجيكم

حنا فراقنا زغبي، أجي عندي وأجي
أجي عندنا للدّار، نشربو ماحيا بالنهار

سيد الحاكم عليّ الحبيب ما سخى بيَ
إللي بغا يكاجي، إيكاجي على غزالوا[1]
عشرين عام كيف والو..

صفَّق السكارى لأمين. نادوا عليه. تحرَّك نحوهم وهو يَعرُجُ. نَفَحُوه نقوداً. ردَّد بحبور وهو ينظر إلي الحصيلة:

- الله يعطيكم الخير ألخّوت (الإخوة) ..

ابتدرَه مَنْ كان انتهرَه:

- شفتك ك تعرج. ياك ما حميمصة فرشخك.

---

[1] يكاجي، تحوير لكلمة S'engager الفرنسية، بمعنى يلتزم، أو ينخرط في الجندية.

ردّ أمين بنبرةٍ لِمَنْ تعْتعَهُ السُّكر:

- ما كاينش ولد المراة اللي يفرشخني (يشتتني). شوف نقول لك، اللي ما عرف بحقك خسرك.

ثمَّ انثنى أمينٌ إلى الخارج. شعر بانتشاء. انتصر في معركة الحياة.. لم يكن يدري أَسَبَبُ تجربتِه السيئةِ الرسالةِ، أم هي ما أنقذه حينما ألقى بجاكِتِه على المعتدي كي لا تضيعَ مِنه؟

أخذ يمشي وهو يَخْمَعُ[1] في مِشْيَته .. لم يشعر بالزمن، ولم يقف على علامةِ الوقت، ولم يُثِر منظرُه أحداً، بلباس ممزَّق ووجه كَمِد. مدينة معتادة على الجنوح والعنف والجريمة. كان لا يفكّر إلّا في كريستين، يودُّ أن يلتقي بها، ليُطْلِعَها على مَا جرى له، ويسخرا من ذلك. تعرفين يا كريستين، حينما افترقنا اعترضني جَانح وغَرَس سِنَانَ سكِّين في خاصرتي .. أحقّاً ذلك؟ أقسم لك. كيف ذلك؟ ألقيتُ عليه جاكتتي. الجاكتةُ التي كنتُ أرتدي في البار .. تَذْكُرِينَها. كنتُ اشتريتُها في هولندا. هي أحسن ما عندي. اشتريتُها بأمستردام بمناسبة دعوة وجَّهها لي ناشطون من الريف في أُوتْرِيخْتَ. هههة. لا تعرفين الريف ولا ناشطيه ولا قضاياه. أَبْرُك. ومَنْ قال لكَ إني لا أعرف الريف؟ ذَرَعْتُهُ، أرجاءَه كلَّها، مُدُنَه وقُراه. الناضور والحسيمة وتاركسيت. فعلاً؟ ثمَّ إنني أقوم بِرسالةٍ عن تمرُّد محمَّد سلام أمزيان. صحيح؟ مدير بحثي الأستاذ ذُو الروح المسيحية. هو مَنْ طلب منِّي بذلك؟

قولي يا كريستين لمَ لا تريدين أن تُفصحي عن الشخص الذي له روح مسيحية. أنتَ. أنا؟ لماذا تَهْزَئين؟ من فضلكِ كريستين، قولي لي مَنْ هو؟

هدير درَّاجة نارية أوقفَ سَيْلَ تخيُّلات أمين. أتمَّ سيره. لن يجرؤ عليه شمكار من الشمكارية، لأنه نفسُه يبدو شمكاراً. شرع يُصفِّر كَمَنْ يملؤه الحبور. لفَّ يميناً على مستوى الضوء الأحمر. جاوز مصحَّةَ المغرب. استدار

1) خمع: مشى كأن به عرج، والخمع مشية الضبع.

على الشمَال على مستوى زنقة أبي حيَّان الغرناطي، حتَّى عمارة الرياض.
تحسّس الرسالة. منكمشة ومبلّلة. أخرجها من جيبه، ثمَّ قصد القمامة،
وأخذ يمزّق الرسالة إرْباً إرْباً. هي لربمَّا مَنْ أنقذه. أو هي مَنْ عرَّض حياته
للخطر. لا يدري. انتهتْ مهمَّتُها. ثمَّ عاد إلى بوَّابة العمارة. ضغط على الزرّ
ضغطة خفيفة. ثمَّ أسند رأسه على الحائط. أحسَّ فجأة بالإجهاد والألم
على مستوى الحوض. في أسوأ الأحوالِ ينامُ أسفل العمارة إن لم تفتحْ له
نعيمة. ضغط ثانية، في وصلة أطول .. لا جواب. ربمَّا لم تسمع نعيمةُ رنينَ
جرسِ الأنتيرفون. مرَّة ثالثة .. وانتهى صوت ينسلخ من النوم:

- شكون؟

- أمين.

- ليس جدِّيّاً ما تقوم به أمين .

- صحيح.

انتهى إليه أزيز الأنترفون. فتُح بابُ العمارة. أشعل نورَ الرُدهة، وضغط على المِصعد. انفتح للتوِّ. غَشِيَه وألفى نفسه أمام حقيقته. المرآة تعكس وجها ملطَّخاً بالدم، وأنفاً رَثِيماً، وعيناً منتفخة، وكَدْمةً على الجبين، وصدراً عارياً بقميصٍ ممزَّق .. لم يتحرَّك المِصعد. هل تعطَّل؟ نسي أن يضغط على رقْم الطَّابقِ. ضغط ثانية. تحرَّك المِصعد. انفتح بابه. كان باب الشقَّة مُوارباً. دخل الشُقَّة وكانت نعيمةُ واقفةً يبدو منها الوعيد. وفجأة ندَّ منها بالفرَنسية:

- يا إلهي، ما الذي جرى لكَ؟

- قَطَفْتُ من الفاكهة المحرَّمة.

- لا يبدو عليكَ أنكَ خرجتَ من الجنَّة، بل آتٍ من جهنَّم ...

- جُزْتُ الصراط ...

- وجهكَ ملطّخٌ بالدم، وعينكَ منتفخةٌ وبِجبْهتك كدمةٌ .. ينبغي أن نذهبَ حالاً للمستعجلات ..

- ليس ضرورياً ..

- ما الذي حدث؟

- تعرَّضتُ لاعتداء من قِبَل مُعتدى عليهم.

أجلستهُ نعيمةُ على الكنبة، وأحاطتْهُ بِذراعها.

- ما وقع لكَ؟

- ما ترَيْن. أريد قهوة من فضلكِ.

- أمْسَحُ الدَّمَ الذي بوجهكَ أوَّلاً.

ذَهبتْ إلى الحمَّام، وأتت بالقطنِ والكحُول، ومسحتْ على وجهه، وهو مُستكينٌ. قصدت المطبخ بَعْدَها. أشعلتْ آلةَ القهوة، ثمَّ عادت ريثما تكون جاهزةً. كان أمينٌ يتعهَّد جُرْحَه على مستوى الركبة:

- إلهي. سروالُكَ هو أيضاً ممزَّق.

- و قلبي كذلك.

- ماذا تعني بذلك؟

- لا شيء. قهوةٌ من فضلكِ.

31

نام أمين نوماً مضطرباً. تراءى له في المنامِ أن جانحاً يتهدَّده بنَصْل، ثمّ ما لبث أن هَوى به عليه. استفاق فزعاً. هل كان حُلْماً ما تعرَّضَ لَه من اعتداء؟ شعر بالألمِ في جَنْبِه الأيمنِ. تلمَّس وجهَه، وألفى حدَقَةَ عَيْنِه اليُسرى منتفخة. لم يكن حُلْماً، وإنما حقيقة. تعرَّض لاعتداء ونجا منه. عاد إلى حِضن نعيمة. هِيَ مَنْ تعهَّدته، ونظَّفت جرحَه بالكحول، وفتحت حدقة عَيْنِه المُصَابة، وتأكَّدَت من أنَ عَيْنَه لم تُصَبْ بأذى، وأدخلَتْه الفراش. انتهى له شهيقُ نعيمةَ وهي تغطُّ في النوم. مدَّ رِجلَه غَيْرَ المضروبة يتحسَّس نعيمةَ وهو بالتُّبَّان فقط. حرَّكها بِيَدِه. استدارتْ مِن الفراش. حرَّكها مرَّة ثانية. استثارته الرغبة.

- أتحتاج شيئاً عزيزي؟

- أريدكِ عزيزتي.

اقترب منها في الفراش وهو يمطُّ جسده حتَّى لا يَقعَ على الجانب الذي يُؤذِيه. لفَّها بذِرَاعِه دون أن يستدير ..

- لن تَسْتَطِيع عزيزي.

- تعالي إلى الجَانِب الآخر.

- حاول أن تنام، عزيزي.

استدار أمينَ بعسر، وأدخل يده في مَنَامَةِ نعيمة، وأخذ يُداعب نَهدَيها. دفعت يدَيْه. اُعتلَاها، وتحوَّل إلى الجهة الأخرى كي يكون على الجَنْبِ

الأيسر غير المصاب. ندّت منه آهةٌ من ألم جُرْحِه على مستوى الركبة وهو يرتطم بجسَدِها. كان الحيزُ ضيِّقاً على حافَّةِ الفراش. تحرَّكت نعيمةُ وسط الفراشِ، لتفْسح له في حيِّز أوسع. كان في وضع أريح وهو على الجانب الأيسر. أخذ يقبِّلها. مدَّ يدَه كي ينْزِع سروال مَنَامتِها. نزَع بعدها تُبَّانَها من دون أن ينْزِعَ فُوقِية مَنَامَتِها. خلع تُبَّانَه بسرعة. تحسَّس بعضوه المنتصب فرْجَها.

- ما بِكَ؟ مُسْتَعْجِل؟

- أرغب فيكِ.

- على رِسلكَ.

لم يمْهِلْهَا، وَأولَجَ عُضْوَهُ في فرجها.

- أمين!

أمْسَكهَا بِذراعه الأيْمَنِ بقوَّة.

- أمين تُوجِعْنِي. لستُ مهيَّأة.

لم يكن يستمعْ إليها. استكانتْ لَه من غير تجاوب. أخذ يتحرَّك حركات متتالية وهو على جانبه الأيسر. لم تكن السَانْفُونيةُ التي دأبا أن يَعْزِفَاها سوياً وهما مُمْتزِجَانِ، بل كُكَافُونِية يعزفها وحيداً. إلى أن بلغ الرعشة، ثمَّ استدار على ظهره. كان ظاهراً أن نعيمة لم تبلغ اللذَّة. ساد الصمت بينهما. قطعته:

- مَا بِكَ؟ لم تضاجعني قطُّ بهذه الطريقة.

- رغبتُ فيكِ.

- لم أكن مهيَّأة.

- كنتِ مهيَّأة حين أتيتِ من العملِ.

- هذا من التاريخ. كنتُ أريدكَ حِينَها وغادرتَ.

المكالمة.

- غادرتُ بسببِ المكالمة.

- ألا يمكن أن أتكلَّم في الهاتف؟

- كي أترككِ على راحتِكِ.

- ليس أن تغُادِر.

- لم أكن في مِزاجٍ راقٍ ..

- ولماذا؟

- المُكالمة.

- وقبل المُكالمة. تُخْفِي عنِّي شيئاً يا أمين.

- هل يمكن أن أعرف المُتحدِّث؟

- ليس سرَّاً من أسرار الدولة. هناك أشياء أردتُ أن أوفِّرها عليكَ. هذا ما في الأمر.

- وما هو الشيءُ الذي تريدين أن توفِّريه عليَّ؟

- ماضيَّ الذي لن يفيدكَ في شيء.

- قولي لي. (أفصحي).

- صديقي القديم.

- كان لكِ صديقٌ؟

- وماذا تعتقد؟ أنا امرأة طبيعية.

- ولماذا يَتَلفَنُ إن كنتُما افترقْتُما؟

- تَلفَنَ من أجلِ شَيْءٍ تافِه.

- وما هو الشيء التافه؟

- أن يكلّمني.

- ليس أمراً تافهاً. هل ما زلتِ تحبينه؟

لم تردّ نعيمةُ. كانت عينا أمين مُفتّحتَيْن في الظلام. شعر بالألم على مستوى الحوْضِ. انتهى إليه قولُها:

- كان يقتضي كتاباً أقْرَضَنِي إيّاه. ولا أدري أين وضعتُهُ. هذا ما تريد أن تعرفه؟

تكلّس وَجْهُ أمين من الألم. واصل:

- لم تجيبي عن سؤالي.

- قلتُ لكَ سبب المكالمة.

- هل ما تزالين تحبّينه؟

- لو كنتُ أُحبُّه لما كنتُ معكَ يا أمين. مَنْ تَحْسِبُني؟

- ليس هذا ما عَنَيْتُهُ.

- أقدّره دوماً. وأسانده دوماً، ولكني معكَ.

- قد لا يزال متعلّقاً بكِ؟

- لا أظنُّ ذلك. حدَّثتُهُ عنك.

- وماذا قال؟

- ليس مهمّاً ما قد يقوله. ثمَّ هو من الصنف الذي لا يُفصِحُ عن مَكْنُونه.

- تتملّصين من الجواب.

- ليس الأمر مُهِمّاً يا أمين.

- يُتْلِفِنُ وتنسحِبين كي تُكلّميه على السَّجيّة.

- لا تُحرّك السكّين في الجرح. ينبغي أن أجدّ كتابه، كي أطوي الصفحة مرّة واحدة.

- ولماذا لم تقترنا وأنتما تعرفان بعضكما البعض لعشر سنوات؟

- ومَنْ قَالَ لكَ إنني في علاقة مَعهُ لعَشرِ سنوات؟

لم ينتبه أمين للخطأ الذي ارتكبه، وهو يحيل من دون أن يشعر لتاريخ رسالة ميلوز..

- قلتُ عشرِ سنوات هكذا .. يمكن أن تكون أقلّ .. قلتُ ذلك هكذا ...

أشعلت نعيمة إنارة الأباجور .. حدَّقت في أمين. لم يكن العطف يَشعُ من نظرتها. ثمَّ ارتدت تبُّانها، وقصدت الحمَّام ...

بقي أمين ممدَّداً في السرير. رفع يدّه على مستوى عينه. كانت تؤلمه. أخذ التُّبَّان وارتداه ولمس جرحه على مستوى الركبة. خرج من الجنَّة مذ دخل محرابَ نعيمة، وقطف من شجرةِ حياتِها، وقرأ فصولاً من قراءات المجهول، الذي أضحى أقلّ جهلاً، وقصد إلى بَارٍ كَيْ يسلو، وتعرَّض لاعتداء ... كانت نعيمةٌ قد حذَّرتْهُ مرَّة أن مَنْ يدخل الجِنانَ يُطرَد منها. يُطرَد منها حين تمتدُّ يَدُه إلى الشجرة المحرَّمة. إلى المعرفة. لم يكن عليه أن يفعل. كان في الجِنان، ينتقل في صنوف ضروب معرفة لم تكن تضيره في شيء، من قراءات، وأفلام وثائقية، ولحظات حبّ مع نعيمة ... تطاولت يَدُهُ لِكِتاب يُحدِّث عن المعاناة الإنسانية، في شهادة غرير، في أرض مقدَّسة، هي بُؤرة مُنفَجِرة، ثمَّ غمرتْه تموُّجاتها. كان قبْلها يفكّر في شغل، وفي سبيل العيش مع نعيمة. ألم تُخبره من أنها كلَّمتْ والدتَها في الأمر؟ أضحى يرى الحياة بمنظار القوالب الاجتماعية. وفجأة تزعزع البنيان الذي بناه .. الطريقةَ التي مارس بها الحبّ تحمل تصدُّعاً. ماذا كسب من هذا الاجتراء على الشجرة المحرَّمة؟ اعتداء كاد يودي بحياته. كريستين؟ تعود إليه كريستين. كريستين قالت له إن زمن البار يَجُبُّ ما قبله، وينتهي

بانتهاء حصَّةِ السُّكر. ينسى المرءُ ما قبل حين يدخل البارَ، وينسى البار إذ يُغادِره. ولم ينسَ كريستين. وينبغي أن يَنْساها.

عادتْ نعيمةُ من الحمَّامِ.

- ألا تريدُ أن تغتسل؟ سألتْهُ.

- لنْ أستطيعْ.

- أساعدكَ، إن أردتَ ..

- أخشى أن ينكأَ الماءُ الجرحَ. أكتفي باغتسالِ أطرافي.

وضعَ أمينُ رُجلَه على الأرضِ. أحسَّ بالألمِ. قصدَ الحمَّامَ في أناةٍ. تبوَّل وغسلَ عضوَه من المَغْسَل. لم يكن يستطيعُ أن يحتبي. نظر إلى وجهه في المرآةِ. لم يكن يتبيَّن أنفَه. كان هو كذلك منتفخاً. مسَّ ثنيةً كانت تؤلمه. كانت قد زُعزعتْ من اللثَّةِ حين ارتطمَ بالأرضِ. ثمَّ عاد وَهو يجرُّ رجليه. كانت نعيمةَ ممدَّةً في الفراشِ في المكان الذي دأبتْ أن تنام فيه. توجَّه نحوها، وحاولَ أن ينحني كي يقبِّلَهَا على جبهَتِها. أحسَّ بالألم على مستوى الحوضِ. لم يستطعْ أن يقبِّلَهَا. أمسك يدَها، ورفع أصابعَها وقبَّلها. ثمَّ قال:

- أنتِ مَنْ أُحِبُّ.

نظرتْ إليه بقسماتِ وَجْهٍ من غير تَعبيرٍ، ثمَّ نطقتْ:

- ما ذا يعني ذَلك؟

- أُحبُّكِ وأريد أن أصوغَ حياتي معكِ ..

- ألكَ امرأةٌ أُخرى في حياتِكَ؟

- تعرفين أنْ لا.

- وماذا يعني أنتِ مَنْ أُحبُّ ...

كلَّما سعى أن يُرتِّق الخرقَ اتَّسع، أو وسَّعه على الأصحِّ. عاد إلى المكان

الذي ينام فيه. غشيَ الفراشَ في رفق. آلمَه حوضه. أبقى ظهرَه على مسند السرير...

- ينبغي أن أنام يا أمين. أشتغل غداً.

- سؤالٌ أخير قبل أن تطفئي الإنارة. ما الذي كان يشدُّكِ إليه؟

- روحه المسيحية.

تأوّه أمين من وجع حوضِه. أطفأت نعيمةُ الإنارةَ. بقيَ أمين يحملقُ في الظلام. شَعَرَ وكأن كريستينَ تتسلّل إليه وتحدّثه، «ألم أقل لكَ ذلك؟ روحه مسيحية..؟». جفا النومُ أميناً. انتهى إليه صوتُ زفيرِ نعيمة، وقد استغرقت في النوم. ودَّ أن يدخّن. وكانت السيجارتان المتبقّيتان قد ذهبتا في عملية النهب التي تعرَّض لها. تسلَّل من الفراشِ في الظلمة، وهو يمدُّ يده كي لا يرتطم بحاجزٍ. فتح البابَ في يُسر، ثمَّ أغلقه. أشعل إنارة الصالون. ثمَّ تحوّل إلى مكتبِ نعيمة. أخرجَ نسخةً من مجلّةِ زمان، ثمَّ كتاب ريجيس دوبري. لن يكون له الوقتُ كي يقرأه وسيكتفي بتسطير الضمير الغائب. عنَّ لأمين مقطعٌ مسطّرٌ بعدَّة سُطورٍ عمودياً في الصفحة 335 من الكتاب:

«في أيِّ جانب؟ أُجيبُ بكلِّ أريحية بصفتي مسيحياً ملحداً، إلى جانب الضعيف. هنا والآن. يلزمنا أخلاقٌ في الزمن ز. (الزمن بالمطلق). ولا يمكنها أن تكون إلّا رواقيةً. وهي وحدها ما سينبثقُ حين تكفُّ الرياحُ عن الدوران. تقتضي القاعدة الإنجيلية أن تعملَ مع الآخرين ما تريده لنفسِكَ. تلك هي القاعدةُ الذهبيةُ. القاعدة البرونزية التي دامت لثلاثة آلاف سنة، وما تزال مستمرَّةً ومستعمَلةً، تقضي أن تفعل مع الآخرين ما تلظّيتَ منه. «ينبغي الاحتراسُ من الأشخاص الذين عانوا»، كما يقول فولتير. في كلِّ مضطهَد يثوي مضطهِد. سينهض حين يتحرَّر. سيُغيِّر التعاملَ لفائدته، يتحرَّر، مُتوَّجاً بوضعه كضحية. ثلاثُ ألف سنة: شيوعيون، ليبراليون،

عرب، مفكّرون أحرارٌ وراء القضبان. ولا أستطيع الجهر بالنسبة إليك غداً. أنخرط كي تتحرّروا، ولكنْ لا أستطيع أن أذهب أبعد.»

أغلق أمينٌ الكتابَ. رُفعت الأقلام وجفّت الصحف. لا شيء يضمن ألّا يتحوّل الضحيةُ إلى جلّادٍ، وألّا تستحثّه الرغبةُ في الثأر. ضحية ألفي سنة تحوّلَ إلى مضطهِد. لكنْ ينبغي إنقاذ الفلسطيني أوّلاً. لا يمكن الحُكم عليه بالنوايا فيما قد يقترف غداً.

لم يعد أمينٌ في دائرة الفهم. تجَاوزه إلى مرحلة الانخراط، باسم قاعدة ذهبية، مستمَدَّة من محنةِ المسيح، ورافدِ الفلسفةِ الرواقية. أحِبَّ الآخر هي ذي السبيل، وما تمثّل منها في صورة فلسفةِ الأنوار، ثمَّ في الاشتراكية. كان أمينٌ يُودُّ أن يُبلّغ ما انتهى إليه إلى كريستين. وأنّى له ذلك وقد غلّقت الأبواب؟ بقي له أن يعود للسِّكّير، إذ وعده أن يثأر من حميمصة. لم يكن حميمصة ليَغلبَه لولا احْتمَاؤُه بغريمه رَامبو. لم يفهم أحدٌ في البار الإحالة. رامبو مَنْ وعد بنظام عالمي جديد، ودمَّر العراق وهلهل سداه .. وما حميمصات من دون رامبو؟

أذّن المؤذِّن لصلاة الفجر. فتح أمينٌ مجلّة زمان. أخذ يتصفّح الأوراق وينظر إلى الصور. ثمَّ ما لبث أن طوى المجلَّةَ. أدرك أنه خرج من الجنّة، وعليه أن يرقى، كَدْحاً، كي يظفرَ بالرضوان .. تذكّر الآية القرآنية: «يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيْه.»

تمدَّد على الكنبة. آلمه حوضُه. غفَا لبَعْضِ الوَقْت. انتهى إليه صوتُ نعيمةَ وهي تدخل الحمَّام. نَهَضَ مِنْ غفْوَته. ألفتْهُ في الكنبة:

- ماذا تفعل هنا؟

- جفاني النومُ. بالمناسبةِ غشيتُ مكتبَكِ كي أتناولَ مجلّةً أصرفُ فيها الوقت، ووجدتُ بالمصادفة الكتابَ الذي كنتِ تبحثين عنه.

هي الوسيلة التي انتهى إليها كي يَطْمِرَ قصَّةَ الرِسَالَةِ. قدْ تَكونْ نَسِيتْها.

- أنتَ ملاكٌ يا عزيزي..

- أريد أن أقول لكِ إني مغادرُ اليوم.

- هل أنتَ مجنونٌ في الحالةِ التي أنتَ فيها؟

- ينبغي أن أقوم بإعلانِ ضياع أوراقي، وأُوقِف حِسابَ بِطاقةِ الائتمان، والهاتف.

- يمكن أن تقومَ بذلك من هنا.

- ليس لديَّ تلفون.

- يمكن أن أقومَ به. على الأقلِّ بالنسبة إلى البنك والهاتف. يمكن أن أتلفن حالاً لرَقْم 777 لإيقاف الخطِّ.

- أُفضِّلُ أن أذهب. إن لم يكن إزعاجٌ تأخذِيني لمحطَّة القطار المسافرين. هي على طريقِكِ..

- هل أنتَ متأكِّد؟

- بإذنكِ..

- لم نتحدَّث عمَّا يهمُّنا.

- نعم، ينبغي أن نتحدَّث. ليس هذه المرَّة. سأعود. أترك كُتُبي وبعض أغراضي. لا أستطيع أن أحملها. أعود ونتحدَّث حينها.

- تعرف أني كلَّمتُ أمِّي في الأمر. أنا جادَّة يا أمين.

- وأنا جادٌّ في حبِّي لكِ.

نهض أمين، وتحسَّس جيبَ سروالِ، وجدَ ورقةً من فئةِ عِشرين درهماً، وبعض النقود. وسبعةَ دراهم ممَّا نفحه السكارى. عَدَّها. تجاوزت 40 درهماً سعر التذكرة. له ما يشتري به سيجارتَيْن من عند بائع الديتاي أو التقسيط.

لم يكن يريد أن يقترضَ من نعيمة.

32

لم يتعرَّف بّا بوشعيب على أمينٍ أوّلَ الأمرِ وهو يَدّلِفُ نحوَ بابِ العمارة، متهادياً في مِشيتِه.

- بّا أمين، والله ما عرفتك أولد خويا. أش طرا لك؟

- طَحت. (وقعت على الأرض).

- عين ابن آدم .. تْدِريها العين. كِيفَاش طَحّتِ؟

- من السّلّوم (السُّلمَ).

- السلّوم؟ وما عندك سلّوم. قادْ (اضبط) معي الكلام، باش كلامنا يكون مَسَقم (مستقيم) إلا (إن) سولني المقدم.

- طاح السلّوم، ونا نطيح معاه.

- سلالم هاذ الوقت اللارُب (إلّا ربع/ غير مكتمل). والسلوم إلّا ما كاليتيه (وضعت حاجزا) يطيح.

- ما بقاو كَلاَت (حصّار). إلّا جا على خاطرك، تسلفني أبا بو شعيب 20 درهم.

- وطيحة خايبة. ما لك تقطع بك الحبل؟

- الساعةُ لله.

أخرج بّا بوشعيب حافظة النقود، وأخذ يعُدُّ:

- هاك 20 درهم، سلف الله والإحسان .. خاصها 2 دراهم.

مدَّ له أمينُ منها قطعةً من خمسة دراهم، وطلب منه أن يأتيَهُ بسيجارتَيْن مارلبورو من بائع بالتقسيط. استلم بّا بوشعيب القطعةَ وهو يُبرْغِم:

- طيحة خَايبَة نِيت (بكل تأكيد).

لمَّا أن عاد بّا بوشعيب بالسيجارتَيْن، دخَّن أمينُ واحدةً في تلذُّذ. رافق بّا بوشعيب أميناً إلى محطَّة التاكسيات. في أثناء الطريق عبَّر بابوشعيب عن الفراغِ الذي خلَّفه غيابُهُ، وكذا رحيل «النصرانية». لم يَسَعْ أمين لأن يصحِّح له. أخذ أمينُ تاكسي أمام ساحة ابن ياسين، وقصد البنك، بزنقة 16 نونبر بأكدال، من أجل إيقاف التعامل ببطاقة الائتمان. طلب بطاقة جديدة مع رَقْم سرِّيٍّ جديد. سحب ألفَ درهِم من حسابه. غادر البنك من زنقة اليرموق (كذا)، (اليرموك)، ثمَّ توجَّه إلى مكتب اتِّصالات المغرب بشارع فال ولد عمير لإلغاء الاشتراك السابق، واقتناء هاتف جديد. طلبت منه المستخدمة بطاقتهُ الوُطَنِية. اعتذر لها من أنه أضاعها. طلبت إعلان الضياع. عاد أدراجَهُ خائباً. مشى مشياً وئيداً، وهو يعرج حتَّى مطعمَ بابِل. ما إن رآه جاسم، رب المطعم، حتَّى ارتاع.

- شو صار أمين؟

- اعتداء بالدار البيضاء.

- ما معقول.

- اللي ما معقول صار معقول.

- شو اللي صار؟

- بلطجي أشهر عليّ سكِّين وشلَّحني. هربتُ، وركلني. وقعتُ على الأرض .. لحسن الحظِّ جات سيَّارةُ وهربَ. طلبتُ من صاحب السيَّارة يُساعدني. ما شافش في وراح.

- ما كو مروءة، ولا أخلاق، ولا تراحم، ولا شي. وشوف ها اللي يقتلو باسم الإسلام. ما فيه شي يفرح.

- صح.

- لازم أنتو المثقّفين تنوّرونا. السياسيين ما راح يسوو شي.

- ولا المثقّفين يا جاسم. لقرن واحنا نكذب على حالنا. والغرب يخادع فينا ويكذب علينا ويعاملنا كأطفال مدلّلين. واحنا مبسوطين لحالنا. احنا ما كنّا مهيَّئين لشيء. لا للاستقلال، ولا للديمقراطية، ولا للوحدة. انسَ المثقّفين. صاروا موظّفين، وفيه مثقّفو الخدمة، للّي بيدفع لهم، بطُرُق ملتوية، عشان يطبلو، واللي يستنكر يمشي في داهية مثل ما يقول المصريون.

- الحمد لله الأمور في المغرب مختلفة.

- ما في القنافذ أملس. إحنا الأمور فيها دهاء وشطارة بس.

- وضعنا في الشرق مقرف. اللي صار بالعراق بينكد، واللي بيصير في سورية يقطع القلب .. خدّرونا بخطاب الوحدة، وصحينا على جمهوريات الرعب. من أيّام عبد الناصر وحنّا نغرد لا صوت يعلو على صوت المعركة. وبعدين قادسية صدّام، والفرع يتبع الأصل وما عارف إيش. وزادو ها اللي يسمّوها عاصفة الحزم. ونخسر كلّ المعارك.

اعترت الرغبةُ أميناً أن يحدِّثه عن ثنائية حميمصة ورامبو. أحجم. نطق قائلاً إثرها:

- عندنا مَثَل فِي المغرب يقول داَء العطب قديمَ.

- والله معك حق.

غيَّر جاسم مجرى الحديث.

- تَطلع على فوق أمين في الميزانَين؟

- أيوا.

- تدلل. ايش أسوي لك؟

- شيء خفيف. مستعجل شوية. وتعمل تشيكلة آخذها معي.

- ما تعبت من العزوبة. إمتى نفرح بك يا أمين؟ خذ لك بنت النسب تلمك.

- قريب إن شاء الله.

- جَدّ؟

- أيوا.

- والله مبسوط لك. العمر بيمر.

ثمَّ حوَّل جاسم الحديث:

- أمين تشرب شي؟

- عصير بالتمر.

- تدلل.

تناول أمين غداءه. سرح ذهنه وهو يتذكَّر أسبوعاً تقلَّب فيه من حضن نعيمة، إلى بار ماجستيك، إلى الاعتداء، كما لو أن الأمر حُلْم يعتريه كابوس. نزل درج المطعم في عُسر. طلب التشكيلة ثمَّ الحساب. رفض جاسم أن يتقاضى المقابل.

- المرَّة المقبلة يا أمين. ما تخلّيني أزعل.

طلب منه أمين أن ينادي على تاكسي. رفض جاسم:

- ما يصير. آخذك بالسيَّارة.

أخرج جاسم السيَّارة من المرآب الأرضي للعمارة فيما كان أمين ينتظره في الشارع. ثمَّ أخذ جاسمٌ أميناً في سيَّارته. في كلِّ مرَّة يلتقي فيها أمين بجاسم يتحدَّث عن عراق أيَّام زمان. لم يبرأ من الحنين. عاد للازمته.

- بغداد كيف كانت أيَّام زمان. المجامع على دجلة، وسمك المسقوف، وجلسات المثنَّى، وشارع المتنبِّي ... كان يقال مصر تكتب الكُتُب، ولبنان يطبعها، العراق يقرأ .. لا مصر تكتب شي لُه قيمة، ولبنان خربان، واحنا خلاص .. الناس بدّها عيش وأمن. أيَّام زمان ما كو شي اسمو كردي وشيعي وسنِّي .. اليوم صرنا أطياف ومليشيات وشيَع.

كان جاسم يأسى لواقعٍ كئيب، ووضع معضل، ويُحدِّث عن شيء انقضى. عن وضع لم يلحقه أمينٌ. هل كان هذا العالم الذي يحِنُّ له جاسم واعداً مثلما يزعم، أم أنه كَانَ يُكذِّبُ نَفْسَه؟

رافق جاسم أميناً حتَّى قُبَالَةَ العمارة. سار أمين إلى بابها. ابتدره بَا بوشعيب:

- على السلامة. فين كنت؟

- نخلص التلفون ..

- وشكون هذا اللي جا بك.

- واش دخلك؟

- ما تعرف يسولني المقدم.

- امْراتي.

- باركة من الملاغة با أمين. الرجل بشلاغمو (شواربه) وتقول لي امراة. تحاسبني مخردل. زعم أنت ما فيكش التخرخيش (اللف والدوران).

- ما تعيش في هذا البلاد بلا تدغليش (الدغل).

- هادي كاينة.

- مول التلفون. وما تقولهاش لمقدم.

- نقول له الفاكتور (ساعي البريد). تهنا. ما يدّي ما يجيب.

مدّ أمين 100 درهم إلى بّا بوشعيب. ردّ بّا بوشعيب:

- نتاع أش هادي؟

- السلف اللي سلفتني.

- الطالوع (الربا) ما يبغيهش مولانا. اعطني 20 درهم ديالي.

- ما عنديش الصرف.

- تعرف أش تدير. 100 درهم تعاوني بها، ونسال لك 20 درهم. ما ندخلوش شعبان ف رمضان. السلف سلف. والمعطى معطى.

- نديرو قضية، نرد لك 20 درهم لما تكون عندي، وبلاش 100 باش نبقاو مزيانين مع سيدي ربي.

تملّى با بوشعيب العرض وتبيَّن الغُبْن. ردَّ:

- نضيع يا ابن خويا. نصرّف 100 درهم. تعطيني منها 20 درهم، نتاعي، وتزيدني 80 درهم، ونسمح لك في البقية. ما نهزش على رقبتي.

- تعرف أش تدير، صرّفها (فكها)، وخذ عشرين درهم، وزيدك 80 درهم. .. باغي نرتاح.

- حتّى هذا كلام، نصرّفها، نرجع 20 درهم نتاعي، نهز 80 درهم، ونرجع عند مول لبيسري (الدكان) يجمعها لي في مئة درهم. إلّا ما تلمّتش تمشي. ما تبقى فيها بركة.

- تبارك الله عليك أبا بوشعيب.

- واش تحسب؟ وخا ما قاريش دّاي ويجايب في الدنيا.

فتح أمين بابَ الشقّة. كان الغبارُ قد علاها. كان يودُّ أن يستريح. أصعب ما ينتظره هو الإعلان عن ضياع أوراقه الثبوتية. لحسن الحظّ أنه لم يُضع رخصةَ السياقة التي كانت في الصّوان، والتي لم يكن يستعملها لأنه لم تكن عنده سيّارة. ينبغي أن يذهب لمركز البوليس قرب ساحة ابن ياسين لإعلان ضياع أوراقه، وبعدها لمفوّضية الأمن لتجديد بطاقة التعريف، وليس أشدّ استثقالاً لديه، من أن يتردّد على البوليس، وفي الحالة التي هو فيها، بوجه كَدِم، ومع سابقةِ الاشتغال في الصحافة. تخيّل جلسة مع الضابط لإعلان ضياع أوراقه. سميتك، سميت باك، سميت امك، رَقْم لاكارت ناسيولال (البطاقة الوطنية). ما عقلتش عليها. وعلاش عاقل؟ تشوف بنادم يعجبك من برّا، وهو خاوي من الداخل بحال الكركاع (الجوز). أش كتدير؟ والو. كيفاش والو. تتمسخر علي .. الصباح هذا، ما صبحنا على فالك. فين مشاو ليك الوراق؟ فكازا. أش مشيت تدير في كازا؟ والو. كيفاش والو. جيب التنبر (الطابع). راه في الدوسيه (الملف). سير حتى يجي لكومسير. فوقاش؟ (متى يرجع)؟ شغلك؟ ومن فوق مكتب الضابط علامة: الأمن في خدمة المواطن. ثمّ الذهاب للمقاطعة من أجل عقد الازدياد، والاصطفاف في صفّ، وأخذ صور الهوية. يتصوّر الضابط وهو ينفث. لا ماشي هاذوا. جيب ديال لا كارت ناسيونال (البطاقة الوطنية). فين ليكالزاسيون؟(إثبات التوقيع)، وسر حتّى تّليكالزهم (أن تثبت التوقيع). شهادة العمل؟ ما عندي ش. شهادة عدم الشغل؟ فين نجي بها؟ مشط با مع هذا، أنا نقول له، وهو يقول لي. ثمّ بعدها انتظار موعد في المفوضية للبصمات. الصراط. ومع ذلك عليه أن يعبر هذا الصراط غير المستقيم.

ما يزال حوضه يؤلمه. فتح النافذة التي تطلُّ على الحوش، كي يدخل الهواء. دخّن سيجارة. أغلق النافذة، وأسدل الستائر. ثمّ استلقى على السرير. فتح الجزء الثاني من الحيوان للجاحظ. سرح فيه لبعض الوقت. ثمّ أطفأ الإنارة ونام.

33

حياة جديدة، من دون هاتف، وبلا اتّصال، ولا تواصل، وبلا تلك الأخبارِ الغثّةِ التي كان أمينُ يتأفّف منها في التواصل الاجتماعي، وبلا حركةٍ، وبلا أوراقٍ ثبوتيةٍ. لم يخرجْ لثلاثةِ أيّام، واكتفى أن بعثَ بّا بوشعيب للتبضُّع من متجر إيبير، والأكل من المصبّرات مع الجبن والبيض، ولم يَرِدهُ خبر عن نعيمة. لرابع يوم، وقد تقلّصتّ كَدْمَةُ عينه اليسرى، قصد مركز الشرطة القريب لإعلان ضياع أوراقه. استغرب من التأدُّب الذي لقيه به الضابط. أنبأه أنه كان يقرأ مقالاته. اعتبر الضابط أن الإجرامَ ظاهرةٌ معقّدة، وأن عملَ الأمن قاصرٌ من دون منظومةٍ تربويةٍ وعدالةٍ اجتماعيةٍ. راع أمين ما سمع من رجل أمن، وعلم منه أنه يهيِّئ ماستر في علم الإجرام. هل تطوَّر رجال الأمن في خُفيةٍ من أصحابِ القلم؟ بدا الضابط دَمِثَ الخُلق وخدوماً، ووعد بأن يَحصلَ لأمينٍ على موعدٍ قريبٍ من أجل البصمات، واكتفى منه بشهادةٍ قديمةٍ للعمل. طلب منه رَقْمَ هاتفه. اعتذر أمين أنه لم يعد يملك هاتفاً. وعد الضابطُ أن يبعث له عوناً في العنوان المثبَّتِ بمجرَّد أن يحصلَ له على موعدٍ من أجل وضعِ البصمات. كم كان أمين مشتطّاً في الحكم .. هل يمكن الحكم على الأشخاصِ من خلال البِنية؟ وما البِنيةُ من دون الأشخاص الذين يحملونها؟ غريب كيف انحدرت الجامعةُ، وكيف ارتقى مستوى وَعْيِ رجال الأمن!

كان أمينُ يخرج الصباحَ لكي يُحضِّر أوراقَه، من المقاطعة، ويعودُ نهايةَ الظهر. أخذ يهيِّئ طعامَه. لخامسِ يومٍ خرج لمكتبةِ الألفيةِ. حاول أن

بقصدها مشيا، وكانت مشيتُه ما تزال متعثرةً، فأخذ تاكسي. بحث في المكتبةِ عن كتابِ ريجيس دوبري «غَرِيرٌ في الأرض المقدَّسة»، وكان الكتاب قد نَفِد، واقتنى أمينٌ عوضَه كتاباً لدوبريه بعنوان «إلى صديق إسرائيلي»، وبجانبه في جناح كُتُب الشرق الأوسط في طابَق الكُتُب الفرنسية، وجد كتابَ «هويةُ المعاناةِ» لإستير بناسا. اقتناه. نزل إلى الطابق الأرضي، حيث الكُتُب بالعربية، وتنقَّل في رفوفها، واستدعى انتباهَه كتابٌ لصادق الرافعي «تحت راية القرآن». أخذه. أدَّى الحساب، وقصد محطَّة القطار القريبة، وأخذ من قُبَالتها تاكسي. كان مسروراً أن جمع في كيس رؤى مسيحيٍّ ملحدٍ، ويهوديةٍ غنوصيةٍ، ومسلمٍ صافي العقيدة والمَنْزَع، حارسٌ للتراث، أو لمادَّة خامٍ لم تتحوَّل. لم يكن يَعرفُ كبيرَ أمرٍ عن صادق الرافعي، سوى نتفٍ قليلةٍ، ممَّا كان درسه في الثانوية، من بعض المقاطع من «وحي القلم». أوصله التاكسي قربَ ساحةِ ابن ياسين. فضَّل أن يمشي حتى شقَّته. وجد بّا بوشعيب يَنفُثُ النار من رابوز على جمر مُجْمَرٍ.

- أش كتدير؟ سأله أمين.

- أبن خويا، برد الحال. ما عندي صدر يدفيني.

- عندك مراتك.

- خليتها في البلاد ف عين عودة. إلَّا جبتها للمدينة تضيع لي.

- جيبها تدفيك.

- أش نقول لك أبن خويا، اللحم تخاوا. والمراة عندي تفاقمت.. اللي تولد سبعة ما تفاقم؟

- وعلاش عليك بسبعة د الدراري.

- وباش نقلعو القنط؟

- وها المراة تفاقمت، بولد حط..

- وايه.

- و مالك عليها؟

- كلها برزقو. وكان نقدر نزيد امراة اخرى نزيدها. الله غالب.

- وعلاش عليك؟

- وخلّيها على الله. احنا صابرين. اللي يحل عينه في المدينة يعصى الله. تشوف الدريّات (الفتيات)، واش نقول لك، بحال البلار وما عندك لهم جهد. لا إله إلّا الله.

- اللي اكل حقو يغمض عينه.

- غمضناهم، وما بغاوش يتسدو.. حقنا في الجنة.

- في الجنة، غادي تلقى امراتك. اللي كان مع شي وحدة في الدنيا يلقاها في الآخرة.

- ولاّ. حتَّى لهاذي (هذه) لا. خاصني بالقليلة القليلة عشرين ستطاشيات (ستة عشر). ماكاين ش.

- يهبلوك.

- في الجنة ما تهبلش.

- يعييوك.

- ما كاينش العيا في الجنة.

- وضامن تمشي للجنة؟

- ونقول لك، الله يسمح لنا. طامع ف شفاعة سيدنا محمد، الحبيب الشفيع. شوف راك تسالني زوج دراهم. ما ندّيش على رقبتي.

- الله يسامح.

- قلها بالصح. خاطر، باغي نمشي للجنة.

- ما كتعاود إلَّا الصلاة على النبي. وعنداك (إياك) المجمر، ما تخليهش حداك فاش تبغي تنعس.

- موتة واحدة اللي كاينة. قل لي فين كنت باش إلَّا سولني لمقدم؟

- كنت معه، عاد تفارقنا. كيسلمك عليك.

- أش قال لك علي؟ كابابل (capable) (مقتدر) ولا ماشي كابابل؟

- كابابل ونص (ونصف).

- والله (تالله) يلاقينا مع اللي يفهمنا وما يعطينا.

دخل أمينٌ الشقَّةَ. أشعلَ التلفازَ. قناة الجزيرة. لم تهدأ من ملفِّ خاشقجي. تحوَّل إلى 24 i.. طاولة مستديرة عن البرنامجِ النووي الإيراني والخطورةِ التي يمثِّلها على إسرائيل .. أغلق التلفاز، ثمَّ أخذ في قراءة كتاب صادق الرافعي.

توقَّف بعد لأيٍ. أشعل سيجارة. تناول زبادي، ثمَّ استأنف القراءة في عسر .. لم يكن التعبير سلساً، وكان ذهنه منشغلاً بنعيمة. غلبه الحنين. يستحضر حين تأتي من العمل، وحين يطوِّقها بذراعه ويقبِّلها، ثمَّ يذهبان توَّاً لغرفة النوم، ويمارسان الحبَّ، ويتناولان الطعام سوياً، أو ترقدُ على ركبته وهما يشاهدان فيلماً وثائقياً، أو هما في الفراش يقرآن ..

هل كان ذلك كلُّه حُلماً؟ .. ولِمَ تأذَّى حين انزوت متكلِّمة في الهاتف؟ لِمَ خرج إلى بار، وكاد يُزْهِقُ حياتَه؟ لماذا استبدَّت به الغَيْرة؟ من الطبيعي أن تكون لها علاقةٌ سابقةٌ، ومن الطبيعي ألَّا تُشركه في جزئيات تلك العلاقة؟ عرف تضاريس جسدها، واستنشق عَبَقَها، ولكنه لا يشعر أنه نفذ إليها. الرسالة كشفت عن جزء منها. تحدَّثت عن ترسيم علاقتها معه، وليس شيءٌ يمكن أن يسعده كما أن يقترن بنعيمةَ. ولكنْ، ليس له شغل، ولن

يكون له شغلٌ في المستوى الذي يتيح له أن يعيش عيش نعيمة. صحافي مرّة أخرى، أستاذ. مَن هذه الشريحة التي تزعم أنها تصوغ الوعي، وتطرح القضايا الكبرى، وتعيش على هامش الحياة. تتبلّغ بما يقيم الأَوَد، وتَصرف أساها في مغامراتٍ، أو جلساتٍ في بار. تنتقل في ضروب المجتمع، تمتصّ رحيقه كما النحل. وهل هي حقّاً نحل أم ذباب، حسب صورة لنيتشه، مَنْ هؤلاء الذين يَحومُون حول القاذورات، يَتحلقون حول أصحاب المال والجاه والسلطة؟

عزاؤه الوحيد، أنه كان يعتبر نفسه لفترة نَحلة. لكنْ هل هو نحلة؟ هل الانتقال من بار ماجستيك، والحديث إلى كريستين، والتعرّض لاعتداء، والحديث عن حميمصة ورامبو، وحديثُه العفوي مع بّا بوشعيب، عملية استخلاصِ رحيق المجتمع؟ يعرف فصيلة الذباب والزنابير التي تؤذي، وتظهر بمظهر النّحل، من طائفةٍ تزْعُمُ أنها تصوغ الرأي. مَنْ هم في خدمة السلطة.

هل يمكن أن يخادع نفسه؟ ينبغي أن يكفَّ عن مخاتلته لنفسه كي يعيش حياة معتادة، في كنف زوجة كي يقيمَ أسرةً. لا يفكّر في الذُّرِّيَّة، ولكنْ لن تقبل نعيمةُ بألَّا تُنجِب. وهل تستطيع في سنِّها؟ لا يعرفه بالضبط. في منتصف الأربعينيَّات. هو ذا ما أحالت عليه حين قالت ينبغي أن نتحدَّث. أمينَ أبٍ؟ هل يمكن أن يقرأَ ما يقرؤُه، ويتابع القضايا الكبرى وهو موثق بالتزامات الأسرة؟ يقرأ، ويكتب، ويفكِّر بحرِّيَّة، لأنه من غير التزامات أسرية. وماذا لو دخل القفصَ الذهبي؟ وهل تسمو المعرفةُ أو الفهم على السعادة؟ وما السعادة؟

ما يزال شابّاً كي يبدأ حياة جديدة. كي يُنسَكِبَ في قوالب المجتمع. العاأل (العاقل) يتبع الناس، والأحمأ (الأحمق) يتبع الناس كما كانت تردِّد عليه أمُّه. أوحشتْهُ أمُّه، وغلبه الحنينُ لنعيمةَ. سيُكلِّمها هذه المرَّة في شأن علاقتهما حين يلتقي بها. إنه جادٌّ حقّاً.

34

استيقظ أمين متأخِّراً وقد ظلَّ يقرأ من كتاب الرافعي شطراً من الليل. هيَّأ القهوة. وتناول الدوش الأوَّل منذ تعرُّضه للاعتداء. كان حوضه ما يزال يوجعه وإن خفَّ الألمُ. ارتدى لباسه، وحمَل معه جوازَ السفر، ودفترَ الشيك، ثمَّ قصد مشياً مكتب الاتِّصالات للحصول على هاتف. لم يكن ممكناً من دون ورقةِ تعريفٍ. كان يريد أن يربط الصلة بنعيمة، ويحدِّثها، ويبادلها الرسائل. حلَّ بمكتب اتصالات المغرب بشارع فال ولد عمير. قدَّم رخصةَ السيَّارة بطاقةً للتعريف، واختار أرخص هاتف ذكي. أعطتْهُ مستخدمةٌ الرَّقْمَ السرِّي Code Pin، وأخبرتْهُ أنه لا يستطيع استخدامه قبل شحنه كلِّيَّة.

جلس بمقهى سافران قربَ ساحةِ رابعة العدوية. طلب قهوةَ حليب وكرواسان .. وأخذ ينظر للسَّابلة. كلّ عابر هو حياة، بل حيوات. يعيش المرءُ حيواتٍ في حياة .. يتمايز السابلةُ في شؤونهم، كما طُوبات منفصلة، ولكنها لن تكون بنياناً مرصوصاً إلَّا بلَحْمَةٍ تشدُّها، أو أسمنت حسب التعبير الحالي، يربط عناصرَها. في دائرةِ رُقعةِ بلدٍ؟ ليس هناك قصّة نجاحٍ واحدة في العالم العربي في دائرة بلد. وأيّ لُحمة؟ الوطنية؟ القومية؟ الرابطة الإسلامية؟ الأمازيغية؟ لغة؟ عِرق؟ انتماء؟ الانغمار في التوزيع العالمي للإنتاج، أو فضاءٌ للسوق العالمية، بغضِّ النظر عن مقوّماته الحضارية؟ وأيّ جماعةٍ تقبل أن يُضرب بعرض الحائطِ بتاريخها، ووجدانها، ولسانها؟ الاتِّجاه الغالب هو الانغمار في التوزيع العالمي للإنتاج. مكانٌ ما، ولو

مُؤَوَّل، في الماخورِ الكبير، حسب تعبير شارل بيغي (Charles Péguy (Le grand bordel وقد أخذتْ عيوبُه تظهر للعيان. الإطار الوحيد هو الحداثة. هي ما يجمع أطيافاً متناثرةً ومتنافرةً. ولكنْ كيف؟ هناك صورٌ للحداثة من غير جَوهَرِها. كهياكلِ سيّارةٍ من غير محرِّكٍ.

هي الأسئلة ذاتُها التي طُرِحتْ منذ قرن. وهو السجال ذاته الذي قرأه الأمس، ما بين الرافعي وطه حسين. الرافعي الذي يستمسك بتلابيب اللغة، أو الجملة القرآنية، كما يسمِّيها، التي يسري فيها نُسغُ التاريخ، أو فيما نقله عن أحد الرواة: اللغة لنا، والمعاني لهم، وطه حسين الذي يود أن يَخْطِفَ شُهُبَ التحديثِ حيث انقدح، كما بروميثيوس. بعد قرن من الزمن، لا يجد أمينٌ نفسَه موزَّعاً بين أن يختار ما بين الرافعي وطه حسين، بل أن يجد اللُّحمةَ التي تشدّهما. الرافعي مادّةٌ خامٌ لم تُصهَر، وطه حسين مادّة عرفتْ بعضَ الصَّقْلِ، وتوقّف الصَّقل.

يجد أمينٌ نفسَه في تَحْلِيلِ الرافعي حول اللغة، وكيف أن سُدَاها تهلهل، وبِتَوَاطُؤٍ من الغرب، وبإعلاء شأن مَنْ يُهَلْهِلُها. وكان أشدّهم نكالاً عليها «الحداثيون». كسروا نُصبَ اللغة. مَالَؤُوا السلطات القائمة. غيَّروا المِعطَفَ بسرعة. حضنهم الغرب، وتلقَّفتهم أنظمةٌ في حاجةٍ لمَنْ يدرأ عنها موجَ الحركةِ الإسلاميةِ الكاسح. لكن الحركةَ الإسلامية بقيت في دائرة المعتقدات، ولم تنسلخْ عنها لفائدةِ الأفكار. والفكرُ قطيعةٌ، ثمَّ استعادة للمنظومةِ القديمةِ، في شكل آخر. بقيت الحركةُ الإسلامية في دائرة ردود الفعل. ينبغي الانتقالُ من عمليةٍ تتجاوزُ التحنيطَ، فيما بقي فيه الرافعي، والصقلُ فيما عَمَدَ إليه طه حسين، إلى الصهرِ. تذويبُ المادَّة الخام، وصياغةُ شيء جديد. والصهرُ لا يتمُّ إلَّا بمِرجُل التاريخ وما يعتوره من هزَّات.. ويواكب ذلك فكرٌ... كما في عصر الأنوار.

قاطع النادلُ أميناً:

- سالينا (انتهينا من) الفطور، هذا وقت الغداء. إلّا بغيت تطلب غداء.

نظر أمينُ إلى الساعةِ. الثانية عشرة والنصف.

يُستحسَن أن يُغادر. أدّى ما عليه. وحمل هاتفَه الجديد .. ينبغي أن يقرأ أشياءَ تستثير العقلَ. ينبغي أن يقرأ ما هو في دائرة الأفكار وليس المعتقدات. «هوية المعاناة.» لإستير بناسا. الآخر يطرح الأمور الجدّيّة.. الآخر الذي هَلْهَلَ الأنا. ولو.

ثمّ كان أمينُ يودُّ أن يَشْحَنَ هاتفَه للحديث إلى نعيمة. من أجل ذلك عليه أن يعود لشُقّته.

35

أشعل أمينٌ هاتفَه بعد قهوةِ الصباحِ وتدخينِ أوّلِ سيجارة. أدخل الرَّقْم السرّي Code Pin، وتحوّل إلى الريبرتوار. يا إلهي. فارغ. لن يستطيع أن يُهاتف نعيمةَ، لأنه لم يكن مُسجَّلاً لرَقْمِها إلّا في الهاتف. تبيَّن أنه لا يذكر رَقْم والدته كذلك. ضاع رَقْم محند هو أيضاً. هؤلاء الثلاثة مَنْ يريد أمين أن يبقى باتِّصالٍ معهم، وهو لن يستطيعَ أن يتواصل معهم، وهم لن يتَّصلوا به لأنّ له رَقْماً جديداً.

كم أصبح الإنسانُ كسولاً مع الثورة الرَّقْمية ..!! يسعى حثيثاً، ولكنْ من غير هدفٍ، ويعرفُ من غير عِلْمٍ، ويتواصل من غير حميميةٍ.. يعرف ما يجول في العالم، ولا يعرف ما يضطرب في نفسه وهي أقرب إليه من حبل الوريدِ. التعبير مُستقى من القرآن. مضى زمنٌ على أمين لم يقرأ فيه القرآن. منذ أن كان يُرتِّلُه مع والده صبياً، وكان يجد فيه الحلَّ لما استغلق عليه. إلى أن انقطع الحبلُ مع السماءِ لمَّا أخذ الموتُ والدَه.. وبدأ حياة جديدة.. وكان يرى أنه انعتق، كما سجينٌ مغارةِ أفلاطون، إذ نزَعَ الأغلالَ. أعماه أوّلَ مرّةٍ نورُ الواقع، ولكنه أخذ يُبْصِرُ ويتبيَّن معالم الأشياء. أو كذلك خُيِّل له. هل عَلَيْهِ أن يعودَ إلى الكهفِ تارةً أخرى؟

غريب. ألحَّت عليه ذكرى بنيس. عادت كما ترسُّباتٍ وقرتْ في عمق وجدانه. بنيس وهو يحدِّث عمَّا يسمِّيه بالزمن الجميل. بنيس وهو يستمع لأغاني أُمِّ كلثوم ومحمَّد عبد الوهاب، ولفريد الأطرش. بنيس وهو يحدِّث عن جمال عبد الناصر، وغُصَّة النكسة، واختطاف المهدي

بن بركة، واستشهادِ عمر بن جلون. بنيس وهو يختلي مع أمينٍ في مكتبه، ويجيل النظرَ في صفوف مكتبته، ويُخرج جزءاً من ديوان محمود درويش، ويدعو أميناً أن يتلو له منه. يستحضر أمينٌ لمَّا أن طلب منه بنيس أن يتلو عليه قصيدةَ «المومسُ العمياء» لبدر شاكر السيَّاب. لمَّا أن ردَّد أمينٌ البيت:

ماتتْ رجاءُ فلا رجاء ...

وجم بنيس ... ثمَّ غار في الذهول.

سأله أمين:

- لا بأس ألسي بنيس؟

عقَّب بنيس: «كم يشبه حالُها حالَنا!»

كان بنيس مشدوداً إلى الشِّعْر، وكان يرى أنه ما يعبّر عن مكنون النفس البشرية.

منذ ذلك الحين، أدرك أمين سِحْر الشِّعْر، وقوّةَ الشاعر. الشاعر هو الذي يرى ما لا يُرى. هو مَن يستعيض عن عالم مقنّن بالحدس، ويمتشق حسامَ اللغة. أضحت ذكرى بنيس سَكْناً لفؤاد أمين ... هل يحتاج أمين أن يقف على قبره كي يبرَّ بذِكْراه؟

نادى أمين على بّا بوشعيب من النافذة، ثمَّ ترك الباب موارباً. حلّ بّا بوشعيب:

- جيب لي الشمع، قال أمين.

- انقطع لك الضوء؟

- لا ... بغيت نشعل الشمع.

- ف النهار؟

- ف النهار.
- والله أبن خويا إلّا تفاقمت. هاذي فلتت لي. الشمع ف النهار..؟
- كاين الحوائج اللي ما يبانوش ولو في النهار.

خرج بّا بوشعيب وهو يبرغم:

- الشمع في النهار؟ وسر تفهم.

عاد بّا بوشعيب وهو يحمل قَبْضةً من الشمع. مدَّها لأمين وهو يُصعّد فيه النظر ويُصَوّبه. أخرج أمين شمعة .. أشعل فتيلتها، ثمَّ أطفأها. عاد وأشعلها ثانية، إلى أن أخذت تذوب. صبَّ الشمع المذاب على صحن، إلى أن ثبتت الشمعة. وأخذ ينظر إليها في خشوع. قاطعه بّا بوشعيب بالقول:

- أش نقول لك، إلا هذه هي القراية، بناقص منها. ضو الشمع في النهار؟

ثمَّ خرج.

بعدها بحث أمين في اليوتوب عن موسيقى محمَّد عبد الوهاب. اختار أُغنيَّة «عندما يأتي المساء». أغمض أمين عينَيْه وهو يستمع للأُغنيَّة والشمع يذوب، وكلمات الأُغنيَّة تنفذ إليه، وهو يردِّدها ودموعه تنهمر على خدَّيْه:

عندما يأتي المساء، ونجوم الليل تُنثَرُ
اسألوا الليل عن نجمي، متى نجمي يظهرُ؟
عندما تبدو النجوم في السماء مثل اللآلي
اسألوا هل من حبيب عنده علم بحالي ...؟

كل نجم راح في الليل بنجم يتنورُ
غير قلبي فهو ما زال على الأفق محيرُ

يا حبيبي لك روحي، لك ما شئت وأكثر
إن روحي، خيرُ أفْقٍ فيه أنوارَكَ تظهر

كلّما وجّهتُ عيني نحو لمَّاح المُحيا
لم أجد في الأفق نجماً واحداً يرنو إليَّ

هل تُرى يا ليل أحظَى، منك بالعطف عليَّ
فأغنِّي وحبيبي، والمُنى بين يديَّ...؟

عمارة الرياض. زنقة أبو حيَّان الغرناطي. حي راسين. الساعة سادسة مساء... إن لم يجدها سيروغ لبار ماجيستيك ومنظومته: الحاج با صطوف، والسكارى، وكريستين. لن يقف السكارى على أنه الشمكار الذي مثَّل به حميمصة ورامبو، ولن يسفِر لهم عن مدلول السردية. سبيل المثقّف كما يقول جيمس جويس في رسم الفنّان الفتى، هو الصمت، أو الهجرة، أو الحيلة. أو ثلاثتها. حسب الحالات والأوضاع. يحلُّ أمين ببار ماجستيك مرّة أخرى. يستخفي مُوظِّفاً الحيلة. هذا إن لم يجد نعيمة. ضغط أمين على الزرِّ.. وانتهى إليه صوتُها. هي. بالفرنسية. كانت تكلَّمت بالعربية والليل معتكر المرَّة الأولى لأنها توقَّعت الحارس، أو صعاليك الليل.

- Qui est ce ?

- Amine.

- Pas vrai ?

انتهى إليه أزيزُ باب العمارة. فتحه وأسرع الخطو نحو المصعد، وضغط على رَقْم الطابَق. نظر إلى وجهه في مرآة الردهة. ليس الوجه الكَدِم للمرَّة السابقة. انفتح باب المصعد، ووجد باب الشقَّة موارباً، ونعيمة واقفة بحجابها. صاحت:

- Mais tu es comme un charme! Plus d'enflure, Pas d'œdèmes

(وجه صبيح. لا انتفاخ فيه ولا رضوض)

ألقى بنفسه في حضنها. عانقتهُ عناقاً حارّاً. وبقيا كذلك حتّى انسلخت منه، كي تغلق الباب. أخذ يدها وقبّلها، ثمَّ طبع قُبلة على شفتيْها.

أخذتْهُ من يده قائلة:

- تعال.

رافقها إلى الغرفة، واستلقيا على الفراش. اعتلاها وأخذ يقبلها بلهفة. نزع حجابها. أخذت تنزع ملابسها .. شرع يفعل الشيء ذاتَه ويلقي بملابسه. حذَّرتْهُ البرد ... لم يأبه لتحذيرها. أكبَّ على ركبتَيْه، وهو يقبِّلها. استلقت على الفراش. أحاط بها من خلف، وهو يقبِّل عنقها ويداعب نهدَيْها. أدارها. ثمَّ استلقت على ظهرها. أشبعها قُبلاً. ثمَّ اعتلاها. كانت كالسمفونية لأوَّل مرَّة. صرخت من اللّذَّة، وهوى على جسدها بعد الرعشة. بقي بلا حراك .. حاول النزع. استبقتْهُ. طوَّقتْهُ بذراعَيْها. بقيا ممتزجَيْن .. سكتت لغة الكلام .. ثمَّ تحرَّك في رفق، واستلقى على ظهره. ثمَّ نطق بجملة كما ينطقها أوَّل مرَّة:

- أُحبُّكِ يا نعيمة.

لم تعقِّب. ثمَّ قالت بعد بُرهة:

- كيف استطعتَ أن تنأى عشرة أيَّام؟

- لم أختر أن أنأى، كما تعلمين. الحالة التي كنتُ فيها، وتَهْيِئ الأوراق، ولم يكن بوسعي أن أغادر قبل إجراء البصمات ..

- ولماذا لم تُكلِّمني؟

- ضاع رَقْم هاتفكِ في الهاتف القديم .. أتيتُ وأنا أخشى ألّا أجدكِ..

- وماذا كنتَ تصنع لو لم تجدني؟

ربّما أعرِّض نفسي لاعتداء ثانٍ.

- لا شيء. ربّما أعرِّض نفسي لاعتداء ثانٍ.

- لن أسمح لكَ بذلك.

اقترب منها وضمَّها. ثمَّ قبَّلها. أخذ يداعبها، ثمَّ نطق:

- لا أتصوَّر حياتي من دونكِ يا نعيمة. تبيَّنتُ الفراغَ الذي خلَّفته..

لم تنبس بكلمة.

- لا تُفصحين عن شيء، أردف أمين.

- أستمع إليكَ، عقَّبت.

- أريد أن أصوغ حياتي معكِ يا نعيمة.

- تقول ما تقول اليوم. لا أدري ما ستقول غداً.

- لم يكن في الحالة التي كنتُ فيها المرَّة السابقة أن أتحدَّث في الموضوع. فكَّرتُ ملياً. ويمكن أن تُكلِّمي والديْكِ.

- ليس والداي مَنْ يعنيهما الأمر. أنا يا أمين. تحدَّثتُ عنكَ لوالدتي، ولكن القرار قراري .. ألا تظنُّ أنه يحسن بنا أن نتروَّى؟ ألّا نستعجل.

- كنتِ تريدين أن نتحدَّث في الموضوع المرَّة السابقة.

- نعم.

- وها أنذا أطرق معكِ الموضوع.

- ليس لي الحقُّ في الخطأ يا أمين. نمنح لأنفسنا بعض الوقت.

- سأبدأ في البحث عن شغل. أبحث عن عمل في مؤسَّسة خاصَّة هنا بالدار البيضاء. ليس بي رغبة أن أعود للصحافة ..

- ليس هذا هو المشكل. ستجد شغلاً. هل تحسب أني لامبالية حِيالَك؟ نحتاج إلى بعض الروِيَّة. لا تنسَ أني أكبركَ سنّاً.

- تعرفين بأن ذلك ليس مشكلاً بالنسبة إليَّ. المهمُّ أن أكون معكِ.

- تعال. لا تفكّر في شيء. أرغب فيكَ.

مارسا الحبَّ ثانية.

استرخيا ... لم يستشعر الرغبة أن يعيد الحديث حول الاقتران. ما الذي جعل نعيمة تبدو متحفّظة؟ باغتته وهو سادر كما لو قرأت ما يتردّد في خلَده:

- ليس أني لا أريد يا أمين. أنا أيضا أُحبُّكَ. ولكنْ أحتاج لبعض الوقت..

ثمَّ نهضت عارية لتغتسل .. انتهك أمين حرمة المكان وأشعل سيجارة.. أخرج كلينيكس، ونفض عليه رمادَ السيجارة .. سحقها بعدها. لفَّ العقب ونثار الرماد في كلينيكس. عادت نعيمة من الحمَّام.

- أدخَّنتَ؟

- نعم.

- تعرف القاعدة.

- نمارس الحبَّ.

- هو ذاك ... نمارسه مساء. هذا المساء أريد أن أقترح عليكَ أن نخرج للعشاء.

- إن أردتِ.

- الخادمة لم تُهيِّئ شيئاً للأكل .. اكتفيتُ في الغداء بساندويش في كافتريه المستشفى.

نهض أمين ليغتسل ... كانت نعيمة في المطبخ حين خرج من الحمَّام. ارتدى ملابسه. خرج إلى الصالون. أتت نعيمة وهي ببذلة الحمَّام بكأسَيْن من عصير الليمون. وضعت قرصاً من موسيقى الجاز.

- هل لديكَ مكان مفضَّل؟ سألتهُ.

- خيارِك خياري.

- ما رأيكَ في الكابستان؟

- يغلب عليه الصخب ليلاً. يتحوَّل إلى مرقص ..

- نحن شابَّان، أليس كذلك؟

جلست بمحاذاته. نقع من كأس الليمون. استلقت بقربه مغمَضة العينين وهي تستمع لموسيقى الجاز. أخذ يربِّت على شعْرها. غفت .. أيُّ فتاة هذه التي تلبس الحجاب، وتستمع لموسيقى الجاز، ولم تَطرُبْ حين بعث لها موشّحاً أندلسياً؟ اقترب منها كما يقترب الناظر إلى لوحة، وكلّما ازداد منها قرباً، ازدادت غموضاً. قالت له ينبغي أن تكتشفني، ولم تساعده في شيء كي تُسفِر عن مكنونها. وما اكتشفه اكتشفه بطريقة نذْلة حين وقع على رسالة المجهول، وقرأها، وأدرك أن المجهول كان خليلاً. فتحت عينَيْها فجأة، وتنهَّدت:

- كنتُ متعبة. يوم مُتعِب. لم آخذ عطلة هذه السنة ..

- يمكن أن نسافر سوياً.

- أظنُّها فكرة جيِّدة ..

- الأندلس؟

- أُفضِّل الصحراء .. ينبغي أن أتهيَّأ ..

ثمَّ نهضت نحو غرفتها كي ترتدي ملابسها .. عادت نعيمة وهي تُصوِّب حجابها أمام المرآة .. ثمَّ توجَّهت بالقول إلى أمين:

- هل يمكن أن تسوق، حبيبي؟

- طبعاً. لحسن الحظِّ أني أحمل رخصة السياقة، لأنها بطاقة التعريف التي لديَّ .. لا أدري أيَّ طريق سأسلك.

- ساريكَ. بئر أنزران، ثمَّ تأخذ نحو أنفا.

- أرى ...

تحوَّلت إلى باب المطبخ وأغلقتْهُ. أطفأت إنارة الردهة المفضية لغرفتها. ثمَّ سألت بنبرة هادئة:

- ألم تجد ظرفاً في كتاب ريجيس دوبري الذي كنتَ تقرؤه المرَّة السابقة؟

ارتاع أمين. تنحنح يداري حرجه، خشيةَ أن يفضحه صوتُه:

- لا. لم أجد شيئاً. كنتُ أقرأ مجلَّة زمان.

- بحثتُ عن الظرف في كلِّ مكان.

- لم أقع على شيء.

- ليس مهمَّاً. هيَّا بنا. أيّ يوم نحن؟

- الجُمُعة.

- سيكون المكان مكتظَّاً. أريد أن أُغيِّر أفكاري ..

هل هناك جريمة مكتملة؟ ماذا كانت تعني بـ «ليس مهمَّاً»؟ هل أدركت ودارت؟ وأرادتْهُ أن يدرك أنها أدركت.

37

السبت ظهراً. ذهب أمين ونعيمة إلى مطعم هايتي على البحر. تناولا الغداء به وهما ينظران إلى البحر من داخل المطعم. كان الجوُّ غائماً، والبحر هائجاً، وريح خفيفة تهبُّ .. كانا كزوجَيْن، بردَت منهما الأيَّام هوجَ العاطفة، ووَهَجَ الحبّ. لم تحدِّثه عن الرسالة، ولم يحدِّثها عن مستقبلهما. لم يتحدَّثا بمطعم لوكابستان، لصخب الموسيقى، والرقص على الأمس، الحلبة. احتسى من خمر فرنسي معتَّق أشار به النادل. ثمَّ عادا إلى شقَّتها، وكانت مَنْ تسوق. مارسا الحبَّ، كزوجَيْن، بحكم العادة، وليس بما يدعو له الشَّبَق، كما لو أن الرسالة غيَّرت فجأة من علاقتهما.

في مطعم هايتي تحدَّث أمين عن كتاب إستير بناسا «هوية المعاناة»، واقترانها بالتأميل، وأنِس من نعيمة الاهتمام. أدَّى أمين الحساب. منعتهُ نعيمة. أصرَّ. ثمَّ أخذا الطريق إلى الرباط بسيَّارتها. وصلا شقَّته مع غروب الشمس، وألفيا بّا بوشعيب لدى الباب وهو يرتدي معطفاً شتوياً ويعتمر طاقية صوفية. سلّم عليه بّا بوشعيب بأدب وهو ينظر إلى امرأة محتجبةٍ معه. تصنَّع أمين الجدِّيَّة وهو يحيِّي بّا بوشعيب.

استلقت نعيمة في كنبة الصالون الصغير لشقَّة أمين. نطقت:

- أُحبُّ مكانكَ .. أُحبُّ فوضاه ..

ردَّ أمين بالإنجليزية:

Love is in the eyes of the beholder (حَسَنٌ في كلّ عينٍ من تَوَدّ)

ثمَّ اعتذر لها كي يتبضَّع.

ألفى بّا بوشعيب جالساً على كرسي يرمق المارَّة:

- شكون هاذي اللي معك با أمين؟

- وعلاش؟

- ما تعرف (تحسُّباً لكلٍّ شيء) .

- أختي.

- باينة. رفدتها من الوجه (تبيَّن لي الشبه من الوجه). الدم سبحان الله يخبِّر.

- عنداك تْبان لك فيها؟ (إيَّاك أن تمدَّ عينَيْكَ عليها)

- وما تبغيش نتناسبو (نتصاهر) أبا أمين؟

- وفين تديرها؟

- عندك. أنت تبات (تبيت) ف بيتك (غرفتك) واحنا في الصالون.

- تعرف أنا نبات في الصالون، وأنتما في البيت (الغرفة).

- حتَّى هذا كلام.

- أنا غير نرجع من التقضية (التبضع) نكلمها.

- ودافع على خوك.

- نقولها للمقدم؟

- لا. بلاش. ما خاصش يعرف كل شي.

ثمَّ انفتل أمين إلى السوبر ماركيت ليشتريَ الماء المعدني والزبادي والخبز والمُربىَّ والجبن .. عاد، وقد ألفى بّا بوشعيب يوقد المجمر.

- صافي أنا غادي نكلمها. وكن رجل.

- ما نوصي يتيم على بكا .. تعرف، إلَّا جاتني اختك في القسمة، ما نديش عليها واحدة في الآخرة.

- وهذا هو المظنون فيك أبّا بوشعيب.

ألفى أمين نعيمة تقرأ من كتاب إستير بناسا ... قاطعها:

- تعرفين، قلتُ للحارس بأنكِ أختي، وأراد الزواج منكِ.

ضحكت نعيمة. ثمَّ قالت:

- ماذا سأفعل؟ سأقبل إذن؟

- ينبغي أن تقبلي بالنسبة إليَّ أوَّلاً.

لم تعقِّب بشيء. ثمَّ عادت لقراءاتها. قاطعها أمين:

- ينبغي أن نذهب.

- أين؟

- لمطعم سوري، يا مال الشام ..... ينبغي أن نغادر. حجزتُ للثامنة ..

- استغرقتني قراءة الكتاب. هل يمكن أن أستلفه منكَ؟

- طبعاً.

تأهَّبا للخروج. أخذ أمين معطفاً. لفَّت نعيمة شالاً حول رقبتها. غادرا الشقَّة. كان بّا بوشعيب بباب العمارة. نهض من كرسيِّه تأدُّباً. توجَّهت نعيمة إلى بّا بوشعيب:

- قال لي خويا بغيتي تزوج بي.

- إلَّا كتب مولانا. الحلال بغاه مولانا. نديرو الكحل على الابيض.

- وتهلاَّ فيّ؟ (تعطف علي / تتخذني أهلا).

- وعلاّه ألا؟ (وكيف لا)..

- وتخدم عليّ؟

- ونتعاونو على حمل الدنيا. أنت شوية، وأنا شوية.

- ما عندكش امرة اخرى؟

- ونكذب عليك؟ عند أم الاولاد.

- أنا ما نقبلش الضرة. ذاك شي ديال تعدُّد الزوجات ما عنديش معه.

- وهي بحال إلّا ما كايناش. ولّت بحال الوالدة. تفرح لي مسكينة.

- تعرف، أنا بغيت، ولكن خويا أمين ما بغاش ...

توجّه بّا بوشعيب نحو أمين معاتباً:

- وعلاش أبا أمين، أش درت لك؟ قلت لي تحامي (تدافع) عليّ، زعم.

- خممت قلت نتزوّج بها.

- تتزوج بأختك؟

تدخّلت نعيمة قائلة وهي تحبس ضحكة:

- لاعسّاك، ما شي خويا.

انتفض بّا بوشعيب مغاضباً:

- وحشومة عليك أبا أمين. ضحكت عليّ. ثلاث حوايج ما فيهم ملاغة، الزواج والطلاق والموت .. كنت نحاسبك دغري، الساعة حتّى انت فيك الدغل بحال الخرين (الآخرين).

توجّهت نعيمة نحو با بوشعيب سائلة إيّاه:

- قل لي أش سماك الله.

- بّا بوشعيب إلّا بغى الله.

- كيف داير أمين؟

- دابا ما نقول لك والو..

ساق أمين سيّارة نعيمة في اتِّجاه باب الحدّ. ركن السيّارة. تمشيا حتّى مطعم «يا مال الشام» بشارع «المغرب العربي». كان المكان مكتظاً. أحبّت نعيمة شكله الشرقي. الحرب مِرجل يخلط المجتمعات. سوريون فرُّوا من هجير الحرب، من أجل حياة أخرى. لم يكونوا يبدون غرباء. وكان إقبال المغاربة على المطعم، في جانب، تعبيراً عن المواساة. شعُر أمين بالسعادة مع نعيمة في مطعم يا مال الشام. تناولا عصير النعناع، ثمّ مشويات وكنافة ومحلبية. طلب من نادل أن يلفّ عشاء بمشويات لبّا بوشعيب. ثمّ غادرا. بلغا الشقّة. كان بّا بوشعيب قد انسحب إلى غرفته. نقر أمين على بابه. مدَّ له العشاء. ألقى عليه بمحضر نعيمة:

- ودابا قل لها كيف أنا؟

- مالي، وليت مرايا (مرآة).

- وقل أبا بوشعيب، عافاك.

- حتّى نتعشّى. تعمر الكريشة بغْدا، ولها مُدبر حكيم.

سألته نعيمة:

- وانا قل لي. (نطقت بحرف القاف).

لم يجد بّا بوشعيب بدّاً من الردِّ:

- ما شفت فيه إلّا الخير أبنت الناس. والله عالم. ما ك يعرف أش ف القلوب سوى مولانا.

ردّ أمين:

- تبارك الله عليك أبا بوشعيب.

غشي أمين ونعيمة الشقَّة. شعر أمين بقشعريرة. إرهاصات نزلة برد. استلقت نعيمة على الكنبة تقرأ من كتاب بنا سا .. فتح أمين زجاجة نبيذ. أفرغ كأساً، ثمَّ احتسى منها. لم تكن به رغبة أن يقرأ. كان يشعر بالسعادة. توجَّه إلى نعيمة، كي تبيبه Bip، من رَقْمه الجديد، من أجل أن يسجِّل رَقْم هاتفها. سجَّل رَقْمها. وضع اسمَها، هذه المرَّة. تذكَّر أمَّه، وليس له كيف أن يتَّصل بها .. أفرغ كأساً ثانية. انسحبت نعيمة للغرفة. أخذ أنفُه يسيل .. أعراض نزلة برد. أغلق الزجاجة، ثمَّ دخل الغرفة .. نزع ملابسه وارتدى البيجامة. ثمَّ نطق قائلاً:

- لدينا الحقُّ في السعادة، وهو مطلب مشروع.

وضعت الكتابَ على طاولة النوم، ثمَّ نادت عليه:

- تعال حبيبي.

كما لو كانا يعرفان بعضهما منذ الأزل. تطامن في حضنها كي يستشعر الدفء. أخذا يُشابكان أرجلهما، كي يشيعا الدفءَ في الفراش. قبَّلها، ثمَّ قال بالفرنسية:

- أُحبُّكِ، وأُحبُّ أن أُحبَّكِ.

ربَّتت على شَعْره، ثمَّ دون أن تقول شيئاً. أطفأ الإنارة .. ناما متعانقَيْن من دون أن يمارسا الحبَّ.

في الصباح انتهت إليه زخَّات المطر. ما العمل يوم أحد، في جوٍّ مطير، مع نزلة برد سوى أن يلزم الإنسان الفراش؟

نقرٌ على الباب. ثمَّ رنَّة الجرس. لم يتحرَّك أمين. ثمَّ رنَّة ثانية، فثالثة. نهض أمين من الفراش متثاقلاً. ألفى بّا بوشعيب بوجه جَهْم. ومن دون أن يلقي بالتحية قال:

- النصرانية مشت عند الله.

- أش ك تقول؟

- اللي سمعت.

أغمض أمين عينَيْه، ثمَّ عاد إلى غرفته. كانت نعيمة مستوية، مسندة ظهرها إلى الفراش كَمَنْ يتوقَّع خبراً مفجعاً. سألتْهُ:

- ماذا؟

- إستير ماتت.

تمدَّد أمين على الفراش، وبقي مستوياً لا يبدي حراكاً. أحاطتْهُ نعيمة بذراعَيْها. كانت دموعها تسيل ..

الجزء الثاني

بدأتْ الطائرةُ من خطوط العال في النزول، في رحلتها من باريس إلى تلّ أبيب، وتعالى صوت المضيفة بالعبرية والفرنسية كي يشُدَّ المسافرون أحزمتَهم، ويُرجعوا المقاعد إلى وضعها. أكبَّ أمين من نافذته ينظر إلى المدى، في تباشير الصباح، يرتطم نظره بزرقة البحر .. ثمَّ دخلت الطائرة المجال البرِّيّ، وتبدَّت معالم تلِّ أبيب ... أخذ قلب أمين يخفق وهو ينظر إلى منشآت المدينة. يرى والطائرة في طور الهبوط مظاهر الحياة، من طرق سيَّارة، وسيَّارات، ومبانٍ ... لم يكن يبدو على المسافرين بالطائرة أيُّ آثار الذهول. كان مُجالسه غارقاً في القراءة من كتاب بالعبرية. حيَّا أميناً بأدب قائلاً: «شالوم»، وردَّ أمين بمثله. لم يتحرَّك مجاور أمين في الطائرة طوال الرحلة إلَّا مرَّة واحدة للحمَّام. ولم ينلْ من طعام الطائرة، واكتفى ببيسكوت أخرجه من حقيبة صغيرة. خلال الرحلة، لم تكتحل عينا أمين بنوم مذ غادرت الطائرة مطار شارل دوكول على الساعة الواحدة صباحاً، ولم يستطع التركيز وهو يحاول أن يقرأ. كانت معه بعض مجلَّات فرنسية، لوبوان وماريان ونوفيل أوبسرفاتور، واكتفى بتصفُّحها. كانت الرحلة عادية بالنسبة إلى المسافرين كافَّة، شأنها شأن كلّ الرحلات، ولم تكن كذلك بالنسبة إلى أمين. كان قد هتك حاجزاً نفسياً، كي يَحُلَّ بإسرائيل. وكان، وهو بالطائرة، كَمَنْ يخشى أن يتمَّ ضبطه، لمَن يعتزم الإقدام على أمر مُنكَر ويخذله وضعُه النفسي. حطَّت الطائرة بشكل اعتيادي بمُدرَّج مطار بن غوريون، وصدح صوت المضيفة معلناً الوصول النهائي وتوقيت إسرائيل وحالة الجوّ بتلّ أبيب، وردَّدت بضرورة إبقاء الأحزمة مغلقة، بالعبرية ثمَّ

الفرنسية حتَّى التوقّف النهائي. وتوقَّفت الطائرة، وفتح مضيفان منفذَها، واصطفَّ المسافرون في الصفوف للخروج. كما في كلِّ رحلة جوِّيَّة ... أخرج أمين حقيبته اليدوية من مستودع الحقائب، حتَّى بلغ منفذ الطائرة، وردَّ عليه مضيف ومضيفة «شالوم» وردَّد أمين في أدب واستحياء «شالوم» .. ثمَّ سار في أثَر المسافرين، حتَّى مركز بوليس الحدود. لم يجرؤ أن يُظهر جواز سفره بحروفه العربية.. كان قلبه يخفق وهو في مركز الحدود .. قد يتمُّ توقيفه واستجوابه .. أخرج جواز سفره، وأبدى الثبات. بلغ دوره أمام مخفر شرطة الحدود. ازداد خفقان قلبه. قدَّم الجواز لشرطية في مَعزَلها. تعاملت بشكل عادي. مرَّرت صورة الورقة المنمَّطة المتضمِّنة للبيانات في الآلة البيومترية، ثمَّ نظرت في شاشة حاسوبها. توجَّهت إليه بالحديث متأدِّبة:

- شالوم.

وردَّ أمين:

- شالوم.

تحوَّلت إلى العربية:

- السيِّد كوهن، بنزِّل الختم ع الجواز ولَّا ع الورأ (الورقة)؟

- على الورقة من فضلكِ.

- ماشي.

وختمت الشرطية على وثيقة مصاحبة للجواز تحمل تأشيرة الدخول، متوجِّهة إلى أمين بابتسامة:

- مرخبا فيك في إسرائيل ..

استلم أمين جوازه بشكل عادي، وسلك مسلك المسافرين نحو مكان الأمتعة .. انزاح الثقل الذي كان يجثم على قلبه، إلَّا أن شعور الخوف لم

يبدو كُلّيّة .. يمكن توقيفه خارج المطار. نعم، هو في ضيافة معهد موشي ديان، وله دعوة، لكن، يمكن لمصالح الشن بيت أن تُوقفه .. يمكن لعناصره أن يقفوا على توجُّهاته من خلال تعقُّب اسمه وسجلّه في شبكة النت.

سحب حقيبته من حزام الأمتعة، ورفع رأسه يبحث عن علامة الخروج Exit بالإنجليزية، واقتفى سيل المسافرين، حتَّى خرج من البناية من مطار بن غوريون، ووجد شخصاً يحمل لوحة اسمه بحروف لاتينية .. توجَّه إليه .. أدرك حامل اللوحة أنه أمين كوهن، وتوجَّه إليه متحدِّثاً إليه بالعربية:

- السيِّد كوهن؟

- نعم.

- نوَّرت البلد .. أنا عمران شتريت .. أصولي من ماروكو. من الريش ..

كان الفتى يتكلَّم بعربية فصيحة مع لُكْنة شامية رغم أن أصوله من المغرب، ممَّا يشي أنه تعلَّم العربية بطريقة منتظمة، وليس بداخل الأسرة. الجيل الثاني من المغاربة اليهود بإسرائيل.

أمسك عمران شتريت حقيبة أمين. نازعه أمين إيَّاها. دفع عمران:

- إنت زيف (ضيف) .. إليازار إيتان بيعتزر (يعتذر) .. كان بدّو يجي على شانك، بس لآخر لخزة (لحظة) راخ على أورشليم .. خايكون في المخازرة (المحاضرة) ..

كان الفتى ينطق حرف الحاء خاء، والضاد زايا.

- ما فيش مشكل، ردَّ أمين.

- كيف كانت الرخلة؟ سأل عمران.

- جيِّدة. كان فيه شوية اضطرابات، بس عادي.

- الخمد لله. إخنا مبسوطين بزاف ...

شفع عمران شتريت بكلمتي «براف براف» ليدلّل على أصوله المغربية

.. ثمّ أردف:

- كيف ماروكو؟

- مافيش مطر كتير السنة ذي.

- زيّ إسرائيل .. إحنا بنخب ماروكو كتير. براف.

أخذ الفتى يتكلّم من هاتفه المحمول بالعبرية .. وحلّت سيّارة ڤان. خرج منها سائق. ألقى على أمين التحية «شالوم»، وقدّم نفسه بإنجليزية متعتعة (مكسّرة):.. I Ben Ivanovich, driver you

جلس أمين في المقعد الخلفي بجانب عمران شتريت. وجد على طاولة الڤان جريدةَ جوريزاليم بوست، وزجاجةَ ماء معدني عليها حروف عبرية، وبحروف لاتينية Spring of Ein Gedi

غادرت السيّارة حيِّز المطار، وسلكت سبيل الطريق السيّار.

- إنت زيف (ضيف) عزيز علينا السيِّد كوهن، أردف عمران، خا ناخزك (نأخذك) على شيراتون، ع البخر. مكان خلو (حلو).

كان أمين منبهراً .. مدينة عصرية كما بدت لأوّل وَهْلَة .. كان يُقلِّب نظره ذات اليمين وذات الشِّمَال، وهو يرى وضعاً طبيعياً، لمدينة متوسِّطية عصرية ذكَّرَتْهُ بالمُدُن الأندلسية، عدا ما يميِّزها من كتابات بالعبرية في البيانات الطّرُقية والإعلانات.

لم يشعر أمين بالمدَّة الزمنية التي استغرقتْها الرحلة من المطار إلى فندق شيراتون. توقّفت السيَّارة في مدخل الفندق على شاطئ البحر. نزل السائق وحمل الحقيبتَيْن، وأخذهما عنه حمَّال الحقائب. غشي كلّ من أمين وعمران شتريت بهو الفندق، وتوجَّها إلى الاستقبالات. كلَّم عمران مضيفة الفندق بالعبرية، وطلب من أمين بالعربية جواز سفره.

أخذت مضيفة الاستقبال صورةً منه، ثمّ قدّمت ورقة استلام. طلبت منه أن يوقّع على الورقة وقد وضعت عليها علامةَ الضرب بقلم الرصاص .. كانت الوثيقةُ بالإنجليزية. تردّد أمين أيوقّع بحروف عربية أم لاتينية حتّى لا يثير شبهة، ثمّ قرّ قراره أن يُوقّع بحروف لاتينية .. أخذت المضيفة الورقة، وأسلمتْه مفتاحاً مغناطيسياً، مردّدة بالإنجليزية.

- It's in the 10 th floor, you have nice view on the beach. Enjoy your stay in Tel Aviv..(1)

ردّ أمين بالعبرية شاكراً من جملة تعلّمها: تودا رابا.

صحب عمران أميناً حتّى المصعد، وتمنّى له مقاماً طيّباً، وذكّره بموعد اللقاء، ونصحه بمطعم جيّد للأكل تاي في الفندق، وطمأنه من أن الغداء على حساب المركز. سأله أمين أين يمكن أن يُحوّل العملة؟ وأخبره أنه يمكن أن يفعل في الفندق ..

وضع أمين مفتاحه المغناطسي على لوحة في المصعد، ثمّ ضغط على رَقْم 10، إلى أن بلغ المصعدُ الطابقَ العاشر. انفتح، وقصد أمين غرفته رَقْم 1024 ... كانت عبارة عن سويت. وجد على المائدة طبقَ فواكه، وتمراً ملفوفاً ببلاستيك، وظرفاً عليه اسمه. فتحه. كان مكتوباً بالإنجليزية موجّهاً لأمين كوهن، يتمنّى له فيه مديرُ الفندق مقاماً طيّباً بتلّ أبيب .. حمل علبةَ التمر، وقرأ عليها بالإنجليزية «Madjhoul dates, product of Israel»(2)

فتح أمين الباب الزجاجي، ووقف بالبالكوني .. استرعى انتباهَه مَنظرُ بعض المصطافين يستحمّون في البحر رغم الجوّ الربيعي. لم يثنِ الجوُّ الذي كان يميل إلى البرد، المصطافين من الاستحمام ... هو البحر ذاته إلى طنجة. لكَم حمل من توزع، وكان مسرحاً لصدامات على مدار التاريخ.

1) - في الطابق العاشر. لديك منظر جميل. مقام طيب في تل أبيت.

2) تمرالمجهول: نتاج إسرائيل.

إلى اليوم. ألا يمكِنه أن يكون صلةَ الوصل؟ أو مائدةً يلتقي حولها ساكنو شطّه؟ سمع أمين جرساً .. فتح الباب. وجد حامل الحقائب. كلّمه بالعربية من غير لُكنة ..

- السيِّد كوهن وين بدي أضع العفش؟

كان يحمل على صدره بطاقة باسمه بحروف لاتينية «سمير فوَّاز» ..

- هنا، جنب الصوان .. أشار أمين.

شعر بالحرج، لأنه لم يكن حوَّل نقوده، ثمَّ تذكَّر أن له ورقة من فئة 10 أورو. نفحها الحمَّال ..

- تسلم .. ردَّد الحمال، ثمَّ أغلق الباب ...

عاد أمين إلى الشرفة يتأمَّل زُرْقة البحر وجمال المنظر. مَنْ كان يتوقَّع أن يحُلَّ أمين بإسرائيل؟! هو نفسه لم يكن يتوقَّع ذلك، ولا يتصوَّره ... حيث هو، جرت معارك طاحنة، وغير بعيد في الطريق نحو القدس وقعت معركة القسطل الفاصلة غداة الإعلان عن تقسيم فلسطين .. استحضر المقاومةَ البطوليةَ لعبد القادر الحسيني .. ولكنه ماض ولَّى، ردَّد أمين. الحقيقة هي ما يرى. والحقيقة يصنعها المنتصر. لا يمكن لعقارب الساعة أن تعود للوراء ... ينبغي للمرء أن يكون واقعياً .. ثمن اللاواقعية غالٍ.

فتح هاتفَه. انتظر كي يدخل الشبكة. توصَّل بمراسلة، مُرحَّباً به في إسرائيل بالإنجليزية ... فتح الواتساب، وأرسل برقية إلى نعيمة بالفرنسية:

« خمِّني أين أنا؟» .. ثمَّ أخذ صورة للشاطئ والبنايات المحاذية محاذِراً أن يأخذ صوراً بها حروف بالعبرية. حمَّلها في هاتفه، وأرسلها لنعيمة.

ثمَّ عاد إلى كنبة السويت، وقشَّر برتقالة، وأخذ يأكل صنوفها حين بلغتْهُ رنَّة الواتساب. نظر في الشاشة. كانت نعيمة، مع رسالة منها.

- في مكان ما. يعبق بالشاعرية .. البحر والشاطئ. أنتاليا، أُراهن.

كتب أمين:

- تل أبيب.

أعقبه ردٌّ نعيمة:

- لا أُصدِّقكَ.

ردّ:

- بلى.

كتبتْ:

- خائن.

أجاب:

- فعلاً؟

ردَّت:

- كان عليك أن تأخذني معكَ.

عقَّب:

- أجادَّة أنتِ؟

شفعت:

- لا تذهبْ لإيليات من دوني .. أُقبِّلكَ. تركتَ فراغاً كبيراً ...

كان مبتهجاً ومسروراً .. وزاد من فرحته ردُّ نعيمة ...

فتح أمين حقيبته، ووضع لباسه في الصوان. أخرج بدلته للقاء المساء .. تردَّد هل يضع ربطة عنق. فضَّل أن يبقى بقميص بعنق مفتوح. ذلك أليَق بالنسبة إلى مثقَّف. ثمَّ دخل الحمَّام وأخذ دوش ... كم كان سيكون سعيداً لو كانت معه نعيمة. لكانا سيمارسان الحبَّ والنافذة المطلّة على البحر منفتحة ..

استلقى على السرير، وأخرج سيرة «رحلة جبلية، رحلة صعبة» لفدوى طوقان .. ثمَّ ما لبث أن أغلقها .. تتحدَّث الكاتبة عن ماضٍ ولَّى ... وضع الكتاب جانباً، وأخرج حاسوبه كي ينظر لعناصر مداخلته للمساء .. بحث عن مقْبس الكهرباء كي يَشحن الحاسوب .. أشعل الحاسوب. فتح ملفّ محاضرات .. عنون مداخلته «العالم العربي، إرادة وتمثُّل» في صيغة شوبنهاورية ... لا، لا .. العنوان غير موفَّق. العالم العربي بين الحقيقة والخيال. لا يحبُّ أن يقرأ نصَّاً، ويفضِّل دوماً وضع نقاط والحديث من خلالها، ممَّا يُمكِّنه من التفاعل مع الحُضور، بالاقتضاب حين يستدعي الأمر ذلك، والإسهاب حين تقتضي الضرورة .. فضَّل أن يُجري مداخلته بالفرنسية، ويقوم المركز بالترجمة الفورية .. كان المنظِّمون قد أخبروه في الرسائل المتبادلة عبر البريد الإلكتروني أن غالبية الحضور يُتقنون الفرنسية ..

شعر بالإعياء يتسرَّب إليه. أغلق الحاسوب، واستلقى على الفراش، ثمَّ أغمض عينَيْه وأخذتْهُ سِنَة من نوم ... إلى أن رنَّ هاتف الغرفة. حمل السمَّاعة، وانتهى إليه صوت مضيفة الاستقبال تكلِّمه بالإنجليزية:

- ميستر كوهن .. مرافقكم طلب مطعم تاي. آسفة، لا يُفتحَ إلَّا مساء .. يمكنكم تناول بوفيه قرب البحر ...

نظر إلى ساعته. كانت الساعة قد جاوزت الواحدة. غادر غرفته نحو المطعم على الشاطئ. اتَّخذ مجلسه في مكان يمكنه فيه التدخين... طلب بيرة ماكابي. راقه مذاقها. طلب ثانية. أحسَّ بارتخاء ونشوة... نهض إلى البوفيه. كان مزيجاً من أكل فرنسي وشامي، ومن أوربا الشرقية. أكل بشهية ... دخَّن سيجارة. كان يشعر بالسعادة ... كم كان مخطئاً في الجري وراء سراب. وحدة العالم العربي، والقضية الفلسطينية، وكتابات

العرب، ولغة العرب، ذلك كلّه هراء، وله بديل من لغة فرنسية يُتقنها، وإنجليزية يُحسنها، وسانحة يغْنمها.

° ° °

كانت الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر حين طرقت مساعدة باب مكتب السيِّد إليازار إيتان في مركز موشي ديان. خرج السيِّد إليازار إيتان، بقميص من غير جاكيت .. كان في الستينيات من عُمُره، يفيض حيوية. ابتدر أميناً بالتحية:

- شالوم مسيو كوهن.

وصافحه بحرارة.

وردَّ أمين:

- شالوم مسيو إيتان.

ثمَّ أفسح السيِّد إليازار إيتان له في المجلس على صالون جِلْدي. يعلو المكتبَ صورة لهرتزل، وأخرى لبن غوريون، كلاهما بالأبيض والأسود، وفي جانبٍ صورة موشي دايان بعصابته الأسطورية على عينه اليسرى. وراء المكتب مكتبة مليئة بكُتُب بالعبرية والإنجليزية.

تحوَّل السيِّد إيتان إلى الفرنسية، يتكلَّمها بلا لُكْنة.

- نحن سعداء السيِّد كوهين لاستضافتكم في مركز موشي ديان. يوم عظيم بالنسبة إلينا. هل أنتم راضون بظروف الإقامة؟

- جدّاً. فوق ما أتوقَّع ..

- هل اعتنى بكم مرافقكم؟

- السيِّد شتريت شخص ودود ..

- هو مواطنكم، ويتحرَّق شوقاً لزيارة المغرب .. وقفتُم بأنفسكم على حقيقة الأمر. إسرائيل دولة طبيعية، وناسها طبيعيون. نهفو للسلام، ونريد أن نعيش في أمان وسط محيطنا .. نُسجت عنَّا أحكام جاهزة.

- ذلك زمن ولّى.

- نتمنَّى ذلك. سوف تكتشفون بأنفسكم خلال مقامكم أن الشعب الإسرائيلي مسالم وينشد السلام ..

ثمَّ أضاف:

- أتريدون قهوة عربية؟

- أي نعم.

وضغط السيِّد إيتان على زرٍّ، ودخلت مساعدته. رفع أمين عينَيْه نحوها، والتقى نظره بنظرها .. فتاة فاحمة اللون، جميلة المحيَّا في مقتبل العُمُر. كلَّمها السيِّد إيتان بالعبرية. استدارت الفتاة نحو أمين وكلَّمتْهُ بالعربية:

- كيف بدك الأهوة (القهوة)؟ مزبوطة؟

- أيوا ..

ثمَّ أرسلت ابتسامة نحو أمين ..

واصل السيِّد إيتان الحديث:

- نستقبل فعالياتٍ عدَّةً من العالم العربي .. من هؤلاء الذين حكمت عليهم النظرة المنمَّطة للقومية العربية بالذوبان أو الضمور. استقبلنا مثقَّفين أكراداً وأقباطاً من مصر، وليبراليِّيْن منها، واستقبلنا أمازيغ من بلدكَ وصحافيِّيْن أحراراً .. بل حلَّ عندنا مثقَّفون من دول الخليج، وتبيَّنوا خطأ الصورة التي انتسجت عن إسرائيل، وعبَّروا كلُّهم في خاتمة زياراتهم

عن رغبتهم في العودة .. لكننا أسعد باستقبالكم .. ذلك أنكم من أرومتنا .. أنتم منّا. لكم من قرن مذ تحوّل أجدادكم للإسلام؟

- أربعة.

- يزعم المسلمون أن ابن ميمون تحوّل للإسلام لمّا كان بفاس.

- نصح بتغليب الحياة ولو بالتستُّر عن الحقيقة.

- تماماً.

- وجْه كبير من التراث اليهودي، قال أمين، ثمَّ شفع بجملة بالعبرية كان يحفظها «دي موشي كي موشي، ما كام كي مكام دي موشي».. (من موسى إلى موسى، ليس هناك مقام أسمى من مقام موسى).

- أرأيتم؟ ينبغي أن تتعلَّموا العبرية .. سيكون الأمر سهلاً بالنسبة إليكم .. ويمكنكم أن تصبح(وا) مواطناً إسرائيلياً.

في تلك اللحظة دخلت المساعدة وهي تحمل فنجان قهوة، وضعته أمام أمين، ثمَّ استدارت نحوه:

- بدك screen (شاشة) للمخاضرة (المحاضرة)؟

- لا ... ما فيش لزوم.

ثمَّ كلَّمت السيِّد إيتان بالعبرية ... واستدار السيِّد إيتان نحو أمين ..

- لمَّا أن تَفرغوا من شرب قهوتكم ننتقل إلى القاعة .. حضور مكثَّف، حسبما قالت لي ريبيكا ..

- يمكن أن نذهب حالاً، نطق أمين.

- لا أبداً. ليس قبل أن تفرغوا من شرب قهوتكم .. وأردف:

- كيف يُنْظَر في المغرب إلى قضية خاشقجي؟

- ينبغي أن نسمّيَ القطَّ قطّاً كما يقال بالفرنسية. إنها جريمة.

- لنقلْ إنه خطأ. لا ينبغي أن يذهب الأمر إلى المساس بدور السعودية. هي حليف استراتيجي.

ارتشف أمين رشفة أخيرة من فنجان القهوة، ثمَّ قال:

- أنا جاهز ..

أخذ السيِّد إيتان جاكتَه من ظهر كرسيِّه وارتداها، ثمَّ أشار بيده لأمين كي يغادرا المكتب. كان عمران شتريت ينتظر خارج المكتب، وهمس بشيء لإيتان .. لم يُرد السيِّد إيتان أن يتقدَّم على أمين. تقدَّم عمران شتريت، وأفسح لهما نحو قاعة المحاضرات، وعلى أثَرِهم ربيبكا .. ما إن دخلوا القاعةَ جميعُهم، حتَّى وقف الحضور وأخذوا يصفِّقون .. استمرُّوا في التصفيق حتَّى لمَّا حلَّ إيتان وأمين بالمنصَّة. شعر أمين بالحرج مشفوعاً بالارتباك. أشار السيِّد إيتان على الحضور بالجلوس، ثمَّ بيده إلى أمين كي يجلس جَنْبَه. واتَّخذ أمين مجلسه في المكان المهيَّأ له. أتت ربيبكا وقدَّمت لأمين سمَّاعة الترجمة .. وضع السمَّاعتَيْن على أُذُنَيْه. تناول السيِّد إيتان الكلمة بالعبرية، وأمين يتابع عبر الترجمة إلى الفرنسية:

- تتشرف اليوم في مركز موشي دايان باستضافة وجه من الوجوه المعبِّرة عن التغيير الحاصل في العالم العربي. العالم العربي يتطوَّر، ويبرأ شيئاً فشيئاً من العدائية وإيديولوجيات الكراهية والظلامية. ينبغي أن نُصيخ السمع لهذه التحوُّلات، بل أن نكون صدى لها، ونسعى في تفتُّقها. مسؤوليَّتنا أن نرعى هذا الغرس، ونعمل على أن يونع. أمين كوهن هو من هاته الوجوه، مَن نشأ في ظلّ تلك الرؤى الضيِّقة، وبفضلِ ثاقب نظره استطاع أن يتخلَّص منها. ولا شكَّ أن جذوره اليهودية كما يدلُّ على ذلك اسمُه أسهم كي ينظر إلى الواقع من غير غِلالة. لا أريد أن أطيل عليكم،

لأنكم أتيتُم للاستماع إليه، وقد تجشَّم عناء السفر ليُسمع صوتاً ضامراً في بلده .. لذلك أطلب منكم أن تصفِّقوا له .. إليكم الكلمة السيِّد كوهن:

وعلت موجة التصفيق ... تنحنح أمين كي يداري خجله. بدأ بالتحية «شالوم»، ثمَّ استرسل بالفرنسية. وضع الحضور أغلبهم سمَّاعات الترجمة:

- سيِّداتي سادتي، بَدءاً أعبر عن سعادتي الغامرة بالحلول في إسرائيل، أرض الروَّاد. لم أكن أقدِّر أن يحدث ذلك، وحدث، ولا أخفيكم أنني منذ استقللتُ الطائرة وأنا مضطرب، تتوزَّعني هواجس شتَّى، وحين حللتُ وجدتُ أناساً طيِّبين، ودودين، ذوي إحساس إنساني رفيع، في الطائرة، وبالمطار، وفي الفندق، وبالمطعم. قد لا يكون ذلك كافياً كي أجري حكماً شاملاً، ولكنْ ألا يقال بأن الانطباع الأوَّل هو الصحيح. ولا أستطيع أن أشكر بما فيه الكفاية مركز موشي دايان الذي أتاح هذه الفرصة، وله الفضل في تبديد السَّجَف .. نعم، كنتُ مثلما قال السيِّد إليازار إيتان، مقولباً بإيديولوجية منافية لمسار التاريخ، ونَفَقت في مجرى السياسة، والحقيقة هي وحدها ثورية .. لكن الحقيقة شأنها شأن وليد استهلّ، تحتاج للرعاية والاحتضان .. أقدِّر ما تقومون به في هذا المركز، وفي مؤسَّسات أخرى مماثلة، وأتمنَّى أن يتاح لي الالتقاء بالقيِّمين عليها. قد يكون البلد الذي أتيتُ منه قد هيَّأني لهذه الخطوة، وهو أرض تلاقي مكوِّنات عدَّة، عاش فيه اليهود جنباً إلى جنب مع المسلمين، واحتضن مَنْ طُردوا من الأندلس جرَّاء محاكم التفتيش، ولكني مدين لشخص استثنائي في المغرب، اختاره الموت قبل شهور معدودة، هو مَنْ هيَّأني كي أنظر للحقيقة، يحمل اسماً عبرانياً، بنيس. عانق القومية العربية، ولكنني وقفتُ على المطمور في مساره وهو أن انخراطه كان ردّ فعل. وأتيح لي أن أتعرَّف على مواطنة مغربية يهودية، لم تعد من الأحياء، نذرت حياتها كي تكون جسراً بين عالمَيْن تصارعا وتداخلا، وكان آخر جملة قالتْها لي وهي تتأهَّب لسفر لم تعد

مه: محكوم علينا بالتعايش. الناسُ أبناء زمانهم التاريخي قبل أن يكونوا أبناء آبائهم كما يقول المؤرِّخ الفرنسي مارك بلوك. الشخص الذي أنا مدين له قضى، ولكن روحه تسكنني. حلَّ ضيفاً بإسرائيل بدعوة من رجل استثنائي هو شمعون بيريز الذي أدرك الديناميات التي تعتمل في العالم العربي. ليس هناك ما هو أكثر ثورية من حقيقة آن أوانها كما يقول فيكتور هوغو، والحقيقة الثورية هي المصالحة العربية الإسرائيلية وقد أضحت مُلحّة، وكانت الرؤية الغالبة هي البدء من القضية الفلسطينية، وكنتُ في الرؤيةِ ذاتها. أعبرُ لكم عن خطئي ذاك، ويتعيَّن إجراء المصالحة العربية الإسرائيلية أوّلاً. البدء بالقضيةِ الفلسطينيةِ لسوف يرْهن المصالحةَ العربية الإسرائيلية التي هي ضرورة ليس لإسرائيل وحدها، ولكنْ للعالم العربي كي يعانق العصر وينغمر في التحديث، ويتصدّى للتحدِّيات الكبرى التي تُحدق به، هذا على اعتبار العالم العربي وحدةً متراصّة، مع استفحال الامبريالية الفارسية وبروز العثمانية الجديدة. وأريد أن أبرَّ بوصية مواطنتي إستير كوهن في دعوتها للتعايش.

بدا الاستحسان في وجوه المستمعين. استرسل أمين في الحديث:

«أيُها الحضور الكريم،

كنتُ عنونتُ محاضرتي بـ «العالم العربي، إرادة وتمثُّل» وأنا أستحضر رؤية شوبنهاورية .. غيَّرتُ من عنوان المحاضرة .. العالم العربي ليس في الزمن الفلسفي. مازال في زمن الدعوة والشِّعْر. لم يبرح حضن النشأة كما طفل لم ينفطم عن ثدي أُمِّه. وحين أنفق الشِّعْر تحوَّل إلى الحكي .. فيما يسمَّى جزافاً بالرواية .. وربَّما لو أردتُ أن أُجري قراءة فلسفية عليه، لأخضعتُهُ لرؤية نيتشية. هو في ردود الفعل وما يترتّب عنها من الضغينة .. القومية العربية ردّ فعل ضدَّ الطورانية، وضدَّ الحركة الصهيونية .. وهي تنطوي على ضحالة فكرية، لا تبلغ ما استطاعه بير برخوف مثلاً من تمثُّل

الماركسية، ومن عمق التحليل، والانتقال من التنظير إلى الفعل، من خلال تجربة الكيبوتز الفريدة .. «من أجل بعث عربي» لمشيل عفلق كتاب أماني، ولا يحمل عمق برخوف، ولا هو يتَّصف بالصرامة العلمية لا أودُّ أن أتحدَّث عن كتاب «معالم في الطريق» للسيِّد قطب الذي ألهب جيل ما بعد 67، والذي ينبني على رؤية مانوية للعالم .. ذاك سجلٌّ آخر .. وهو محكوم بالفشل رغم البريق الذي يحظى به لدى حركات مؤثِّرة وعريضة، عددياً. مآل هذه الرؤية الفشل، لأنها تجافي مسيرة التاريخ ... يتحدَّث غسَّان تويني، وهو صحافي لبناني لامع، عن قرن من أجل لا شيء. وهو محقٌّ في تقييمه، بيد أنه لا يذهب إلى علَّة الإخفاق. مصدر الإخفاق هو خطأ المنطلق. هو الإيمان بوحدة هلامية للعالم العربي، وهو رفض إسرائيل. والعنوان اللائق بالمحاضرة هو العالم العربي بين الحقيقة والأسطورة».

كان الحضور وجوماً وهم يستمعون لمحاضرة أمين وقد خاض في أسباب إعاقة العالم العربي ... ثمَّ وهو يُشرِّح «الربيع العربي»، وما انتهى إليه من خراب، بسبب انعدام رؤية وتصوُّر ونظرة للعالم كما تقول الفلسفة الألمانية. لم يتوقَّف لحْظُ ريبيكا على أمين .. وكان إيتان وهو يستمع من غير سمَّاعة، يأخذ النقاط .. حتَّى إذا أنهى أمين محاضرته، أعقبتْها موجة من التصفيق ..

نظر إيتان نظرة إعجاب إلى أمين، ثمَّ تناول الكلمة بالفرنسية متوجِّهاً إليه:

- أشكركم على حصافة رؤيتكم وشجاعتكم.

ثمَّ تحوَّل إلى العبرية متوجِّهاً للحضور:

- لقد استمعتم إلى رؤية غير التي دأبنا عليها في العالم العربي، ولا غرو أن تأتي من المغرب، البلد العزيز علينا، الذي رغم بُعده الجغرافي، هو الأقرب وجدانيا لنا .. إليكم الكلمة، السيِّد كوهن ..

رفعت سيِّدةٌ يدها، وأذِن لها السيِّد إيتان. وقفت وتوجَّهت بالسؤال إلى أمين:

- السيِّد كوهن، لماذا يكرهنا العرب؟

وردَّ أمين بدُعابة:

- العرب يكرهون أنفسهم، ويكرهون بعضهم البعض، فلا غرو أن يكرهوا الآخر.

علت موجة من القهقهة.

رفع رجل مُسنٌّ يده وسأل أميناً:

- هل تعتبرون أنفسكم عربياً؟

وردَّ أمين:

- يستحسن بالنسبة إليكم أن أبقى عربياً .. ينبغي لمَنْ هم في حُكم العرب أن يحملوا خطاباً غير مُعاد لإسرائيل .. حينما سأعود للمغرب سأقرِّر هل سأكون عربياً أم لا. أنا هنا في مركز موشي دايان بتلِّ أبيب، في إسرائيل، عربي حتَّى إشعار آخر.

عقَّب الرجل ذاته:

- في بلدكم هناك فئات غير عربية .. هؤلاء الذين يسمّون بالبربر .. ماذا يمكنكم أن تقولوا حول الموضوع؟

تنحنح أمين ثمَّ ردَّ في وثوق:

- التسمية السارية هي الأمازيغ .. موضوع معقَّد. لا ينبغي أن أقول كلّ شيء كي تتمَّ استضافتي مرَّة أخرى بمركز موشي دايان..

واكتفى السائل بكلمة الشكر. عقَّب السيِّد إيتان:

- السيِّد كوهن مصيب .. ينبغي أن نستضيفه مرّة أخرى للحديث عن المكوّنات الثقافية في المغرب ..

رفع رجل يده، وأعطاه إيتان الكلمة:

- ما قلتم هنا مفيد، ولكنْ، هل تستطيعون قوله في بلدكم؟

وردّ أمين:

- لا أحدَ نبيٌّ في بلده .. ربمّا قد يتمُّ الاستماع إليّ في أرض الأنبياء ..

وعمَّت القهقهة القاعة ..

عقّب السائل:

- أريد أن أسألكم سؤالاً مباشراً: لماذا لا يقيم بلدكم علاقات دبلوماسية مع إسرائيل؟

وردّ أمين وقد تبدَّد عنه الارتباك.

- أنا لستُ ممثِّلاً لحكومة بلدي. لكنْ يمكن عموماً القول بشأن الثقافة المستشرية في بلدي إنها علاقة تلفيق، تمزج بين رؤى متضاربة، لا تنحو نحو التوليف، وهذا من غياب الرؤية الفلسفية .. لا أدري إن أنا أجبتُ عن سؤالكم.

وتدخَّل إيتان كي يُنهيَ الأسئلة:

- السيِّد كوهن وصل هذا الصباح بعد رحلة شاقَّة، ولا ينبغي أن نتعبه أكثر من اللزوم. باسمكم وباسم مركز موشي دايان أتقدَّم إلى السيِّد كوهن بالشكر، ونَعِدكم أن نستضيفه مرَّة أخرى .. لسوف نترك له الفرصة، كي يكتشف أرض إسرائيل ..

وصفَّق الحضور ... وتقدَّم عمران شتريت نحو أمين مثنياً:

- شكراً بزاف بزاف ..

سلّم السيّد إيتان على أمين بحرارة، ودعاه ليتناول مشروبات .. لم يَبْدُ من ريبيكا أيُّ ردّ فعل.

وُضِعت المرطّبات على طاولة كبيرة، وهمس إيتان في أُذُن أمين بالفرنسية: «الأكل كلّه كوشير، ولكنْ احذر، فعشاء ينتظرنا .. لا تُكثِر من الأكل ..».

تناول أمين كأس خمر، وتقاطر عليه بعض من الحضور، يشكرونه بالإنجليزية والفرنسية، وهو يردُّ بكلمة الشكر بالعبرية «تودا رابا».. التحقت به ريبيكا، ودعتْهُ لاستجواب قناة تليفزيونية .. وقف أمين أمام الكاميرا، وسأله صحافي بالعبرية وريبيكا تترجم له إلى العربية:

- ما هو شعوركَ وأنتَ تحلُّ بإسرائيل لأوَّل مرَّة قادماً من بلد عربي؟

أجاب أمين بالفرنسية ..

رفع الصحافي يده، وكلَّم ريبيكا بالعبرية. ترجمت له بالقول إنهم يريدون منه أن يتكلَّم بالعربية:

أعاد الكاميرامان التسجيل، والصحافي طَرْح السؤال. ردَّ أمين بالعربية:

- أشعر بسعادة غامرة. إسرائيل دولة طبيعية، مُحِبَّة للسلام، وتمدُّ يدها للسلام. ما كان انطباعاً منذ وطئتُ أرض إسرائيل أصبح اقتناعاً راسخاً من خلال لقائي مع فعاليات أكاديمية .. إيديولوجيات العداء والكراهية نفقت، وهذا ما يتعيَّن على الرأي العامِّ في العالم العربي إدراكه.

- ألا تخشون من ردود فعل في بلادكم؟

- لديَّ الشجاعة الكافية لأعبِّر عن أفكاري. المعادون لإسرائيل في بلدي فئات هامشية، مؤدلجة تحسن الضجيج، لكن الاتِّجاه العامَّ هو من أجل التطبيع مع إسرائيل.

- ماذا يمكن أن تقولوا للشعب الإسرائيلي؟

- إسرائيل واحة ديمقراطية وشعب عظيم محبٌ للسلام. وأحيّيه من هذا المنبر. تودا رابا.

سحبت ريبيكا أميناً، وأخذتهُ إلى مكتب السيِّد إيتان. توجَّه إليه السيِّد إيتان:

- لا أدري كيف أشكركم، السيِّد كوهن .. أظنُّ أننا لسوف نستبقيكم معنا. موقعكم الطبيعي هو هنا.

ردَّ أمين بابتسامة تشي بالحبور:

- لسوف نرى .. ردَّ أمين.

- فكِّروا في الأمر. الأبواب مفتوحة أمامكم ... ثمَّ أردف:

- ينبغي أن نذهب للعشاء. حجزنا في مطعم فرنسي حتَّى لا تشعروا بالاغتراب .. سنذهب جميعاً في الڤان، كي نتجنَّب الزحمة ومشكل الركن .. لسوف تحبُّون المطعم. لديه عيب واحد هو اسم الشارع الذي يوجد فيه: أخاذ خام.

- الصهيوني الإنساني، عقَّب أمين.

- الرومانسي ... تعرفون أفكاره الداعية إلى نوع من التعايش ما بين اليهود والعرب ... لحسن الحظِّ أن الرؤى الحصيفة لزئيف جابوتسكي والوعي السياسي لبَن غوريون عفت عن الرؤى الرومانسية لأخاذ خام .. لو قُدِّر لرؤاه أن تسود، لما قامت إسرائيل ... انسوا (لا تلقوا بالا) اسم الشارع .. المطعم جيِّد، ولا نُسفر لضيوفنا ممَّنْ ليسوا على بيِّنة، على خلافكم، عن الجوانب المعتمة من تاريخنا، ولا نحن نتنكَّر لأبناء هذا الوطن مهما اختلفنا معهم ..

استقلَّ إليازار إيتان الڤان مع أمين، في المقعد الخلفي، وعمران

شتريت في المقعد الأمامي بجانب السائق .. سلك السائق شوارع مدينة عصرية تطفح بالحياة ... حتّى توقّف أمام مطعم كُتبت حروفه باللاتينية إلى جانب العبرية «مطعم بوبينا» ... نزلوا من القان. تقدَّم عمران وحدّث المنادجر، وساروا نحو طاولة مستديرة محجوزة، عليها أربعة مقاعد ... أجلس إيتان أميناً، وجلس عن شِمَاله، وترك المقعد عن يمينه فارغاً.

جلس عمران قُبَالة أمين:

حضر النادل وكلَّمه إيتان بالفرنسية وتحوَّل النادل نحو أمين:

- *Qu'est ce qui vous ferait plaisir cher monsieur ?*[1]

نظر أمين إلى إيتان، ثمَّ قال:

- يستحسن فيما يخصُّ الخمر أن أسترشد بخياركم ..

- ما دمتُم هنا، ينبغي تذوّق خمر إسرائيلي.

- بكلِّ تأكيد ..

- أقترح عليكم خمر كاليلي (الجليل) وهو خمر معتَّق، يشبه البوردولي، وإذا راقكم نبقى في الكاليلي.

- جيِّد ..

وضع نادل مقبِّلات خبز «بيتا»، ورقائقَ مع مطحون الزيتون الأسود، فضلاً عن زجاجات الماء المعدني بالغاز وبدون غاز ...

أتى نادل بلباس متميِّز، بجاكيتة تشبه رودنْكوت، وسلسلةٍ مذهَّبة حتَّى صدره، أدرك أمين أنه متذوِّق الخمر Sommelier وهو يحمل زجاجة قدَّمها إلى إيتان. بعدها قدَّم متذوِّق الخمرِ الزجاجة إلى أمين، وكلَّمه بالفرنسية:

- خمر معتَّق، يعود إلى 1982.

---

1) - ما الذي يستهويكم؟

- ممتاز، قال أمين.

فتح متذوِّق الخمر الزجاجة، وأفرغ في كأس الخمر لأمين. حرك أمين الكأس، ثمَّ اشتمَّ عَبَق السائل، وبعدها ارتشف منه، وترك السائل في فمه وهو يغرغر حتّى لَهَاته، ثمَّ عبَّه، ونطق بالفرنسية:

- خمر جيِّد معتَّق ...

ردَّ متذوِّق الخمر أنه سيتركه يتنفَّس لبعض الوقت ..

- لا تتأخَّروا، لن أصطبر عن هذه الخمر، عقَّب أمين، ثمَّ استدار نحو السيِّد إيتان قائلاً:

- عمري من عمره، مذ دخلت القوَّات الإسرائيلية بيروت ..

- نحتفل بمولدكم وبعملية السلام في الجليل .. كانت عمليةً حاسمة، وضعت حدّاً لتسلُّل الإرهابيِّيْن في الشَّمَال ... أبان فيها جيش التسال عن احترافية كبيرة وحسٍّ إنساني رفيع ... الإرهابيون جعلوا لبنان كلّه رهينة ... وتنفَّس المدنيون في جنوب لبنان الصعداء من أعمال الإرهابيِّيْن الذين كانوا يجثمون عليهم ويخنُقون أنفاسهم ...

كسر أمين من رقيقة الخبز وقضمها:

- أعود من مكان بعيد، كما يقال بالفرنسية (أتبينَّ ضلالي).. كنَّا في غسيل دماغ حقيقي. كنَّا في الجامعة نردِّد مظاهر الصمود الفلسطيني في بيروت، ونحفظ قصيدة للشاعر الفلسطيني محمود درويش عن حصار بيروت ..

- شاعر فاشي، نظم قصيدة يدعونا فيها أن نرحل ...

- كنتُ أحفظها، وكنَّا نقيم حلقات في الجامعة عن المجزرة التي تعرَّض لها الفلسطينيون في صبرا وشاتيلا ..

- الحادث مؤسف طبعاً. لكنْ فيم نحن مسؤولون؟ مسيحيون قتلوا مسلمين، كما قال مناحيم بيغين .. لا دخل لنا في الأمر، ومع ذلك قامت مظاهرات في تلّ أبيب مندِّدة بالحادث .. والمظاهرة الوحيدة التي انتظمت في العالم العربي كانت في الجزائر بمناسبة فوز الفريق الجزائري على نظيره الألماني في المونديال. لدى شعبنا حسٌّ إنساني. هل تتصوَّرون مظاهرات في أيِّ بلد عربي لدواعي إنسانية لفائدة شعب إسرائيل؟ وما زال الكثيرون من العرب يُنكرون المحرقة.

حلَّ النادل كي يأخذ في الطلبات. كلَّم أميناً بالفرنسية. نظر أمين في الخِوان، واحتار ماذا يطلب ..

- أبدأ بالكَبِد الدسم .. بماذا تنصحونني في الصحن الأساسي؟

- ما يروق لكم؟

- ماذا عندكم في السمك؟

وأشار النادل في الخوان إلى أطباق السمك. اختار Loup bar.

- Excellent choix. C'est l'arrivage du jour.[1]

قاطعه إيتان:

- نطلب خمراً أبيض؟

- أُفضِّل الأحمر. أتناول الأحمر حتَّى مع السمك ..

- صحيح. تغيَّرت العادات .. أصبح مقبولاً تناول الخمر الأحمر مع السمك ..

وتحوَّل النادل إلى إيتان، ثمَّ إلى عمران شتريت ليأخذ الطلبات ... عاد متذوِّق الخمر يحمل قدحاً من زجاج به خمر كاليلي .. أفرغ منه لأمين، ثمَّ لإيتان، وبعده لعمران شتريت. سأل أمين إيتان:

---

1) - اختيار جيد. صيد اليوم.

- هل سيلتحق بنا شخص آخر؟

- ريبيكا أدا (عدا). تأخَّرت لترتيب شؤون المركز .. لكنها لن تني أن تلتحق بنا .. فتاة ذكية، ومهتمَّة كثيراً بشؤون العالم العربي .. ستتفاهم معها .. أصولها من تونس، وكانت تتردَّد عليها قبل هذه العاصفة التي سُمِّيت بالربيع العربي. يمكنها أن تحدِّثكم عن خيبتها من تونس أحسن منّي .. تغيُّر البلد ... على كلِّ حال لم نكن نتوقَّع تحوُّلاً إيجابياً مع ما سُمّي بالربيع العربي. لورنس العربي محقّ فيما قال عن العرب في الأعمدة السبعة للحكمة: هم شعوب البدايات لا المآلات .. لم يَخب حدسُنا ... وكنّا نصحنا الأمريكيِّيْن والفرنسيِّيْن بالتأنّي، لكنهم لم يكونوا حينها يريدون الاستماع إلينا.

في تلك الأثناء حلَّت ريبيكا.. اتَّخذت مجلسها على يمين أمين. توجَّهت بالحديث إلى أمين بالعربية:

- تأخَّرت شوية. كان بدّي شغلات أسَوّيها ... السيِّد كوهن الناس مبسوطين كتير كتير.. خكوا عنك بإعجاب ..

- يمكنكِ تناديني بأمين.

- ما أأدر .. (ما أقدر)

- ليش يعني؟

- إنت شخصية كبيرة.

- لا.. انسي الموضوع .. إحنا طلبنا في الأكل ..

- ما عليهش .. أنا سوّيت الأوردر (الطلب) بالهاتف .. إن شاء الله مبسوط بَرْشة من المكان.

- أنا مش تونسي.

- آسفة. أنا باخلط اللهجة الشامية والتونسية .. انتو بالمغرب بتقولو بزاف.

- أيوا.

- اللهجة المغربية شوية صعبة ..

- صح؟

- يعني فيها كلمات كتير فرنساوي .. وأمازيغي .. بس المغاربة خلوين (حلوين).

- ف عيونك.

- جَدّ ..

وتدخَّل عمران الذي كان يتابع الحديث:

- لأنّو مُش عرب.

- صح، إنتو مش عرب؟ سألت ريبيكا ..

- دا سؤال عويص، أوي، أوي، زي ما يقول المصريين..

تدخّل عمران:

- ماروكيم أمازيغ ..

- فيه عرب في المغرب، وفيه عروبة كمان .. صحح أمين.

- بس هي دخيلة، عقَّب عمران ... ماروكيم أمازيغ كِلهم، وصار البعض منهو يخكو عربي.

وشفع بالأمازيغية:

- نك أمازيغ.

- بتحكي أمازيغي؟ سأله أمين.

- إميك إميك .. أتعلمْ فيها هون ..

- إيش معنتها؟ سألت ريبيكا أمين.

- أنا أمازيغي وأعرف بعضاً من الأمازيغية، ترجم أمين.

- بتحكي أمازيغي؟ سألت ريبيكا.

- لا للأسف، أخذت بعض الدروس، بس بطّلت ..

انشغل السيِّد إيتان. وضع نظّارته وأخذ ينظر في هاتفه، ويردُّ على المراسلات.

طرح النادل صحن الكَبِد السمين لأمين، وشوربة خضار للسيِّد إيتان، وصلاتة بالأنديف لعمران مع جبنة الماعز ...

استدار السيِّد إيتان نحو أمين:

- Bon appétit (شهية طيبة)

ردَّ أمين بالفرنسية:

- On attend Mlle Adda.

(ننتظر الآنسة عدّا)

فهمت ريبيكا عنه ولو أنه تكلَّم بالفرنسية. أمسكت أميناً من يده قائلة:

- ولا يهمّك. أنا نباتية، سوّيت الأوردر بالهاتف أوريدي (Already)، خيدّوني الأكل تبعي لما تخلصو من لونتري Entry ..

شعر بقشعريرة تسري في جسمه بعد إذ لمستهُ ريبيكا. رفع رأسه، وأرسل ابتسامة نحوها. ردَّت بأخرى .. التقى نظراهما ...

أخذ أمين من الكَبِد السمين تعلوه بقع من الكافيار، ودهنه في شريحة خبز مقلي. استطابه .. ثمَّ رفع كأس الخمر واحتسى منها:

- نبيذ جيّد، ردَّد أمين، وتوجّه نحو ريبيكا:

- ليش ما تأخذي واين (خمر)؟

- ما باشرب.

- إسلامية يعني؟

ضحكت ريبيكا وردَّت:

- ما باخب الواين، بس على شانك أدوء (أذوق) منُّو ..

أراد أمين أن يسقيها وهرع النادل وأفرغ لريبيكا .. تذوقته واستحسنته:

- خلو (حلو).

لم يعد أمين يفكِّر في شيء سوى في لحظ ريبيكا الفتَّاك، والقشعريرة التي دبَّت في جسده لمَّا أن أمسكت يده ... فعلت الخمر فعلها وانزاحت الموانع:

- احكِ لي عنكِ، سأل أمين ريبيكا .

- شو بدي أحكي ...؟ باشتغل في مركز موشي دايان، وعندي دكتوراه في الأدب العربي ..

- في الأدب العربي؟

- أيوا.

- جَدّ؟

- أيوا. كان موضوع رسالتي عن غسَّان كنفاني.

- غسَّان كنفاني؟

- ليش لا؟ كاتب جيِّد، by the way ..

- قرأتِ له؟

- طبعاً.. كل شيء، رجال تحت الشمس، عائد إلى خيفا .. الأعمال كلها. حتى مقالاته.

- كيف اخترتِ غسّان كنفاني؟

- توجُّهاتو السياسية ما بتهمّني .

- ممكن نفصل بين الإثنين؟

- خبيتو كتير ... وبالأخصّ عائد إلى خيفا ... الإنسان أضية (قضية) .. جملة فزيعة (فظيعة) ... من وجهة نظري «الإنسان هو الأضية» ... كنفاني بيخاول يفهم اليهودي والإسرائيلي ...

سحب النادل الصحون. انتهز إيتان الفرصة ليُوجِّه الحديث إلى أمين بالفرنسية:

- احذروا أدا .. هي الأكثر موالاة للعرب في المركز. وقعت تحت ملازمة ستوكهولم ... يمكنها أن تردَّكم إلى القومية العربية.

- لا تخشوا شيئاً. مُلقَّح (مُحصَّن) ..

أفرغ النادل الخمر، ولمَّا أراد أن يُفرِغ لريبيكا وضعت يدها على الكأس .. انتبه إيتان إلى نضوب قِنِّيْنَة الخمر ... واستدار نحو أمين:

- ألا تريدون أن تذوقوا نوعاً آخر من الخمور؟

- بكلِّ تأكيد ..

- جولان كابيرني سوفنيون لسنة 2017. هو مزيج من البوردولي والبوجولي .. برد مرتفعات الجولان يمنحه نكهة خاصَّة ... أقلّ قوَّة من كاليلي ... خمر الجليل قوي بفعل الشمس ... سعيد أنكم تريدون أن تختاروا نوعاً آخر من خمورنا ...

ونادى السيِّد إيتان على متذوِّق الخمر .. وسحب هذا الأخير الكؤوس الفارغة ... وأتى بكؤوس جديدة ... طلب أمين ألَّا يتركه يتنفَّس .. كان متحرِّقاً ليذوق خمر الجولان ... أفرغ متذوِّق الخمر لأمين ... تذوق منه ... عبَّر عن استحسانه بالقول:

- خمر فتي ... يفضُل البوجولي .. لم أكن أعرف أنكم تعصرون خمراً جيِّداً في الجولان ..

- ترى السيِّد كوهن، نحن دولة طبيعية ..

استدار أمين نحو ريبيكا كي تتذوَّق من خمر الجولان ... اعتذرت:

- تِسلم ...

أتى النادل بالأطباق بما فيه طبق ريبيكا، في خليط من خضار وأرز، وشعرية صينية ... أقبل أمين على طبقه ... ذاق منه .. كان يودُّ أن يحدِّث ريبيكا، ولم يُرد أن يثير الانتباه .. توجَّه إلى عمران:

- رحت على المغرب؟

- مرَّة واخذة بس، ف رخلة جماعية. شفنا كازا، ورَباط ومكناس وفاس، وبعدين رخنا لزريخ (ضريح) ربي بوخصيرة ف كرية تولال ..

- صح؟

- الناس الأمازيغ خلوين ... .شُفنا كرية كُرّامة. الناس وضعهو هيك تعبان .. عندكو تمييز في ماروك ..

عاد أمين إلى صحنه، وهو يسترق النظر إلى ريبيكا ... كانت تأكل بتأنٍّ ... تحوَّل إليها أمين ..

- السيِّد إيتان حكى عنكِ تعرفي تونس.

- مش برشة، شوية بس .... أصول أبويَ من تونس ... كنت أروخ كتير أيام بنعلي .. بس بطَّلت بعد الثورة ... الوضع مش كتير خلو.

- كيف يعني؟

- تونس تغيّرت بعد الثورة .. يعني التوانسة صاروا أأل (أقل) انفتاح (انفتاح) ...

- صحيح؟

- الوضع الاتصادي (الاقتصادي) مش مليخ (مليح) .. السياحة تعبانة، وفيه إرهاب كمان ..

رفع أمين رأسه والتقى نظره مع نظر إيتان يرمقه ... غضّ السيِّد إيتان طرْفه .. هل وقف على اهتمام أمين بريبيكا؟ ... لم يكن يهمُّ أميناً أن تحدِّثه ريبيكا عن الوضع في تونس، ولا الأزمة الاقتصادية بها، ولا الوضع المضطرب في ليبيا ... ولا أن يتحدَّث هو عن غسَّان كنفاني، وإنما أن ينفذ إليها ... واختار الحديث حول هذه القضايا، متعمِّداً، بالنظر إلى السياق الذي يوجد فيه .. أيُتاح له أن يلتقي بريبيكا؟ كم سيكون سفره إلى إسرائيل سمجاً من غير مغامرة نسائية ... تصنَّع أمين الجدَّ ولو لم يكن في قرارة نفسه يفكِّر إلَّا في شيء واحد، ريبيكا .. كان فيها دلال غير ما كان يتوقَّعه من الفتيات الإسرائيليات، مَن انسكبن في قوالب العسكرة والرأسمال ... ريبيكا أدا مخالفة للصورة النمطية التي تشكَّلت في ذهنه ... هل يهون عليه أن يخون نعيمة؟

وضع أمين السكِّين والشوكة على الصحن دون أن يُنهيَ طبقه. احتسى من خمر الجولان .. كان يودُّ أن يدخِّن، ولم يكن التدخين مباحاً بالجناح ... تحوَّل نحو السيِّد إيتان ليبدِّد ارتيابه:

- هل يمكن أن ألتقي بمسؤولي منظَّمة تسليم؟

- لا أنصحكم، السيِّد كوهن. هؤلاء عدميون .. يتجرَّؤون بقول ما لم يقله أحد، بنعت إسرائيل بدولة أبارتيد .. هم في دائرة كره الذات ... وهذا

من عيوبنا. لدينا عناصر في إسرائيل أكثر فلسطينية من الفلسطينيين.. نتعايش معهم. هم بمثابة النعجة الجرباء ..

- سبق لي أن قرأتُ كتابات شلمو ساند.

- هذا أسوؤهم ... يزعم أن إسرائيل ابن طبيعي وُلِدَ نتيجة اغتصاب ... يُروَّج له كثيراً عندكم، لأن كُتُبه تُرجمت إلى الفرنسية ...

- ما مدى تأثيره في إسرائيل؟

- منعدم. صفر ... حالة مَرَضية، نتعامل معها كما تتعامل كلّ أسرة مع وضع عضو منها أخرق.. لا يمكن أن نقيم تازمامارت ونُودِعه فيه .. نحن دولة قانون وديمقراطية ...

كان يبدو من خلال الإشارة لسجن تازمامارت الرهيب أن إيتان يعرف الوضع بالمغرب ...

- تريدون تحلية؟ سأل النادل أميناً بالفرنسية ..

أخذ أمين الخوان .. ثمَّ قال:

- Un soufflet

- Mariné ou a chocolat ?

- Mariné

- Avec cognac ou sans ?

- Avec

استأذن النادل في أن التحضير يستغرق ربع ساعة ... لم تطلب ريبيكا شيئاً للتحلية .. لم يعرف أمين ما طلب السيِّد إيتان ولا عمران لأنهما قدَّما طلبهما بالعبرية. نادى إيتان على النادل وكلَّمه بالعبرية، وصبَّ من الخمر في كأس أمين .. بقي هو الوحيد مَنْ يشرب. استدار إيتان نحو أمين:

- غداً لديكم برنامج مكثَّف .. يادهاشيم، وبعد غد حيفا.

- هل من الممكن أن أقوم بالزيارتَيْن في اليوم نفسه؟

- صعب. ياد هاشيم، لحظة قوية. لسوف ترون ... كلُّ مَنْ يزور مكان ذاكرة المحرقة يعود شخصاً آخر. فظيعة هي المحرقة ..

- بكلّ تأكيد .. قرأتُ عنها، وشاهدتُ أفلاماً عدَّة عن أوشفيتز.. محطّة تُسائل الضمير الإنساني ..

- وبعد هذا يتمُّ التساؤل عن شرعية وجود إسرائيل؟ لم يكن مُرحَّباً بنا في أوربا رغم ما بلغته من تفكير فلسفي مع الأنوار والاشتراكية. كان أولى الناس بالتعاطف معنا، العرب، ولكنهم حملوا مشعل العداء ..

تناول أمين التحلية، واكتفى السيِّد إيتان بقهوة. كان عمران قد طلب تارتة بالتفَّاح، أمَّا ريبيكا، فاكتفت بشاي .. انحنى السيِّد إيتان على أمين هامساً:

- السيِّد كوهن، أضطرّ أن أغادركم ... أقيم بعيداً. يمكن أن تبقوا، كما يحلو لكم .. ريبيكا ستوصلكم إلى فندقكم ...

نهض السيِّد إيتان، وقام له أمين وصافحه. شكره مجدَّداً .. في الوقت ذاته قام عمران معتذراً لأمين:

- باروخ (أروح) السيِّد كوهن، مع السيِّد إيتان عشان يوصلني. باشوفك بكرة.

وألفى أمين نفسه مع ريبيكا ... أليس هذا ما كان يتمنَّاه؟ ولم تسعفه بديهته في شيء .. كانت ريبيكا ترتشف من فنجان الشاي حين ألقى عليها:

- المكان حلو ...

- Snob شوية، ردَّت ريبيكا .. ثمَّ أردفت: أنا اللي اخترت المطعم الفرنسي .. عشان ما تخس (تحس) خالك غريب ..

- السيِّد إيتان قال لي بأنو عيبو أنو على شارع أخام أخاذ ..

- أنا كتير باخب أخام أخاذ .. كانت الأمور تصير مختلفة لو أنُّه إسرائيل أخزت (أخذت) بأفكارُه ..

- ممكن أفكارُه تظهر من جديد.

- صعب. الأفكار مسل (مثل) الفصول، تزهر (تظهر) في سياق .. السياق تغيَّر كتير ... الناس عندنا مش بدهم خل (حل). بيؤولو (بيقولو) شي ويأمنوا بشي تاني. يعتبرو الضفة يهودا والسامرة، وهي تبعهم .. بيربخوا (يربحوا) الوأت (الوقت) بس ..

- كيف بتقولي كلام مثل هذا في مركز موشي دايان؟

- هم يختاجو خبرتي مش أفكاري .. إخنا في اسرائيل ما بنزعل من الأفكار المزعجة .. إخنا دولة ديمكراطية .. نختلف، بس إخنا ديمكراطية..

- انتقائية .. آسف ..

- ولا يهمّك. أأولها (أقولها) بالفم المليان. هي دولة أبارتيد .. عرب إسرائيل مش لهم نفس الخؤوء (الحقوق) مسل (مثل) اليهود .. مش معؤول (معقول) ..

أردفت:

- تخب شي تاني ..

- لا، شكراً ..

- ما خبِّيت خمر الجولان؟

- بلى ..

- تخب تزيد؟

- لا.

- خذ لك كونياك ..

نادت ربيكا على النادل وكلّمتْهُ بالعبرية، وبعد حين أتى بكوبة كونياك تناول أمين منه، ثمَّ توجّه بالسؤال:

- التوجّهات تبعك مخالفة لتوجّهات المركز ..

- أيوا .. بس فيه مشكلة أخلائية (أخلاقية) عندنا بإسرائيل. كيف بدنا نعيش والفلسطينيِّيْن أوضاعهم وخشة ..؟!

- بتقبلي حلّ الدولتين؟

- كلام فاضي، خل الدولتين .. الضفة إطعة (قطعة) جبنة الكروير المستوطنون ما تركو شي .. وضع غير آبل (قابل) للخياة. خل (حل) الدولتين خلاص.

- والحل؟

- دولة علمانية.

- تحكي جَدّ؟

- السيِّد إيتان بينزعج لما أخكي عن دولة علمانية، لأنو مناف للطبيعة اليهودية لدولة إسرائيل .. شو معناتها (معنى) دولة يهودية؟ 80 في المية من إسرائيل ما بيأمنوا. أخنا بنتستر عن تناقضاتنا من خلال النزاع العربي الإسرائيلي .. بس أخسن خليف لدولة إسرائيل العرب .. هُمَ الخلفاء (الحلفاء) الموضوعيِّيْن للدولة العميأة (العميقة) تبعنا ..

كان أمين كَمَنْ يصحو من ثمل. كَمَنْ رُش بماء بارد دافق .. تجرّأ بالقول:

- معناه أني أخطأت لمَّا جيت على إسرائيل.

- أبداً. كان لازم تجي تشوف وتخكم .. ما تفهمِنش غلط. إسرائيل خئيأة (حقيقة)، ولِها مبرّر وجود .. بس كيف بدنا نعيش مع مشكل أخلائي

(أخلاقي)؟ اللكود بيعتبر المشكل مش تبعو، بس أخنا اللي خلاَ نا (خلقنا)
المشكل. وأخنا اللي لازم نوجد لو خل ..

- يعني؟

- الفلسطينيين جزء منّا أكتر ما يكونو جزء من العالم العربي .. أنتِ نفسك ألتها (قلتها). العرب مش جديين. فيه فأراء (فقراء) خاءدين (حاقدين)، وفيه أغنياء مدللين .. في العالم العصري ما فيش مكان لتصرفات تنبني على الغضب، ولا على الدلال .. أوة (قوّة) إسرائيل في جزء كبير من ضعف العرب .. والغرب على كيفو، بيتصرّف بنوع مع الكلبية مع المدلّلين.

- أنت مش متّفقة مع اللي قلتُ في المحاضرة؟

- في جوانب كتيرة معك خأ (حق). العالم العربي في ردود الفعل. هو لسّة في الزمن الشِّعْري، بس مين سبب وضعو؟ إخنا.

- جَدّ؟

- بس التلميذ كان نجيب، فاق توؤعات (توقُّعات) أستازو (أستاذه) ... أذْرِتو (قدرته) على الهدم الذاتي رهيبة ...

شعر أمين بالدوار .. كان يرى في ريبيكا طريدةً قنص. بعد العشاء يذهبان لمرقص، ويغازِلُها فيه، ويراقصُها في حلبته، ويلامس جسمُه جسمَها، ويضمُّها إليه، ويفضح رغبتَه عضوُه المنتصب وهو يلامسها ... ثمَّ يذهبان إلى غرفته بالفندق ويضاجعها. الأمور أعقد ممّا توقَّع.

التمس العذر وذهب إلى الحمَّام .. وقف أمام المرآة. غسل وجهه ولطم على وجنتَيْه، كي يستفيق .. شعر بشعور غريب: الجوع رغم أنه أكل حتّى التخمة ...

عاد إلى الطاولة وألفى ريبيكا ترتشف من شايها في رفق ودلال ..

- صار السيّد كوهن؟ منكسف؟

- أبدا.

- بدك تروح؟

- اللي ما بدك ..

طلبت الحساب. وقّعت على ورقة، ثمّ أخذت الصّك، وخرجا من المطعم .. كلّمت الحارس بالعبرية. تلفن من ووكي توكي، وبعد برهة حضر سائق أسمر اللون، يسوق السيّارة. كان يبدو من الفلاشا. توقّفت سيّارة هوندا صغيرة. توجّهت ريبيكا نحو أمين.

- يالله بنا يا الله ..

نفحت الحارس، ثمّ السائق .. وامتطت سيّارتها .. جلس أمين بجانبها سألتهُ أيّ موسيقى يريد:

- ما بدّك ..

ضغطت من المقود على زرّ، وانبعث صوت فيروز:

حبيتك في الصيف، حبيتك في الشتي

أعمت أنوار المدينة عينَي أمين. أغمض عينَيْه .. خُيِّل إليه أنه مع نعيمة .. أنه في الدار البيضاء، أنه خرج للتوِّ من مطعم لابافرواز، كما في أوَّل مرَّة خرجا للعشاء. لم يشعر إلّا وهو يمدُّ يده إلى ريبيكا .. لم تسحب يدها ... شعر بدبيب يدها. لم تُبدِ ردَّ فعل .. استمرَّت في السيَّاقة. توقَّفت في ضوء أحمر:

- فيه امرأة في خياتك (حياتك) السيِّد كوهن؟

أبلس.. كيف يجاهر بقول الحقيقة .. تملَّص:

- أيوا. بس افترقنا ..

- بتأولها (تقولها) على شاني؟

- لا أبداً. صار فيه برودة في علاقاتنا.

- تبحث لك عن دفء في إسرائيل؟

شعر بالحرج .. حاول أن يسحب يده ..

- ليش خايف منِّي؟

- آسف.

- شو لو كنت متزوّجة.

- ما قصدت ش.

- أو عندي خبيبي.

- آسف ..

وأرسلت ضحكة ..

- بدّك مغامرة ف إسرائيل؟ مع يهودية؟ صخ؟ .. الزيارة حتَّى تكون ناءصة (ناقصة) لو ما فيش مغامرة جنسية. مع إسرائيلية ...

- ما كانش قصدي ..

- المعركة اللي فشلت فيها، في الديمكراطية وخسن توزيع الثروة والتخديث، تُخولها (تُحوّلها) إلى جسد إسرائيلية ..

- أبداً، ما فكّرت هيك ..

- ممكن لا. بس لا شعورك، أكيد ...

- آسف ريبيكا..

وأراد أن يسحب يده. أبقت عليها:

حلّينا نتعارف بالأوّل ... وبعدين ما بتخلط العمل والحياة الشخصية. أنا في شغل، وأنتَ في زيارة عمل. إخنا أرّبنا (قربنا/اقتربنا) ع الفندو (الفندق) .. بكرة السائق خياخزك (يأخذك) على الساعة تسعة ..

توقفت ربيكا أمام مدخل الفندق ..

تضاءل أمين .. مدَّ يده كي يصافحها.

. تعال خبيبي .. شو يعني؟ خايف منِّي؟

وضمَّته إليها ...

دخل أمين باحة الفندق، وتوجَّه للمصعد .. كان يشعر بالجوع، وبغُلْمَة (بشهوة جنسية عارمة) .. أخطأ التقدير في ربيكا.

***

كان أمينُ تحت تأثير قوي لما شاهده في مبنى ياد ياشيم .. كانت الفظاعة تصطرع في ذهنه، من صور وجوه ساهية بالأبيض والأسود، لمَن يُحشرون في قطارات تحمل جحافل مرشّحين للموت، وعيون غائرة لمَن هم في المعتقلات، وأجسام نخرة تُبين عن هياكلها العظمية، على أسِرَّة متقابلة، تستجدي لقمة أو رشفة، وجثث مكدَّسة، وجرَّافة تكسحها كما تكسح النفايات، ومُجسَّم قاعات الغاز، وأفران الحريق، وبقايا عظام في واجهات زجاجية، ومخلَّفات أمتعة. لزِم العنف الإنسان، ولكنه لم يبلغ مستوى التلذُّذ والاحترافية الذي بلغه في أوشفيتز .. كان أمين يستمع لعرض الدليل بالفرنسية، الذي كان يغالب نفسه، كي يُحدِّث عن الفظائع التي اقترفها النازيون. كان يتكلَّم كما لو يسرد نصَّاً تاريخياً عن حرق نيرون لروما، أو جنكيزخان لبغداد، مع أن أباه كان ممَّنْ نُقلوا إلى مخيَّمات أوشفيتز ونجا بأعجوبة. كان الدليل يحمل الندب، ويتسامى عنه من خلال احترافيته، وكان يقطع تهدُّجَ مَنْ كانوا لا يثبتون من الزوَّار: «المأساة ليس ما ترون،

ولكن ما اجترح .. لا ترون سوى الصورة ... ترون الرماد وليس الحريق. نحن في تمرين متعدّد الأبعاد. ألا ننسى، وأن نبرّ بذاكرات من ماتوا. وألا يتكرر ما وقع». كان الدليل يتكلّم وهو يُحدِّق بنظره في أمين. كان عمران قد قدّم أميناً للدليل، وأخبره أنه من المغرب، وكان الدليل ليوحي بأن الخطر قائم. دُحرت النازية، ولكن الخطر ما يزال قائماً، ممَّنْ قد يحملون عن النازية مشعلها ... .. كان أمين يشعر بالاضطراب وهو يتقدّم في أروقة مبنى ذاكرة المحرقة وسط صور الضحايا، وبقايا الهياكل، وارايات النجمة المعقوفة، وصور النازيِّينْ، والنظر الحادّ لهتلر، كما لو أن الشبهة تحوم حولَه. لم يكن هناك شيء في المبنى يحيل على العرب، أو مسؤوليّتهم في الجريمة الفظيعة، ولكن أميناً، وقد يكون مخطئاً، كان يرى أن واضعي التذكار لا يحيلون للماضي فقط، فالخطر قائم دوماً، في حسبانهم، كما في نوع من الإقناع الذاتي .. لم يكن أمين ممثِّلاً للعرب، لأنه لم يكن يدري ما معنى أن يكون الإنسان عربياً. العرب الأقحاح هم عرب الجزيرة العربية، وأطراف من العراق والشام، والآخرون مستعربون، أغلبهم. ومع ذلك شعر أمين بأنه يحمل عن العرب إصرهم .. لا يهمُّ ما قد يكون، إذ المهمُّ الصورة التي نُظِر إليه بها، أو يُنظَر بها إليه ... ظلَّ نظر الدليل مُصوَّباً عليه، كَمَنْ ضبط متسلِّلاً في قطار أو باص، لم يؤدِّ واجب الأداء .. حاول أمين أن يداري النظر الحادّ للدليل، معبِّراً في تقاسيم وجهه عن الأسى والحزن. وقف في خشوع، في المبنى الداخلي المغلق بحيطانه من الجلمود، على شهاب النار الموقدة، وهو يضع قبَّعة احتراماً لهيبة المكان، وأحنى رأسه في تبتُّل، ولكنه لم يُزح شعوراً يلاحقه بالتهمة، لا لما ارتكبه، ولكنْ لما يُعتقد أنه قد يرتكبه .. كان ذلك المنطوق لا في المبنى، ولكنْ في روحه، والأكثر في نظرة إسرائيل وسياستها. كانت آخر صورة في الجولة هي لأمين الحسيني مع هتلر. كانت مُعبِّرة.

ولم يجرؤ أمين أن يكتب ارتساماته في الدفتر الذهبي بالعربية. اللغة

... ذاتها مظِنّة، وفضّل أن يحرّر شهادته بالفرنسية. كتب أن هناك ما
... زيارة تذكار ياد هاشيم وما بعده .. ليس لأنها الجملة المتواترة، ولكنه
... بذلك. أوشفيتز أمر فظيع، والمحرقة حقيقة، ومعاناة اليهودي واقع.
... أليس جُرماً أن يحمل العرب وِزراً لم يقترفوه، ويُؤاخذوا بجريرة يُعتقد
... أنهم يحملونها بالقوّة؟ هل يتحوّل الفلسطيني إلى تيس يحمل عن العرب
أوزارهم؟ أو على الأصحّ عن الإسرائيليِّيْن. كي تبرأ الجماعة من الذنوب يذبح
الحاخام كلّ سنة تيساً يحمل عنها ذنوبها وحَوْباتها. زعزعت ربيكا اتِّساق
أفكار أمين حين عكست صورة أخرى، وهي تتكلّم بلسان العدل وتنطق
بالحق خالص خلخلت بناءه الذهني، وأضحت شريكاً له سلطة اتِّهام ... ماء
النبع قَراح، كما يقول المَثَل الفرنسي، وينبغي أن يكرع منه مَن يبغي الماء
الزُّلال، لا من السواقي المتفرِّعة عنه. من الممكن الحديث إلى مَنْ هو في
الأتون، وليس مَنْ هو بعيد عن مسرح الأحداث. الإسرائيلي أكثر إلماماً
بالجرح الفلسطيني من اليهودي في باريس أو نيويورك أو بوينس آيرس،
أو حتّى في الدار البيضاء .. الحديث مع ربيكا أجدى من الحديث مع
صهيوني من المغرب. لكنْ هل يستطيع أمين الكلام الآن فصاعداً وقد حلَّ
بإسرائيل؟ مَنْ سيستمع له إن هو تحدَّث عن تقتيل الفلسطينيِّيْن في دير
ياسين وكَفَر قاسم وصبرا وشاتيلا وجنين وغزَّة؟ .. أو معاناتهم في نقاط
التفتيش؟ أو نقص الغذاء والماء في غزَّة؟ أو تدمير المحوِّل الكهربائي
بها؟ أو الطُّرُق الدائرية بإسرائيل المخصَّصة للإسرائيليِّيْن فقط؟ أو منع
المصلِّين من ارتياد المسجد الأقصى؟ أو اقتحام الإسرائيليِّيْن لباحته؟ بل
لفنائه. لم تعد له شرعية للحديث عن مأساة الفلسطينيِّيْن. لن يستمع له
أحد، ولن يُقنع أحداً .. كان من الممكن أن يتكلَّم عن معاناة اليهود ومأساة
الفلسطينيِّيْن لو أنه بقي في شقَّته بالرباط، ولو نكرة، يأكل كيفما اتَّفق،
في مطاعم قميئة، أو ما يهيِّئه من بيض، أو من مصبّرات التونا، ويعيش
الشظف، ويتلظّى بهجير الخَصَاصَة، والنظرة الدونية، وعدم الاعتراف،

وهاجس وصل الكراء، وحديثه مع بّا بوشعيب، واعتداء الشمكار، والهم في بار ماجستيك بثنائية حميمصة ورامبو، وإنشاد غناء العيطة. هو الآن شخصية، واستُقبل كشخصية، ونشرت جريدة هالوم إسرائيل صورته في صفحتها الأولى ومختصراً لمحاضرته من نسخة حملها له عمران شتريت لمّا استصحبه من الفندق. لكنه شخصية من غير شرعية.

قطع عمران الصمت والڤان يتوجّه إلى تلّ أبيب:

- شكراً بزاف السي الكوهن ..

- لا شكر على واجب، ردَّ أمين.

لم يكن السائق ينطق بشيء. يسوق كما روبو. ولم تعد مظاهر المدينة تستأثر باهتمام أمين .. هل يمكن أن نجتزئ المعاناة الإنسانية؟ تذكَّر أمين ما قرأه من بوح بريمو ليفي في شقَّته بزنقة ضاية الرومي: «سافرنا إلى هنا (أشفيتز) في قاطرات مغلقة بالرصاص. شاهدنا نساءنا وأطفالنا وهم يساقون إلى الفناء. أمّا نحن، فقد أضحينا عبيداً. تردّدنا لأكثر من مئة مرّة في جهد رتيب، ونحن نشتغل، تحولنا إلى دابة. شخص مات من الداخل، قبل أن تُنزع منه الحياة. بلا اسم. مجهولاً. لن نعود. لن ينفلت شخص من هنا، كي يحمل للعالم ما اكتوى به جسدُه، وما اقترفه إنسان، هنا بأوشفيتز، في حقِّ إنسان آخر.»

ثمَّ عادت إليه جملة أخرى من بوح ليفي ... عادت قوية. «اعملوا كي لا تتعرَّضوا في بيوتكم لما اقترُف في حقِّكم هنا.»

لا يمكن أن نجتزئ المعاناة الإنسانية. هل يمكن لأمين أن يقول بذلك؟ وما شرعيَّته؟ وهل من خيار سوى أن يبقى في بروفة محاضرته وقد حلَّ زائراً بإسرائيل؟ ينبغي إيجاد حلٍّ للنزاع العربي دون ربطه بالقضية الفلسطينية، وَفق معادلة السلام مقابل السلام. يمكنه ذرَّاً للرماد في العيون أن يقول إنه يفعل من أجل الفلسطينيِّيْن. يمكنه أن يزعم التوفيق بين الدفاع عن

الفلسطينيين وربط علاقات مع إسرائيل. ولكنه يدرك الآن أنه لا يمكن التوفيق بين الأمرين، ومَن يزعم خلاف ذلك فهو غرير في أحسن الأحوال، ومخاتل في غالب الأحوال .. يحمل أمين وزر هولوكوست لم يقع. يتوجّس منه أنه قد يجترحه ... لا يجادل أمين في الهولوكوست الذي اقترفه النازيون، ولكنه يجادل في الهولوكوست الذي لم يرتكبه، ولن يرتكبه، وكان ما يسعى إليه من ذي قبل، أن يبعث قرطبة جديدة لا تزري بمعتقد، ولا تحطّ من جماعة أو عِرْق. وانتهى إلى أن إسرائيل ليست قرطبة جديدة. سبارتة، أي نعم. وكان ما قدح ذلك الوعي ريبيكا بنظرتها غير النمطية، بحُلمها بدولة علمانية في فلسطين أو في إسرائيل. التسمية لا تهمّ، وإنما المحتوى. لكنْ هل يستطيع أمين أن يعود القهقرى الآن؟

مرّة أخرى قاطعه عمران مذكّراً إيّاه بضرورة الوصول قبل مغيب الشمس. نسي أمين أن اليوم جُمُعة وعن قريب يبدأ السبت .. وردّد عمران بأنه يمكن أن يطلب الأكل من خدمة الغرف ويتناول العشاء في مطعم التاي، على حساب مركز موشي دايان، وذكّره أن خدمات الفندق مستمرّة، وأن فريقاً من القوييم (الأغيار) يشتغلون إلى مغيب الشمس ليوم السبت، وأنه سيلتحق به يوم الأحد كي يزورا القدس، وحائط المبكى، وأنه يمكنه زيارة المسجد الأقصى والصلاة فيه .. ستلتحق به ريبيكا السبت صباحاً لزيارة حيفا، لأنها لا تحترم السبت. كان أمين يستمع دون أن ينبس. لا قيمة لأماكن العبادة إن أزرُت بالإنسان وثَلِمت كرامته. ألقى أمين بنظرة على الجريدة التي تحمل صورته، ولم يفكّ شفرة حروفها وما نقلته الجريدة عن محاضرته ... ثمّ وضعها جانباً .. أضحى بعيداً عمّا قاله بالأمس. وصل السائق الفندق حوالي الخامسة .. غشي أمين الغرفة، وتناول تمرتَيْن من نوع المجهول .. ثمّ وقف في بلوكوني الغرفة يتملّى قرص الشمس يغور في الشفق .. كان الشاطئ شبه فارغ، وبعض المستخدمين من العرب يطوون المظلّات .. غارت الشمس واحمرَّ الشفق، في منظر بهيج .. استشعر أمين

بالوحدانية التي يلّطى بها في شقّته بالرباط .. أشعل سيجارة .. ثمّ مضى إلى صالون السويت، وقشّر برتقالة .. استرحى على الكنبة .. ثمّ نهض فجأة ونزل إلى البار.

تقدّمت إليه نادلة، كلّمتْهُ بالإنجليزية بلُكْنَة فرنسية:

- Can I help you ?

- Whisky please. On the rocks.

نقع من كأس الويسكي دفعة واحدة. طلب كأس ثانية. كان البار فارغاً إلّا من البارمان والنادل الفتاة. دخّن سيجارة. استلذّ الكأس الثانية، حتى أتى عليها. طلب كأس ثالثة. أحسّ بالاسترخاء، والانتشاء .. نادى على النادل، وسألها بالإنجليزية:

- هل تتكلّمين الفرنسية؟

- أنا فرنسية.

- وجهكِ يبدو أليفاً لي.

- أتكون نسيتَ بسرعة؟ كنّا التقينا.

- أين؟

- خمّن.

- لا أدري. أخشى أن أقول قولاً غير ذي معنى ..

- يمكن أن أسألكَ سؤالاً؟

- طبعاً.

- لمَ أنتَ هنا؟

- لا أدري على وجه التحديد. لكي أعرف.

..لكلك على بيّنة. تعرف معاناة من هُجّروا في 48. والتقتيل في القرى
فلسطينية وما صحبه من تطهير عرقي، والغيتوهات المحاطة بالأسلاك
...ت الشمس المحرقة. والتجويع، مع الضرب والإهانة في وادي النسناس
...ي الصليب، والظروف اللا إنسانية في المخيّمات بلبنان. والقمع في
الضفة الغربية، والتجويع في غزّة، ونقاط المراقبة والتفتيش المهين، وحرقة
المنفى ممّنْ دُفعوا للمنفى. تعرف ذلك كلّه. فإذن لم تأتي إلى هنا؟

- لأن قومي لا يعترفون بي؟

- من أجل اعتراف زائف بك؟ لأن أهلك مثلما زعمت لا يعترفون
بك، وهبهم لا يفعلون، فما يضيركَ ذلك؟ ينبغي أن تعمل من أجل الحقّ
والعدل. ليس لأنكَ عربي أو غير عربي. لأن القضية إنسانية.

- أنا متعب، وأنا تحت تأثير زيارة ياد هاشيم.

- أحسنتَ أنكَ ذهبتَ إلى ياد هاشيم. ما حاق باليهود من قبل النازيِّينْ أمر فظيع، ومأساة إنسانية. لكنْ ليس للعدل أنصاف حلول. ليس عدلاً أن نقيمه في حالة، ونُشيح عنه في أخرى. أن نجريَهُ على قبيل، ونحرم منه آخرين. أن نأتمَّ به حيناً ونَصْدف عنه آخر. وهل تسكت عن مأساة الفلسطينيِّينْ؟ لا لأنهم عرب، فأنتَ لا تزعم أنكَ عربي، ولا لأنهم مسلمون لأنكَ غنوصي، ولكنْ لكونهم بشراً.

- ذلك ما كنتُ قرأتُهُ من كتابات ريجيس دوبري.

- ترى. ما الذي دفع ريجيس دوبري كي يكتب عن مأساة الفلسطينيِّينْ، ويُبين عمَّا يتعرَّضون له من تنكيل واضطهاد؟ الحسُّ الإنساني دفعه لذلك. وأنتَ تنكص اليوم ..

- أعرف مَنْ أنتِ .. كريستين. تركتُكِ ورائي في بار ماجستيك بالدار البيضاء! فماذا تفعلين في تلِّ أبيب؟

في تلك اللحظة غادرت النادل. وحلَّ عنده البارمان ..

- سنغلق. تؤدِّي حالاً أم على حساب الغرفة.

- أُفضِّل أن أؤدِّي .. الشراب Extra. قل لي من فضلك أين ذهبت الفتاة التي كانت تخدمني؟

- لم تكن هناك فتاة.

- بلى.

- يستحسن أن تغادروا إلى غرفتكم .. سآتيكم بالحساب حالاً.

***

في بهو الفندق كانت فتاة مكِبَّة تقرأ. مرَّ أمين قُبالتها وهو يترنَّح من السُّكر. حدَّق فيها. التفتت إلى نظرته. رفعت رأسها ... التقت نظراتهما ... ابتدرها:

- ريبكيا شو بتسوي هون؟

- كنت باستناك ..

تقدَّمت ريبيكا نحوه، وهي تردِّد «تعال خبيبي». ضمَّتْهُ إليها. تطامن في حضنها. أخذت تربِّت على رأسه ... أسند أمين رأسه على كتفها. اشتمَّ رائحتها. غريب كما لو أنها رائحة نعيمة .. كانت تمسح على شَعْره كما تمسح أُمٌّ على ابنها. أخذ أمين يدَيْها وقبَّلهما ... رفع رأسه نحوها كَمَنْ يستعطف، ثمَّ قال:

- نمشي ع الغرفة.

- ع الغرفة؟

- أيوا.. ريبيكا.

- شو نسوِّي بالغرفة؟

..دي إياك ..

..السرعة دي؟

..صعدا المصعد. ضغط أمين على رقم الطابق، ثمّ جذب ريبيكا ..ه، وقبّلها على شفتيها. لم تمانع. توقّف المصعد، وضغط أمين على المصعد. نزل المصعد. انفتح الباب، وضغط على 18، أعلى طابق ... صعد المصعد. ثمّ انفتح الباب. صادفهما صوت وهما غائران في قُبلة:

- Going up ?

دخل رجل المصعد ولم يُعرهما بالاً. أمسك أمين يد ريبيكا. توقّف المصعد .. غادر الرجل في الطابق 12.. ألقى التحية:

Enjoy

ردّ أمين وقد ثقُل لسانه:

- Good night

انغلق المصعد، وانفجرت ريبيكا ضحكا:

- شو معنتها نبأى (نبقى) في الإلفيتر (المصعد)، نطلع وننزل؟

- المهمّ نبقى مع بعض، ردَّ أمين.

توقَّف المصعد في آخر طابق، وضغطت ريبيكا على 10. توقَّف المصعد عند الطابق العاشر. كانت يد أمين ممسكة بيد ريبيكا، وكانت تقاسيم يدَيْها تُذكِّر بيدَي نعيمة .. وضع أمين ذراعه على كتف ريبيكا .. تمشّيا حتّى باب الغرفة. أخرج المفتاح المغناطسي. أدخله في الثقب. اشتعل ضوء أحمر. أخرج البطاقة، ثمَّ أدخلها ثانية .. انقشع اللون الأحمر مرّة أخرى .. أخذت عنه ريبيكا المفتاح .. أدخلتْهُ بثقب الباب.. طوّق أمين ريبيكا بذراعَيْه من خلف، وأمسك نهدَيْها .. لا يهمُّ أن ينفتح الباب أو لا ينفتح ..... استدارت ريبيكا نحوه:

- بدنا مفتاح تاني ..

أدار أمين وجهها، ثمّ أخذ يقبِّلها ...

- أغيِّر المفتاح، وارجع ... قالت.

- خلِّيك معي ..

- أبدِّل المفتاح عشان نبأى (نبقى) مع بعض ...

- بدِّي أبقى معك ريبيكا .. بدِّي أبقى هون ... مش ممكن أرجع تاني، ريبيكا .. أبقى مثل ما قال إيتان بإسرائيل .. ونعيش مع بعض ... مستعدّ لكلّ شيء ...

ابتسمت ريبيكا .. ضغطت على يدَيه ...

- شو صار لك أمين؟ لازم تعرفني بالأوَّل .. خلّيني أبدّل المفتاح وبعدين نحكي ..

نزلت ريبيكا إلى الاستقبال. بقي أمين قرب الباب. كان مهدوداً بفعل الشراب .. جلس على الأرض، واستند على الحائط ... أغمض عينَيْه .. تأخّرت ريبيكا .. شعر بالدوار .. أخذ جسمه يرتجف ... بدأت أحشاؤه تضطرب. يا للفضيحة أن يتقيَّأ في دهليز الفندق .. نهض فجأة. أدخل المفتاح .. انقدح نور أخضر. انفتح الباب. سارع إلى المرحاض. تقيَّأ. أخذت أوصاله تهتزُّ .. توالى القيء .. ضغط على زرّ ماء المرحاض .. ثمَّ مسح براقع القيء. تحوَّل لمغسل الحمَّام .. غسل وجهه .. ترك الماء الصنبور ينسرب وهو يمسح على وجهه .. استعاد وعيه ... استلقى على أريكة الصالون. أخذ زجاجة الماء وشرب منها ... تأخَّرت ريبيكا. بقي ينتظر. ولم تعد ريبيكا. يريد أن يعود إلى المغرب ... إلى شقَّته القميئة.. ولن يستطيع قبل الثلاثاء.. يوم السبت زيارة لحيفا، والأحد للقدس، والاثنَيْن جولة حرَّة بتلّ أبيب.

***

لم ينبس أمين والسيّارة تذرع الطريق السيّار من تل أبيب إلى حيفا. كانت ريبيكا تسوق السيّارة في هدوء من غير أن تسرع. لم يثر معها مجريات ليلته. ولم تقل شيئاً. وضعت بعد أن توارت البنايات المحيطة بتلّ أبيب مقطعاً من موسيقى مارسيل خليفة من أُغنيَّة ريتا من شعْر محمود درويش، ولم يستثر ذاك أميناً. كان يشكو صداع الرأس من أثر الخُمار. أغلقت ريبيكا الموسيقى. أغمض أمين عينَيْه. كان بين صحو ووسن. وما لبثت أن حلَّت كريستين في ذهنه .. كريستين وهي في بار ماجستيك تحدّث عن شعب اجتُثَّ من أرضه. لمَ ترك كريستين تنفلت من يدَيْه في الدار البيضاء؟ لمَ؟ ألأنها قالت له أحِبَّ ما لا تراه ثانية؟

فاجأتهُ ريبيكا وهو مستغرق التفكير في «ملحمته» ببار ماجستيك:

- انظر إلى جبل الكرمل.

ألقى أمين نظره على الخضرة المنبثَّة في أحضان الجبل، وفي أشعَّة الشمس الساطعة عليه، ممَّا أسبغ عليه بهاء أخَّاذاً. عن شمَاله البحر وزُرقته اللازودية. استعاد إحساسه، وكان ما يزال يشكو صداع الرأس لفرط الشُّرب.

بدت مشارف حيفا. مدينة جميلة، بشوارعها الفسيحة، بأزهارها وأشجارها. كانت إستير محقَّة حين أشارت عليه أن يحلَّ بحيفا.

- إخنا في خيفا، قالت ريبيكا.

اكتفى أمين بالقول:

- جميلة.

ردَّت ريبيكا.

- نروخ بالأوَّل على المدينة الأديمة (القديمة)، وبعدين نمشي على المرفأ. خلو.

- نقعد في مقهى بس.

- ليش؟

- تعبان شوي.

- مش مبسوط أمين؟

- بلى.

- شو صار لك؟

- ما فيه شي ...

- على كيفك. نركن السيَّارة ف الباركينغ، ونمشي.

ركنت ريبيكا السيَّارة في باركينغ تحت أرضي، وانفتلا من المصعد.. خرجا من منفذ يفضي لشارع بن غوريون ... تمشَّيا لبعض الوقت. مدينة إسرائيلية، حافظت على بقايا من الوجود العربي في بعض الآثار القديمة، وفي وجوه بعض الساكنة، وفي بعض المآثر العثمانية. حياة عادية ولو في يوم سبت، لأقوام عاديِّيْن، يذرعون الشوارع، يمشون بشكل عادي، يتبضَّعون بشكل معتاد. لا شيء يشي بأنها كانت مسرحاً لمعارك طاحنة، ولا أن المستوطنين اليهود كانوا يقنصون من أحيائهم ساكِنَتها العربية، وأنهم دفعوا الآلاف إلى الهجرة قبيل إعلان قيام إسرائيل، فيما يعرف عملية المقصّ .. يفضّل أمين ألَّا يقول شيئاً.

- بدّي أدخّن، ريبيكا. نقعد في مكان.

- شو يعني؟ ما بتتعرّف عَ المدينة؟

- لِسَّه فيه وقت ..

- ممكن نروخ على كافي (مقهى) فتوش إذا بدك. مش بعيد من هون.

أخذ الخُمار يتبدَّد. لم يزد أمين أن تناول قهوة في الصباح بالفندق، من دون فطور. جلس مع ريبيكا في مقهى فتوش، وحضر نادل يتكلَّم العربية.

- شو بدّك، سألتهُ ريبيكا.

- قهوة.

- عربية؟

- لا، إيكسبريسو à l'italienne ..

طلبت ريبيكا شاياً أخضر. تناول أمين القهوة، وشعر بأنه أحسن حالاً. دخّن ثاني سيجارة لليوم ..

- باحب كتير خيفا، قطعت ريبيكا.

- شفت الحياة عادية، رغم أنُّه يوم سبت، عقَّب أمين.

- في خيفا بننسى الله، ولما ننساه نأرّب (نقرب/ نقترب) من الإنسان. خيفا مدينة آمنة، وبيت جامع.

- صح؟

- فيه يهود من كلّ البلدان، وفيه مسيحيِّيْن عرب، وفيه مسلمين ودروز ومعبد الباب للبهائيِّيْن، لازم تزورو، وفيه كمان متحف ياباني ...

- فيه جراح كمان.

- صح .. نداويها أنا وأنت.

- لمَّا تتداوى تبقى ندوب.

- نعالجها أنا وأنت. شو بتعرف عن خيفا؟

- الكرمل. إميل حبيبي .. أشياء قليلة ..

- أرأت (قرأت) لخبيبي؟

- المتشائل. من زمان. ما بذّكّر كتير. سعيد المتشائل، مش هيك؟

- أيوا.

- شو رأيك عنُّه؟

- ما فيش وضع مزيج بين التشاؤم والتفاؤل. وبعدين، اللغة. حبيبي يكتب بلغة فيها استعارات قديمة. كيف أقول؟ أسلوبُه فيه تعسُّف.

- ما فهمت عنك.

- يعني لغة مش طبيعية. مش سلسة.

- كلّ اللي بيكتبو بالعربية من الفلسطينيِّيْن، اللغة عندهُ أضية (قضية). فيه اختلاف كمان بين الجيل الأديم (القديم) والجيل الحالي. تعرف شي عن الجيل الجديد؟

- لا للأسف. ما فيه تواصل.

- سمعت عن أسماء عزايزة؟

- لا للأسف.

- بتؤول (بتقول) نفس الكلام اللي أنت بتؤولُه (تقوله). الجيل الأوَّل كان ف خيبة أمل، الجيل الثاني في انعدام أمل.

- بجَدّ؟

- تخب أورِّيك الشِّعْر تبعها؟

- أيوا ..

فتحت ريبيكا هاتفها، وأخذت تمرِّر على شاشة هاتفها بأصبعها، ثمَّ مدَّت الهاتف إلى أمين.

- كيف؟ سأل أمين.

- تأرأ (تقرأ).

- أقرئي أنتِ.

- نطئي (نطقي) مش كتير خلو.

- أبداً ..

- لا ما بأدر (بأقدر)؟

بدأ أمين يقرأ سرّاً.

- ممكن تأرأ (تقرأ) بصوت عال؟ خابّة (حابة) أسمع صوتك، طلبت ربيكا.

- ضروري؟

- أيوا.

أخذ أمين يقرأ مترنِّماً ..

مرميةٌ في الضِفَّة المقابلة
أنتظر تفسُّخي العظيم.

مَنْ كان منكم بلا موت فليُرمني بالحجر.

لقد نزلتُ النهر مرَّتَيْن وثلاثة،
رسائلكم تنزل معكم وتخضلُّ ← تَبَتَّلَ
بينما سيُداهم أحدُهم بيوتكم
ويَكْسِر الأقفال.

كانت ربيكا قد وضعت ذقنها على يدَيها وأصابعها مشتبكة، تستمع في تبتُّل. سألتهُ:

- شو رأيك؟

ردَّ أمين:

- نفَس شِعْري.

- يهمّني المضمون. عقّبت.

- رمزية المسيح. الإحالة الإغريقية على النهر. لا يمكن أن نستحمَّ فيه مرّتين. الحضارات تموت. رسائل تخضل.

- شو معنتها.

- تُزْهِر. يعني يصير فيها خِصّب، فيه كلمة بالعربية رُواء.

- ما ادركت أصدك (قصدك).

- يعني يجي نبي بعد نبي، لما الرسالة تبعو تذبل، يجي واحد تاني، يذكّر بالوصايا العشر

- ومين اللي بيكسر الأأقال (الأقفال)؟

- أنتِ، قال أمين ممازحاً.

- وبعدين، ترمونا ع البحر؟

- احنا يستنى فينا التفسُّخ العظيم ... ما في حدا يرميك ع البحر.

- ما جاوبتني؟

- نعيش سوا.

- مش بدي شِعْر.

- تلقى عصاك ع البحر، ونمشي وراك، ونقضي على فرعون.

- ولا بدّي أساطير.

- الأساطير بتشرح العالم. أقول اللي أنت قلت إياه. دولة ديمقراطية. ننتقل من مدينة آمنة إلى دولة آمنة، وبيت جامع. تصير إسرائيل حيفا كبيرة. مش هيك؟

- شو صار؟ كلامك مغاير ع اللي خكيتو أوّل أمس في المخاضرة.

- احنا لازم نعيش مع بعض.

كان ذلك آخر ما قالتهُ إستير لأمين، وكانت تلك وديعتها قبل أن تذهب لسفر لن تعود منه. لا يدري كيف مسح أمين الحواجز وقال:

- با حبّك يا ريبيكا.

لم تعقِّب ريبيكا. اكتفت بأن ارتشفت من كأس الشاي. اعترى الندم أميناً أن نطق بكلمة الحبّ. ودّ لو كان يستطيع أن يسحب الجملة. قطعت ريبيكا الصمت:

- بدك نتغدّى هون ولا في مكان ثاني؟ مطعم رولاكس كتير خلو. أكلُه روسي وعربي. بس بعيد شوية. وممكن نستنّا في الصفّ لأنُّه ما عملنا خجز (حجز).

- نبقى هون.

- اللي بدّك إياه.

تناولا الغداء بمطعم فتوش. أكل أمين بشهية. ومع ذلك ظلّ يشعر بالجوع. لم تعقّب ريبيكا على إعلان حبّه لها. بقيت مِهَنيَّة. زارا بعدها سوياً المعبد البهائي والمتحف الياباني.

كان المغيبَ حين غادرا حيفا في اتِّجاه تلّ أبيب. باغتتْهُ وقد خلَّفا المدينة وراءهما، وهما في الطريق السيَّار:

- اخكِ لي عنك.

- أنتِ عارفة كلّ شيء.

- المرأة اللي في خياتك (حياتك)؟

وحكى أمين عن حبِّه لنعيمة. حكى كيف كان يلتقي بها في المستشفى الذي تشتغل به، وكيف تولّه بها، وكيف عاش أجمل اللحظات معها ...

كانت ريبيكا تُصيخ السمع إليه والليل مدلج في الطريق السيّار. إلى أن وصلا الفندق ... ولم يشعر أن نطق بالقول كما لو يخشى أن يبقى وحيداً:

- نبقى مع بعض.

- بدنا نروح على ديسكو، مش هيك؟

- أيوا، بس ...

ولم يزد شيئاً. أنقذت ريبيكا الموقف بالقول:

- ممكن أصعد معك ع الغرفة؟ أروخ للحمَّام.

- طبعاً ..

وصَعِدَا إلى الغرفة، وفتح أمين الباب، وأفسح لريبيكا، وما إن أغلق الباب، حتَّى طوَّقها بذراعَيْه وقبَّلها. لم تصدَّه. غارا في قبلة عميقة. أخذ يربِّت على شَعْرها. قبَّل عُنُقها، وخُيِّل أنه يشتَمُّ رائحة نعيمة. أخذ ينزع لباس ريبيكا وهو يتوقَّع أن تصدَّه .. لم تفعل. داعب نهدَيْها ففخذَيْها وعانتها، ثمَّ أخذها إلى الفراش. لم يقل شيئاً، ولم تقل شيئاً. على حافَّة الفراش نزعت ريبيكا قميصه ثمَّ سرواله، وبعده تُبَّانه. كانا كما برَّأتهما الطبيعة. أخذ يدها في حُنُو ومدّ جسمها على الفراش .. أكبَّ على جسدها يُقبِّله، كمتبتِّل يتعبّد. قبَّلها من رأسها، فعُنقها، ثمَّ أخذ ينحدر على صدرها فبطنها ثمَّ فخذَيْها حتَّى رِجلها اليسرى، ثمَّ أخذ رِجلها اليمنى يقبِّلها، وأخذ في الصعود ... حتَّى نهدَيْها، ثمَّ شفتَيْها. غارا في قُبلة عميقة. اعتلاها. أمسكت رأسه بكلتا يدَيْها، وحدَّقت فيه بحنو ثمَّ قالت:

- بتحبني يا أمين؟

- أيوا يا ريبيكا.

- أنا مش بدّي مغامرة.

- ولا أنا.

أصبحا جسداً واحداً. كان يعزفان سمفونية في تهادي جسمَيهما. إلى أن بلغا الرعشة. ثمَّ هوى على جسدها. ولم يشعر إلَّا وهو يجهش بالبكاء ويردِّد بالفرنسية:

Je ne veux pas que tu partes. Je ne veux pas.

(لا أريدكِ أن ترحلي. لا أريد)

غرست ريبيكا أناملها في شَعْره، ورفعت رأسه، حتَّى التقى وجهاهما، والتصقت جبهته بجبهتها، وأنفه على أنفها ووجنتاه مخضلَّتان بالدمع.

- ما فهمت عنك خبيبي. ما باخكي فرنسي.

- حابب نبقى مع بعض. مش عايزك تمشي.

- إخنا مع بعض.

- خايفك تمشي.

- أنا هون، مش ممكن أمشي.

أراد أن ينسلخ عنها. استبقتْهُ. ثمَّ قالت:

- أنا ممكن أروخ معك على ماروك، إزا (إذا) ما بدّك.

- مش ممكن أرجع تاني.

- اللي بدّك إياه.

انفصل عنها وتمدَّد على ظهره. ثمَّ شرع يترنَّم أُغنيَّة لفريد الأطرش:

يا زهرة في خيالي .. رأيتُها في فؤادي
جنت عليها الليالي وأذبلتْها الأيادي
وشغلتْها العيون، فمات سِحْر الجفون

أخذت ريبيكا تترنَّم معه بصوت رخيم .. كانت لُكْنتها تزيد من جمال الأداء ..

هي غرامي. كلّ شيء ضاع منّي
فنزعتُ الحبّ من ألبي (قلبي) وروحي
ووهبت العُمر أوتاري ولحني
وتغنّيت فداويت جروحي
استرسل أمين في الغناء مترنِّماً بصوت متهدِّج:
كان طيراً في رُبى الفنِّ يغنِّي
للزهور، للورود، للوجود

تطامنت ريبيكا في حضن أمين، ثمَّ قالت:

- إذا بدّك نسوِّي حياتنا مع بعض ونبأى (نبقى) هون.

- ما فيش حلّ ثاني.

- إنت صحّ علاقتك بخبيبتك (حبيبتك) خلّصت؟

- أيوا ريبيكا ..

- تأولها (تقولها) على شاني؟

- باحكي جَدّ.

- إذا بدّك، ممكن تشتغل هون. ممكن تخصل على الجنسية الإسرائيلية .. أصولك يهودية .. تتخول لليهودية.

- ما عندي مانع ..

- وتتعلَّم العبرية. سهلة ..

- واتعلَّم العبرية، ونعيش مع بعض.

- ونعيش بخيفا .. ما باخب كتير تلّ أبيب.

- ونعيش فيما بدّك إياه. حيفا، أشدود، النقب، الجولان .. الضفَّة. في مستوطنة.

- في مستوطنة؟

- ليش لا؟!

- جَدّ؟

- أيوا. قال أمين حاسماً.

- بدّك أولاد منِّي؟ سألت ريبيكا.

- تحبّي أولاد؟

- أيوا. اثنين بس.

- اللي بدّك إياه.

- شو الأسماء التي بتخب.

- اللي بدّك.

طبعت ريبيكا قُبلة على شفتَي أمين، ثمَّ قالت في دلال:

- أروخ للخمَّام وارجع.

ثمَّ انسلَّت نحو الحمَّام عارية. تحلَّق نظره على عجيرتها. اشتهاها برغبة عارمة. نادى عليها. تناهى إليه صوت الرّشَّاش. ناغى صوته أميناً. غشيته غفوة. استفاق. نادى على ريبيكا. لم يأته ردّ. لم يقوَ على النهوض. شعر بثقل رِجْلَيْه كما لو أُصيبتا بالشلل .. نادى عليها مرَّة أخرى. لم يأتِ ردّ .. صرخ ملء فيه. ريبيكا، ريبيكا ... وكان يُخيَّل إليه أن الصدى يردّ: نعيمة، نعيمة .. كانت ريبيكا قد قالت له بأنهما سيذهبان إلى الديسكو. هل

انفلتت؟ لم يكن أخذ رَقْم هاتفها .. علتْهُ قشعريرة. لفَّ عليه الغطاء. كان يشعر بالجوع. ثمّ أغمض عينَيْه. تذكّر أمَّه. هاتفها وهو مستلق في الفراش.

- ألو. شكون؟ انتهى إليه صوت متعب.

- أمين أيما.

- خلّك لِلي. الله يبعد عليك البلا والسوايع المخبلة. طولت الغيبة أوليدي. فين انتينا؟

- ف إسرائيل.

- ويلي. أش ماش تعمل ف إسرائيل؟

- خدمة.

- أش من خدمة ف إسرائيل؟

- عرضوا علي (استضافوني).

- يشويني فيك (تبّا لك)؟ عرضوا عليك وحفتي (مشيت) عندهم؟

- الناس مزوينين أيمّا ومتَولين (مهذبين).

- رد عألك (عقلك)، يأتلو (يقتلو) ف المسلمين وانتين تأول (تقول) لي مزيونين؟

- العسكر ديالهم أيمّا اللي يأتلو (يقتلوا) فيهم. والفلسطينيين حتّى هم يأتلوا (يقتلوا) الإسرائيليين.

- ويلي وحدي. اللي يدافع على أرضو، انتين تأولو (تقول) له يأتل (يقتل). هاذى ما شي من خصايلك.

- اسمعيني أيمّا.

- أش ماش نسمع؟ انتين بلا عأل (عقل).

- وحبيت نتزوّج من هنا.

- مسلمة؟

- لا، يهودية.

- ويلي؟ استغفر الله.

- تلئيت (تلقيت/ التقيت) بنت الناس هنا وحبيت ناخذها (أتزوج بها).

- يهودية؟ بعيد البلا. الله يرد بك. هذا الشي ما جابوهش الولا (الأوائل/ الأجداد). أنتين مش تخرّج لي العأل (العقل).

- حبيت الرضا ديالك أيما.

- هاد الشي اللي بأى (بقى). إلا عينك فيها، تسلم، هي الاولى.

- أنا اللي نولي يهودي.

- ويلي وحدي. واك واك أعباد الله. عتأو الروح (اعتقوا). فأصتني (فقستني) الله يفأصك.. أُل (قل) استغفر الله، وباركة (كفاية) من الملاغة. أمين، أنتين ما بأتيش (بقيت) صغير. الرجوع لله.

- إيما ما تأطعيش (تقطعيش).

أمسك الهاتف لبرهة والآلة تردّد صدى رنَّة انقطاع المكالمة. ضغط أمين مرَّة ثانية على اسم أمّه من الريتوار. كانت قد أغلقت الهاتف. خُيِّل إليه أنه يسمع صوت بّا بوشعيب. بّا بوشعيب في تلّ أبيب؟ بّا بو شعيب يرصد الغادين والرائحين في تلِّ أبيب؟ انغمر أمين في الفراش وهو يصطكُّ من البرد. لم يقوَ على الذهاب للحمَّام. شعر بالجوع. مدَّ يده إلى الهاتف، وتلفن لخدمة الغرف .. طلب صلاطة غنية، وشريحة لحم نيويورك مع خضروات وأرز وبطاطس فرنسية وبيكولي، وباستة، وصحن جبن، وتيراميسو، وسلة فاكهة. مع ماء معدني، وغازي.

***

في الطريق من تلّ أبيب إلى القدس، في الڤان، لم يفتُر عمران شتريت يُشيد بمحاضرة أمين في مركز موشي ديان، والصدى الذي أحدثتْهُ، وبانبهار إيتان بأمين .. سأل أمين عمران عن ريبيكا، وأخبره هذا الأخير أنها عادة ما تذهب في عطلة الأسبوع، إلى يهودا والسامرة.

- يهودا والسامرة؟

- أي نعم. تلتحق بزوجها. عندهما بيت في مستوطنة.

- بزوجها؟

- متزوّجة ولها ولدان. أسرة متوادّة.

ما هذا الذي يسمع؟ ريبيكا تُقدِم على علاقة معه، وترفض علاقة عابرة، وتَعده بالاقتران به، وتلتزم بألّا تفارقه، وتنتقد المستوطنين، هي متزوّجة وأمّ، ولها بيت في مستوطنة بالضفّة الغربية. لم يعد أمين يفهم شيئاً. أمسك عن الكلام. شعر بمغص.

توغّل الڤان في القدس الغربية، ببناتها العصرية، ثمّ ما لبث أن دخل الجزء الشرقي من المدينة.

- وصلنا، أمين، ندّ عن عمران. أستنا فيك، هون، في الباركينغ، لما تخلص من زيارة المسجد، نروخ على خائط المبكى إزا (إذا) ما بدّك .. خذ وأتك (وقتك) .. بامشي معك حتّى مركز الأمن .. بس خز (خذ) معك الترخيص.

صحب عمران أميناً حتّى مركز حراسة على مشارف الساحة المفضية لمسجد القدس، يحرسه جنديان من الفلاشا. كلّمهما عمران بالعبرية، وأراهما تصريحاً للسماح لأمين بزيارة المسجد.

- الكلّ تمام أمين .. في عناية الله، قال عمران لأمين.

مرَّ أمين في المعبر المغناطيسي، ثمَّ أخذ جندي يفتِّشه وهو يضع قفّازَيْن من بلاستيك. أشار على أمين بيده أن يرفع ذراعَيْه. وجد عنده

الهاتف. سحبه منه. عاد الجندي ففتَّش على مستوى ركبَتي أمين. أمره أن ينزع حذاءه. ثمَّ بعده جواربه. كانت الشمس في سمتها. لم يُبن أمين عن انزعاج رغم الحَنَق الذي كان يستشعره. اكتفى بالقول بالإنجليزية:

- هاتفي من فضلك.

ردَّ الجندي بإنجليزية بلُكْنة قوية.

- دقيقة. افتح الهاتف.

فتح أمين الهاتف. أخرج البطارية. ثمَّ البطاقة المغناطيسية. قدَّم الجندي صحناً، وأخذ الهاتف والبطَّارية والبطاقة، وانسحب إلى مركز حراسة. عاد الجندي وسأل بلُكْنة إنجليزية قوية.

- من أيّ بلد أتيتَ؟

- المغرب. ماروك.

- مسلم؟

- نعم.

- سنّكَ؟

- ستّ وثلاثون سنة.

- الزيارة لمَن سنُّه أكثر من خمس وأربعين سنة.

- عندي ترخيص.

نظر الجندي إلى الترخيص. ثمَّ سأل أميناً فيما هو عبارة عن أسئلة محفوظة بالعربية.

- إأرء (إقرأ) الفاتخة.

فوجئ أمين .. أبلس للحظة، ثمَّ اجتمع قواه، وأخذ يرتّل الفاتحة.

عاد الجندي يسأل بالإنجليزية.

- مسلم ممارس؟

- كلَّا.

- لماذا تريد أن تزور المسجد؟

- معلمة تاريخية.

- انتظر.

بقي أمين واقفاً. اشتدَّ هجير الشمس. لم يكن يتصوَّر الأمور بهذه الصعوبة.. بقي لزهاء ساعة إلَّا ربعاً. أحسَّ بالعطش. وأخيراً تقدَّم نحو الجندي، محدِّثاً إيَّاه بالإنجليزية.

- إذا هناك مشكل أعود لحالي.

ردَّ عليه الجندي بحدَّة.

- الزم مكانكَ.

استجمع أمين قواه، وأضاف:

- الشخص الذي كان معي يشتغل في مركز موشي ديان، وبرنامج الزيارة يتضمَّن زيارة المسجد الأقصى. وعندي ترخيص. أنا في وضعية قانونية.

- أنا أقوم بعملي. ردَّ الجندي في غلظة.

بعد ربع ساعة قدَّم له هاتفه وأذن له في الزيارة .. استبقى جواز سفره. أشعل أمين هاتفه، ثمَّ توقَّف في الساحة يقلِّب نظره بين المسجد والقبَّة. كانت أشعَّة الشمس تسطع على القبَّة. وكانت القبَّة كما شمس في السماء. وفجأة رنَّ الهاتف. نظر أمين إلى الشاشة. نداء مجهول. ضغط على زرّ الجواب. انتهى إليه صوت أليف ميَّزه رغم الصخب:

- دابا أمين ماش تولّي .. دااابا، دابا. وما تكترش معي الكلام.

كانت المكالمة من أمّه. اندهش أن تناديه هي التي لا تناديه أصلاً. ردّ عليها في تودُّد:

- إيما، عادْ (للتوّ) وصلت لجامع بيت المأدس (المقدس).

- السخط والرضا. ماش تولّي.

- إيمّا، ما يمكن ش. مازال ما كملت الزيارة. أنا في الأأصى (الأقصى) حبيت نحج.

- انتين حتَّى الصيام ما ك تصومو ش، وتأول (تقول) لي تحج.

- حبيت ندعي معك.

- ما تدعي معي ما ندعي معك.

- حبيت نحج أيما ف بيت المأدس.

- اللي حب يحج، يحج في بلادو. يعمل الخير في المساكين.

- إيما أنا أُدام (قدام) المسجد الأأصى.

- ارجع دابا.. أنا مريضة. ماش تفأسني (تفقسني/ تخرجني عن طوري).. فيَ التاسيون (الضغط) والسُّكَّر (السُّكَّري) وانتين ماش تزيد علي..

- عافاك أيما.

- ما كتعاود غير الصلاة على النبي.

ثمّ قطعت المكالمة. نظر أمين في ذهول واستغراب إلى الهاتف الذي عكَّر نداؤه الزيارة، في مكان هو بؤرة صدام، وكان يمكن أن يكون فضاء تلاقي للديانات التوحيدية، بيت المقدس وكنيسة القيامة، وحائط المبكى الذي تصرّ أمّه على تسميته بحائط البراق. حام أمين حول المسجد، وسلك باب الأسباط الذي يصرّ أمين على ندائه بالسّباط، وهو الظُّلة، وانغمر في أزقّة المدينة القديمة حتَّى حيّ الشيخ جراح. كما لو أنه بفاس .. لم

يَقدم عليه أحد ولم يهشّ به أحد. وجد صبية صغيرة تبكي. اقترب منها، ثمّ حدَّثها بالعربية:

- ليش تبكي؟

- أخذوا بيتنا.

- مين اللي خذوه؟

- المستوطنين.

- وين أبوك؟

- اعتقلوه.

- ليش اعتقلوه؟

- كان بيدافع عن عرضنا.

- كان لازم يدافع عن العرض؟

- أيوا. من دون عِرض ولا كرامة، ما فيش هبّة. شو جاي تسوي هون عمو أمين؟

- تعرفي اسمي؟

- أعرفكَ أنتَ. الاسم ممكن يتغير.

- شو اسمك يا بُنية؟

- نسيت اسمي؟

- ما باعرفو أصلاً.

- نسيت كلّ شيء؟

- كيف أنسى اللي ما باعرفو؟

- حاول تتذكَّر.

- ما أذكر شي.

- باساعدك. ريم. تتذكَّر؟

- آه، باذكَّر. التقينا في بيت المرحوم بنيس. كنت جيتِ مع زوجك من الإمارات. ليش عدت للصبا؟

- لازم في القضايا الكبرى، نمحي فاصل الزمان والمكان.

- إحنا وين؟

- في قضية.

- ريم شو صار لي؟

- تعبان شوية، إن شاء الله تشفى.

- تعالي يا ريم.

اقترب أمين من الصبية. نفرت منه، ثمَّ أخذت تعدو. أخذ أمين يعدو وراءها وهو يردّد «تعالي». انقطعت أنفاسه. انسلَّت في درب. أخذ يردِّد بأعلى صوت: ريم، ريم. لم يظهر للصبية أثر. اعتراه سعال حادّ ... ازداد سعاله ... أحسَّ بالاختناق. انكفأ يستجمع أنفاسه.

2

خفَّ سعال أمين. فتح عينَيْه ورمشهما، ثمَّ مدَّ يده إلى كلينيكس. لفظ النُّخام ومسح فمه. أخذ ارتجاف جسمه يخِفُّ .. كان طريح الفراش لأيَّام، في شقَّته بزنقة ضاية الرومي. اشتدَّ عليه المرض، ولم يبرح فراشه ليومَيْن. كان سفره توهُّمات، ولم تكن توهُّماته لتطابق بالضرورة حقيقة إسرائيل، ولكنها معبِّرة عن تصوُّره والهواجس التي تعتريه. لم يتناول الدواء منذ الصباح، ولمَ يطعم .. ينبغي أن ينهض من الفراش .. رغم الهُزال ..

قام متثاقلاً مزيحاً من الفراش كتاباً ليوسي كلاين هاليفي «رسائل إلى جاري الفلسطيني» كان بصدد قراءته. أسند يده إلى الحائط. أشعل نور الغرفة. كان المساء قد زحف. تحوَّل إلى المطبخ. أشعل إنارته. أخرج زبادي من الثلاَّجة، وجلس على كرسي بمائدة الطعام بها .. لم يكن يقوى على الوقوف. تناول من الزبادي في غير شهية من دون أن يُتمَّه ... ترك الملعقة في العلبة. ... نهض من كرسي المطبخ. عاد إلى غرفته، وتناول المضادَّات الحيوية.

انغمر أمين في السرير. كان كتاب هاليفي أمامه على دفَّتَيْه وهو لا يقوى على المُضي في قراءته .... استلقى على السرير. أغمض عينَيْه بين صحو ويقظة ... علتْهُ رجفة ذكَّرته ببرد ميدلت حين حلَّ بها مع نعيمة في يناير كانت قد عرضت عليه أن يزورا ضريح ربّي بوحصيرة. كان مبتهجاً للعرض. كانت أوَّل مرَّة يكتشف أرجاء الأطلس الكبير .. وقف حينها على

جهله بواقع ملازم له .. وكان هو مَنْ يسوق سيَّارتها. توقَّفا بأزرو لتناول الغداء في مطعم بانوراما، ثمّ أتمّا المسير وسط جبال الأطلس المتوسّط، وبراقع الثلج تُكلّل قممه وأحضانه، إلى أن انتهيا إلى الأطلس الكبير. وصلا إلى نزل تيمناي في مدخل مدينة ميدلت واستأجرا غرفتَيْن. لم يكن لهما أن يأخذا غرفة واحدة، لأن ليس لهما عقد زواج. كان ذلك سفرَ عسل قبل الأوان.

مع الرابعة غادرا نزل تيمناي، وساق أمين ماراً بمنعرجات تيزي ن تلغُمت الوعرة، حتّى نقطة كرّاندو. كانت الظُّلْمة قد نشرت رداءها. لفّا يساراً نحو قرية كُرّامة. غير بعيد من نقطة كرّاندو يوجد معتقل تازمامارت ... كانت أوصال أمين تهتزُّ، رغم دفء السيَّارة، ورغم يده الممسكة بنعيمة. هناك طُمرت حيوات .. لم يثبت من المعتقلين إلّا قليلون ... هناك جُرِّد أناس من إنسانيهم، كي يحالوا للاشيء. القتل أرحم بهم. ولكن القتل لم يكن كافياً .. كان ينبغي أن ينطفئوا رويداً رويداً، في الظلمة، والجوع، والقُرّ، والحَرّ، وسط البراز والقمل والعقارب والحيَّات ... كان أن يذوبوا كقطعة سُكَّر في فنجان قهوة بارد، بشكل وئيد، كما أسر رجل سياسي وهو يستجدي صاحب الأمر في شأنهم وقد قضوا العقوبَات المحكوم بها عليهم. الطلقات النارية المنفّذة للإعدام تنقل المحكوم، في لحظة ميتافيزيقية، من الحياة إلى الموت. تُبقي على جسد كان وعاء لروح، ولو مخترقاً بالرصاص، ومن ثمَّة على صورة وفكرة. لكن الموت البطيء كما في تازمامارت ينقل المعتقل من الإنسانية إلى وضع أسوأ من الحيوانية .. يضمر جسده وتعلوه الأوضار وتعلق به الأدران، ويملأ جسمه القمل، وتُزكّم الروائح الكريهة جسده، ويتهارش من أجل كسرة خبز، وحبَّة حمُّص، ويغمره البراز .. كي يكُفّ أن يكون إنساناً. كي يصبحَ عبْرة وخطاباً ورسالة ... لم يكن أمين يفكّر في شيء وسط المنعرجات والطريق المتربة إلى كُرّامة، سوى تلك الحيوات التي انطفأت مُجرَّدة من إنسانيَّتها.

- فيم تفكّر؟ سألته نعيمة.

- أفكّر في هؤلاء الذين أقبِروا أحياء.

- محزن ما يقع للصغار في لعبة الكبار.

- لا شيء يُسوِّغ تجريد خصم، بل حتّى عدوّ من إنسانيّته، قال أمين.

وصلا قرية كُرّامة .. جَنّت الظلمة. توقّفا في مقهى كي تختلي نعيمة. كانت القرية مهملة، وكان الفقر يسطع في وجوه الساكنة، يشي به لباسهم، وتُفصح عنه نظراتهم المتعبة. يذكر شخصاً كهلاً كان بالمقهى وحوله شباب تحلّقوا حول طاولة منكسرة قرب مدفأة حديدية تمتدُّ جعبتها إلى السقف، يُورِث نارَها بين حين وحين من الحطب نادلُ المقهى .. توجّه أمين إلى الكهل:

- الله يجازيك بخير، السيدة عندي بغات تمشي للحمّام.

ردّ الكهل بأدب:

- تجي للدار.

ونهض الرجل، وتبيّن أمين أنه أعرج ..

تكلّم الرجل بالأمازيغية وهو ينادي على زوجته .. يذكر أمين اسمها، قشو. حلّت الزوجة من غير حجاب وبوشم، واصطحبت معها نعيمة.

عرض الكهل على أمين أن يجالسهم. قدّم له فتى كرسياً غير مكسّر. سأل الكهل أميناً:

- من اين من الخوت (الإخوة)؟

- من فاس، ولكنْ جينا من الرباط.

- أُوخيارت (ونِعم).

- فايت لك جيت ل (إلى) هنا؟

- لا. أوَّل مرَّة.

- شفتو فين احنا عايشين.

- الله يصوب.

- نعلقو كل شي على مولانا؟

طنَّ الاستفهام قوياً في أُذُن أمين. تظاهر بعدم الاكتراث. نظرة نيتشية للإنسان. ارتشف أمين من كأس شاي دافئ ... هل يحمل الرجل نُسْغ أغسطين؟ لاحظ أن الشباب كانوا يحملون أوراقاً يكتبون عليها. لم يكونوا في تسلية أو تزجية فراغ ... كانوا يُصوِّبون النظر في أمين، كي يستوثقوا من أمره، أخصمٌ هو أم حليف. لا تفصله عنهم الجغرافية وحدها، بل الثقافة. بدَّد أمين توجُّسهم بالقول إن العدالة الاجتماعية قضية مشتركة. عادت نعيمة، ترافقها زوجة الكهل. شكر أمين الرجل، وودَّع الشباب الذين كانوا متحلِّقين حوله. كانوا يتفحَّصونه. توجَّهت زوجته إلى أمين، وكلَّمتْهُ بالأمازيغية. لمَّا لم يَبدُ عليه الفهم تحوَّلت لعربية مُعْوجّة (مكسَّرة) في مزيج من الدارجة المغربية والأمازيغية:

- تكملوا الولي، إيوا تباتو غورْخ. أصمّيد يسوط فْ عاري (لما تُنهوا زيارة الولي تعالوا للمبيت عندنا، البرد يسري في الجبل).

وقف الرجل الأعرج مستنداً على الطاولة وقد لفَّ جسده في برنوس لتشييع أمين و«زوجته» حتّى الباب. كانت نعيمة حينها زوجته، أو كان يقدِّمها بصفته زوجته.

تعود ذكرى الكهل إلى أمين، وهو بالفراش يرتجف من الحُمَّى ... رجل من غير اسم، ولكنه فكرة. سكنته أو سكنها، وكان سمْته يُفصح عنها. وكان

ما لم يقله أهمّ ممّا قاله. العدالة واحدة ... ولا تُجتزأ ... وأنه يتعيّن بناء إنسان جديد. إنسان يحتمل ذاته، من غير رؤية ميتافيزقية. إنسان أسمى. لن ينسى أمين قطُّ استضافة ذلك العالَم له، وحدب المرأة التي هشّت بهما، ولا اعتناء الرجل الأعرج، ولا رسالته التي لم يفصح عنها ... لن يثبت على ملامحه لو التقى به، ولكنه أضحى فكرة .. بل آصرة .. لم تعد الأمازيغية مجرَّد لغةٍ يناضل ناشطون من أجل الاعتراف بها، بل إحالة على واقع، وتصوُّر لمستقبل .. لم يكن خطاب الهوية إلّا شجرة تخفي السعي للعدالة الاجتماعية والكرامة. وبناء إنسان جديد. إنسان أسمى.

خرج الرجل الأعرج كي يُري أميناً الطريق المؤدِّية لقرية تولال .. كان البرد شديداً، وكانت النجوم تتلألأ في السماء .. لمدَّة لم ينظر أمين إلى السماء نجومِها ... ساق السيَّارة إلى مبنى تَشعُّ منه الأنوار، وتحيط به سيَّارات عدَّة وحافلات، لمَنْ يحجُّون من الزوَّار.

كان مثيراً أن تحضر فتاة محتجبة ضريح ربي بوحصيرة ... وكان المثير أن مُقدَّم الضريح، موشي زروال، خرج لاستقبالها برُفْقة أمين، في مدخل الساحة، وهو يردِّد آيات الترحاب ... كان يلبس جلباباً أبيض، ويضع على رأسه قلنسوة. قصدا إلى حيث الضريح بمَعِيَّة موشي زروال وهو يردِّد آيات الترحاب، «مرحبا باللي جا وجاب». بمدخل الضريح أعطى موشي لأمين ونعيمة شموعاً، وألقى أمين بشمعة في فرن تلتهب فيه نار موقدة، وألقت نعيمة شمعة، ثمَّ أخرى وأخرى، حتَّى أتت على علبة الشموع، وأسلمها موشي زروال علبة أخرى، كما لو وجدت تسلية في أن تُلقي بالشموع في الفرن .. كان وجهها ينضح بالحبور. ثمَّ انفصلت نعيمة إلى جناح النساء في الطابق العلوي ... نسي أمين أن يضع شيئاً على رأسه ونادى موشي زروال بالأمازيغية على شخص وسلَّمه قلنسوة. مدَّها زروال لأمين. وضع أمين القلنسوة أو الكيبا، وهو يتابع طقوس التعبُّد .... أخرج رجل نصّ التوراة،

وهو يلبس زنّاراً، وأخذ يرتّل منها بالعبرية .. كان الترنيم كترانيم المرتّلين المسلمين. لغة النصّ هي ما تغيّر ... وقف أمين في خشوع إلى أن سمع الجموع تردّد: آمين، آمين .. وأدرك أنه يردِّد دعاء ..كما في أيّ ضريح من أضرحة المسلمين. كان السدى واحداً، كما في أيّ نسيج، وكان الاختلاف في الطعمة فقط ...

ثمَّ رافق موشي أميناً خارج الضريح، وانتظر نعيمة في ساحة غاصَّة بالزوَّار. كانت السماء مرصَّعة بالنجوم ... كان أمين ينظر إليها كما لو يكتشف شيئاً غريباً. رفيقة الإنسان البدوي في حياة التيه، ومُؤانسته حول نار موقدة، وهي ما كان يقدح قريحته بالشِّعْر، والحِكَم، والجأر بالدعاء ومصاحبتُه حين يخاطب السماء، أو تخاطبه ... كانت تلك النجوم ما يبدّد سطوة الحُلْكَة، ومن السماء ما ينزل ليهدي البشر .. تُرى لو كانت السماء من غير نجوم؟ يتحدَّث عن النجوم كما يدركها الإنسان الأوَّل. لا ككواكب في مجرَّات ..لا النجوم كما جرَّدها العلم من كلِّ شاعرية ورومانسية .. ذهل أمين عن البرد وهو ينظر إلى النجوم .. رأى نجمة تهوي ... وتتبَّع مسارها إلى أن انطفأ بريقها. يقول العلم إنها كوكب توقَّف عن الوجود، وتقول النصوص الدينية إنها تتعقَّب الشياطين .. فضَّل أمين لحظتئذ سِحْر شِعْر النصوص الدينية على سطوة العلم.

أشعل أمين سيجارة .. تذكَّر القلنسوة .. ثمَّ ما لبث أن نزعها. في الجانب الأيسر بناية ينتهي منها صخب زوَّار يمرحون ... كما في عرس أو حفلة، وبالساحة أشخاص خرجوا للتدخين أو يحملون كؤوساً، كؤوس الراح وهم يحتسون منها .. انتهى إليه رطن بالفرنسية والإنجليزية والعبرية .. فاجأتْهُ نعيمة يرافقها موشي زروال وقد عادت من الضريح. كانت مبتهجة تفترُّ شفتاها عن ابتسامة حبور .. أمسك موشي زروال يدَي أمين بكلتا يدَيْه، كَمَنْ يريد أن يستوثق من أمر ثمَّ قال:

- البركة دي ربي بوحشيرة (بوحصيرة) تكون معك. فين مشيت وفين ولّيت. اللي حطيت عليها يديك يشهل (يسهل) لك فيها مولانا.. الله يخليك لك مولاة الدار، ويدوّمها عليك، ويتاوي لامتكم. اللي زار ربي بوحشيرة عمرو ما يخيب ...

ثمَّ أضاف:

- وتهلاً في للا نعيمة، الشريفة نتاعنا ...

كان يتكلَّم العربية بلهجة المنطقة، منها يتاوي لامتكم (يجمعكم على ذات القصد، ونتاع عوض ديال).

تذكَّر أمين القلنسوة، وسلَّمها لزروال ..

- خلّيها عندك باروك (بركة) ... ردّ زروال.

أزاح أمين غطاء الفراش وقد خفَّ ارتجافه، ونهض كي يتأكَّد من وجود القلنسوة في صوان ملابسه. سحب دَرج الصوان ووجدها حيث هي، وكانت علامةً من أجل أن تشمله البركة، وتبارك له في علاقته بنعيمة ... هيَّأ أمين قهوة. أشعل سيجارة .. شعر بالدُّوار. أطفأ السيجارة .. قرقر بطنه .. لم تكن به شهية. عاد إلى الفراش وتمدَّد فيه .. أضحى أحسن حالاً من ذي قبل، ولكنه مهدود .. أسند ظهره على مسند الفراش.

كانت ذكرى ضريح ربي بوحصيرة لحظة سعادة عارمة، وقد قرَّر أمين ونعيمة الاقتران. على مقربة من الساحة كانت قاعة صاخبة، تصدح فيها فقرات غناء، من مكبّرات صوت لأغانٍ شعبية، كما لو أن الزوَّار في عرس. جلس أمين على مقعد وبالقرب منه «زوجته». كانت نسوة ترقصنَ الرقص المغربي، وأخريات يحملنَ زِقِقة كبيرة من شراب ماحيا، يسقين منها للزوَّار. أقدمت فتاة فأفرغت لأمين من كأس ماحيا، ثمَّ تقدَّمت نحو نعيمة، وأشار

برأسه أنها لا تشرب، وردّت نعيمة بعلامة بالرأس، إشارة على الإيجاب ... ابتسم أمين ... اعتبرها مزحة .. وأخذ ينظر إلى المرأة الساقية وهي تصبُّ لنعيمة. ظنَّ أمين أن نعيمة فعلت تأدُّباً، وأنها لن تذهب حتَّى الاغتراف من الكأس. ورفعت نعيمة الكأس إلى فمها وارتشفت منه، ثمَّ نظرت إلى أمين في انتشاء:

- جيِّد ...

- أجادَّةٌ أنتِ؟

- منذ متى كنتُ هازلة؟

توالت الساقيات. سقينَ أميناً ونعيمة شراب ماحيا، على نغمات الموسيقى والرقص ... كان الجمع في حبور.

توقَّفت نعيمة عند الكأس الثالثة ... بين حين وحين كانت الأنظار تحلَّق على امرأة محتجبة تبدو نشازاً في حفل يهودي يتخلَّله الشراب والرقص والغناء ...

لُمع متناثرة تنقدح من ذهن أمين ... فتاة تدعوه للرقص محدِّثة إيَّاه بعربية شامية ... يستجيب لها .. يراقصها. تلفُّ عنقه بذراعَيْها، على مرآى نعيمة ...

- من أين أتيتِ؟ يسألها.

- من إسرائيل ..

- إسرائيل؟ وين في إسرائيل.

- خيفا ... ما باسمعك مليخ، الموسيقى عالية هون ... نروخ على مكان ثاني.

رافقها إلى جناح محاذي، مخصَّص لضيوف الشرف .. كان الجناح

بضوء خافت. به جمعٌ يحتسي الخمر .. بعضهم يدخِّن. جلس أمين حول برميل للخمر مُقام بشكل عمودي، هو بمثابة مائدة، حوله مقعدان فقط، مع الفتاة ... قدَّمت نفسها:

- اسمي ريبيكا عدا.

- من أصل مغربي؟

- أصولي تونسية .. كنت بأروخ على ضريح للا غريبة في تونس، بس بطّلت .. الوضع في تونس مش خلو..

- أوَّل مرَّة على ضريح ربي بوحصيرة؟

- لا. ثاني مرَّة .. باخب المكان كتير .. وانت؟

- أوَّل مرَّة، اسمي أمين كوهن ..

- كوهن، ومسلم؟

- أيوا.

- شو تسوي؟

- كنت في الصحافة .. بس بطّلت .. استغنوا عنِّي.

- الصحافة وخشة. شو الباكغراوند background تبَعك؟

- دكتوراه في التاريخ.

- خِلو (حلو) .. لازم تجي على إسرائيل .. اخنا نهتم كتير في التاريخ.

تحدَّثت ريبيكا عن ضرورة السلام، وواجب إيجاد حلٍّ للفلسطينيِّيْن. عبرَّت عن أساها على الأوضاع المأساوية التي يعيشها الفلسطينيون في الضفَّة وغزَّة، وفي إسرائيل. انتقدت قانون الهوية ...

- إخنا بدنا سلام .. قالت.

ونادت بالعبرية على شخص كان ينتقل بين الطاولات .. حلّ رجل في الخمسينيات من عُمُره يترنَّح من السُّكْر وهو يحمل كأس خمر ..

- باأدم (أقدم) لكم مير بوخصيرة .. قالت ريبيكا.

سلَّم أمين على مير من دون أن يُبديَ هذه الأخير تحمُّساً. تشاجن الحديث بالفرنسية. كان مير يهزأ من كلِّ شيء .. من الضريح، ومن التاريخ، ومن الذاكرة، والطقوس .. كان مير سليلاً لربي بوحصيرة، ويأتي به رجل أعمال من إسرائيل، للتبرُّك بالولي كي تزكو استثماراته ... «ما دمنا في الأساطير، فلن نخرج من النفق.» قال مير بالفرنسية، ثمَّ أخذ يترنَّم أُغنيَّة لفريد الأطرش «عِشْ أنتَ إني متُّ بعدك» من شِعْر الأخطل الصغير. انبسط أمين .. أخذت ريبيكا تردِّد معه. توقَّف مير عن الغناء، ثمَّ أشعل سيجاراً. اختارت ريبيكا أُغنيَّة بساط الريح لفريد الأطرش، من هاتفها الذكي، ثمَّ أخذت ترقص الرقص الشرقي. أخذ مير يردِّد مع الأُغنيَّة وريبيكا تتأوَّد في رقصتها الشرقية على صدى الوصلة:

يا طاير فوء (فوق)، وكلك دوء (ذوق)

أنا مشتاء (مشتاق)، واضناني الشوء (الشوق)

أخذت ريبيكا تترنَّم وهي ترقص:

نسيم لبنان شفا الأرواح

عليل الألب (القلب) عليه يرتاح

ويا مشتاء (مشتاق) لأرض الشام

تبات سكران، بلا أءداح (أقداح)، بلا أءداح

ما إن بلغ الغناء مقطع «مراكش» حتَّى اقتربت ريبيكا من أمين وهي تتأوَّد قربه، وتتودَّد إليه. رفع مير من الصوت:

بساط الريح يا أبو الجناحين

مراكش فين وتونس فين؟

أنا لي حبيب هناك واثنين

وبُعدهم عنّي بشهرين.

استدارت ربيكا على الطاولة، وأدارت جسمها متأوِّدة. أخذ مير ينقر على الطاولة .. غلب صوت ربيكا صوت الوصلة، رفعت عقيرتها بالصدح:

تونس يا خضرا، يا حارءة (يا حارقة) الأكباد
غزلانك البيضا، تصعب على الصياد
غزلان في المرسى، وإلا في حلء (حلق) الواد
على الشطوط تعوم، وما تخوف صيد المي.

توقَّفت عن الرقص. صفَّق لها مير .. كانت تنضح عَرَقاً. أغلقت ربيكا الوصلة. ابتسم لها أمين.

- خلوة الأُغنية قالت، وهي تُلقي ابتسامة حبور.

- حلوة، عقَّب أمين.

لم تعد الأُغنيَّة إلَّا إيقاعاً موسيقياً، يستدرُّ الرقص والغناء. كانت ناراً وأضحت رماداً ترقص عليه ربيكا، وينقر عليه مير، ولا يستطيع أمين أمراً.

ذهبت ربيكا إلى الحمَّام. أشعل أمين سيجارة، ونقع من كأسه. اعترتْهُ الرغبة كما في بار ماجتسيك أن يغنِّي، هازئاً، كي يتستَّر. كان يدرك أنه لن يستطيع. في بار ماجستيك، كان في حِماه، ولم يكن في حماه بضريح ربي بوحصيرة.

عادت ربيكا من الحمَّام .. سألها عن غاية حلولها بالضريح، وردَّت

بالإنجليزية for fun. شعر بالاختناق. اعتذر لريبيكا. عاد إلى حيث كانت نعيمة. كانت الأجواء أجواء حبور. غناء ورقص وشراب.. وجد في المكان الذي كان جالساً فيه فتى يحدِّث نعيمة ... كان الفتى يُتقن الفرنسية. رحَّب بأمين. قدَّم الفتى نفسه:

- عمران شتريت. من أشدود بإسرائيل.

قدَّم أمين نفسه:

- أنا أمين كوهين.

- كوهين؟

- كوهين غنوصي ..

- بمعنى؟

- كان أجدادي يهوداً وتحوَّلوا للإسلام، ولم أقطع سلسلة التطوُّر، فصرت غنوصياً.

- يمكن الرجوع لنقطة البداية ...

- النهر يحمل دوماً شيئاً من النبع، ولا يعود إليه ... ويغتني من الروافد التي تحمله.

- نهر النبع أصفى.

- ونهر المصبِّ أغنى.

- في إسرائيل تجد النبع والمصبَّ. بلد الدين والعلمانية.

- لكنْ متداخلان، وهذا ما يزعجني.

- أرى أن لكَ حسَّاً فلسفيَّاً ...

- لا تستمع له يا عمران، قالت نعيمة، في غير كلفة. ثمَّ أضافت: سيدفعكَ للشكِّ في كلِّ شيء ...

- سعيد بمعرفتكَ، قال عمران شتريت ..

غادر عمران. حاول أمين أن يتجاذب أطراف الحديث مع نعيمة، ولكنها كانت شاردة .. سألها أمين عن الفتى. ردَّت نافرة:

- دعكَ من ذلك Laisse tomber. ألا تريد أن ترقص؟

ونهضت أمينة كي ترقص. كانت أوَّل مرَّة يرى فيها أمين نعيمة ترقص. مَن كان يتصوَّر أن ترقص نعيمة، بل مَنْ كان يتصوَّر أن تشرب ماحيا؟ راقصَها لبرهة، ثمَّ عاد مكانَه ...

أخذ يرمقها من مكانه وهو يحتسي ماحيا .. كانت مبتهجة. حلَّ عمران شتريت وهو ينظر في حنو إليها وهي ترقص رقصاً مغربياً. كان عمران يصفِّق، وهي تبادلها الابتسامة ... شعر أمين بالانقباض.. أشعل سيجارة ... فاجأه موشي زروال، مُقدّم الضريح:

- اشمح (اسمح) لي بزاف، جاوا الناش دي المخزن وبكيت (بقيت) معهم. كان خاشني (خاصني) نبكى (نبقى) معك.. ولكن البركة دي بوحشيرة توكف (تقف) معك.

ردَّ أمين في أدب.

- الله يجازيكم بخير ...

وعقَّب موشي زروال

- تهلاّ في للا نعيمة... إلّا تهلّتْ (اعتنيت) فيها ما يخشك (يخصك) خير...

ثمَّ اتَّخذ الحضور مجلسهم على موائد الأكل. مرَّ موشي بوحصيرة حول الموائد يرحِّب بالضيوف، ويؤكِّد لهم أن الطعام كوشير ..

لم يكن بأمين شهية الأكل .. كانت نعيمة بمقربته في مائدة الطعام .... كانت منبسطة، والجوّ يبدو لها أليفاً ... .لم يكن أمين مرتاح البال،

ولم يعرف لمَ. هل لأن نعيمة كانت تبادل التحية لعمران شتريت؟ وأيّ بأس في ذلك؟ أمين شخص متحرّر، ولا ينبغي أن يستشعر الحرج من حديث نعيمة للرجال. هي طبيبة، وتلتقي برجال عديدين ... أم هل بسبب بساط الريح الذي أضحى يرفرف على الخراب؟

مرَّت ريبيكا وهي تحمل كأساً، وأشارت لأمين بيدها ... ردَّ على إشارتها بابتسامة ... هل كانت تغازله؟ توالت أطباق الطعام، ولم يكن أمين يريد أن يتذوَّق منها ... أكبَّ على الخمر. كان خمراً معتَّقاً. تعلَّل بالحاجة للذهاب إلى المرحاض، وقصد الغرفة الجانبية. كان مير بوحصيرة يغنِّي أغاني فريد الأطرش، وريبيكا تنقر على المائدة ... نادت عليه ريبيكا ..

- تعال، إخنا مش بدنا أكل .. أمين لازم نلتئي (نلتقي). فيه شغلات كتيرة لازم نخكي فيها ..

لكنَّ صدر أمين كان منقبضاً. اعتذر.

- تروخ هيك .. مش خابب تأعد (تقعد) معانا (معنا)؟

- بلى، بس لازم نأخذ الطريق ...

- أوكي، بس خز (خذ) رَقْم التلفون تبعي .. والإميل كَمَنْ .. لازم تيجي على إسرائيل ...

كان الحاضرون في قاعة الحفل يتناولون الحلويات بعد أن فرغوا من العشاء. كان عمران جالساً على الكرسي الذي كان أمين جالساً عليه، وهو يحدِّث نعيمة ... اعتذر عمران لمَّا أن حلَّ أمين. جلس أمين في مكانه. تناول حلوى بريوة معسّلة محشوَّة باللوز، ثمَّ استدار نحو نعيمة يدعوها للمغادرة .. ردَّت متأفِّفة:

- نبقى حتَّى رقصة البولكا. أنا مَن سيسوق ..

احتدم الرقص مرَّة أخرى. بعد الرقص المغربي، تلتْهُ رقصة البولكا. تشابكت الأذرع في شبه حلقة، وأخذ الجمع يرقصون، وهم يُلوِّحون بأرجلهم. انفلتت نعيمة والتحقت بالحلقة. كان مثيراً أن ترقص محجَّبةٌ البولكا ..

كانت نعيمة تنضح عَرَقاً لمَّا أن فرغت من الرقص. بمجرَّد أن عادت، عاود أمين نعيمة من أجل المغادرة.

- لأوَّل مرَّة أطلب منكَ شيئاً وتمانع .. ردَّت نعيمة.

- ينبغي أن نذهب ...

نهضت نعيمة في حَنَق .. غادرا القاعة الكبيرة نحو الساحة خارج المبنى. صفعهما البرد .. بدا لأمين رجال الأمن، بمختلف الهيئات من درك وقوَّات مساعدة، وبوليس بزِيٍّ مدني، وهم يتناولون العشاء، تحت خيمة ...

أخذت أمينة مِقود السيَّارة. لم تنبس طوال الطريق. بلغا نزل تيمناي بعد ثلاث ساعات ونيِّف من السياقة وسط ليل بهيم وبرد قارس .. حاول أمين أن يفتح باب الغرفة بالنزل واستعصى .. شعر بأحشائه تهتزُّ ... انسحب بعيداً في ساحة النزل قرب مربض السيَّارات وأخذ يتقيَّأ ... شعر بالضآلة .. مسح فمه بمنديل .. وتمشَّى في ساحة النزل حتَّى استرجع أنفاسه ..

عاد إلى الغرفة. كانت مغلقة. نقر على بابها. لم يَرِد ردّ .. أخرج المفتاح .. انفتح الباب. غشي الغرفة. لم تكن بها نعيمة .. قصد غرفة نعيمة، المستأجرة للتمويه. طرق باب الغرفة .. فتحت نعيمة. كانت ما تزال بحجابها.

- أُفضِّل أن أنام في غرفتي .. أمين ...

قالت ذلك، ثمَّ أغلقت الباب ...

3

متى كان هذا السفر وأمين في وأنشه

كان لسفر أمين ونعيمة إلى ضريح ربي بوحصيرة بتولال أن يكون توطيداً لعلاقتهما وتهيئة لهما للاقتران، ولكنه أضحى الصّدع الذي تحوَّل إلى شرخ. بدأ التوتُّر في رحاب الضريح، وانتقل إلى النزل، وهدأ لبعض الوقت، كما النار تخفي جذوة دون أن تخبو.

غداة عودتهما من زيارة ضريح بوحصيرة، ألحَّت نعيمة في النزول إلى مدينة ميدلت، عشرون كيلو متر جنوب النزل .. وضعا السيَّارة قُبَالَة الساحة الكبرى للمدينة، وتمشَّيا في اتِّجاه الحقول، ونزلا وهدة تامادلا، حتَّى قصر عثمان أُو موسى، حيث كان يقيم اليهود .. كان شطر من القصر خرباً، وآخر منه مرمَّماً. توقَّفت نعيمة وأخذت صوراً، ثمَّ مشيا من طريق محاذ للنهر حتَّى الشارع الرئيس، ومنها نحو طريق سوق الأحد .. عرَّجا على ثانوية العياشي، في مبانٍ قديمة متداعية وأمين على إثرها. وقفت نعيمة أمام بناية مهجورة، ثمَّ أخذت منها صوراً ..

كان أمين ينظر إليها دون أن ينبس .. كانت منقبضة في أثناء الفطور وحينما غادرا النزل.

أشعل أمين سيجارة وهما قُبَالَة البناية المهجورة .. ما لبث أن أطفأ السيجارة، وسأل نعيمة:

- اشرحي لي سرَّ هذا الوقوف أمام هذه البناية؟

- هنا حيث وُلدَت أُمِّي ..

- خِلتُها من مكناس ..

- لا. هي من هنا. التقت بوالدي هنا لمَّا كان ضابطاً شابّاً.

- أمازيغية؟

- نعم ولا .. ربّما أصولها، إلّا أنها لا تتكلَّم الأمازيغية.

- عربية إذن عاشت وسط الأمازيغ؟

- ليست عربية بكلّ تأكيد.

- ما ذا اللغز؟

- تريد أن تعرفه؟

- ليس اللغز، ولكن المرأة التي أريد أن أقترن بها ..

- هل أنتَ متأكِّد ممَّا تريد؟

ابتسمت نعيمة .. ثمَّ أردفت:

- حافظْ على رِجلَيْكَ راسختَيْن في الأرض ...

استرسلت في هدوء:

- هذا الحَيّ هو الملّاح (حارة اليهود).

- وماذا إذن؟

- وهنا وُلدَت أُمِّي.

مرَّ رجل في درَّاجة نارية على الأرض المتربة. أطفال يلعبون كرة القدم بخرقة. كان كلّ شيء يبدو عادياً. ولم تكن دواخل أمين عادية. كان كَمَنْ يسعى أن يستوعب ما قالتْهُ له نعيمة كقذيفة لم تنفجر بعد.

- هيَّا، نعود للنزل. قالت نعيمة.

امتطيا السيَّارة .. كانت نعيمة مَن يسوقها. توجَّهت صوب النزل في الطريق المؤدِّي إلى مكناس. لم يستطع أمين أن يواري تعجّبه.

- يهودية؟

لم تعقِّب نعيمة، حتَّى تجاوزت نقطة تفتيش الأمن، ثمَّ قالت في هدوء:

- نعم. كانت يهودية. تحوَّلت إلى الإسلام لمَّا تزوَّجت بوالدي.

- لكنْ وَفق ما أعرفه هي مسلمة متديِّنة ..

- ولكنْ كانت يهودية قبلها. أُمِّي حين اعتنقت الإسلام اعتنقتْهُ فعلياً ... ولم يكن الأمر من دون ثمن.

- وما الثمن؟

- كان الثمن غالياً، لأن أسرتها نبذتْها، وخيَّرتها بين مَن كان حبيبَها، وبين ذويها، واختارت حبيبها وتزوَّجت منه، ورحلت أسرتها إلى إسرائيل. كانت قطيعة.

- كان يكفي أُمُّكِ أن تعلن الإسلام، من دون طقوس، كي لا تحدث قطيعة مع أسرتها.

- كانت أُمِّي من أسرة يهودية متديِّنة. أعطت لانتمائها الإسلامي ما أخذته عن يهوديَّتها ... المتديِّن في دِيْن يصبح متديِّناً في آخر حين يتحوَّل إليه. ها أنتَ ذا عرفتَ كلَّ شيء الآن .. مُقدَّم الضريح موشي زروال يعرف أسرتي، والفتى الذي شاهدته أمس قريب لي، من عائلة شتريت. من منظور إسلامي صرف، لم يعد قريبي .. ولكني أنظر إليها كقريب لي.

- والحجاب؟

- حجاب. اكتفت بالردّ.

ساد الصمت بينهما إلى أن بلغا النزل.

أدرك أمين إثرها علّة قراءات نعيمة، واهتمامها بالتراث اليهودي، وزيارتها لضريح ربي بوحصيرة. لكن بَوْحها ما زادها إلّا غموضاً. هل تحوَّلت إلى اليهودية؟ لم يجرؤ أمين أن يطرح عليها هذا السؤال .. ظلَّ ذهنه مبلبلاً وهو يجمع متاعه من غرفة الفندق. التقيا في الاستقبال. كانت نعيمة ترتدي الحجاب. قام أمين بالتشيك آوْت.

كانت نعيمة مَنْ يسوق السيَّارة في اتِّجاه أزرو .. لم ينبس أمين في أثناء الطريق. قاطعت نعيمة صمته، بعد نصف ساعة من صمت متَّصل، ممازحة إيَّاه وهما على مستوى منعرجات احْجِيرت:

- الفتى المتحرِّر مصدوم من أصولي اليهودية؟

- تعرفين ألّا ... أشكركِ على الثقة التي وضعتِها فيَّ ... لستُ مصدوماً البتَّة، ولكني تحت تأثير المفاجأة ..

- هل تعرف ما أثارني فيكَ أوَّل مرَّة قبل أن تنتسج العلاقة بيننا؟ اسمكَ. تساءلتُ هل يعي هذا الفتى يهوديَّته؟ من منظور تاريخي، طبعاً ليس عقدياً ...

- أعي الأمر طبعاً ... لكني لا أستطيع العودة للوراء ...

وعاد الصمت. ولم يحر أمين جواباً. تجاوزا مستوى بحيرة أكلمام سيدي علي ... تردّد أمين قبل أن يطرح السؤال، ثمَّ تجرَّأ بالقول:

- هل قطعت الريبكون (هل صرمت الحبل)؟

- أي ريبكون؟

- أعني، هل اعتنقتِ اليهودية؟

- اطمئنّ، أنا مثلكَ غنوصية ... ليس من حقيقة سوى الإنسان ...

وهذه هي القراءة التي أجريتُها على تجربة أُمِّي ... اختارت الحبَّ على المعتقد، وكانت مصيبة في قرارها ...

- هل تتحدَّثينَ عن هذه القضايا مع أسرتكِ؟ مع أبيكِ وأُمِّكِ؟

- لا نتحدَّث عنها، ولكنها تسكننا. والدي مسكون بالواجب. أخذ يصلِّي، تماشياً مع زعمه الإسلام، وتساوقاً مع زوجته التي اعتنقت الإسلام وتصلِّي وتصوم .. كان لا يتورَّع عن شرب الخمر مع أصحابه، ولا يواظب على الصلاة ... إلى أن أُصيب بشظية من قذيفة في المواجهة في الصحراء .. كان بين الحياة الموت، ونجا بأعجوبة. عودته للحياة غيَّرت نظرته لها. أُنشِئنا على تربية مسلمة في البيت، حتَّى لا يرتاب معارف والدي ولا ذووه في حُسْن إسلام والدتي ...

شغَلت نعيمة مزيل الضباب، عن زجاج السيَّارة. انقعشت الرؤية. استأنفت الكلام:

- كان ما يثير أننا أسرة لا أخوال فيها، ولا رابط لها من فرع أمِّي .. لا جَدَّة من أمِّي ولا جَدّ .. وحين أخذنا نعرف قصَّة أمِّنا قبل الزواج، أنا وأخي، مَنْ يصغرني، كنَّا نشعر بالحرج ... أبناء يتحدَّرون من أمٍّ يهودية، رحلت أسرتها لإسرائيل ... اليهود مَن كادوا للنبي، وبلد العدوّ الصهيوني. جُماع المثالب. ولم يسعنا إلَّا أن نخفي الحقيقة ... وكنَّا متديِّنين كي لا نثير الشبهة ... ولم يمنع ذلك أنْ كنَّا نُنعَت بأولاد اليهودية. لم يشفع لأمِّي أنها تصلِّي وتصوم وحجَّت ... وكان مَن يغمزوننا لا يصلُّون ولا يصومون ... وحدث شيء غيَّر كلَّ شيء في مسار حياتي، ودفعني لأن أعرف .. أتى يوماً موشي زروال عند والدتي بمكناس .. كان أبي حينها في الصحراء .. كنتُ في قسم الباكلوريا بثانوية بول فاليري. قبَّل يد أمِّي، ثمَّ أجهش بالبكاء .. أخبرها أن أباها شلومو شتريت قضى نحبه في إسرائيل ... وبكت أمِّي. وحزنت .. حزنت من غير عزاء. فمَن يواسيها ...؟ المسلمون؟ يمكنهم أن يعزُّوا في يهودي، ولكن الأمر

صعب في يهودي، أب لمسلمة، تبرّأ منها، كما لو يبعثوا ماضيها الذي أقبرتْهُ. ولا اليهود، لأنها صبأت عن دينها، وعقّت بوالدَيْها وشاقّتهما إذ لم تصاحبهما لإسرائيل، وكانوا أقاموا مأتماً حين تحوّلت للإسلام، وخرجوا من الحيّ الخرب الذي وقفتَ عليه يبكون ويندبون ... لأوّل مرّة اهتزّت عقيدة والدتي الإسلامية، ولأوّل مرّة أراها لا تصلّي، عدا فترات الحيض .. توزّعتها أزمة الضمير .. أحسَّت بحرقة فقدان الأب .. ولكنها لم تستطيع أن تذهب أبعد، لأنها أمّ لأولاد مسلمين .. جاء والدي في إجازة، وعلم بالأمر، وعلم بعزم أمّي على الذهاب لإسرائيل لزيارة والدتها .. انبعث ما كانت تطمره. كانت تريد أن ترى والدتها وإخوتها، مهما كان الأمر. وعارض والدي في أن تذهب لإسرائيل .. لم يكن وارداً أن تذهب. لا لاعتبارات سياسية أو مذهبية، ولكنْ مهنية بحت. حَدَثٌ يمكن أن يوظَّف ضدَّه، يُلطّخ سمعته، من التشكيك في إسلام زوجته، وإسلام أبنائه. كانت والدتي تريد أن تقف على قبر والدها .. هدّد أبي بالطلاق. وأخيراً تمَّ التوصُّل إلى حلٍّ وسط، أن تلتقي بأمِّها وإخوتها في باريس وأن أرافقها .. استغرق الأمر شهوراً لترتيب اللقاء، وكان موشي زروال مَن رتَّب اللقاء .. لا أتوقَّف عند الجزئيات .. رافقتُ والدتي وكنتُ قد اجتزتُ امتحان الباكلوريا ... كنتُ الضمانة كي تعود أمّي .. اقتنينا تذكرتيْ الطائرة حين علمنا أن أسرة والدتي قد حلَّت بباريس. كانت صلة الوصل يهودي من مكناس، أشار به زروال، من عائلة ديفيكو. وحللتُ مع أمّي بباريس في فندق صغير بمون بارناس .. تخلَّت أمي عن لباسها التقليدي بجلباب ونقاب، واستبدلت به لباساً عصرياً. كان أوّل شيء سألتُ عنه في الاستقبال بالفندق، «أتنزل به سميحة شتريت». أو شميحة، بنطق اللاشون .. وردّ المكلَّف بالاستقبال، أنه لا يمكنه أن يخبرني، ثمَّ ليس هناك شخص بهذا الاسم ... يا إلهي! ماذا نصنع إن لم تكن والدة والدتي لا تنزل بالفندق الذي تمَّ الاتِّفاق حوله؟! لم أكن أستطيع أن أقول

جَدَّتي ... ولم نكن نتواصل عبر الهاتف وإنما عبر وسائط ... لم يكن حينها الهاتف المحمول. وفجأة انسلَّت أمِّي من أمام الاستقبال، وتوجَّهت نحو امرأة مُسنَّة جالسة في الردهة، ونهضت المرأة المُسنَّة، وانتهى إليَّ صوت أُمِّي وهي تردِّد «إمّا»، وصوت المرأة المُسنَّة وهي تلهج «راحل، بنتي».. ثمَّ تعانقتا في الأحضان. كنتُ أنظر إليهما كفيلم، لا كحقيقة .. ولم يكن فيلماً، ولكنْ حقيقة ... تركتُ الأمتعة والتحقتُ بهما ..كانتا ملتصقتَيْن تبكيان .. تمسَّحتُ بأمِّي، وأحسَّت بي، وانفصلت عن أمِّها .. وقدَّمتْني إليها «هاذي بنتي». أمسكتْني المرأة المُسنَّة، واحتضنتْني بحرارة .. وتحوَّلت من امرأة مُسنَّة، أو أمّ والدتي، إلى جَدَّتي .. أمسكتُ يدها وقبَّلتُها. ثمَّ شرعتْ تمسح على رأسي .. غلبتْني دموعي .. صرتُ حينها شخصاً آخر.

أمسك أمين يد نعيمة، وضغط عليها بقوَّة .. ساد الصمت بينهما ..

أخذت أشجار الأرز تتراءى شامخة، في أحضان الجبل، وعلى جنبات الطريق، تنسلُّ منها أشعَّة الشمس، وكانت براقع الثلج تجلِّل الأرجاء. عادت نعيمة للسرد:

- أسبوع غيَّر حياتي .. لي أسرة تعيش في إسرائيل: جَدَّة وأخوال .. منهم مَن ألتقي بهم في باريس. جَدَّتي روبين، مَنْ كانت تُسمَّى في المغرب سميحة، وخالي الأكبر ساسون، ودافيد الأصغر .. وعاد اسم أمِّي القديم.. لم تكن جَدَّتي تناديها إلَّا براحيل. توارى لقب الحاجَّة للا فاطمة. ولم تمانع والدتي، ولم تُبدِ أمام أمِّها ولا أخوَيْها أيَّ ارتباط بالدين الذي اعتنقتْهُ. كانت مسلمة في الغرفة التي كنَّا ننزل بها. تصلِّي الصبح، قبل أن ننزل للفطور، وتلبس لباساً عصرياً لا يشي بهوية، ونتردَّد على مطاعم كوشير. وفي المساء، تصلِّي الصلوات الأربع المتبقِّية جمعاً وقصراً. وربَّما كانت تفعل كي تطمئنني. لا أدري لو لم أصطحبها أكانت ستصلِّي. كانت

الصلوات التي تقيمها في الغرفة صباحاً ومساء تعبيراً عن تعلُّقها بأولادها وزوجها، وكان لباسها العصري، وعدم الخوض في أيّ أمر عقدي، وقبولها لاسمها القديم راحيل، تعبيراً لارتباطها بأهلها، أو سعياً منها لاستعادتهم.

خلال أسبوع كنّا نعيش كما وضعٍ اعتيادي .. كانت أمّي تَلزم الفندق، وتلازِم أمَّها به، في الاستقبال، أو تأخذ بيدها ويمشيان بجنبات الفندق. تبرّ بها كأيٍّ فتاة مع أمِّها، وكان دافيد يأتي لجَدَّتي بالطعام كوشير حين لا تقوى على الخروج. أو يدعونا ساسون أخرى للعشاء في مطعم .. واكتشفتُ باريس مع خالي دافيد. أخذني إلى Le Marais الحيّ اليهودي بباريس، وزرتُ به بمَعِيَّته بيت فيكتور هوغو، وتناولنا العشاء في مطعم يهودي، تجلِّله صور من إليات، وإعلانات سياحية لبرامج لأسفار منظَّمة. كان يناديني بناعومي، ويقدِّمني بصفتي بنت أخته sa nièce، ولم يكن يخوض في تحوُّل أخته للإسلام، أو أني مسلمة. لم يكن يحسن الدارجة، لأنه كان طفلاً حين غادرت الأسرة المغرب، وكان حديثنا بالفرنسية، وكان درس الطبّ بفرنسا .. أمَّا ساسون، فكان يتكلم دارجة مكسَّرة .. الوحيدة التي كانت تتكلَّم الدارجة هي جَدَّتي، رحمها الله .. ككلّ مغربية يهودية ما تزال تقيم في المغرب. كانت تسأل أمِّي عن معارفها القديمة بميدلت، وتسأل عن ربِّي بوحصيرة، وقصر عثمان أو موسى ..

- كلُّ شي تبدَّل أيمّا .. تردّ أمِّي في أسى.

أسرة تلتقي، ولكنْ تقوم بينها سجف، تستّرت عنها لأسبوع، لكنها قائمة. أسرة في جانب يهودية تعيش في إسرائيل، وترتبط بما يربط إسرائيل من لحمة، وجزء منها مسلم يعيش في المغرب، ويَدين بالإسلام، وهذا الجزء هو أمِّي، وهو أنا كذلك، مع ما يرتبط بهذا الجزء من حمولة ثقافية، وقضايا سياسية ... أردتُني منذ ذلك التاريخ جسراً بين هذَيْن الشقَّيْن المكوِّنَيْن لأمِّي. اخترتُ دراسة الطبِّ لأن خالي دافيد درس الطبَّ. وأخذتُ أهتمُّ

بالتراث اليهودي، وأقرأ عن إسرائيل .. ولم تنقطع صِلَتي بخالي دافيد ... وكان لهذا الأسبوع أن ينتهي، وافترقنا بالبكاء، كما لفراق لا لقاء بعده. وماتت جَدَّتي شهوراً بعد ذلك .. لم أعد الشخص نفسه .. وكان من مظاهر التغيير أني قرَّرتُ أن أرتدي الحجاب .. أمرٌ مستغرب بالنسبة إلى فتاة درست في البعثة الفرنسية .. وكان من تضايق منه والدي ... كان يواجهني أوَّل الأمر بالقول: «لماذا تضعين هذه الخرقة على رأسكِ يا نعيمة؟ انزعيها». ولم أكن أجيب. وكانت أمِّي تردُّ عليه: «دعها وشأنها ..» ولم يعد يُلح. لم يكن الحجاب تعبيراً عن انتماء إسلامي، ذلك إن إيماني اهتزَّ منذ أن التقيتُ بأسرتي من أمِّي. أيّ معنى للمعتقد حين يصرم روابط إنسانية؟ كانت جَدَّتي من أمِّي امرأة متديِّنة، وعلى خُلُق كريم، وأمي متديِّنة، حسنة الإسلام، وافترقا بناء على إيمان كلِّ واحدة بعقيدة. أردتُ من الحجاب حماية لي. حماية ضدَّ التحرُّش، أو ربط علاقة. ولم يكن أحد يجرؤ أن يَقربني وأنا أدرس الطبَّ بالرباط ... سوى فتى إسلاميّ كان زميلاً لي غرَّهُ حجابي .. نراجع دروسنا سويَّاً، ونتردَّد على مقصف الكلِّيَّة. كان ودوداً، دمث الخُلُق. ومرَّة واجهني بما كنتُ أتوقَّعه منه: «أريد الاقتران بكِ على سُنَّة الله ورسوله.» وقعتُ في الفخِّ الذي نصبتُهُ لنفسي بوضعي الحجاب. صرفتُهُ بالقول إنني لا أفكِّر في الزواج. عاودني في الأمر .. واستشرتُ والدتي، ونصحتْني بأن أُكمل ديني .. وما لبث أن بدت لي صورة جَدَّتي، وخالي دافيد ... الزواج مع إسلامي هو القطيعة مع أسرتي في إسرائيل. مع المرأة التي احتضنتني ونادتْني ببنتي. مع خالي دافيد، مَن وجَّه حياتي نحو الطبِّ، وبذل نحوي أسباب الودّ .. وهل يتجاوز إسلامي عن هذه الارتباطات؟ فهي لن تخفى، ولم أكن لأخفيها. وكيف يقبل بأن تكون لي أسرة من «العدوِّ الصهيوني» ... وقرَّرتُ وضع حدٍّ للعلاقة .. لصقت بي تهمة فتاة معقَّدة، معجبة بنفسها. وحتَّى زميلاتي الطالبات كنَّ يحاشينني.

تبدَّت سلسة شجر أرز كورو الشامخة ... طلب أمين من نعيمة أن

تتوقَّف بمدخل الغابة.. أوقفت السيَّارة في مدخل الغابة المظلَّلة. بعض سيَّارات القوافل كانت راكنة لسيَّاح يأخذون صوراً لشجر الأرز السامق. صفع البرد أميناً. أشعل سيجارة. كانت القِرَدَة تنطُّ وتقفز من جذع لجذع من أشجار الأرز والسنديان، وتستجدي السيَّاح، من حبات الكاكاو، وما يفضُل من طعام ... عاد أمين إلى السيَّارة كي يضع شاله. عرض على نعيمة النزول .. نزلت من السيَّارة. تمشَّيا إلى حيث كانت تلهو القِرَدَة ... اشترى أمين علبه من الكاكاو من بائع يضع طاولة يبيع فيها البيسكوت والكاكاو، وأخذ يرمي بوحداتها للقِرَدَة .. وجد تسلية في اللعب مع القِرَدَة. حذَّرتْهُ نعيمة الاقتراب منها لأنها قد تكون حاملة لفيروسات ... ثمَّ نادت عليه كي يذهبا. لم تصطبر للبرد ..

- ألا تريد أن تسوق؟ سألتْهُ نعيمة ..

أخذ عنها مفتاح السيَّارة. انطلقت السيَّارة .. كانت نعيمة واجمة.

- ألا تريدين أن نتوقَّف في أزرو بنزل بانوراما؟ سأل أمين.

- إن أردتَ.

كان أمين يسوق بحذر، لأن السرعة محدودة، ويُمنَع التجاوز في المقطع الغابوي لخطر الانزلاق مع المنعرجات وبقايا الجليد. أذرع شجر الأرز الوارفة تظلِّل الطريق. على مستوى الطريق المؤدِّية إلى دير تومليلين ومخيَّم خرزوزة، تجرَّأ أمين بالسؤال:

- ألم تعرفي رجلاً عدا الإسلامي؟

- بلى.

- لا أودُّ أن أحرجكِ ..

- أنا فتاة طبيعية، على خلاف ما كانت تُروِّجه زميلاتي .. عرفتُ رجلَيْن

قبلكَ .. الأوَّل فرنسي، التقيتُ به في سْناك كروكونتي بأكدال وأنا حينها طالبة. كنتُ أجلس وحيدة، وقد فتحت دفاتري أراجع فيها. أثاره حجابي، وكان مع رفيق له. جلسا بعد إذ طرحا طبقَيْهما، وقال لصاحبه وهو ينظر إليَّ في استهزاء: l'être et le néant (الكائن والفراغ)، وهو يحيل إلى عنوان لكتاب سارتر .. رددتُ عليه بمقولة لسارتر Existence précède essence. (الوجود يسبق الكينونة) انبهر. لم يكن يتوقَّع ذلك منِّي. تقدَّم نحوي وسألني كيف أني أتكلَّم الفرنسية. رددتُ عليه من مقولة لينتشه:Philosopher c'est nuire à la bêtise (أن تتفلسف، هو أن تتصدَّى لكلِّ ما يُسفّ).

ترك صاحبه، وطلب أن يُجالسني .. لم أُمانع. قدَّم نفسه. اسمه جان يشتغل أستاذاً للفلسفة في ثانوية ديكارت، ولم يسبق له أن حدَّث إسلامية، لأنه حسبني إسلامية .. ورددتُ عليه: «تحكم من دون أن تعرف. لا تلتئم نظرتكَ مع ما يُفترَض من أستاذ للفلسفة».. اعترف أنه أخطأ. وطلب أن نلتقي .. أمرُّ مرور الكرام على الجزئيات ... كنَّا نخرج سوياً، ونلتقي خارج شقَّته. ألحَّ أن أزوره في شقَّته. مانعتُ طوال سنة ... ما الذي يمنع أن ألتقي بشخص متعلِّق بي؟ كنتُ أعي الحواجز الاجتماعية والثقافية .. ولكنْ ما الحرِّيَّة إن لم يكسر الإنسان المواضعات؟ ألم ترتبط أمِّي اليهودية بشابٍّ مسلم أصبحتْ زوجاً له؟ ألم يتحدَّ والدي القواعد الاجتماعية بالزواج من يهودية؟ كان جان ودوداً .. بل أكثر من ذلك متولِّهاً بي، وأخيراً قبلتُ أن أزوره في شقَّته بشارع باتريس لومبا .. كان أوَّل رجل في حياتي، واستمرَّت العلاقة لأكثر من ثلاث سنوات. نلتقي خلسة في شقَّته. ثمَّ طلبني للزواج .. انتهت مدَّة عقده، وكان عليه أن يعود لفرنسا. ألحَّ في الزواج، وعرض أن يتحوَّل للإسلام .. لم يكن المشكل أن يتحوَّل إلى الإسلام أم لا، ظاهرياً طبعاً، لأنه كان ملحداً، ولكني لم أكن أودُّ أن أضحِّي بمساري المهني .. وقلتُ له ذلك. قَبِل أن يعيش في المغرب، وأن يبحث فيه عن شغل ... فاتحتُ أمِّي،

وفوجئتُ بردِّها: «لا تفعلي. الأمور تبدو سهلة أوّل الأمر، لكنها تصبح معقَّدة بعدها.» غادر جان إلى فرنسا، واعتبرتُ أن الزمن كفيل بتجلية الرؤية. كان جان أوَّل رجل في حياتي، ولكني لا أدري حقّاً هل أحببتُهُ؟ مَنْ أحببتُ كان رجلاً آخر .. قصَّة طويلة .. وصلنا .. أشعر بالتعب. أنتَ على صواب. نتوقَّف في أزرو ... أحببتُ المرَّة السابقة المطعم وسمك النهر به ...

ركن أمين السيَّارة في مدخل الفندق. بناية قديمة تشهد على الفترة الاستعمارية، وعلى ما يسمِّيه الفرنسيون ب la doulce France .

- نأخذ الأمتعة، قالت نعيمة .. أحتاج أن أستريح لبعض الوقت قبل أن ننزل للغداء ..

حجز أمين غرفتَيْن. حمل الأمتعة. غشيت نعيمة غرفتها، وأمين غرفة محاذية .. لم تكن التدفئة المركزية شغَّالة .. أدخل خادم مدفأة كهربائية لكلِّ غرفة. كانت الغرفتان مثلَّجَتَيْن. وضع أمين حقيبته الصغيرة، ونزل إلى الاستقبال قرب المدفأة. طلب بيرة وأشعل سيجارة ... ماذا تعني اعترافات نعيمة؟ اعترافات قوية تشرح الغامض من حياتها. لم يكن هو مَن اكتشفها، ولكنْ هي مَنْ كشف عنها. أخفق في النفاذ إلى سرِّ القلعة المغلقة .. هي مَن فتحت الأسوار ... حين اختارت أن تفعل .. طلب بيرة أخرى. أحسَّ بالدوار، وبالجوع. تأخَّرت نعيمة .. قَلِق. رنَّ الهاتف. كانت نعيمة. سمع صوتها: «اصعد، نسيتَ شيئاً، تعال كي تأخذه.» صَعِدَ الدرج، وطرق على باب الغرفة. تردَّد السؤال منبعثاً من صوت نعيمة:«مَن»؟ أنا. ردَّ أمين. فتحت نعيمة الباب، وكانت عارية.

- أجننتِ؟ صاح أمين.

- كنتُ دوماً مجنونة رغم ظاهر الجدِّيَّة. ادخل. أرغب فيكَ.

كان الدفء قد أخذ يسري في الغرفة بفعل المدفأة الكهربائية. أخذ أمين في تقبيل نعيمة، ثمَّ شرع في نزع ملابسه متلهِّفاً. هوى بها على السرير، ثمَّ انغمر في فراشه البارد .. يقبِّلها من رأسها إلى أخمص قدمَيْها .. وفوجئ حين أراد أن يطأها أن مدَّت له عازلاً.

- لماذا؟

- كذلك.

- تخشين منِّي؟ ليس لي امرأة إلَّا أنتِ.

- أعرف. يمكن أن أحبل.

- ولكنْ لم نمارس الجنس قطُّ بعازل ..

- أعرف ...

ووضع العازل على مضض. انطفأ اللهيب الذي اشتعل به. وطئها، وأخذ جسد يتحرَّك بطريقة آلية ... ارتعشا في اللحظة نفسها .. ثمَّ نزع قضيبه وتمدَّد على السرير. أضحى العازل عازلاً بينهما. كانت الريح تهبُّ قوية وتصطكُّ لها النوافذ، تُنذر بعاصفة ثلجية .. ساد الصمت بينهما .. نزع العازل ولفَّه في كلينيكس .. لم يفهم لماذا اشترطت نعيمة العازل .. التصقت به كي يضاجعها مرَّة أخرى .. ولم ينتصب قضيبه .. «ما حلَّ بكَ؟»، سألتْهُ. وأوعز انخذاله للبيرة .. اقترح أن ينزلا للغداء. ارتدت ملابسها، ونزلا للمطعم. طلبا سمك النهر la truite. وتناولا الغداء من غير أن يتبادلا كلمة ... أخذ ندف الثلج ينزل الهوينى ... ثمَّ صَعِدَا لغرفتها. انغمر أمين في الفراش، ونام في قيلولة طويلة .. فتح عينَيْه، وكانت نعيمة تحدِّق فيه كأمٍّ تحدِّق في ولدها ... ثمَّ أخذت تمسح على شَعْره لمَّا أن فتح عينَيْه ..

4

كانت الأرجاء كما تبدو من نوافذ الفندق مَكسوَّة بالثلج، وأمين يجري التشيك أوت. أخطره صاحب الاستقبال أن الطريق المؤدِّية إلى الرشيدية مقطوعة. طمأنه أمين أن وجهتهما الرباط. تمنَّى لهما الفندقي طريق السلامة. كانت نعيمة خارج الفندق تتملَّى منظر الطبيعة وقد كساها البياض. وضع أمين المُحرِّك في حالة اشتغال، وتركه يشتغل .. حمل الأمتعة من ردهة الفندق، ووضعها في مخزن السيَّارة. ما إن أغلق باب مخزن السيَّارة حتَّى رمتْهُ نعيمة بكرة ثلجية. أراد أن يردّ، ولكن نعيمة عدَت وغشيت السيَّارة. حمل كرة ثلجية ووضعها على وجنتها. ردَّت ضاحكة:

- Méchant !

ساق أمين السيَّارة بحذر، وسط الثلج المُتكوِّم على القارعة. كانت كاسحات الثلج تتحرَّك من الاتِّجاهَينْ لإزاحته، إلى أن تجاوزا منعرجات عقبة الزبيب .. تحوَّلت ندف الثلج إلى زخَّات قوية ... على مستوى منظر إيطو، طرح أمين سؤالاً قطع الصمت بينهما.

- والرجل الآخر؟

ظلَّ السؤال من غير ردٍّ.

عاد الصمت بينهما .. بعد لأيٍ قطعتْهُ نعيمة:

- هل ذلك مهمٌّ؟

- بالنسبة إلى الرجل الذي يحبُّكِ نعم ..

- وهل ما تزال تحبُّني؟

- تعرفين أنْ نعم.

- ولماذا لم تحدِّثْني أمس، ولم نمارس الحبَّ في الليل.

لم ينطقْ أمين بشيء.

- بسبب العازل؟ عقَّبت نعيمة.

أبلس أمين، ثمَّ برغم.

- كنتُ متعباً ..

- لم تكن متعباً، لأنكَ نمتَ الظهيرة. تعاتبني أني طلبتُ منكَ استعمال العازل. لن أطلبه منكَ مستقبلاً عزيزي .. اتَّفقنا.

ضغط على يدها. ردَّت:

- تريد أن أُحدِّثكَ عن الرجل الآخر.

- إن أردتِ؟

- الأمر أعقد من جان. جان شخصية ميتافيزيقية. شخص اقترن بحياتي لفترة ثمَّ تبدَّد .. الغربيون هكذا. حينما تنتهي العلاقة ينتهي كلُّ شيء ...

- والآخر؟

- ليس غربياً. دامت العلاقة لعشر سنوات، ولم ينته كلُّ شيء.

- تريان بعضكما البعض؟

- لا. ولكنكَ أنتَ مَن قدَّمه إليَّ.

- لم أفهم ... أعرفكِ لشهور معدودة، وتقولين إنكِ عرفتِهِ لعشر سنوات. فكيف أكون قدَّمتُهُ لكِ؟

- أعني أنكَ مَنْ لاقاني به مرَّة أخرى.

- لم أفهم شيئاً.

- تذكر لمَّا حضرنا حفل تأبين إستير. الرجل الذي كان مصحوباً بفتاة سوداء.

ضغط أمين على الحصار. كادت السيَّارة أن تنزلق وسط مطر مدرار ..

كان أمين قد دعا نعيمة لحضور حفل تأبين إستير، في بيت العوفير، واسترعى انتباهه رجل كهل واقفاً بعيداً ... مع ابنته بالتبنِّي. لم ينبس بشيء ... استمع لكلمات المتدخِّلين حتَّى إذا انتهوا من خطبهم، انفتل إلى مكان وضعت فيه صورة إستير. توقَّف هو وابنته للحظة. نزع قبَّعته، أشعل شموعاً .. تراجع لخطوات، ثمَّ أحنى رأسه في خشوع ... بقي في حالة تبتُّل، ثمَّ غادر مع بنته.

الرجل الذي ملأ عشر سنوات من حياة نعيمة، مَنْ أحبَّتْهُ وأحبَّها، هو الشخص الذي استثار اهتمام أمين في أثناء جنازة بنيس. هو مَنْ تولَّهت به إستير. هو الدارس لأغسطين. هو قارئ رجيس دوبري. هو أستاذ كريستين.

يستعيد أمين حكي نعيمة بعد ثلاث أشهر من بَوْحها، وقد ذهبت عنه جزئيات كثيرة. يسعى أن يجري ترتيباً على ما علِق بذهنه .. كانت نعيمة قد التقت بمَنْ كان أمين يسمِّيه بالضمير المستتر، بمناسبة حملة طبِّية بمنطقة الرشيدية. هيَّأ المنظِّمون زيارة لكثبان مرزوكة في الصحراء. وضعت نعيمة متاعها في غرفة بالنزل، ثمَّ ارتقت كثيب الرمل لتشهد الغروب. ألفت رجلا محتبياً يلبس لباس الصحراء، دراعية زرقاء، وشالاً أسود، حافي القدمَيْن، ويحدج الأُفق. لم تأبه له. إلى أن غارت الشمس. قامت نعيمة من مجلسها. فوجئت به يقول لها بالفرنسية: ابقي، سحر الصحراء يبدأ ليلاً. لم يكلِّمها بالعربية، رغم أن حجابها كان يحيل إلى هوية.

حسبتْهُ من أهل البلد لا يفقه الفرنسية. حكمتْ عليه بلباسه، كما حكم عليها جان بمظهرها. كانت أوَّل زيارة لها للصحراء. ولم تمانع أن تبقى، وأن تجد مُعيناً يكشف لها سِحْر الصحراء. لم يكلِّمها الرجل بعدها، كما لو أنه في طقس عبادة، إلى أن قال: «انظري للنجم القطبي. هو النجم الذي غيَّر مسيرة الإنسان في مسار طويل من وجوده. كان بوصلته. «ثمَّ لفَّ دراعيته، وانتعل خُفَّه، ومدَّ يده لشيء قربه تناوله. كان كتاباً، ثمَّ قال: حان أن نذهب. وتمشَّت نعيمة بمحاذاته، كما لو أنها تُدلُّ بسابق معرفة به. ونزلا الكثيب، دون أن ينطق بشيء. ألفيا جِمالاً باركة، وحاذياً يوردها. كلَّمه الرجل بالأمازيغية، وتجاذبا حديثاً لم تفقه منه نعيمة شيئاً، ولكنْ، ينبئ عن وثوق العلاقة بين الرجل والحاذي.

سألت نعيمة الرجل إن هو من البلدة، وردَّ أن أصوله من المنطقة، ولكنه يعيش في الرباط. سألتْهُ عن الكتاب الذي يحمله، وردَّ: «أناشيد مالدورور» للترويمان. ثمَّ أضاف: الشِّعْر ما يبقى في عالم فقد كلَّ سِحْر.» وقف أمام باب خيمته، ثمَّ استدار نحو نعيمة:

- أتريدين أن تغشَيْ المكان؟

لم تمانع. ودخلت خيمة. كانت مظلمة. قال الرجل:

- لحظة. أشيع الضياء.

نزع خُفَّه، ثمَّ تقدَّم بداخل الخيمة وسط الحُلْكَة، وهي على عتبتها. قدح عود الثقاب، ثمَّ أشعل شمعة. أخذها وأشعل بها شمعتَيْن. كانت الإنارة مخلّلة. ندَّ عنه:

- النور أخيراً. أتعرفين القائل؟

- كلَّا.

- جوته على فراش الموت. لا أدري ما يعني بمقولته. الحياة لغز، لكنْ،

هل هي ظلام؟ ربَّما، لكننا نستضيء بما نقدر، عقل وضمير وحُلم كذلك ... تفضَّلي.

كان يتكلَّم كراهب. أشاع في نعيمة الرهبة، بطقوسه، وحديثه.

دخلت نعيمة الخيمة وبقيت واقفة، في حيِّز بها فراش على الأرض، وبجانبه هيدورة. احتبى عليها الراهب، وأفسح لها كي تجلس على الفراش. اقتعدت بالفراش. فاجأها بالقول:

- هل يمكن أن تنزعي حذاءكِ؟ آسف، لا يمكن الدخول إلى هذا المكان بحذاء. ينبغي أخذي بعيوبي، وهي جمَّة.

قامت ونزعت حذاءها، وعادت حيث كانت جالسة. ثمَّ قالت وهي تداري حرجها:

- عفواً.

أجالت النظر في الخيمة، بنورها المخلّل بالشموع. كُتُب متناثرة. منها كتاب مفتوح على وجهه على السرير. سألت:

- هل يمكن أن أنظر إلى الكتاب؟

- طبعاً، ردَّ. ثمَّ أردف:

- يتس. ذهب عليَّ زمن لم ألتقِ به.

كان ديوان ييتس بالإنجليزية.

ثمَّ استرسل:

- عالم بلا سدى. ثورة في الأُفق. ترين كيف أن الشِّعْر يستكنه سرَّ العالم أكثر من لغة الأرقام، والبيانات، وثرثرة الحكي.

- هل أنتَ شاعر؟

- كلُّ شخص هو شاعر. يحمل كلٌّ منَّا القابلية للشِّعْر بالقوَّة. هل نحتاج

لقوالب، أو قواعد كي نكون شعراء؟ اللحظة التي كنّا ننظر فيها إلى مغيب الشمس لحظة شاعرية. صمتنا تبتُّلٌ شاعريٌّ. تأتي قوالب ثقافة وعبقرية لغة، بعدها، وجرس موسيقي .. لكنها دثار ..

- هل لذلك تحجُّ إلى الصحراء؟

- لذلك، ولأُحدِّث نفسي، وأسمع من قومي.

- أو يسمعون منكَ.

- ليس لي ما أقوله لهم. أحمل دثاراً ولكنهم المادَّة. كما ييتس.

- لا أعرف عنه.

- مأساة كبيرة هي مأساة الإيرلندي. أراد الإنجليزي أن يحجبه. كان يملك كلَّ شيء كي يطمره، القوَّة، الإيديولوجية، وفكّ ييتس الحصار بالشِّعْر.

- أليس ييتس إنجليزياً؟

- كلَّا. أداته اللغة الإنجليزية، لكن روحه إيرلندية.

- وأنتم؟

- لنبدأ بالحديث بكاف المخاطبة (le tutoiement). هكذا سيمكننا أن نزيح السُّجف. لا أدري مَن أكون. يجري فيَّ نُسْغ قومي، ولا أدري إن حافظتُ على روحه. أردِّد عليهم دوماً مقولة لجوريس: النهر يظلُّ وفياً للنبع حين يصبُّ في البحر. لكن معيننا غاض، أو يكاد. ينبغي أن نعود إلى مَعينه لننقعه.

- لستُ من عالمكَ. أنا محتجبة.

- ما معنى محتجبة؟ ينبغي أن أستفتي عينَيْكِ.

ثمَّ وقف أمامها، وأخذ يسرد عليها شِعْراً، لم تفقه معناه بالعربية. وكان من أنشودة المطر للسيَّاب.

أخذ أمين يردِّد الأبيات، كما ردَّدها في الطريق ما بين أزرو ومكناس، والمطر يهمو في أثناء بوح نعيمة، وحديثها عن الراهب أو الضمير المستتر:

عيناكِ غابتا نخيلِ ساعةَ السحَرْ،
أو شُرفتان راح ينأى عنهما القمر.
عيناك حين تبسمان تورق الكرومْ
مطر
مطر

استحضر أمين تأثير الأبيات والراهب يتلوها في خيمة موقدة بالشموع، ومُتبتِّلة تستمع في خشوع.

استلقى أمين على الفراش في شقَّته بزنقة ضاية الرومي يستحضر بوح نعيمة.

سألت نعيمة الراهب:

- تتلو شِعْراً عربياً وأنتَ لست عربياً.

- ليس للشِّعْر انتماء. الشِّعْر شِعْر، كما الغناء، فوق الانتماءات كلّها، يعبّر عمّا هو أثير في النفس البشرية، من فرح وأسى ودهشة وحبٍّ وألم. ينطبع بثقافة. الشِّعْر، كما المعاناة، كونية.

- هل تألم؟

- كما أنتِ.

- وكيف عرفتَ أني آلم؟

- الألم لا يَخفى. أو لا يخفى لمَنْ يُبصر.

- وكيف نُبصر؟

- بالقلب. المهمُّ في الحياة محجوب عن البصر، كما يقول سانت إيسكبري.

كانت بلا جهاز دفاع. كانت تترقَّب أن يُقدِم عليها، أن يحتضنها، أو يمسك يدها .. ثمَّ أخذت تنتظر أن يَقْربها. لم تكن لتمانع في شيء. بل كانت تريد أن تثلم رهبانيَّته، بإغراء الجسد. لم يتزحزح من مكانه. ساد الصمت بينهما. قطعتْهُ:

- هل تنظم الشِّعْر؟

- أحياناً. بلغة أمِّي.

- وما تقول في شِعْركَ؟

- لا شيء ذا بال. أنقل ما يتموَّج في نفسي، وما تقع عليه عيني. أستمع لحفيف الريح فيحدِّثني. ينبئني أن ماسينيسا لسوف يظهر، ويوغرثن لسوف يعود، ولسوف ترجع ديهيا.

- هل سيعودون؟

- لن يعودوا إن لم أنتظرهم. هم مثل الأطفال، مدلَّلون. بله، من العِلية. ينبغي أن أترقَّبهم، أن أهيِّئ لهم الوِطاء، أن أهشَّ بهم ...

- أين ستضعهم؟ المكان مشغول.

- أعرف. سؤال كبير. أمهليني كي أتفكَّر في الأمر. ألا تأتي كي نقعد حول النار الموقدة، ونستمع لغناء البلدة ... أم تريدين أن تذهبي لغرفتكِ أوَّلاً؟ أنتظركِ قرب النار الموقدة، سيِّدتي.

- آنسة.

- هذا أحسن. آنسة. لسوف تكون لنا أشياء نُحدِّث عنها .. أحسن، سيِّدتي، عفواً آنسة ..

انسحبت نعيمة إلى غرفتها في النزل. استلقت على الفراش. فراش وثير غير لحاف على الأرض، هو فراش الراهب. كانت متحرِّقة أن تلتحق به. هو الرجل الوحيد الذي لم ينخدع بحجابها، ولم يرَ فيه حجاباً. نهضت بعدها والتحقت بنار موقدة، حولها شاب ينقر على قيثارة تيدني، وآخرون يردِّدون أشعاراً بين العربية والأمازيغية ومقاطع بلسان البامبرة. ألفت الراهبَ وهو يستمع لنقر تيدني في خشوع، ثمَّ للحظة استلقى على ظهره يرقب النجوم ... لم يكلِّمها ولم تكلِّمه. انفضَّ الشباب، وطلب الراهب في عشاء، وكان قدح حساء من الشعير والتمر .. رفع عينَيْه نحوها عقب العشاء، ثمَّ قال:

- أمضيتُ وقتاً ممتعاً معكِ. لسوف أنسحب. لديَّ عوائدي، أنام باكراً، ثمَّ إن ييتس ينتظرني.

ثمَّ انفتل في هدوء إلى خيمته. بقيت نعيمة قرب النار الموقدة إلى أن خبت. كانت كما امرأة مهجورة. خيَّمت عليها الكآبة ولم تدر علَّتها. كما لو أن رجلاً ألهب رغبة امرأة وتركها لحالها. لم يكن الراهب يجيب عن الأسئلة المحرجة. أتملُّصاً؟ أدهاءً؟ أم تقيَّةً؟ وأخيراً قامت من مكانها، وقصدت غرفتها، ولبست بيجامتها، واستلقت على السرير، وتركت نوراً خافتاً. تُرى أيأتي الراهب؟ أيفاجئها بأن يحلَّ عندها؟ كانت تتوق لذلك، كي تعرف عنه، وتستكشف نفاذه إلى سرِّها. هل تنسلُّ من غرفتها وتلتحق به في خيمته؟ كيف لها ذلك وهي ترتدي الحجاب؟ وماذا لو وقف عليها شخص وهي تغشى خيمة الراهب؟ العسس منبثُّون في الأرجاء، ومن الزوَّار مَنْ يسهرون الليل. المحتجبة اختلت برجل. غشيت عليه خيمته ليلاً. ويسري الخبر في المعسكر، ووسط الفريق الطبِّي، وينتهي إلى مستشفى ابن رشد. الطاهرة ليست طاهرة. ولم تنم ليلتها، ونهضت بعد لأيٍ من فراشها، وارتدت ملابسها، ووضعت حجابها، ثمَّ انسلَّت في الليل إلى كثيب، وجلست على الرمل ترقب الشفق .. يا لها من فكرة خرقاء أن تلتقيَ

بالرجل؟ ينبغي طيّ الصفحة .. غداً سترحل. تأخذ الطائرة من الرشيدية إلى الدار البيضاء. كانت تجربة القافلة الطبِّية مفيدة وممتعة. اكتشفت سِحْر الصحراء، ووقفت على شظف ساكنتها، وبلسمت بعضاً من ضُرِّها. ستعود لمرضاها في مستشفى ابن رشد، وإلى حياتها. ولكنها حياة من غير روح. ليس لها رجل في حياتها. منذ جان. كان يمكن أن تقترن به. ولمَ لا في نهاية المطاف؟ لماذا تحمل سرَّها إلى الأبد؟ لمَ تحيط نفسها بحجاب؟ وقرَّرت أن تنزع الحجاب. أضحى حاجزاً .. لكنه لم يكن مع الراهب .. لا تعرف اسمه، ولم تجد سوى لقب الراهب. يحسن بها أن تنسى الرجل.

فاجأها صوت:

- آسف على التأخير ...

أدارت رأسها، وألفت الراهب بعباءته الزرقاء .. جلس بجانبها ولم ينبس. ولم تكن تفكِّر في شيء سوى الرجل والصمت يملأ المكان. الدُّجْنَة مُطبِقة. وفجأة ابتدرها:

- قبل انبلاج الفجر، يعتكر الليل. ما أجمله درساً من الطبيعة. هو ما يسمِّيه العرب بالفجر الصادق يأتي بعد الفجر الكاذب.

كان بادي المعرفة بالعرب، ثقافتهم ولغتهم وتاريخهم.

سألتْهُ:

- وأين نحن؟

- في الدُّجْنَة.

- وهل فجر صادق في الأُفق؟

- لمَنْ يُحسِن الانتظار.

ثمَّ انبلج شعاع في الأُفق. غار لبرهة. لفَّهما الصمت. انقشع شعاع من

الشمس، ثمَّ أخذت ترتفع في الأُفق، كما امرأة تبدي مفاتنها في خفر، ثمَّ ما تلبث أن تنزع عنها عذارها هازئة بكلِّ شيء. تحوَّل لون الأفق من حمرة قانية إلى كتلة مشعَّة الحمرة، كما كتلة من لهب. إثرها قام الراهب، وقال في هدوء:

- مُدِّي إليَّ يدكِ.

وأمسك يدها وهي تقوم من كثيب الرمل. ثمَّ أطلقها. تمشَّيا جنباً لجنب. مرَّا قرب الإبل وهي تجترُّ. إلى أن وصلا مفترق الطُّرُق. سبيل يفضي إلى النزل، وآخر للخيام. هل سترافقه إلى خيمته، أم تعتذر له كي تقصد غرفتها؟ وبدَّد هواجسها من غير حرج:

- تعالي.

كانت كَمَنْ هو تحت تنويم مغناطسي. تخلَّفت لخطوة، ومشت على أثره، ثمَّ دخلت خيمته. نزع خُفَّه، وفعلت الشيء ذاته. على طاولة قدح مغطًّى بمنديل. أخذ القدح ومدَّه إليها:

- لبن النوق. تفضَّلي.

أمسكت القدح وارتشفت منه. عافتْه. كانت أوَّل مرَّة تشرب لبن النوق.

- حسبُكِ. يمكن أن يصيبكِ بالإسهال إن كنتِ تتناوليه أوَّل مرَّة.

أخذ عنها القدح وعبَّ منه.

لفت انتباهها كُتُب قرب السرير. لم تطَّلع إلَّا على عنوان كتاب مفتوح على بطنه «حياة المسيح» لإرنست رينان.

وضع الراهب القدح بعد أن أتى عليه، ثمَّ أخذ يُنشد أبياتاً لألفريد دوموسيه (بالفرنسية):

لا شيء يسمو بنا كما الألم،

لا تحسبنَّ أيُّها الشاعر، أن صوتكَ الخافت حيث أنتَ في الدُّنا، أصمّ
أصوات الأسى هي الأصوات الجميلة
وأعرف الخالدة منها، وهي لَعَمْري نشيج.

ثمَّ تقدَّم نحوها، وضمَّها إليه. خمَّنت للحظة أن تصدَّه، كي تثأر منه، وتبعثر أحبولته، ولكنها كانت بلا جهاز دفاع. كانت كَمَنْ هو أمام قوَّة عسكرية تعرف أسرارها. أيّ مقاومة، ولو صورية، عبث. شعرت بدفء لم تعهده. كانت لغة الصمت تنيب عن الكلام. ثمَّ أحسَّت بشفتَيْه تنطبعان على شفتَيْها. كانت كما لو هي أوَّل مرَّة يلمسها رجل. تكلَّست شفتاها. ثمَّ شعرت بأنامله تزيح الحجاب في رفق، ثمَّ تنسلُّ إلى خصلات شَعْرها. استرجعت بعض الثقة، وقبَّلتْهُ بحرارة. ثمَّ أخذ ينزع لبساها في تؤدة. أليس ذلك ثأرها، أن تغوي الراهب المتنسِّك؟ كان النور ينسلُّ من سترتي الخيمة. لم يُعر الراهب بالاً للخيمة إذ لم يوثق سجفها. كانت الفتاة عارية، وهو ما يزال في عباءته. استدرجها إلى لحاف لشخص واحد، وهو يجيل نظره في جسمها كما يجيل نحَّات النظر في منحوت اكتمل. استلقت على ظهرها دون أن تبديَ حراكاً. كان كَمَنْ ينظر إلى عمل فنِّي. لم تكن الرغبة هي ما يحرِّكه. كان شيئاً آخر.

نزع عباءته، فملابسه، سوى التُّبَّان، وأسدل إزاراً على نعيمة، وانسلَّ في الغطاء. ضمَّها إليه. أحسَّت بقضيبه المنتصب. هل سيتماسك؟ كانت تريده أن يضاجعها، لا لأن الرغبة تحرِّكها، بل شيئاً آخر لم تقف عليه. أن تغويَه، وتكشف سرَّه، وتميط حجابه. الحجاب ليس قطعة قماش. يتستَّر الراهب بحجاب غير مرئي. ألصق وجهه بوجهها، وقال لها في هدوء:

- شكراً أن أتيتِ في الموعد. كنتُ أنتظركِ ..

لم تُعقِّب. ثمَّ ساد الصمت بينهما. لم يكن يقطعه إلَّا دبيب الحياة تنبعث في المعسكر. خُطى بعض المنتجعين وقد هبُّوا من النوم. أطيط الإبل ..

عاودها في رفق:

- هل أنتِ مستعدَّة لمغامرة؟

استجمعت مُسكة من ثقة فقالت:

- الكلُّ رهين بما ستقدّمه.

- لا أدري ما سأقدِّمه. مغامرة نسلكها سوياً، هي مَنْ يحملنا، لا نحن مَنْ نحملها. كهؤلاء البدو الذين وقفت عليهم. كما كانوا يفعلون في سالف العصور، يضربون الفيافي .. قد يجدون النعجة، وقد تُطوِّح بهم العواصف.

- أما تعرض عليَّ غير العواصف؟

- لا أدري ما تخبِّئه الرحلة. أقدِّر أنها لن تخلو من عواصف. ثمَّ انبرى ينشد بيتاً بالعربية.

لم تفهم معناه. سألتْهُ أن يشرحه ..

أشعل أمين سيجارة، وهو يترنَّم البيت الذي يدعو فيه الراهب نعيمة للمغامرة:

وأيَّا ما شئتِ يا طُرُقي فكوني   أذاة، أم نجاة، أو هلاكا

كان البيت للمتنبِّي، وكان الراهب مسكوناً بالمتنبِّي.

نزع «الراهب» تُبَّانه، ثمَّ اعتلى نعيمة، وأخذ يقبِّلها. قبَّلها على شفتَيْها، ثمَّ على جبهتها، ثمَّ نزل إلى حَلَمَتَي نهدَيْها، وأجال يده بين فخذَيْها. كانت مهيَّأة. ولجها. شعرت بالألم، كما لو هو يفتضُّ بكارتها. منذ أن افترقت من جان لم تمارس الحبَّ ... كان جسد الراهب يعتلي في رفق، وفي تؤدة. لم يكن شبقاً وإنما حبّاً. كان رغبةً مع جان. رغبة لا تخلو من شبق، وكان شيئاً آخر مع الراهب. شيئاً لم تعهده .. إلى أن التهبت، وعضَّت على شفتَيْها كي لا يبدر صراخها. وفجأة انفجرت باكية .. انبعث منها الفواق،

وارتجَّ جسدها .. أخذت ترتجف وهي تُطوِّقه. ما الذي اجترحتْهُ؟ علاقة جنسية مع شخص التقت به لأوَّل مرَّة، وتعرفه بالكاد. استدرجها بسِحْره، أو لغزه؟ أهانت إلى هذا الحَدِّ؟ رجل في مثل سنِّه لا يمكن إلَّا أن يكون متزوِّجاً، وأباً، أو مرتبطاً بعلاقة. أأضحت خليلة؟ مغامرة لن تأمن تبعاتها. انتابها الندم. لم تجرؤ أن تنظر إلى الرجل.

نهض أمين من فراشه. تمشَّى حتَّى الصالون. لم تحمله قدماه. قعد على الكنبة. أشعل سيجارة. أحسَّ بالدوار، ثمَّ ما لبث أن أطفأ العقب. الرجل الذي طبع حياة نعيمة لعشر سنوات، هو مَن بثَّ فيها رُفْقة الكُتُب وطَرْح الأسئلة. هو مَنْ علَّمها عشق الصحراء. تحمل ميسمه، كما ورقة كاربون. هو مَنْ فتح لإستير سِحْر الأندلس. هو مَنْ أرشد كريستين لاستكشاف الحقيقة. هو صديق بنيس.

يستعيد أمين بوح نعيمة عن الرجل الذي انسلَّ إلى حياته في ملابسات غريبة.

«معه عرفتُ أوجه الحياة. عرفتُ الشِّعْر، ليس في خطوط مبهمة على الورق، ولا في أصوات نشاز، ولكنْ في الحياة. في دروب المدينة القديمة، في حركات الناس، في مناظر الطبيعة، لأن الحياة كما الطبيعة شاعرة. عرفتُ معه أن أستشفَّ ما يتستَّر عنه الناس، كي أنفذ إلى جوهرهم، من خلال عدم التسرُّع في الحكم، والسعي للفهم .. عرفتُ معه حياة الناس في الجبل والصحراء، وعرفتُ أوجه الصحراء، في مرزوكة، وفي محاميد الغزلان، وفي الكثيب الأبيض بالداخلة. كان مهووساً بالصحراء، لأنها المكان الذي يُحدِّث النَّفْس، وكان يُحسِن استكناه صمتها، ويردِّد دوماً حكمة سانت إكزيبيري، «في الصحراء بئر يختبئ في مكان ما»، و«الجلي لا يظهر بالعين وإنما بالقلب يُبصر». وكان أصدقاؤه الكُتُب، لأنها ما يعينه

على الفهم ... وكان مسكوناً بالسعي للفهم، لأن الحقيقة معقّدة، ولأن كلَّ فريق يمسك بطرف منها ... لم تكن الحقيقة نبعاً يستقي منه الناس، ولكنْ سراباً يحرِّكهم ... لأنها لا توجد، ولكن الظمآن يسعى إليها ... لم يكن في جانب، ولكنْ في الجوانب كلّها. كان الحداثيون يعتبرونه منهم، لأنه كان يقول بضرورة امتلاك سدى الحداثة، واستخلاص قواعدها تلك التي انتسجت مع الأنوار. قرأ أساطين فلسفة الأنوار، ويتحدَّث عنهم كما يتحدَّث عن أصدقاء، ويتساءل لمَ لن تفرز الثقافة العربية حَمَلَة أنوار، كما حملها وضع شبيه لوضعهم، من هيمنة الكنيسة، واستبداد الملوك، وغلبة التقاليد؟ وما يلبث الحداثيون أن يغضبوا منه، لأنه يقول بأن للإسلاميِّيْن شرعية، وإنهم يطرحون الأسئلة الوجيهة .. ويَقربه الإسلاميون، لأنهم يحسبون أنه صدى لهم، وما يلبث أن يخيب ظنُّهم حين ينزع عن التراث كلَّ قداسة. كان يردِّد أنْ ينبغي خطف الشعلة حيث انقدحت من جبل أولمب الغرب .. كان يقرُّ بمأساة الفلسطينيِّيْن والظلم الذي حاق بهم، وكان يُقرُّ بالظلم الذي تعرَّض له اليهود. حينما يجري الإنسان وراء الحقيقة، يعدم الصديق ... قال لي مرَّة. كان في دائرة الفهم وليس الحُكْم.»

لماذا تحوَّلت نعيمة من الراهب إليه؟ تساءل أمين. هل ودَّت استنساخه؟ أو العودة بالراهب إلى الشباب؟ هل أرادت التحرُّر من صولته؟ أو وصايته. لا يعرف أمين وجه الحقيقة. نهض من مكانه وفتح النافذة. يعود إليه حكيها وهما يقطعان السيَّارة في وادي بهت:

- كنتُ لا أرى حياتي إلاَّ معه ... ولكنه رجل فكر، ويسكنه الفكر، والحياة لديه منظومة فكرية. والحياة لا يمكن أن تُختزَل في منظومة فكرية ... كان لي الحقُّ في الحياة، ولا يمكن أن أختزلها في وهج أفكار ... كان شيء مسيحي فيه، ولم تكن روحي مسيحية. وهل يعيش الإنسان بالأفكار وحدها؟.. الرهبان وحدهم مَنْ يستطيعون العيش في دائرة الأفكار ..

توقّفا بباحة الاستراحة على مدخل مدينة الخميسات .. كان المطر يهطل بغزارة .. انفتلت نعيمة مسرعة إلى داخل البناية .. بقي أمين تحت سقف مشارفها كي يدخِّن .. دخَّن سيجارته ودخل المطعم. ألفى نعيمة جالسة تُقلِّب في هاتفها ... جلس بمقربتها ... وقف عليهما النادل. قدَّم لهما الخوان. استدار أمين نحو نعيمة .. ردَّت برأسها من غير كلمة مبدية عدم الاعتراض عمَّا يختاره أمين. طلب أمين مشاوي وبرَّاد شاي، مع صلاطة مغربية، وخبز تافنروت .. أحضر النادل كسيرة خبز ساخنة خرجت للتوِّ من الفرن، مع زيت الزيتون .. قضمت نعيمة من الكسيرة. استحسنت الخبز، ثمَّ غمست منه في صحن زيت الزيتون .. ازدادت لغزاً في بوحها.

- كان أن نكتفي بالخبز والزيت .. قالت نعيمة.

- ينبغي أن نأكل شيئاً .. الساعة الواحدة ... ردَّ أمين.

- لو لم يكن الجوُّ مُمطِراً لكنَّا توقَّفنا في ضاية الرومي، عقَّبت نعيمة. ثمَّ أردفت: المكان جميل. رائع.

- غريب، ردَّ أمين، أسكن برنقة ضاية الرومي، ولا أعرف المكان.

- هي أماكن عرفتُها معه.

غمس أمين الخبز في الزيت، ورأسه منحنٍ وقال وهو يداري الحرج:

- حدِّثيني عن علاقته بإستير؟

تنهَّدت نعيمة، ثمَّ نطقت:

- هو مَنْ قتلها.

أغمض أمين عينَيْه، كَمَنْ يسعى أن يتبيَّن المفارقة أن يكون الشخص المشبع بالروح المسيحية قاتلاً. فاجأه بوح نعيمة. فتح عينَيْه، وأصاخ لحكيها .

- عرفتُ إستير من خلاله. كان قد حدَّثني، عَرَضاً، مرَّة، وأبديتُ الاهتمام

.. كان يحدِّثني عن أسفاره معها، من دون أن يبدر منِّي تعليق .... كانت تخنقه بأسئلتها، وتُثقله بعطفها. كانت تحبُّه .... ومرَّة رافقتْهُ إلى زاكورة. كانت تبحث عن آثار ما يُعرَف بمملكة درعة اليهودية. ضاق ذرعاً حين سألتْهُ في محاميد الغزلان بعرق اليهودي عن المرأة التي في حياته والتي لا يريد أن يكشف عنها. نهرها ... لم تتوقَّع أن يجابهها بغلظة .. كان هادئاً في طبعه، وراعها غضبه .. جفاها.. طلبتُ منه أن يبرّ بها ..كانت وحيدة، وجريحة .. كانت تحتاج إلى مَن يأخذ بيدها، وكان هو مَن يأخذ بيدها، لكنها كانت تريد أكثر، وهو ما لم يقدر أن يمدَّها به .. كنتُ ألح عليه وألحف ألَّا يُعرض عنها مهما بدر منها .. أوعزت إليه أن يقترح عليها الاشتغال سوياً حول عمل مشترك. أيّ شيء، لا يهمُّ .. اتَّفقا بعد أن تجري عملية في باريس .. أجرت عملية قسطرة، وكانت ناجحة .. وكان أوَّل شخص أخبرتْهُ به هو.

وضع النادل المشاوي .. ضاعت روائحها مستثيرة الشهية ..

- تفضَّلي، قال أمين.

- أنتظر الشاي ..

حلَّ النادل ببرَّاد شاي. أفرغ لها أمين كأساً ولنفسه .. ارتشفت منه. استحسنتْهُ .. لفَّت يدَيْها حول الكأس حتَّى دفئتا، ثمَّ شرعت في الأكل .. رغم الجوع لم يُقبل أمين على الأكل، واكتفى بقطعة كفتة، وأخرى من لحم عظام الصدر. كان متحرِّقاً أن يعرف التتمَّة. سأل أمين نعيمة:

- كيف أن يكون قاتلها؟

- هو مَنْ قتلها. نطقت نعيمة في هدوء.

- لا أفهم. ردَّد أمين.

- تسبَّب في موتها .. عن غير قصد، لكن النتيجة واحدة. ماتت بسببه .. أوغر صدرها حين أغلظ لها في القول معها في زاكورة، ولمَّا أن أبدى الجفاء.

منذ ذلك الحين بدأت محنتها الصحِّية. ثمَّ ذهبت للاستشفاء في باريس، من أجل عملية بسيطة. وكان أوَّل شخص بعثت له رسالة بعد العملية، هو. لم يكن يُحسن استعمال الهواتف الذكية، وعن خطأ محا رسائل هاتفه، ومنها رسالة إستير ... لم تتلقَّ ردّاً ... توقَّع أن تبعث له رسالة ثانية .. ثمَّ أضحى يتحدَّث عنها يومياً .. ويراها في المنام .. كان يتحرَّق للُقياها .. لزمتُه حينها، وكانت الفترة التي نأيتُ فيها عنكَ. لا أستطيع أن أقول إنه كان يحبُّها. المرأة التي أحَبَّ هي أنا .. ولكنها كانت ضرورية لوجوده .. كانت بوصلته. كان قد وجد فيها ندّاً ينازله في مساجلاته الذهنية ... يوم بلغنا خبر وفاتها في شقَّتكَ، بعثتُ له برسالة واتساب. «إستير لم تعد منَّا» Esther n'st plus .. كنتُ أعرف ما تمثِّله بالنسبة إليه .. حين افترقتُ عنكَ، ذهبتُ عنده بالرباط كي أعزِّيَهُ .. ولم يكن يصدِّق أن تكون ماتت، ولا كان يقبل أن تكون غابت .. لا شيء يرمز لغيابها. لا مأتماً، ولا جنازة، ولا قبراً .. غياب ميتافيزقي .. كانت ولم تعد .. ومنذ ذلك الحين كفَّ أن يحيا. أو أضحى جسداً من غير روح .. لم يعد يربطه بالحياة إلَّا بنته بالتبنِّي ..

كان أمين يصيخ السمع عن ملابسات حياة هذا الشخص الذي اقترن بحياته، في علاقته بإستير، في علاقته بنعيمة، في علاقته ببنيس، في علاقة بكريستين .. من دون أن يُحدِّثه. لم يكن يتوقَّع أن يغيِّر حياته. وكان ذلك فصلاً لم يتبيَّن أمين معالمه بعد ..

أدَّى أمين الحساب، وأخذت نعيمة المقود في اتِّجاه الرباط .. أوصلتْهُ أمام شقَّته بزنقة ضاية الرومي. عرض عليها أن تدخل. اعتذرت لأنها ستستقبل أمَّها عند الغد، وتستعدُّ لأخذ إجازة والسفر إلى باريس.

- منذ حادثة سير بنيس لم أتوقف، قالت.

قبَّلتْ، بشكل عادي، أميناً على الوجنتَيْن، وركبت سيَّارتها في اتِّجاه الدار البيضاء.

5

خرج أمين أخيراً من شقَّته. لم يبرحها لأكثر من أسبوعَيْن. وكان بّا بوشعيب هو مَنْ يتبضَّع، ويشترى له الدواء. ألفى أمين بّا بوشعيب ببَوَّابة العمارة، مشعلاً الراديو. استغرب بّا بوشعيب لرؤية أمين.

- بّا أمين. فين بالسلامة؟

- نفوّج شوية.

- شوف، الرجل توصل فيه للعظم وما يقولش أح. تخطَى الراس، وتجي فين بات (بغات).

- كاينة.

- ربي يفرّج. لا قنط تحت رحمة مولانا. الدنيا بدّالة، واليوم لك، وغدا عليك.

لم يُعقِّب أمين. سعى بّا بوشعيب مدَّ أسباب الحديث معه:

- ما تحسنش هاذ اللحية أبا أمين؟

- وعلاش؟

- اللحية والبينو، ما جاتش. إلَّا سولني لمقدم ما نعرف ما نقول لو .

- قل لُه ضربُه الصرع.

- يموت عدوك. حسّن اللحية ولها مدبر حكيم.

- ف اش ضارّة اللحية؟

- دير ما دارو الناس، وعيط يا قطاع الراس.

- وعلاش نديرو ما دارو الناس؟

- شوف، أبا أمين، دير الما فين يدوز. ما عاجبني ش. حال الدنيا بحال الميزان، مرَّة طالع مرَّة هابط.

- ما بقوا صروف الميزان.

- الله يدّينا في الضوء. نسيت ما قلت لك، جا مول الكرا، كيسال شهرين. أش نقول له؟

- نخمم ونقول لك.

ثمَّ انفتل أمين يمشي وئيداً على رصيف زنقة ضاية الرومي. كان الجوُّ ربيعياً. خفَّ البرد وأخذ الدفء يسري في الأسبوع الأوَّل من شهر أبريل. على مستوى التقاطع لفَّ يميناً بشارع بين الويدان، ثمَّ شِمالاً على مستوى المقطع، في اتِّجاه شارع عقبة ابن نافع (كذا)، ما كان يسمَّى ديجون. جاوز السفارة الفرنسية، وسار حتَّى مستوى حديقة التجارب. تمشَّى بمدخلها. نزل درجها. ثمَّ اتَّخذ مجلساً بمقعد بها. بعض التلاميذ والطَّلَبَة ممَّنْ يذاكرون يملؤون الحديقة. كان أمين ضاوي الجسم بسبب المرض، وقلَّة الحركة، وسوء التغذية، واضطراب النوم ... تذكَّر ما قاله له بّا بو شعيب بشأن الإيجار. لا يمكنه أن يبقى في الشقَّة إلَّا لشهرَيْن إضافيَّيْن مع أداء مستحقَّات الشهرَيْن السابقَيْن. مستحيل بعدها. يحسن به أن يغادر الشقَّة إذن. شعُر بقشعريرة مع الأصيل. عاد بخطى ثقيلة في اتِّجاه شقَّته. توقَّف بالسوبر ماركت هيبير. اشترى الخبز وقطعة من اللحم المجفَّف المعروف بالكاشير، ثمَّ عاد أدراجه ... كان بّا بو شعيب في مجلسه المعتاد على كرسي ملصقاً أُذُنه بالراديو يستمع لبرنامج .. سأله أمين أيَّ شيء يسترعي

انتباهه. مدَّ له بّابوشعيب الراديو. أخذ أمين يُنصت. كان برنامجاً من إذاعة خاصَّة، تذيع بالدارجة، وكان البرنامج عن أشخاص يرغبون في الزواج. كان الرجال يرغبون في الزواج بأجنبيات، وكانت الفتيات يرغبنَ في «ولد الحلال»، ويغرينهم بأن لهنَّ أملاكاً، وما «خاصهم خير»، إلَّا الاقتران بولد الحلال. كان هناك اختلال في العرض والطلب. الشباب يحلمون بأجنبية من أجل أن يعْبروا للضفَّة الأخرى. سأل أمين بّا بو شعيب لمَ يستمع للبرنامج. ردَّ هذا الأخير:

- يجيب الله شي كاورية (أوربية).

- وعلاش عليك أبا بوشعيب.

- وقهرني الزمان ..

لم يكن أمين في مزاج كي يتجاذب أطراف الحديث مع بّا بوشعيب.

- قل لمول الكرا، غادي نخوي (أغادر).

أغلق بّا بوشعيب المذياع ثمَّ قال مستغرباً:

- أش كتقول؟ امراتك تجي عندك ما شي انت اللي تمشي عندها. المراة اللي تتبع الرجل، ماشي الرجل اللي يتبع المراة.

لم يعقِّب أمين. غشي شقَّته. وضع ما تبضَّع في المطبخ من دون أن يُدخِله في الثلَّاجة. ثمَّ قصد غرفته، وفتح الصوان، وأخرج ظرفاً مغلقاً، كان الظرفَ الذي ائتمنتْهُ عليه إستير. قرأ الدفتر الذي به، ولم يعد ينتظر إذنها مذ رحلت، أو كان إذنها الرحيل. كانت تشعر بنهايتها. قرأ أمين يوميَّاتها التي تمتدُّ لثلاث سنوات حول علاقتها بالضمير المستتر، وأحاديثها معه، وأسفارها برُفْقته، في مراكش، وبكلميم، وبإفني، وبمير اللفت، وبأكادير، وبالعرائش، وبتطوان، وبطنجة ... بل بزاكورة، ومحاميد الغزلان. كان الأسى يطبع أسلوبها بعد محطَّة محاميد الغزلان، وما كان تنضح به يوميَّاتها بأصيلا

وقد رافقتُه في عطلة الصيف، وهو يقرأ ديوان المتنبِّي، وأخيراً بإفران حينما كان يعكف على كتابة مقال عن أغسطين ....

فتح أمين الدفتر في صفحة كان ثنى جزأها العلوي. كان الخطُّ جميلاً يُذكِّر بخطِّ الضمير المستتر. أخذ يقرأ بعينَيْه.

«... أعرف أن له امرأة في حياته. ولم يكن مقترناً بها، ذلك أنني حللتُ ببيته مرَّتَيْن أو ثلاثاً، ولم تكن به امرأة، سوى بنت له بالتبنِّي، من بلد البنين.

كنتُ أظنُّ بادئ الأمر أنه يمكن أن أتعايش مع الوضع، ذلك أنني لم أكن متأكِّدة من أني متعلِّقة به. ضربٌ من الجنون. ثمَّ تبيَّنتُ أني لا أقوى على فراقه ... يدرك شعوري نحوه .. يدرك أني أُحبُّه، ولم يكن يُبين عن شيء ... وهل نكتفي بحياة عالمة، وأحاديث لا تنتهي عن الأنتروبولوجيا، والتاريخ، والصراع العربي الإسرائيلي؟ تعبتُ من ذلك. أريد الحياة ... رجل أخرج للعشاء معه إلى مطعم، أو نمشي سويّاً في الكورنيش. أن نستمع لبعضنا البعض. يُحدِّثني عن نفسه، وأُحدِّثه عنها ... وأكتفي برُفْقته، ووجوده. لمَ يبقى بارداً في دائرة التأدُّب؟ يعرف أن ما يهمُّني منه ليس معرفته، ولكنْ ما يمكن لرجل أن يمنحه لامرأة، أو ما تمنحه امرأة لرجل ... يعرف أني أُحبُّه ... ولمْ أتستَّر عن ذلك لمَّا أن سافرنا لمراكش لندوة .. نزلنا فندق أسنى ... كنَّا نمضي النهار كلّه مجتمعَيْن ولا نفترق إلَّا ليذهب كلٌّ منَّا لغرفته في الفندق ... نتناول الفطور كلانا، ثمَّ نخلص للحديث في حديقة الفندق. نخوض في الحديث إلى أن تدهمنا أشعَّة الشمس الحارقة، فننثني إلى بهو الفندق، أو نمشي في شوارع مراكش، أو نركب العربة أو الكوتشي ... وقد نقصد أصدقاءه، أو نحلّ بجامع الفنا ... هي المناسبة التي اكتشفتُ فيها مراكش، ووقفتُ على سِحْرها. ولم يكن سِحْرُها ما يراه السائح العابر، ولكن السِّحْر الثاوي الذي لا يظهر للعيان ... في المدينة القديمة، في اللقاءات التي تنتظم به، في

ثقافتها المضمرة من حيوات الناس البسطاء ... لن أنسى ليلة حضرنا فيها أُمسيَّة للملحون، وأخرى للموسيقى الأندلسية، وأخرى حفل النزاهة وما يتخلَّله من مرح وطرب .. كانت أشياء مستغلقة عليَّ، ولكني كنتُ أشعر بسِحْرِها، وأشعر بإثرها على أصحابها ... كانت مراكش متحفاً مفتوحاً، وكان هو ... مَنْ فتحها لي ... ومَنْ فتح قلبي ... أدركتُ حينها أني أُحبُّه، ولعلَّه أدرك ذلك وإن لم يُعبِّر عن شيء ... كنتُ أحببتُ منه ثقافته الواسعة، وتحليله الثاقب، وحسَّه النقدي ... كان يغلب عليَّ إحساس غامض أنه بعد ذهاب الفرنسيِّيْن، ورحيلنا نحن اليهود، ستذوي الثقافة الكونية من المغرب ... سيخضع البلد لنوع من التسطيح الذي فرضتْهُ الحركة الوطنية والخطاب القومي، ثمَّ بعده الحركة الإسلامية ... ولكني فوجئتُ بقوَّة صمود الرؤية الحداثية résilience .. كانت الأندلس تعيش في المغرب ... كما اكتشفتُها معه في مراكش، وفي فاس، وطنجة، وتطوان والشاون والعرائش ... كانت تسكن حيوات الناس وتطبع سلوكهم ... كنتُ مسرورة أني اكتشفتُ ذلك، ومسرورة أني اكتشفتُهُ من خلال شخص حرَّك شغاف قلبي ... لامرأة لم تركن لنداء القلب ... لأنها كانت تؤمن بقضية ... لامرأة خضعت للتجنيد الاحتياطي في سيناء، وكانت في الصفوف الأمامية للمعركة الإيديولوجية ... لامرأة ركبت المغامرات العاطفية كَمَنْ يملأ الفراغ في أثناء قاعة الانتظار، أبرزها مع مامادو، أسفرت عن ولادة هارون. وكانت مغامرات من غير حبٍّ. لأن ليس للحبِّ مكان لمَنْ يؤمن بقضية. بقضية وجودية. دوام دولة إسرائيل. وكانت الحياة تمرُّ من دون أن أمسك بهذا الحبل الوثيق منها، وهو الحبُّ ... وداعبني الإحساس أني لسوف أجده حيث خلَّفتُهُ ورائي، في البلد الذي وُلدتُ به ... ووجدتُهُ، ووجدتُهُ في رجل يمكن أن يفهم عنِّي هواجسي، لأن له مرجعية فكرية حديثة ... لم يكن في دائرة القولبة الإيديولوجية.

أعرف أنه غنوصي. يتحدَّث عن الإسلام بتحرُّر، وعن اليهودية بمعرفة، وعن المسيحية بعطف ... وجدتُ فيه عمقاً مسيحياً من طبقات مطمورة

من طبقات تاريخ الأمازيغ ... حافظ على قوّة الحكي كما تفعل الجَدّات في ثقافة الأمازيغ، حين يحكينَ القصص ويتركنَ خيالهنَّ يسرح.

كنتُ أعرف أن الرسيس الذي يقوم عليه بناؤه هو الأمازيغية. ولم تكن ميراثاً، ولكنْ بناء.

وجدتُ ضروباً من التماثل بيني وبينه، أو بيننا وبين الأمازيغ. لعنة عدم الاعتراف. مثلما وجدتُ صور الاختلاف. هم في أرضهم لم يبرحوها، ونحن عشنا الشتات ...

هو مَنْ كنتُ أبحث عنه. وكان مثلي يشكو لعنة عدم الاعتراف. لم يكن في دائرة التخندق في اتِّجاه، وإن كان يعرف الاتِّجاهات الفكرية والسياسية بالمغرب، ويعرف أصحابها، وكان أصحابها ما يلبثون أن ينفروا منه، لأنه ما ينفكُّ أن يرسم مسافة معهم، ويُبقي على نظرته النقدية. عرضتُ عليه أن يزور إسرائيل. لم تكن إسرائيل فقط وطنَ اليهود، ولكنْ وطن مَنْ أزرى بهم العالم العربي. ورفض العرض. واستغربتُ كيف لشخص مثله أن يرفضه .. ومرَّة حضرتُ لقاء له مع طَلَبَة فرنسيِّيْن حول النزاع العربي الإسرائيلي ... فوجئتُ وهو ينسف مقوِّمات الصهيونية، من تهافت دعوة أرض بلا شعب، وتناقض توجُّه علماني مع مرجعية دينية ... ثمَّ قال قولاً آلمني: إسرائيل دولة أبارتيد. لم أكن أتوقَّع ذلك منه ... ممَّنْ هو غنوصي، مَنْ ليس قومياً ولا إسلامياً .. اعتقدتُ أن ذلك من مخلَّفات القولبة الإيديولوجية ... تغاضيتُ عن ذلك وقد وجدتُ الروح الأخت ...

صحبتُهُ في تنقُّلاته بربوع المغرب .. أضحيتُ جزءاً منه، وأضحى جزءاً منِّي ... لا أتوقَّع حياتي في المغرب من دونه ... لم يكن تهمُّني حياته الموازية، أو على الأصحِّ وضعتُ عليها حجاباً. وحدث ما لم أكن أتوقَّع، وهو أني أردتُهُ لي وحدي، وأخذت الغَيرَة تسري فيَّ .. لم أعد أطيق أن تتحلَّق به نساء، ولا أن يحدِّثهنَّ ... أغار من رفيقته، ولم أكن التقيتُ بها ... عبثت بي الغَيرَة. وهل هناك حبٌّ من دون غَيْرَة؟ وفي سنِّي؟ شعُر بذلك. بأسئلتي الملحَّة، بحبِّ الاطِّلاع، بتضايقي .... أعترف أني جزتُ

الخطّ الذي تتيحه الصداقة ... ولكن الأمور كانت تتجاوزني ... أُحبُّه. ولم يكن للعقل أن يضبط علاقتي به .. كنتُ أقطن بالدار البيضاء وأتيتُ الرباط لأكون قريبة منه .. سنتان من الهُيَام البعيد، والشوق، والعذاب ... ومن دون هاتَيْن السنتَيْن لم أكن أنفذ لسِحْر المغرب وسرِّه ...».

توقَّف أمين عن القراءة. لم يكن الضمير المستتر مَن قتلها، بل هو مَن أحياها. هو مَن بعث فيها حبَّ الحياة. كانت نعيمة مشتطّة في الحكم.

أشعل أمين فرن الغاز .. وأخذ يمزِّق أوراق الدفتر واحدة واحدة، ويلفحها بلهيب الموقد. بقي يفعل لعشر دقائق، حتَّى لم يبقَ من الدفتر إلَّا غلافه، وألقى به في المزبلة .... لم تأتِ النار على بقايا من الورق .. أخذها، وقرأ بحروف لاتينية unes de Mhamid, par une nuit étoi... كانت الجملة الأصلية Dunes de Mhamid par une nuit étoilée (كثبان المحاميد في ليلة مقمرة) ...

كان أمين ينظر إلى أسماء تلك الأماكن التي حافظت على بقايا التراث اليهودي ممَّا كان يسمَّى بمملكة درعة وهي تحترق: بني يفرح، واد حقي، بني زولي، عرق اليهودي.

أمسك أمين بقطعة ورق صغيرة، لم تأتِ عليها النيران، وألقى بها في المزبلة.

فتح باب الشقَّة، ونادى على بّا بوشعيب. انتهى إليه ردّه:

- أش احب الخاطر أبن سيدي؟

- أجي عافاك.

حل با بوشعيب وغشي المطبخ ... راع بّا بوشعيب منظر الأوراق المحترقة، والرماد على طاولة المطبخ، وعلامات الدخان .. ندَّ منه الاستنكار:

- ما لك عليها؟

- حرقت كناش ..

- وكنت تعطيها لي نبيعو لمول الزريعة، يجيب الله بالقليل درهم. وحتّى هو فلوس..

- نعطيك مئة درهم. سيّق لي الكوزينة (نظف المطبخ)، وارم الرماد في الزبل ..

توقَّف بّا بوشعيب، ثمَّ تصفَّح أمين مستغرباً:

- والله أبن سيدي ما بقيت نفهمك. من اش بغيب تزوّج باختك، وانت مفاقم ...

- ماشي اختي.

- عارف. ما بغيتش تدير حسنة، ويثبت لك الأجر. كنت نتزوّج بها أنا، وها أنت مهني.

- دغيا (بسرعة) أبا بوشعيب..

- الله يردك بك.

أسلم أمين مئة درهم لبا بوشعيب، وغشي غرفته وانغمر في سريره ... لم يكن له من خيار. كان عليه أن يَبرَّ بوصية إستير. لو طاوع نفسه لأبقى الدفتر ... كان عليه لربمّا أن يعطيه لبا بوشعيب كي يبيعه لـ «مول الزريعة»، وقد يقع الدفتر على يد تدرك فحواه. شهادة عن فترة حاسمة من امرأة متميِّزة عن شخصية متفرِّدة في زمن مضطرب. كانت آخر جملة في الدفتر:

- «أنتَ تعرف كلَّ شيء يا أمين، والآن أطلب منكَ أن تحرق الدفتر.»

لم يكن له حيِّز للاجتهاد.

أشعل من هاتفه الذكي أُغنيَّة أمِّ كلثوم، «صعبان علي جفاك، بعد اللي شفتو من حبّك». أوقد سيجارة وهو يستمع لتأوُّهات أمِّ كلثوم.

والآن ينبغي أن ينسى ما يعرف، ردَّد مع نفسه.

6

استعاد أمين بعضاً من عافيته. كان ممدَّاً على الفراش في ساعة متأخِّرة من الليل. لم يستطع النوم، ولم يستطيع أن يسترسل في قراءة كتاب رسائل هافيلي. ليس الكتاب إلَّا صدى صوت صاحبه. لمَ لا يورد رسائل التلَّة، أو جاره الذي يقيم في التلَّة، والذي كان بها لآلاف السنين؟ مَن أقام الحائط العازل؟ ومَن أطلق رواية هي الغالبة؟ وكيف تُسوِّل له نفسه أن يقلب الوضع، فيجعل الضحية جلَّاداً، ويُحمِّله مسؤولية رفض اليد الممدودة ويجعله من ينسف كلَّ محاولة للسلام؟ وكيف يحكم جزافاً بإرادة الإبادة بناء على رسوم أطفال؟ يحكم بالظنِّ وما تهوى الأنفس. ترك أمين الكتاب جانباً. أشعل سيجارة. ثمَّ أغمض عينَيْه. سفَّ دخان السيجارة في حُرْقة ... نفث دخانها. شعر بالدوار. ثمَّ ما لبث أن سحق عقبها ولمَّا يأت عليها. وضع ذراعَيْه وراء عنقه، وأخذ يُحدِّق في السقف. شعر بقشعريرة. تكاسل أن ينغمر وسط الفراش، أو ينهض إلى الصوان لأخذ معطف ..

كلُّ ما له بداية فله نهاية ... يتذكَّر أمين حين حلَّ بمستشفى ابن رشد بحثاً عن نعيمة، بعد شهرَيْن من غيابها. كان لا يني يناديها بالهاتف، ويكاتبها بالإميل ... من دون ردٍّ. الطبيب المتمرِّن مَن أطلعه باقتضاب دون أن يشير لاسمها: «لم تعد معنا».«وأين يمكن أن تكون؟» سأل أمين. «لا أدري»، ردَّ الفتى في برودة، ثمَّ أتمَّ المسير في دهليز المستشفى من دون أن يُلقي نظرة على أمين .. غادر أمين المستشفى لا يلوي على شيء.

فاجأتْهُ كبيرة الممرِّضين في الساحة. استدارت كما لو كانت تتحسَّس ما حواليها، ثمَّ همست له: «الدكتورة بلحاج قدَّمت استقالتها».

أضحى أمين مثل الكلبة لمَّا يُؤخَذ عنها جِراؤها، تعدو، ذاهلة، ذات اليمين وذات الشِّمَال ... وتوقَّع الأسوأ. هل حاق بها مكروه؟ ما الذي حدث لها في علاقته بها؟ كانت العلاقة طبيعية، وزادت بأن باحت نعيمة عن أشياء خاصَّة، ولا يبوح شخص لشخص إلَّا إن كان قريباً منه، أو حينما يزدادان قرباً ..

كان أمين بمطعم الوزاني يقرأ الجرائد ويحتسي الشاي بعد أسبوع من حلوله بمستشفى ابن رشد حين سمع رنَّة على الواتساب. اسم نعيمة، ورسالة مقتضبة: أمين، أُقبِّلكَ. مودَّتي. افتح بريدك الإلكتروني.

هرع بسرعة إلى بيته. فتح حاسوبه الصغير. أخطأ في رَقْم المفتاح السرِّي .. أعاد وضع المفتاح. انفتح البريد. تبيَّن رسالة بحروف غليظة لبريد لم يُقرَأ بعد، من اسم غريب بحروف لاتينية، راشيل ..

شهرٌ تقريباً مذ قرأ أمين الإيميل الذي قلب حياته رأساً على عقب.

أشعل أمين سيجارة. ثمَّ ما لبث أن أطفأها. تحوَّل إلى الحمَّام. نظر إلى لحيته الكثَّة. آن الأوان أن يحلقها. أخذ يشذِّبها بالمقصِّ. بلَّلها ووضع فيها الرغوة. وجد العنت في حلقها ... رطَّب جِلْده بعطر ما بعد الحلاقة. عاد إلى غرفته. أشعل لاب توب، لم يخطئ هذه المرَّة في رَقْم المفتاح السرِّي. تحوَّل إلى بريده الإلكتروني. إلى تاريخ 10 مارس 2019. يعيد قراءة الرسالة. في هدوء وثبات. ليس كما قرأها أوَّل مرَّة وقد تزلزلت الدنيا حينها من تحت قدمَيْه.

«عزيزي أمين ..

لا أشكُّ في حبِّكَ لي، ولا أريد أن تشكَّ في حبِّي لكَ .. كنتَ الزهرة

التي انبثقت من حياتي، وكانت أجملَها بلا مراء .. يمكنكَ أن تُدرك ما يعنيه أن ينأى الإنسان عن أجمل ما لديه، وأن ينفصل عمَّا صاغ حياته، وأن يقطع عمَّا ألفه .. ينبغي أن أقول لكَ إنني لن أعود .. وفي هذا القرار أقطع الصلة بكلِّ ما ارتبطتُ به في حياتي. بلدي، أسرتي، عملي، عالمي، وأنتَ جزء من هذا العالم. ولو بقيتُ بهذا العالم الذي كنتُ أعيش فيه بحجاب، لم أكن إلَّا أن أكون معكَ، ولكني انفصلتُ عنه ..لأشياء يمكن أن تدركها منذ أن بُحتُ لكَ بسرِّي .. فعلتُ كي تفهم .. ولم أكن لأفعل لولا أني قرَّرتُ أن أعانق حياة جديدة. فعلتُ كي يخفَّ أثر الصدمة عليكَ، حتَّى لا ترى في الأمر نزوة .. لم أعد نعيمة، ولكنْ راشيل. هو اسمي الجديد، وهو اسم يحيل على هوية جديدة كانت مُطمرة، وعلى خيار جديد، كنتُ أغالبه، وأتستَّر عنه بارتداء حجاب. نضوتُ الحجاب .. هناك أشياء لسوف تعلمها، ويحسن أن تعلمها منِّي .. أنا مع رجل آخر، التقيتُ به معكَ .. هو هارون، ولد إستير .. أعرف أنكَ ستثور. الأمر شاقٌّ. أعرف، ولكنْ يُستحسن أن تعلمه منِّي على أن يُخبركَ آخر. التقيتُ به في أثناء تأبين إستير الذي كنتَ دعوتَني إليه. وقدَّم لي بطاقته .. تراسلْنا. وأدركتُ كم كان متعلِّقاً بأمِّه .. كنتُ قد قلتَ عنها إنها امرأة استثنائية، وهو ما كنتُ استشففتُ من حديث «الراهب» عنها .. كنتُ أودُّ أن أعرف عن هذه المرأة التي استطاعت أن تجمع بينكَ وبين «الراهب»، وبيني، بعد وفاتها، من خلال ابنها. لم يُقدَّر لي أن ألتقيَ بها .. سارت الأمور بشكل غير متوقَّع .. بعثتُ برسالة لهارون، وعرض عليَّ أن نتعارف .. كان يريد أن يرتبط بشيء يذكِّر بأمِّه، والتربة التي وُلدَت بها. تردَّدتُ طويلاً .. ثمَّ قبلتُ دعوته، وأخبرتُهُ بقصَّتي باقتضاب. ألحَّ أن أزوره في تولوز ... كنتُ أشعر أني لو أذهب فلن أعود، وكنت في حقيقة الأمر مهيَّأة للمغادرة .. كنتُ أعرف الثمن الذي يقتضيه منِّي ذلك، أن أفترق عن أهلي، وأقدِّر الصدمة التي سيصاب بها والدي خاصَّة ... ثمَّ أنتَ ... ولم أكن مقتنعة أني لسوف أنضو الحجاب

معكَ. سأظلُّ أعيش بهوية مستترة .. أعرف ثقافتكَ، وسعة صدركَ، وذهنكَ المتفتح، لكنني لم أكن في دائرة الماكرو، أو القضايا الكبرى. كنتُ في دائرة قضية شخصية هي التوزُّع الذي تلظَّيتُ به، ممَّا حال دون أن تكون لي حياة طبيعية. عشتُ، ولا تأخذ الأمر مأخذاً سلبياً، مع الهامشيِّيْن، فرنسي، وراهب الصحراء. كانا مثلكَ متميِّزَيْن، ولكنني لم أطبِّع مع الحياة، وظللتُ أتسترَّ عنها بالحجاب الذي كنتُ أرتديه ..

أبدأ حياة جديدة مع هارون. قرَّرنا الاقتران، وقرَّرنا العيش بإسرائيل ..

فاتحتُ عمران شتريت لمَّا أن كنَّا في ضريح ربي بوحصيرة، وشجَّعني. وفي باريس كلَّمتُ خالي دافيد، كي يسهِّل لي أمر الاستقرار .. كان على علم بما كان يتوزَّعني، لأن عمران شتريت أخبره بالأمر. وفعلاً وجد لي دافيد عملاً في حيفا. هارون يفكُّ ارتباطاته من تولوز كي يستقرَّ في إسرائيل. قلتُ له إنني لن أغادر المغرب كي أعيش بفرنسا. اللعبة لا تستحقُّ الشمعدان، كما يقال في المثَل ..

سأكون سعيدة أن أستقبلكَ في حيفا، ريثما أستقرّ .. لا ترتبطْ بالأوهام يا أمين .. أو حتَّى إن أبقيتَ عليها، فلن يمنعكَ ذلك أن تزور مَنْ أحببتَ ومَنْ أحبَّتْكَ. حدَّثتُ هارون عنكَ، طبعاً .. من غريب المصادفات أنني سأتسمَّى السيِّدة كوهن .. راشيل كوهن .. هذا هو اسمي الجديد ..

راشيل مَنْ ستذكركَ دوماً وتُقبِّلكَ بحرارة.»

بقي أمين مسمَّراً أمام الحاسوب .. عاودتْهُ صور العازل الذي من دونه كانت ستُبَعثَر خطط نعيمة. لو حبلت منه لقُضي الأمر.

أغلق حاسوبه ... نهض من الفراش. قصد الصالون. فتح النافذة. كان الظلام دامساً.

7

شاحنة صغيرة كانت تربض أمام عمارة 42 بزنقة ضاية الرومي، والحارس بّا بوشعيب ينقل إليها بعض الأكياس من شقَّة أمين ... متاع قليل حُمل إلى الشاحنة ... الفراش وأريكة مع أكياس الكُتُب ... كان قد أعطى أدوات المطبخ والثلّاجة والتلفاز لبا بوشعيب ... أنهى بّا بوشعيب رُفْقة سائق الشاحنة شحن المتاع ... أضحت الشقَّة فارغة كأن لم تُغنِ بالأمس، سوى حقيبة ملابس هي ما استبقى أمين معه .أشعل أمين سيجارة وجال في الشقَّة الصغيرة. كان الباب موارباً. نقر بّا بوشعيب على الباب ثمَّ نطق:

- مول الهوندا قال لك ما عرفش فين جا باب جديد.

- قل لو باب الجياف، ردَّ أمين.

خرج با بو شعيب وهو يردّد «باب الجياف، باب الجياف.»

أشعل أمين سيجارة أخرى. ما لبث أن عاد بّا بوشعيب.

- مول الهوندا بغى حلاوتو.

- خلصتو ..

- بغى القهوة ...

أخرج أمين ورقة مئة درهم وأعطاها لبّا بوشعيب ... استلمها منه وهو يبرغم:

- نزكيّ (أتثبت) معك ... يمشي كود (مباشرة) لفاس، لباب الجديد.

- باب الجياف.

- خيار. باب الجياف. ويسوّل في الحاجة لحلو.. ياك؟

- لا. الدار دار الحاجة لحلو. يسوّل في المعطي مول الحانوت ف درب الزهر، حدا جامع الحمرا. راه اعطيتو رقم التلفون ديالو ... ودابا عيّط لي على تاكسي.

- صافي تهنا ... المعطي مول الحانوت، درب الزهر، حدا جامع الحمرا، تاكسي.

خرج وهو يردِّد: المعطي مول الحانوت، درب الزهر، حدا جامع الحمرا، تاكسي، المعطي مول الحانوت، درب الزهر، حدا جامع الحمرا، تاكسي ... .

حمل أمين شمعة كان قد تركها جانباً. خرج من شقَّته. ارتقى الدرج إلى الطابق الأوّل. وقف أمام شقَّة إستير. أغمض عينَيْه. تنهَّد. ثمَّ أشعل الشمعة. أثبتها أمام باب شقَّة إستير. عاد القهقرى. بقي نظره مصوَّباً على الشمعة وهي تذوب. ربمَّا كان للأمور أن تأخذ منحى آخر لو أن أميناً لم يحترم وصية إستير وقرأ الدفتر لمَّا أسلمته له ... ربمَّا كان أداة في مصالحة إستير والضمير المستتر. لم يكن الضمير المستتر يقدِّر أن تذهب إستير من غير رجعة، ولم يكن أمين يتوقَّع أن ترحل نعيمة، أو راحيل. يشترك والضمير المستتر في اللعنة ذاتها. نسي بنيس. هو كذلك يحمل اللعنة ذاتها.

أخرج نداء بّابوشعيب أميناً من وجومه .

- فينك أبن سيدي؟ التاكسي راه قدَّام العمارة.

- اطلعْ، نادى أمين.

توقَّف بّا بوشعيب ... ثمَّ دلف في يسر بقرب أمين وهو يبرغم.

- الله يرحمها روح. أسعداتك أفاعل الخير.

- لمَّا الشمعة تطفى اغسل الموضع، قال أمين. ثمَّ نزلا الدرج. كانت تاكسي تنتظر أميناً أمام العمارة.

مرحلة انتهت من حياة أمين كانت شقَّة في الطابق الأرضي من عمارة 42، بزنقة ضاية الرومي، حي أكدال، مسرحاً لها. لم تكن رواية، وإنما قصَّة حقيقية، انعكست في حياة أمين، في تبادل أدوار بينه وبين الضمير المستتر.

كان دفء الربيع يسري. الحياة عادية .. ضوضاء السيَّارات. عابرون يذرعون جنبات الشارع. تلاميذ يحملون محفظاتهم وقد خرجوا للتوِّ من إعدادية البخاري القريبة .. تستمرُّ الحياة ..

نظر أمين إلى الساعة. الثانية عشرة إلَّا ربعاً .. أخرج تذكرة القطار، وتأكَّد من ساعة المغادرة: الثانية عشرة وعشرون دقيقة.

دخل أمين الشقَّة وحمل الحقيبة مع محفظة صغيرة بها حاسوبه ... ثمَّ أخرج ورقة 200 درهماً وأعطاها لبّا بوشعيب ..

- عافاك أبّا بوشعيب شطب الدار وسيّقها (نظفها بالماء).

- تهنا (اطمئنّ) أبّا أمين ..

وضع أمين الحقيبة في سقف التاكسي، ثمَّ أسلم مفاتيح الشقَّة لبّا بوشعيب ... ندَّ عن هذا الأخير:

- الله يعرض لك الخير، وما ديرش ف خاطرك ..

- بارك الله أبّا بوشعيب..

- فوقاش عندك المَشينة (القطار) باش إلَّا سولني المقدم ...

- دابا..

- وشحال غادي تبقى ف فاس، محسوب إلَّا سولني ..

- ذاك الشي اللي كتب الله.

- واش غادي تدير ف فاس؟ سبحان الله. كيبغيو يعرفو كلّ شي.

- اللي دار الله.

- لا إله إلّا الله. اللي في الدنيا يبقى فيها.

سلَّم أمين على بّا بوشعيب، ونظر إليه مبتسماً .. كان بّا بوشعيب يداري دمعة ...

- ما تبكش أبّا بوشعيب ..

- الفراق صعيب.. ولّفتك أبن خويا.. يامس دّا مول الأمانة النصرانية، واليوم أنت تمشي .. الدوام لله .. الله يحد الباس.

لم يعد مجدياً تصحيح لازمة بّا بوشعيب عن نصرانية إستير. أوصد أمين باب التاكسي. أشار بيده على بّا بوشعيب وكان يمسح دمعه. سأل السائق أميناً وجهته ...

- محطَّة القطار بأكدال، ردَّ أمين.

كانت المحطَّة على بعد خمس دقائق مشياً، من طريق مختصر. فضَّل أمين أن يأخذ تاكسي بسبب حقيبته. كان صوت القرآن يصدح من مسجِّلة التاكسي وهي تنسرب في أزقَّة حيٍّ أكدال نحو محطَّة القطار ... حلَّت بذهن أمين ذكرى والده لمَّا كان يتلو معه القرآن صغيراً. بقي مغمضاً عينَيْه. فاجأه السائق.

- وصلنا.

فاجأت أمين لبرهة يستمع للآية:

«ونُرِيْدُ أنْ نمُنَّ عَلَى الَّذِيْنَ اِسْتُضْعِفُوْا فِي الأَرْضِ، ونَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً، ونَجْعَلَهُم الوَارِثِيْنَ ..».

تملاّها لبُرهة، ثم دفع أمين لسائق التاكسي المستحقّ، مع إبقاء الصرف. حمل حقيبته، ثمَّ توجَّه إلى بهو المحطَّة.

الرباط، السبت 25 رمضان 1442 / 8 ماي 2021

تبدو مدينة الدار البيضاء، ذات صيف، عادية بصخبها وزحامها وقيظها. يذرع أمين الكوهن، فتى ذو توجُّه يساري من براعم حركة «٢٠ فبراير»، شوارعها في اتِّجاه مقرِّ الجريدة ذات التوجُّه الإسلامي التي يشتغل بها. ما يلبث السرد أن يهتزَّ من خلال قصَّة بنيس، شخصية مُسنَّة وعلى اطِّلاع، حيث أُصيب بحادثة سير، أفقدتْهُ الذاكرة، ودفعتْهُ إلى اختلاط الأزمنة. بنيس كان شاهداً على التحوُّلات الكبرى التي جرت على العالم العربي، بأحلامه وجراحه واهتزازاته. وهنا مُعبِّراً عن حالة فقدان الذاكرة وتداخل الأزمنة التي مسَّت العالم العربي. في غمرة انشغال أمين، الموتشو - وهو اللقب الذي أطلقه عليه بنيس - بالحادثة التي أصابت صديقه العجوز، تستغني الجريدة عنه. كانت دخلت مرحلة التسويات والواقعية. ولا يبقى للموتشو إلَّا أن يُكبَّ على الجسد الواهن للمريض، ويسعى أن يُرتِّب هذيانه. يتعرَّف في غمرة تردُّده إلى مستشفى ابن رُشد على طبيبة بنيس، المحجَّبة، نعيمة بلحاج. تتطوَّر العلاقة في ملابسات متشعِّبة بين إقدام وإحجام. ترمي مصادفات الحياة بالموتشو في علاقة صداقة مع إستير، جارته الموزَّعة بين جذورها المغربية [illegible] الإسرائيلية.

تتطوَّر خيوط الحكي في حركة [illegible] من خلالها حسن أوريد أمام مرافعة أدبية لمِا يعتري العالم العربي وما يتوزَّعه، وعلاقته بالآخر، منذ الفترة المؤسِّسة، مع حُلم الوحدة وما رافقها من انكسار، إلى الربيع العربي، فالأصولية، حتَّى موجة التطبيع.

في هذه الرواية يُنجز حسن أوريد عملاً أدبياً وفكرياً في الآن ذاته.

ISBN 979-12-80738-70-7

9 791280 738707

المتوسط